أوكتاڤيا بَتلر

# مَثَل الزّارع

مرايا | منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة

ترجمة: إيمان أسعد



# مَثَل الزّارع

أوكتاڤيا بَتلر






# مَثَل الزّارع

رواية

ترجمة

إيمان أسعد



الكاتب: **أوكتافيا بَتلر**

عنوان الكتاب: **مَثَل الزّارع**

ترجمة: **إيمان أسعد**

العنوان باللغة الأصلية: **Parable of the Sower**

الكاتب: **Octavia E. Butler**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-89-2

الطبعة الأولى - أغسطس/ آب - 2021

2000 نسخة



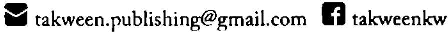
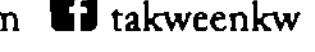
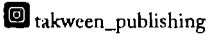



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

 takween.publishing@gmail.com
 takweenkw
 takween_publishing
 TakweenPH
 www.takweenkw.com

## ٢٠٢٤

**الأعجوبـةُ -في جوهرها- تكيُّفٌ وعـزمٌ وهاجسٌ إيجابيّ. دونما عزم فالبقيّة حماسُ اللحظة. دونما تكيّف فالبقية لربمـا سـتنحو نحـو التعصّـب المُهلـك. دونمـا هاجسٍ إيجابـي فليس ثمـة بقية، ليس ثمة شـيء على الإطلاق.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

بقلم: لورِن أويا أولامينا

# ١

**كلُّ شيءٍ تلمسه**

**تُغيّره.**

**كلُّ شيءٍ تُغيّره**

**يُغيّرك.**

**وحده التغيير**

**الحقيقة الباقية.**

**الرّبُّ إلهُنا**

**هو التغيير.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

السبت، ٢٠ يوليو ٢٠٢٤

راودَني حلمي المتكررُ ليلة البارحة. أظن كان عليَّ توقُّع مجيئه، فهو يأتيني حين أصارعُ، حين أتلوَّى في حبائل الشَّرك الواقعة فيه،

أحاول جاهدةً الادعاء أنَّ لا شيء غيرَ طبيعيّ يحدث. يأتيني كلما حاولتُ أن أكون ابنة أبي.

اليوم عيد ميلادنا، ميلادي الخامس عشر وميلاد أبي الخامس والخمسون. غدًا سأحاول إرضاءه، هو والمجتمع والرب. وهكذا، ليلة البارحة، حلمتُ بتذكيرٍ أنَّ كل هذا ليس سوى كذبة. أظنني في حاجة إلى كتابة الحلم، لأنَّ هذه الكذبة بالذات أشدُّ ما يزعجني.

* * *

أتعلم الطيران، أرفعُ نفسي في الهواء، لا أحد يعلمني، أنا وحدي أعلمني، شيئًا فشيئًا، درسًا رؤيويًّا تلوَ درسٍ رؤيويّ، ليست بالصورة الجليّة، بيدَ أنها مُلحَّة؛ كنت حظيت بالعديد من الدروس، وبتُّ أفضَلُ في الطيران من ذي قبل، أثق الآن في قدراتي أكثر، لكني ما زلت خائفة، لا يمكنني بعدُ إحكام السيطرة على اتجاهاتي.

أميلُ أمامًا نحو المدخل؛ يماثل المدخل بين غرفتي والرواق، والمسافة تبدو لي طويلة، لكني أميل نحوه، أستمسك بجسدي المتيبسِ مشدود الأعصاب، وأتخلَّى عن الشيء القابضة عليه، أيًّا يكن ذاك الشيء الذي ما ينفكَّ يحولُ بيني وبين الصعود أو السقوط حتى الآن، وأميلُ نحو الهواء، أمطُّ جسدي عاليًا نحو الهواء، لا أتحرك للأعلى، لكنني أيضًا لا أقع، ثم أبدأ فعلًا بالتحرك، وكأني أنزلقُ على الهواء أطفو أعلى الأرض بأقدام عدة، عالقةً بين الذعر والبهجة.

أطفو نحو المدخل، ضوءٌ باردٌ شاحب يتوهّج منه، فأنزلقُ قليلا نحو اليمين، وأنزلقُ أكثر، أراني سأفوّتُ الباب وأصطدم بالجدار

جانبه، لكنْ ليس في يدي التوقفُ ولا الاستدارة، أطفو بعيدًا عن الباب، بعيدًا عن الوهج الباردِ ونحو ضوءٍ آخر.

الجدارُ أمامي يحترق، النارُ انبثقتْ فجأة ونهشت الجدار، النار تمتد، تشقُّ طريقها نحوي، النار تندلع، أطفو نحوها، لهيبُها المستعر يحاوطني، مذعورةً أتخبّطُ وأتدافع محاولةً السباحة خارجها، أقبضُ ملء يديَّ من الهواء، من النار؛ ساقاي ترفسان، كلي يحترق! الظلمة.

لربما أستيقظ قليلًا، هذا ما يحدثُ متى ما ابتلعتْني النار، وإنه لأمرٌ سيء متى ما حدث؛ فمتى ما استيقظت كليّةً، سأعجز عن العودة إلى النوم. أحاول، لكني لم أنجح قط في العودة.

لكني هذه المرة لا أستيقظ كليّةً، أغفو نحو الجزء الثاني من الحلم، الجزءِ العاديّ والواقعي، الجزءِ الذي وقع فعلًا قبل أعوام حينما كنتُ بعدُ طفلةً صغيرة، رغم أنه حينذاك لم يبْدُ على هذا القدر من الأهمية.

الظلمة،

الظلمة ساطعةٌ،

نجومٌ،

نجومٌ تُلقي ضوءها الباردَ، الشاحبَ، البرَّاق.



«ما كنا لنرَى كل هذه النجوم حين كنتُ طفلةً صغيرة» قالت زوجة أبي، تتحدثُ معي بالإسبانية، لغتها الأم؛ تقفُ في مكانها ثابتةً

ضئيلة، ترفعُ ناظرَيها نحو درب التبّانة الرحب، هي وأنا خرجنا بعد حلول الليل حتى نرفعَ الغسيل عن الحبال، فاليوم كان حارًا، كما المعتاد، وكلتانا يروقُ لها نسيمُ الظلمة أولَ الليل. لا قمرَ أعلانا، لكنْ بيدِنا الرؤية بوضوح، فالسماء مرصعةٌ بالنجوم البرّاقة.

في الجوار، يلوحُ سور الحيّ ضخمًا ثقيلًا، أراه حيوانًا رابضًا، يتحيّنُ الانقضاض في أيةِ لحظة، تهديدًا أكثرَ منه حمايةً. لكنّ زوجةَ أبي هنا، وهي ليست خائفة، أظلّ قريبةً منها، أنا في السابعة من عمري.

أرفعُ عينيَّ نحو النجوم، نحو السماء العميقة الحالكة. «ولماذا كنتِ لا ترين النجوم؟» أسألها، «فالكلُّ له أن يراها». أنا أيضًا أتكلمُ الإسبانية كما علّمَتني؛ شيءٌ من الحميمية بيننا.

«أضواء المدينة..» أجابتني، «الأضواء، الازدهار، النمو، كلُّ تلك الأشياء التي ما عدْنا نكترث بها إما لأننا في حرٍّ شديد أو فقرٍ شديد» تتوقّفُ برهةً.. «حين كنتُ في عمرك، أخبرتْني أمي أن النجومَ -تلك القليلةُ التي كان بوسعِنا رؤيتها- إنما نوافذُ الجنة، نوافذُ يتطلّع منها الربُّ كي يُبقي عينه علينا، ولقرابةِ العام صدّقتُها».

تناولُني زوجةُ أبي ملء ذراعيَّ من حفاضات أخي الأصغر، آخذُها، أعودُ مشيًا نحو البيت حيث تركت سلةَ الغسيل الكبيرة، سلةَ قش، وكوّمتُ الحفاضات أعلى بقية الملابس. السلةُ ملأى، ألتفتُ، أرَى أنَّ زوجةَ أبي لا تُراقبني، فأترك نفسي أهوي خلفًا على الكومة الناعمة من الملابس النظيفة الناشفة؛ وللحظةٍ، يبدو الوقوع أشبه بالطيران.

أستلقي هناك، عيناي تتطلعانِ نحو النجوم، أميز بعض الأبراج وأسمّي النجومَ التي تكوّنها، تعلمتُها من كتابٍ فلكيّ يعودُ إلى والدة أبي.

ألمح وميض شهابٍ مضيء يخترقُ وهجه السماءَ غربًا، أحدّق وراءه، آملةً رؤية شهابٍ آخر، لكنّ زوجةَ أبي تناديني فأعود إليها.

«هناك أضواءُ مدينة الآن» أقول لها «ولا تخبّئ النجوم».

تهزُّ رأسها، «ليس بقدرِ ما كان في وقتنا، ولا حتّى من قريب، أطفالُ اليوم لا فكرةَ لديهم كيف كانت المدنُ وهجًا ساطعًا من الأضواء، حتى أنه لم يمضِ على غيابها زمنٌ طويل».

«أؤثرُ النجومَ عليها» أقول لها.

«النجومُ مجانيّة» تهزُّ كتفَيها «عن نفسي أؤثرُ عودةَ أضواء المدينة، عاجلا لا آجلًا، لكنْ على الأقلّ، النجومُ نحتملُ تكلفتَها».

# ٢

## النّعمةُ الإلهية
## قد تسفع الأصابعَ غير المستعدة.

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

الأحد، ٢١ يوليو ٢٠٢٤

قبل نحْو ثلاثةِ أعوام، إلهُ أبي ما عاد إلهي، كنيستُه ما عادتْ كنيستي، ومع ذلك، فاليوم -ولأني جبانة- أدعُ نفسي تُكرَّس إلى تلك الكنيسة، أدَعُ أبي يعمّدني بالأسماء الثلاثةِ لذاك الإله الذي ما عاد إلهي.

لإلهي اسمٌ آخر.

نهضْنا باكرًا هذا الصباح، إذ تحتَّم علينا قطع كلّ الطريقِ عبْر البلدة نحو الكنيسة. معظمُ الآحاد، يقيمُ أبي القداس في غرفة المعيشة؛ أبي قسٌّ معْمداني، ورغم أن ليس كلّ من يعيشُ داخلَ أسوار

حيّنا معمداني، إلّا أن مَن يشعر منهم بحاجة الذهاب إلى الكنيسة سيسعد بالقدوم إلينا، فهكذا لن يضطرَّ إلى المخاطرة بخروجه خلْف السور حيث الأوضاعُ بالغةُ الخطورة وجنونية، إذ يكفينا سوءًا اضطرار بعض الناس -منهم أبي- إلى الذهاب خارجًا للعمل مرةً في الأسبوع. لم يعد أحدٌ منا يذهب إلى المدرسة، فذهاب الأطفال خارجًا يوتّر أعصابَ البالغين.

لكن اليومَ يومٌ استثنائي، فقد أعدَّ أبي الترتيبات مع قسٍّ آخر - صديقٍ لأبي ما يزال يملك مبنى كنيسةٍ حقيقيّ مع بيت معموديةٍ حقيقيّ.

فيما مضى، كانت لأبي كنيسة لا تبعدُ أكثر من شوارع عدة خارج سورنا، شيّدها قبل أن تُشيَّدَ كل تلك الأسوار العديدة. لكن بعد أن باتت منامًا للمشردين وعرضةً للناهبين ومقصدًا أكثرَ من مرة للمخرّبين، صبَّ أحدُهم البنزين فيها وحوْلَها وأشعل النيران فيها. سبعةٌ من المشرّدين النائمين داخلها في ليلتها الأخيرة احترقوا معها.

لكن، بطريقةٍ ما، تمكَّن صديقُ أبي الكاهنُ روبنسون من الحفاظ على كنيستهِ من الدمار. ذاك الصباح قدْنا دراجاتنا الهوائية إليها، أنا، اثنان من إخوتي، وأربعة آخرون من أبناء حيّنا كانوا سيُعمَّدون يومها. رافقنا أبي وبعض البالغين من أبناء الحي مدجّجين بالبنادق الرشاشة. كلُّ البالغين مسلحون، فهذه هي القاعدة: أُخرجْ في جماعة، جماعةٍ مسلحة.

البديلُ الآخر كان أن أُعمَّد في حوض الاستحمام في البيت. كان

خيارًا أرخصَ وأكثر أمانًا وما كنتُ لأمانع، وأخبرتهم بذلك، لكن لا أحدَ اكترث لي؛ بالنسبة إلى البالغين، فالخروج إلى كنيسةٍ حقيقية أشبهُ بالعودة إلى الأيام الخوالي حين كانت الكنائسُ في كل مكانٍ، والكثيرُ الكثير من الأضواء والكثيرُ الكثير من البنزين يمدُّ السيارات والشاحنات بالوقود بدلًا عن إشعال الحرائق. لا يفوّت البالغون على أنفسهم فرصةَ العيش في الأيام الخوالي أو إخبارَ أطفالهم كم سيكونُ رائعًا وعظيمًا وقوفُ البلاد على قدمَيها من جديد والعودةُ إلى ما كانت عليه الحياة الطيبة.

بلى.

بالنسبةِ إلينا نحن الأطفال -معظمنا- فالرحلةُ ما كانت سوى مغامرة، عذرٌ للعبور خارجَ السور؛ كنَّا سنُعمَّد من باب الواجب أو كضمانةٍ ما، لكن معظمَنا لم يشغلْ باله بأمور الدين. أنا شغَلني الدين، دينٌ آخر.

«ما الداعي إلى المجازفة» قالت لي سلفيا دنْ قبل أيام عدة، «لربما ثمة صحةٌ في قصة الدين تلك». أبواها يظنان ذلك، ولهذا قدِمَتْ معنا.

أخي كيث الذي أتى أيضًا برفقتنا لم يشاركْني أيًا من مُعتقداتي، فهو لا يكترث؛ أبي يريده أن يُعمَّد؟ لمَ لا، لا مانع لعيناً لديه. لا مانع لديه مع كثيرٍ من الأشياء، فهو لا يكترثُ إلا للقليل، يهوَى قضاء الوقت بصحبة رفاقهِ والتظاهرِ بأنه بالغ، يتهرّبُ من العمل ويتهرّبُ من المدرسة ويتهرّبُ من الكنيسة. هو في الثانية عشر وحسب، أكبرُ

إخوتي الثلاثة، لا يروق لي، لكنه المفضلُ لدى زوجة أبي. ثلاثةُ أبناء أذكياء وابنٌ غبي، والغبيُّ هو الأثير لديها.

طوالَ طريقنا، ما انفكَّ كيث يتطلعُ حواليه. طموحُه -إن كانَ لكَ أن تصفَه بهذا- مغادرةُ الحيّ والرحيلُ إلى لوس أنجلوس. لم يوضّحْ مرَّةً ما ينوي فعلَه هناك، فقط يريد الذهابَ إلى المدينة الكبيرة وصنْعَ ثروةٍ كبيرة. وفقًا لأبي، ما المدينةُ الكبيرة الآن سوى جيفةٍ موبوءة باليرقان، بالكثيرِ من اليرقان. أراه محقًّا، لكنْ ليس كلُّ اليرقان موجودٌ في لوس أنجلوس، بعضه أيضًا موجودٌ هنا.

واليرقانُ ليس بالطير الذي يصحو باكرًا.

تجاوزْنا في طريقنا أناسًا مُمدّينَ على الأرض، نائمين على الأرصفة، قلةٌ منهم بدأتْ تصحو، لكنهم لم يُعيرونا أيَّ اهتمام؛ رأيتُ ثلاثة أشخاص، على الأقل، لم يستيقظوا مرةً أخرى من منامهم، أبدًا. أحدُهم كان مقطوع الرأس ووجدتُني أتلفّتُ باحثةً عن الرأس، بعدها حاولتُ ألّا أتلفّتَ حواليّ.

امرأةٌ شابة، عاريةٌ وقذرة، ترنّحَتْ على الطريق جانبنا. استرقتُ نظرةً على ملامحها البليدةِ وأدركتُ أنها إما دائخةٌ أو سكرانة أو شيئًا ما أصابها.

لربما اغتصبوها مرارًا وتكرارًا حدَّ فقدتْ عقلها، فقد سمعتُ بوقوع قصصٍ مشابهة، أو لربّما هي وحسب منتشيةٌ إثْر المخدرات؛ الفتيانُ في مجموعتنا كادوا يقعونَ عن دراجاتهم، يحدّقون فيها، ويا لها من خواطرَ دينيةٍ مذهلةٍ ستراودهم لبعض الوقت.

المرأةُ العارية ما التفتتْ إلينا قَط؛ بعد أن تجاوزناها التفتُّ خلفي ولمحتُها تستقرُّ على العشب مقابلَ سور حيٍّ آخر.

على مد معظم رحلتنا، مررْنا بسور حيٍّ تلْو سورِ حيّ، بعضها على مدّ قطعةٍ سكنية، بعضها على مد قطعتَين، بعضها خمسة. نحو الأعلى صوبَ التلال عزبٌ مسوَّرة؛ بيتٌ واحدٌ كبير والكثير من الملاحق الصغيرة المهلهلة حيث يقْطنُ الخدم. اليومَ لم نمرُّ على عزبةٍ منها، بل مررنا بحيّينِ أو ثلاثةٍ يبلغ فيها الفقرُ والعوز حدًّا شُيّدتْ فيه أسوارها بصخور دونما ملاط، بكتلٍ اسمنتية وقمامة. ثم مررنا على تلك المناطقِ السكنية غيرِ المسوَّرة الغارقةِ في حالٍ يرثى لها؛ كثيرٌ من بيوتها عِيثَ فيها دمارًا، محروقةٌ، خربةٌ، موبوءةٌ بالسكارى أو المدمنينَ أو العوائلِ المشردة مستوطني البيوت مع أطفالهم القذرينَ الهزيلينَ أشباهِ العراة.

هذا الصباح وجدنا أطفالهم يرقبوننا متيقّظين، الصغارُ منهم يثيرونَ شفقتي، أما مَن في عمري أو أكبر، فيوتّرون أعصابي. نواصلُ رحلتنا على مدّ وسط الشارع المتصدّع، الأطفالُ يقتربون نحو حافة الرصيف حتى يحدّقوا إلينا، يقفون وحسْب محدّقين، ويخطر إليّ لو أني كنتُ وحدي أو أحدَ اثنينِ، لو لم تكن بنادقُنا جليّةً لأعينهم، لربما حاولوا الانقضاضَ علينا وسلْبَنا درّاجاتنا وملابسَنا وأحذيتَنا وأيَّ شيء آخرَ لدينا، وبعدها؟ الاغتصاب؟ القتل؟ لربما انتهَى الحال بنا مثل تلك المرأةِ العارية، تترنّحُ دائخة، ولربما مجروحة، ويقينًا ستجذبُ انتباه الأعين الخطرةِ نحوها إلّا إنْ سلبَتْ شيئًا من الملابس يسترُها. ليتنا منحناها شيئًا.

زوجةُ أبي تقول إنها وأبي وقفا مرةً حتى يساعدا امرأةً مصابة، والرجالُ الذين آذوها قفزوا من خلف سورٍ وكادوا يقتلونهما.

نحن في روبليدو، عشرون ميلًا عن لوس أنجلوس، ووفقًا لبابا، كانت فيما مضى مدينةً خضراء ثريةً صغيرة وغيرَ مسوَّرة. ومثل كيث، تاقَ أبي في شبابه إلى هجرها، أراد الفرارَ من ضجر الحياة في روبليدو نحو إثارةِ المدينة الكبيرة. وقتها لوس أنجلوس كانت أفضلَ حالًا، أقل فتكًا؛ عاش فيها إحدى وعشرين عامًا، ثم، في عام ٢٠١٠، قُتِل أبواه وورِثَ عنهما البيت. أيًّا يكن من قتلَهما فقد نهب البيتَ وحطم الأثاث، لكن لم يشعل حريقًا فيه. لم يكن للحيّ سورٌ حينها.

من الجنون تصوّرُ الحياةِ دونما سورٍ يحميك، حتى في روبليدو. فمعظمُ أهل الشارع الفقراء ـ المستوطنون، السكّيرون، المدْمنون، المشرّدون ـ هم أناسٌ خطرون، إما يائسونَ أو مجانين أو الحالَيْن معًا، وهذا كافٍ لأن يُصير أيّ إنسانٍ شخصًا خطرًا.

ما يزيد الأمرَ سوءًا لي أنهم غالبًا ما يعانون من خَطْبٍ ما، يُقطّعون آذانَ بعضهم البعض، أذرعَ أو سيقان بعضهم البعض، يحملون أمراضًا خبيثة وجراحًا متقيّحة، لا مالَ لديهم ينفقونه على الماء للاغتسال، لذا حتى غير المجروح يعاني من التقرحات. لا طعامَ لديهم يكفيهم لذا فهم إمّا مصابون بالهزال، أو يتناولون طعامًا فاسدًا فيتسمّمون. وبينما أقود دراجتي، أحاول ألا أتلفّت نحوهم، لكن ليس بوسعي منْع نفسي عن النظر، التقاط شذرات المعاناة التي يعيشونها.

بوسعي تحمّل الكثير من الألم دون أن أنهار، مهارةٌ تعلمْتها، لكن اليوم بالذات، صعبٌ عليَّ مواصلةُ تحريك الدواستَينِ ومجاراةُ الآخرين بينما كلّ مَن أراه يزيدني همًّا وغمًّا.

ما فتئ أبي يتلفّتُ خلفًا نحوي بين الفينة والأُخرى، يقول لي: «بيدكِ هزيمته، لا داعي للاستسلام إليه» إذ لطالما ادّعى، أو لربما آمنَ، أنَّ متلازمةَ فرْط التقمص التي أعاني منها شيءٌ بوسعي رمْيه عن كاهلي ونسيانه تمامًا. إنَّ المشاركة -في واقع الأمر- ليست حقيقية، ليست ضربًا من السحر ولا حاسةً سادسة تسمحُ لي بمشاركة الآخرين آلامهم وسعادتهم، بل وهمٌ، وحتى أنا أقرّ بذلك. فأخي كيث اعتاد التظاهرَ بالتعرّض للأذى فقط حتى يخدعَني لأشاركَه ألَمه المفترض.

مرةً ادّعى تعرضه لنزيف، بحبرٍ أحمر، حتى يراني أنزف. وقتَها كنتُ في الحادية عشرة من عمري، وكنت لا أزالُ أنزف تحت جلدي كلما رأيتُ شخصًا آخرَ ينزف، ما كان بيدي منْع نفسي، ولطالما قلقتُ من فضح أمري أمام أناسٍ خارج عائلتي.

لم أشارك أحدًا النزيفَ مذ بلغت الثانية عشرة وأتتني دورتي الشهرية الأولى؛ مبعث ارتياح عظيم، وليت كل شيء سواه اختفى أيضًا. حيلة كيث حتى أنزفَ مارسَها تلك المرة وحسب، وأوسعتُه ضربًا عليها. نادرًا ما تعاركتُ وأنا صغيرة لأن العراكَ يؤذيني أيضًا، فكل لكمةٍ سددتُها، شعرتُ بها وكأني ألكمُ نفسي، لذا متى قررْتُ الدخولَ في عراك، أدخله عاقدة العزم على أذيةِ الطفل الآخر أذىً أشدّ مما يسببه أيُّ طفل لآخر.

كسرتُ ذراعَ مايكل تالكوت وأنفَ روبن كوينتانلا، حطمتُ أربعةً من أسنان سلفيا دن، وكلهم استحقّوا ثلاثةَ أضعاف الأذى الذي نالوه مني، وكل مرةٍ كنت أنال عقابًا شديدًا، وكلّ مرة أغتاظ. فالعقاب مزدوج، وأبي وزوجته يعرفانِ ذلك، لكن معرفتَهما لم تحُلْ دون عقابهما إيايّ، أظنهما فعَلا ذلك إرضاءً لآباء الأطفال الآخرين. لكنني حين انهلتُ على كيث ضربًا، كنت على يقينٍ أنَّ كوري أو بابا أو كلاهما سيعاقبُني أشدَّ العقاب، فهو أخي الصغيرُ المسكين، لذا حرصتُ أن يدفعَ الثمنَ مقدمًا، أنَّ أيًّا ما أفعلُه به سيستحقّ العقاب الذي سينزلانه عليّ.

وقد استحق.

كلانا نال جزاءه لاحقًا من بابا، أنا على إيذائي طفلًا صغيرًا وكيث على مخاطرته بفضْح «شؤون العائلة» على الملأ. بابا حريصٌ جدًا على الخصوصية و«شؤون العائلة». فنطاق الأمورِ التي يمنع علينا منعًا باتًا حتى التلميح إليها واسعٌ جدًا، وعلى رأس تلك الأمور أيُّ شيء يتعلّق بأمي وفرْطُ التقمص لديّ، وارتباط هذين الأمرين بعضهما ببعض.

بالنسبة إلى أبي، المسألةُ كلها مدعاةٌ للخزي، فهو قسٌّ وبروفيسور وعميد جامعة؛ زوجةٌ أولى مدمنةٌ وابنةٌ متضررة من المخدرات ليس بالشيء الذي يدعوه إلى التباهي. من حسنِ حظي، فكوني أكثرَ الناس تأثرًا بما يحيط به ليس بالأمر اللعين الذي يدعوني إلى التباهي.

لا شيء بيدي فعْله بخصوص إصابتي بفرط التقمّص. فمهما

ظنَّ أبي أو أراد أو تمنّى، أنا أشعرُ بما يشعر به الآخرون، أو ما أظنُّ أن الآخرين يشعرون به.

فرطُ التقمّص هو ما يدعوه الأطباء بـ«متلازمة التوهُّم العضْويّ». هراء. يؤلمني، وهذه هي الحقيقةُ الوحيدة التي أعرفها. بفضل براسيتو، الحبة الصغيرة، بودرة أينشتاين، اختيار أمي الأثير من المخدرات قبل أن تقتلَها ولادتي، فأنا الآن مجنونة. كثيرٌ من الحزن الذي يعتريني لا يعنيني، غير حقيقيّ، بيدَ أنه يؤلمني.

يُفترض بي مشاركة المتعة والألم، لكن لا كثيرَ من المتع حولنا هذه الأيام. المتعةُ الوحيدةُ المتاحة والتي أستمتعُ بمشاركتها هي الجنس، ألتقطُ مشاعرَ متعةِ الرجل، وأزيدُها على متعتي، وأكاد أتمنّى أني لم أفعل. فأنا أعيشُ في مجتمعٍ منغلق، حيٍّ ينتهي بشارعٍ مسدود، حوضِ أسماك مسوَّر بالغ الصغر، وأنا أيضًا ابنة القسّ. الحدودُ أمامي واضحةٌ فيما يتعلّق بالجنس.

على أيةِ حال، ناقلاتي العصبيةُ متخبطةٌ وستظل كذلك، لكنني أتدبّر أمري ما دام الآخرون يجهلون وضعي. داخل أسوار حيّنا أنا بخير، لكنّ رحلتَنا اليوم كانت جحيمًا. كانتْ من أسوأ المشاعر التي انتابتْني يومًا، أمواجٌ تغمرني وتنحسر عني، ظلالٌ وأشباح، طعناتُ ألمٍ مفاجئةٌ ومتلويَّة.

إن تحاشيتُ النظر طويلًا في الجراح القديمة، فلن تؤذيني إلّا قليلا. كان هناك ولدٌ صغيرٌ عارٍ جلدُه كتلةٌ هائلة من التقرّحات الحمراء؛ رجلٌ ذو قشرةٍ ضخمة تغطّي الجدعة حيث اعتادت

يده اليمنى أن تكون؛ طفلةٌ صغيرة، عارية، لربما في السابعة من عمرها، دمٌ يسيل على فخذَيها العاريين، امرأةٌ وجهها متورم، محتقن، مضروب.

لا بدَّ أني بدوتُ مهتاجةً، أتلفَّت حواليَّ كما الطير، لا أسمحُ لنظرتي أن تستقرَّ على أحدٍ ثانيةً أطولَ من المطلوب كي أتيقّنَ أنهم ليسوا بصدد القدوم نحوي أو رمي شيءٍ عليّ.

لربما قرأ بابا في ملامحي شيئًا مما أشعر به، أحاول ألّا أدعَ وجهي يشي بشيء، لكنه يُحسن قراءتي. أحيانًا يقولُ الناس إني أبدو متجهمةً أو غاضبة، خيرٌ لي أن أدعهم يظنون ذلك على أن يعرفوا حقيقتي، خيرٌ لي تركهم يظنون ما يشاؤون على أن أدعهم يعرفون إلى أي حدٍّ يسهلُ عليهم إيذائي.

كان بابا أصرَّ على ماءٍ عذب ونظيف وصالح للشرب لأجل التعميد، وبالطبع، لم يكن قادرًا على تحمّل تكلفته، فمن بيده؟ وذاك كان السبب الآخرُ وراء وجود الأطفال الأربعة الإضافيين: سلفيا دن وهكتور كوينتانلا وكرتس تالكوت ودرو بالتر، مع أخويّ كيث وماركوس؛ آباءُ الأطفالِ الآخرين ساهموا في تحمّل التكلفة. رأوا أنَّ إقامة تعميدٍ لائقٍ أمرٌ بالغُ الأهمية بحيث يستحقّ صرفَ المال والمخاطرة. كنت الأكبرَ بينهم بنحو شهرين، كرتس كان التالي، وعلى قدْر كراهيتي التواجدَ هناك، كرهتُ أكثر تواجدَ كرتس، فأنا أكترثُ له، أكثر مما أريد، أكترثُ لما يظنّه عني، وأقلقُ من الانهيار في مكانٍ عام يومًا أمام ناظرَيه، لكن ليس اليوم.

مع وصولنا إلى الكنيسة المحصَّنة كانت عضلاتُ فكّي تؤلمني من العضّ على أسناني، وكلّي منهكة.

تواجد نحو سبعين شخصًا في القداس، ولو كانوا في غرفِنا الأماميةِ في البيت لبدوا حشدًا كبيرًا. لكن في الكنيسة، بسورها وقضبانِها وأسلاك الليزر، بقاعتها الجوفاء الضخمة وحراسها المسلحين، بدا الحشد جمعًا صغيرًا مشتّتًا. لا مانع لديّ، فآخرُ ما أريد جمهورٌ غفيرٌ يسقطني في الزلّة بألمه.

التعميدُ سار كما كان مُخططًا له. أرسلونا نحن الأطفال إلى الحمامات («رجال»، «نساء»، «يُرجى عدم إلقاء أيّ نوعٍ من الورق في المرحاض»، «ماءُ الاغتسالِ في السطْل على يساركم») كي نبدّل ملابسَنا ونرتدي البرودَ البيضاء.

حين بتْنا مستعدّين، اصطحبَنا والدُ كرتس إلى غرفة الانتظار حيث يتسنّى لنا الاستماعُ إلى العظة -الفصل الأول من القدّيس يوحنا والفصل الثاني من أعمال الرسل- في انتظار دورنا.

دوري جاء آخرًا. أظنُّها فكرة أبي: أولًا أبناءُ الجيران، ثم أخواي، ثم أنا. لأسبابٍ لا أجدها منطقية، يظن بابا أني بحاجةٍ أكثر إلى تعلّم التواضع، أما أنا فأظن أنَّ تواضعي البيولوجي -أو إذلالي البيولوجي- أكثر من كافٍ.

اللعنة! ومَن يكترث! على أحدنا أن يأتي آخرًا. تمنّيتُ وحسب لو كانت لديّ الشجاعةُ كي لا أخوض أصلًا في الأمر برمته.

وها نحن «باسم الآب، الابن، والروح القدس».

الكاثوليك يَفرغون من التعميد وهم رُضَّع، ليت المعْمدانيين يحذون حذْوهم. أكاد أتمنى لو كان بيدي الإيمانُ في أهميته مثلما يبدو على كثيرٍ من الناس، مثلما يبدو على أبي، وبما أني لا أستطيع، أتمنى لو كنتُ أصلًا لا أكترث.

لكني أكترث، ففكرةُ الإله ما تبرحُ تشغل بالي هذه الأيام. أعيرُ انتباهي لما يؤمن به الناس - وإن كانوا مؤمنين فأيُّ إلهٍ يؤمنون به. يقول كيث إنَّ الإله ليس سوى أداةِ البالغين في محاولتهم تخويفَكَ إلى فعْل ما يريدون منك. لا يقول ذلك في وجود أبي، لكن هذا ما يقوله. هو يؤمن بما يرى، وأيًّا يكن الماثلُ أمام عينيه فلن يبصرَ منه سوى القليل.

أظن أبي كان سيقولُ الشيء ذاته عني لو عرف بما أؤمن، ولربّما سيكونُ على حق. لكن ما كان رأيه ليردعني عن رؤية ما أراه.

مما يبدو لي، كثيرٌ من الناس يؤمنُ في بابا الإلهي الكبير أو في الشرطيّ الإلهي الكبير أو في الملك الإلهي الكبير، يؤمنون في صورةٍ أقرب إلى الإنسان الخارق. وثمة قلةٌ تؤمن أنَّ الإلهَ كلمةٌ مرادفةٌ للطبيعة، والطبيعة قد تعني أيَّ شيء هم عاجزون عن فهمه أو السيطرةِ عليه.

البعضُ يقول إنَّ الإله روحٌ، قوةٌ، جوهر الحقيقة. اسألْ سبعةَ أشخاص عمّا يعني لهم كلُّ هذا وستحظَ بسبعة أجوبةٍ مختلفة. فما الإله إذن؟ اسمٌ آخرُ للشيء الذي يُشعركَ بالأمان والحظوة؟

ثمة ريحٌ هوجاءُ موسمية (أبكرُ من موسمها) تعصفُ بخليج

المكسيك، تطفر حول الخليج، حاصدةً أرواحَ الناس من فلوريدا حتى تكساس ونزولًا إلى المكسيك. حتى الآن أكثرُ من سبعمئة قتيل نعرف بموتهم، إعصارٌ واحد، وكم من الناس تعرضوا للأذى؟ كم من الناس سيتضوَّرون جوعًا بعد دمار المحاصيل؟ هذه أفعالُ الطبيعة، لكن أهذا هو الإله؟ معظمُ القتلى هم فقراء الشارع الذين لا ملجأ لهم يلوذون إليه، مَن لا يسمعون صفارات الإنذار إلا حين يفوتُ الأوان على أقدامهم كي تحملَهم نحو الأمان، وأصلًا أين هذا الأمان؟ أهي معصيةٌ ضد الربّ أن تكون فقيرًا؟ فنحن نكاد نكون فقراء، الوظائفُ ما تنفكُّ تتناقصُ وتتناقص، وما ننفكُّ نحن نتوالدُ ونتوالد، أطفالٌ أكثر يكبرون دونما شيءٍ يتطلّعون إليه. بطريقةٍ أو بأخرى، كلنا سنغدو يومًا فقراء. يقول البالغون إنَّ الأمور ستتحسنُ، لكنها أبدًا لا تتحسن. كيف سيتصرفُ الربُّ إلهنا نحونا، إله أبي، متى ما أصبحنا فقراء؟

هل ثمة ربّ؟ وإن كان ثمةَ ربّ فهل هو (أو هي؟ أو لا جنساني) يكترث لنا؟ الربوبيّون أمثال بنجامن فرانكلن وتوماس جفرسون يؤمنون بأنَّ الربّ كينونةٌ خلقتْنا، ثم تركتْنا وشأننا.

«مضلَّلون» كذا وصفهم أبي حين سألتُه عن الربوبيّين، «كان الأجدر بهم أن يؤمنوا أكثر فيما تقوله أناجيلهم».

أتساءلُ إن كان الناسُ على ساحل الخليج ما زالوا على إيمانهم بالرب، فقد سبق للناس أن ظلوا على إيمانهم به في كوارثَ مريعةٍ سابقة. قرأتُ الكثير عن تلك الحالات، فأنا أقرأ الكثير من قصص التاريخ.

سِفْرُ أبي المفضل من الإنجيل سِفر أيوب، وأراه أكثر الأسفار فصحًا عن إله أبي بالذات وعن الآلهة في العموم، أكثرَ من أيّ كتابٍ آخرَ قرأته.

في سِفْر أيوب، يقول الربُّ أنه خالقُ كلّ شيءٍ والعليمُ بكلّ شيء لذا لا أحدَ يملك الحقَّ في سؤاله عما يصنعه بأيّ شيء. حسنٌ، أراه منطقياً، ربّ العهد القديم لا يناقض صيرورةَ الأمور على ما هي الآن عليه. لكن ذاك الربُّ يبدو لي أقربَ إلى زوس، رجلٌ خارقُ القوى ويلهو بألعابه مثلما يلهو أخي الأصغر بدُمَى جنوده، بانغ! بانغ! سبعُ دمى خرَّت قتيلةً على الأرض. دُماك، قوانينك، ومن يكترث لما تفكّر به الدمية. امسح عائلةَ دميةٍ عن الوجود وامنحْها عائلةً جديدة، فدُمَى الأطفال، مثل أطفال أيوب، قابلةٌ للتبديل.

لربّما الإله طفلٌ كبير يلهو بألعابه. وإن كان كذلك، فما الفرقُ لديه إن قُتِل سبعمئة شخص في إعصار، أو ذهب سبعة أطفالٍ إلى كنيسة وتغطّسوا في خزانٍ من الماء الباهظ؟

لكن ماذا إن كنا مخطئين بشأن كلّ هذا؟ ماذا إن كان الرب شيئًا مختلفًا تمامًا؟



# ٣

**نحنُ لا نعبدُ الربَّ،**
**نحنُ نعي ونلازمُ الربَّ،**
**نحنُ نتعلمُ من الربّ،**
**بالتدبّرِ والعملِ**
**نصوِّرُ الربَّ،**
**في النهاية، نُسْلِمُ للرب،**
**نتكيّفُ ونصطبرُ،**
**لأننا بذرةُ الأرض**
**والربُّ إلهُنا هو التغيير.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

الثلاثاء، ٣٠ يوليو ٢٠٢٤

رائدة فضاءٍ في مهمةِ المريخ الأخيرة قُتِلت، خطْبٌ ما ألمَّ ببدلتها الواقية وعجز بقية فريقها عن إعادتها إلى الملجأ في الوقت المناسبِ

لإنقاذها. «ما كان لها الحقُّ أصلًا في السفر إلى المريخ» كذا يقول الناسُ في حيّنا. كلُّ تلك الأموالِ المهدورة على رحلة فضاءٍ جنونية أُخرَى بينما الكثيرُ من الناس على الأرض لا يُطيقون تكلفة الماء والطعام والمأوى.

تكلفةُ الماء عادت للارتفاع، وسمعتُ في أخبار اليوم أنَّ العديد من باعة الماء المتجوّلين تعرّضوا للقتل. الباعةُ المتجوّلون يبيعون الماء لمستوطني البيوت وفقراء الشارع، يبيعونه كذلك على من تَدبّر البقاءَ في بيته لكن لا يطيقُ دفعَ فاتورة الخدمات. الباعةُ المتجولون يُعثَر عليهم منحوري الأعناق، كاراتُهم وأموالُهم مسروقة.

يقول بابا إنَّ تكلفةَ الماء بلغت أضعافَ تكلفة البنزين. لكن، خلا الأثرياءُ ومشعلو الحرائق، فمعظم الناس تخلّوا عن شراء البنزين. لا أحدَ أعرفه يقودُ سيارة أو شاحنة أو دراجة نارية. كلّ تلك المركبات تصدأ في مداخل البيوت، أحشاؤها عرضةٌ للالتهام بغية الحصول على الحديد والبلاستيك.

التخلّي عن الماء أصعب بكثير.

الموضة إلى جانبنا، إذ يُفترض بك أن تبدو قذرًا. إن بدوتَ نظيفًا، فأنت تخلق من نفسك هدفًا. سيظنّ الناس أنك تتفاخرُ عليهم، تحاولُ أن تكونَ أفضل منهم، وفي عالم الأطفال، أن تكون نظيفًا دعوةٌ صريحة لاندلاع عِراك.

كوري لا تسمح لنا بالبقاء قذرين بينما نحن في حيّنا، لكن علينا جميعًا ارتداء ملابسَ قذرةٍ خارج الأسوار. مع ذلك، حتى ونحن

في الحيّ، ما إن يبتعدُ إخوتي عن البيت يُمرّغون أنفسهم بالتراب، فخيرٌ لهم من التعرضِ على الدوام للضرب.

آخرُ تلفازٍ من أجهزة النافذة الجدارية الكبيرة انطفأ الليلةَ وإلى الأبد؛ شاهدْنا رائدةَ الفضاء الميتة والمريخ الصخري الأحمر يحيطُ بها؛ شاهدْنا خزانَ ماء مجدباً وثلاثة بائعي ماء متجوّلين بأربطةِ أذرعتهم الزرقاء القذرة ورؤوسهم شبه المقطوعة؛ شاهدْنا مربعاتٍ سكنيةً بأكملها من المباني المهجورةِ المحصنة بالألواح الخشبية تحترقُ في لوس أنجلوس، وبالطبع لا أحد سيهدرُ الماء على إطفاء حرائق كهذه.

ثم انطفأ التلفاز.

ما انفكَّ الصوتُ يتقطّع على مرّ الأشهر الماضية، لكن الصورةَ دائمًا ما أوفتْ بعهدها، أشبه بالنظر عبر نافذةٍ فسيحة مفتوحة.

عائلة يانس أسست تجارةً من سماحها للناس بالنظرِ عبْر نافذتها. يقول بابا إنَّ تجارةً غيرُ مرخصةٍ كهذه ليست قانونية، مع ذلك يدَعُنا نذهب أحيانًا للمشاهدة لأنه لا يرى ضررًا فيها، وأيضًا هي مساعدة لعائلة يانس. فالكثيرُ من المشاريع الصغيرة ليست قانونية، رغم أنها لا تؤذي أحدًا وتؤمّن القوت لعائلة أو عائلتين.

نافذة يانس عمرها من عمري، تغطّي الجدار الغربيَّ الطويلَ من غرفة المعيشة. حتمًا كان لديهم الكثيرُ من المال وقت اشتروا التلفاز، لكن على مرّ العامين الماضيَين بدأوا يفرضون رسومًا على الدخول -فقط من أهل الحي- ويبيعون فاكهة، أو عصير فاكهة،

أو خبز البلوط، أو الجوز، كلُّ فائضٍ في حديقتهم معروضٌ للبيع. عرضوا علينا أفلامًا من مكتبتهم وتركونا نشاهدُ الأخبار وأيًّا يكن المعروضُ على البث؛ لم تكن لديهم القدرةُ على تحمل تكلفة الاشتراك في أيّ من قنوات المشاهدة الحسيّة الجديدة، وعلى أية حال، نافذتُهم الجدارية ما كانت مهيئةً أصلًا لاستقبال معظمها.

لم يكن لديهم سترُ الواقع الافتراضي ولا خواتمُ اللمس ولا سماعات رأس، الإعدادات بسيطة، فقط شاشةُ النافذة الرقيقة.

ثلاثة أجهزة تلفازٍ صغيرة، عتيقة، مغبّشة، منتشرة في أرجاء الحيّ، كمبيوتران أو ثلاثة للعمل، أجهزةُ راديو، هي كلُّ ما تبقّى لدينا الآن. كلُّ بيت ما زال يحتفظُ على الأقل براديو، معظمُ أخبارنا اليومية نعرفها من الراديو.

أتساءلُ كيف ستدبّر السيدة يانس أمورها الآن، فشقيقتاها انتقلتا إلى البيت معها. هما موظفتان لذا ربما ستؤولُ الأمور إلى ما يرام، إحداهما صيدلانيةٌ والأخرى ممرضة، راتبهما ليس بالكثير، لكنّ المسكنَ مجانيّ. فالسيدة يانس تملكُ كل البيت وما فيه، ورثته عن أبويها.

الشقيقاتُ الثلاثُ أرامل، ولديهن مجتمعات اثنا عشر طفلًا، كلهم أصغرُ مني. قبل عامين، السيد يانس، طبيب أسنان، قُتل بينما كان يقود دراجته الكهربائية عائدًا إلى البيت من عيادةِ الأسنان المسوَّرة والمحصّنة حيث يعمل. تقول السيدة يانس إنه علقَ في إطلاق نارٍ متبادل فأصيبَ بالرصاص من الجهتَين، وطلقة أخرى عن قرب.

دراجته سُرقت. الشرطةُ حققت، حصَّلوا الرسوم، ولم يعثروا على شيء.

يُقتَل الناس على هذا النحو طوال الوقت. وما لم تقع الجريمة أمام مخفر شرطة، فلا أملَ في وجود شهود.

السبت، ٣ أغسطس ٢٠٢٤

رائدةُ الفضاء الميتة ستعود إلى الأرض، كانت رغبتُها أن تُدفنَ في المريخ. أفصحت عن رغبتها هذه حين أدركت دنوَّ أجلها، قالت إنَّ المريخَ الشيءُ الوحيد الذي رغبتْ فيه طوال حياتها، والآن سيتسنَّى لها أن تكون جزءًا منه إلى الأبد. لكن وزير الملاحة الفضائية قال لا، يقول إنَّ جسدها قد يكون ملوثًا؛ الغبي، هل يُعقل أنه يظن أن أي كائن مجهريّ يعيش في جسدها أو عليه سيرفع صلاةَ نجاةٍ ويستوطن شبحَ ذاك الغلاف الجوي البارد، الرقيق، القاتل؟

معقول، فوزراء الملاحة الفضائية ليسوا بحاجةٍ إلى معرفة الكثير عن العلوم، هم بحاجةٍ إلى معرفة الكثير عن السياسة. وزارتُهم هي الأصغر عمرًا بين الوزارات، وها هي تحارب لأجل النجاة. كرستوفر موربث دونر، أحد الرجال المرشّحين للرئاسة هذا العام، وعد بإلغاء الوزارة في حال انتخابه. أبي يتفق مع دونر.

«الخبز والسيرك» يقول أبي كلّما سمعَ أخبار الفضاء على الراديو، «السياسيون والشركات الكبرى لهم الخبز، ونحن لنا السيرك»..

«لكن قد نجد مستقبلَنا في الفضاء» أقول لأبي، وأنا أؤمنُ بذلك.

أرى أنَّ استكشافَ الفضاء والاستيطان من ضمن الأشياء القليلة المتبقيةِ من القرن الماضي التي لها أن تساعدَنا أكثر ممّا تؤذينا، لكن من الصعب إقناع أحدٍ باعتقادي هذا، ليس مع كلّ تلك المعاناةِ الواقعة على الناس تمامًا خارجَ أسوارنا.

ينظر بابا إليّ ويهز رأسه.. «أنتِ لا تفهمين،» يقول لي، «لا فكرةَ لديكِ إلى أيّ حدٍّ هدر الوقت والمال على تلك البدعة المسماة البرنامج الفضائي عملٌ إجراميّ». هو ينوي التصويتَ لصالح دونر، الوحيد من معارفي من ينوي أصلًا التصويت لأحد، فمعظمُ الناس يئسوا من رجال السياسة. فمُذ وعيتُ على الدنيا، لا ينفك السياسيون يعِدوننا بالعودة إلى أمجاد وثراء وحكم قانون القرن العشرين، وهذا هو المغزَى من برنامج الفضاء الحاليّ، على الأقلّ بالنسبة لرجال السياسة، انظروا! نحن نُدير محطة فضاء، محطةً على القمر، وقريبًا، مستعمرة على المريخ، هذا يُثبت أننا ما نزال أمةً عظيمة، قوية، متقدمة، ألا ترون؟

بلى.

حسنٌ، نحنُ بالكاد أمة، ما عدْنا أصلًا أمة، لكني سعيدةٌ بأننا لا نزال في الفضاء. فلا بدَّ لنا من طريقٍ آخرَ نسلكه عدا هذا الطريق نحو هاويةِ الخراء.

أشعرُ بالأسف على إعادة رائدة الفضاء من جنَّتها المختارة. اسمها كان أليشيا كاتالينا غودنز ليبل وكانت كيميائيةً. أنوي تذكرها، أظنني سأجدُ فيها قدوةً أحتذي بها. قضت حياتها تعدُّ رحالها إلى المريخ، تعدّ

نفسها حتى تصير رائدةَ فضاء، تنضمّ إلى الطاقم، تذهبُ إلى المريخ، تبدأ في إدراك طريقَها نحو تأريضِ المريخ، تبدأ في تأسيس مناطق حمايةٍ حيث للناس أن تعيش وتعمل.

المريخ صخرة باردة وخاوية وشبه خانقة وميتة، مع ذلك تظل جنّةً لنا أن نراها في سماء الليل. إنها عالمٌ آخر في ذاته، على مقربةٍ منا، قريبٌ جدًا من متناول يد الناس الذين صيّروا الحياةَ على الأرض جحيمًا مستعرًا.

الاثنين، ١٢ أغسطس ٢٠٢٤

اليوم أطلقت السيدةُ سمز النارَ على نفسها، أو بالأحرَى، أطلقت النارَ على نفسها قبل أيامٍ قليلة، وكوري وبابا وجداها اليوم. ظلّتْ كوري منهارةً بعدها لفترة.

العجوزُ المسكينة، التقيّةُ المرائية، السيدة سمز. اعتادت الجلوسَ في كنيسة حجرتنا الأمامية كلَّ أحد، إنجيلٌ ورقيٌّ ضخمٌ في يدها، تصيح ردودُها: «يا الله!» «هللويا!» «الحمد للمسيح!» «آمين!» وبقيةُ الأسبوع تقضيه في الخياطة، في صناعة السلال، في الاعتناء بحديقتِها، بيعِ ما يتسنّى لها من ثمارها، الاعتناءِ بالأطفال في عمر الحضانة، وتتناولُ بلسانها كلَّ شخصٍ لا تظنه ورعًا تقيًّا على مثال صورتها التي ظنَّتها.

كانت الوحيدة من معارفي مَن تعيش وحدها؛ بيتُها الكبير كان لها وحسب لأنها وزوجة ابنها الوحيد كرهتا بعضهما البعض.

ابنُها وعائلته كانوا فقراء ومع ذلك ما كانوا ليعيشوا معها، للأسف الشديد.

الأناسُ المختلفون عنها أثاروا فيها ذعرًا عميقًا، قاسيًا وقبيحًا. لم تُطقْ عائلة شو لأنها صينية إسبانية، والجيلُ الصينيّ الأقدمُ في العائلة ما يزال بوذيًا. عاشتْ على بُعد منزلين منهما عمرًا أطولَ مما حييت، ومع ذلك ظلتْ تراهم وكأنهم قادمونَ من زحل.

«عبدةُ أوثان» كذا اعتادت أن تطلقَ عليهم إذا لم يكن أحدُهم في الجوار، على الأقل اكترثت بأدنَى حقوق الجيرة واغتابتهم خلف ظهورهم. أحضروا لها خوخًا وتينًا ولفّة قماشٍ قطنيّ من النوع الجيد حين تعرّضتْ للسرقة الشهرَ الماضي.

السرقةُ كانت المأساةَ الكبيرة الأولى في حياة السيدة سمز. ثلاثةُ رجالٍ تسلّقوا سور الحيّ، قطعوا الأسلاكَ الشائكة المجدولة وأسلاكَ الليزر القاطعة أعلاها؛ سلكُ الليزر مريع، رقيقٌ وماضٍ حدًّا يقطع أجنحةَ وأقدامَ الطيور التي لا تراه أو تحاولُ الوقوف عليه، أمّا الناس فدائمًا ما يجدون سبيلَهم أعلاه أو أسفله أو عبره.

كلُّ بيتٍ من بيوت الحيّ أحضر أغراضًا للسيدة سمز -رغم ما هي عليه- طعام وملابس ومال، وجمعنا الصدقات لها في الكنيسة. السارقونَ شدّوا وثاقَها وتركوها بعد أن اغتصبها أحدُهم، امرأةٌ عجوز مثلها! سلبوها كلَّ طعامها، مجوهراتها التي كانت يومًا تعود إلى أمها، ملابسها، والأسوأ، كل ما اكتنزتْه من مال. اتضحَ أنها احتفظت بمالها النقدي كله في وعاء خلطٍ أزرقَ أعلى خزانة

مطبخها. العجوزُ المسكينة، المجنونة، أتت إلى أبي باكيةً مرتاعة من بعد السرقة، لأنها الآن لم تعد تستطيعُ شراء الغذاء الإضافيّ الذي تحتاجه لتغذّي مزروعاتِها، ولا تستطيع دفعَ فواتير الخدمات أو ضرائب الملكيّة القادمة. ستُرمَى خارج بيتها وتُلقى في الشارع! ستموتُ جوعًا!

أخبرَها بابا مرارًا وتكرارًا بأن الكنيسة لن تدعَ أيَّ شيء من هذا يحدث لها، لكنها لم تصدقه، وواصلت الكلامَ عن اضطرارها الآن للتسوّل بينما بابا وكوري يحاولان طمأنتها. المضحكُ في الأمر، أنها لم تطقْ عائلتنا أيضًا لأنَّ بابا تزوّج «تلك المرأة المكسيكيّة كوري -آه- زان». ليس صعبًا إلى هذا الحد نطْق اسمها «كورازن» إن اخترتَ مناداتها باسمها الأصلي؛ معظمُ الناس ينادون عليها كوري أو السيدة أو لامينا.

ولم تفصحْ كوري مرةً عن شعورها بالإهانة، هي والسيدة سمز كانتا سمنًا على عسل، فلا مانعَ من بعض النفاق نحافظُ به على السلام هنا.

الأسبوعُ الماضي، ابنُ السيدة سمز وأطفاله الخمسة، شقيقها، وأطفال شقيقها الثلاثة، قضوا جميعًا في حريق بيتهم، حريقٌ متعمّد. بيتُ الابنِ كان في منطقةٍ غير مسوَّرة شمالَ شرق حيّنا، قريبًا من منحدرات التلال. لم تكن منطقة سيئة، كانت فقيرة، عزلاء. ذاتَ ليلةٍ أشعل أحدهم النيرانَ في البيت، ربما كانت نارًا انتقاميةً أشعلها عدوٌّ أو قريب أو مجنونٌ من باب المتعة.

سمعتُ أنَّ ثمة مخدّرًا غيرَ قانوني جديد يُرغِّبُ الناس بإشعال النيران.

على أية حال، لا أحدَ يعرف من ارتكب تلك الجريمة ضد عائلة سمز/ بوير، وبالطبع لم يشهدْ أحدهم شيئًا، ولا أحد فرَّ من البيت. غريب، أحد عشر شخصًا ولا أحد منهم فرّ.

لذا، قبل ثلاثة أيام، أطلقت السيدة سمز النارَ على نفسها. قال بابا إنه سمع من الشرطة أنَّ الوفاة وقعتْ قبل ثلاثة أيام، أي بعد يومين من سماعها خبرَ موت ابنها. بابا ذهب إليها هذا الصباح ليطمئنَّ عليها إثر غيابها عن الكنيسةِ البارحة؛ كوري أجبرت نفسها على مرافقة أبي من باب الواجب. ليتها لم تذهب. بالنسبة إليّ الجثث مقرفة، تنتنُ، وإن مضى عليها وقت، يستوطنُها اليرقان. وعلامَ الحزنُ أصلًا؟ فالأمواتُ أموات، ما عادوا يعانون، وإن لم تكنْ تحبهم في حياتهم، فلم حزنكَ على موتهم؟ كوري مستاءةٌ، تلومني على مشاركتي الأحياءَ آلامَهم، وها هي تحاول فعْلَ الشيء ذاته مع الأموات.

بدأتُ الكتابةَ عن السيدة سمز لأنها قتلتْ نفسها، هذا ما يزعجني. أنها آمنت، مثل أبي، أنّكَ إن قتلت نفسك فمصيرك نارُ جهنم خالدًا فيها. هي آمنتْ بقبول كلّ حرفٍ في الإنجيل دونَ مساءلة، مع ذلك، حين وجدتْ نفسها غير قادرة على الاحتمال، قررت مقايضة ألمِها الدنيوي بالألم الأبدي.

كيف لها أن تفعل ذلك؟

هل حقًّا آمنت بأيّ شيء؟ أكان كله نفاقًا؟

أو لربما جنّت لأن الربّ إلهها حمّلها أكثر مما تطيق، وهي ليست بأيوب، أصلًا في واقع الحياة، كم منا أيوب؟

السبت، ١٧ أغسطس ٢٠٢٤

أعجز عن إخراج السيدة سمز من عقلي. بطريقةٍ ما هي وانتحارُها تشابكا مع رائدة الفضاء وموتها وطردها من جنّتها. أحتاجُ إلى كتابة ما أؤمنُ به، أحتاجُ إلى ربط الآياتِ المتناثرة بعضها ببعض، تلك الآيات التي أكتبها عن الربّ إلهي مذ كنتُ في الثانية عشر. معظمُها ضعيفة، تعبر عمّا أحتاجُ إلى قوله، لكن لا تقولُها بفصاحة. قلةٌ منها على النحو الذي ينبغي أن تكونَ عليه. الآياتُ تلحُّ عليّ، هي والميّتتان. أحاول الاختباءَ في كلّ الواجبات المطلوب مني أداؤها لأجل البيت، لأجل كنيسة أبي، ولأجل المدرسةِ التي أقامتْها كوري لتعليم أطفال الحيّ. الحقيقة، أنا لا أكترثُ لأيّ من تلك الواجبات، لكنها تُبقيني مشغولةً وتُرهقني، ومعظمُ الأيام أخلد إلى النوم دونما حلمٍ يراودني، ووجه أبي يشعُّ ضياءً كلما أخبره الناسُ عن ذكائي واجتهادي.

أحبّه، هو خير إنسانٍ أعرفه، وأكترثُ لما يظنّه بي. ليتني لم أفعل، لكني أكترث.

فليكن ما يكون، هذا ما أؤمنُ به. تطلّبَ الأمرُ مني وقتًا طويلا كي أفهمَه، ثم وقتًا أطول بكثير مع المعجم وقاموس المترادفاتِ

حتى أُحسِنَ قوله، تمامًا كما يُفترض به. على مدار العام الماضي مرَّ في خمسٍ وعشرين أو ثلاثين محاولةَ كتابةٍ خرقاءَ ومشوشة، وذي هي الصياغةُ الصحيحة والحقيقية، ذي هي الآية التي ما أنفكُّ أعود إليها:

**الربُّ قوةٌ**
**لا نهائي،**
**لا يُقاوَم،**
**لا يرحم،**
**لا يبالي،**
**ومع ذلك، الربُّ مرن**
**مخادع،**
**معلم،**
**فوضى،**
**صلصال،**
**الربُّ موجودٌ حتى نُصوِّره،**
**الربُّ إلهُنا هو التغيير.**

ذي هي الحقيقة بحرفيّتها.

يستحيلُ مقاومة الربّ أو إيقافه، لكن لنا تصويره وتركيز قواه. هذا يعني أن الربَّ ليس موجودًا حتى نصلّي له، الصلوات تساعدُ

المصلّي وحسب، وحتى حينذاك، لن تكونَ من جدوى في الصلاة إلا إن ساعدت المُصلّي على تقوية عزمه وتوجيه طاقته. إن صلّيناها على هذا النحو، ستساعدُنا في علاقتنا الوحيدة مع الرب، تساعدنا في تصوير الربّ إلهنا وتقبُّلِ الأشكال التي يفرضُها علينا وتدبُّر شأننا معها؛ الربُّ قوة، وفي النهاية، الربُّ هو المنتصر.

لكنْ بالحيلة، بوسعِنا تجييرُ اللعبة لصالحنا إن فهمنا أنَّ الربَّ موجودٌ كي نصوِّره، وسنصوّره، عامدين أو غير عامدين، بنيّتِنا أو بلا نيتنا.

هذا ما أعرفه، شيءٌ مما أعرف. فأنا لستُ السيدة سمز، لست أيوبَ؛ المعاناةُ الطويلة، الصبر المتغطرس، وأخيرًا، إما الخضوعُ أمام العليم القدير أو التحطّم على يده. الربُّ إلهي لا يحبّني ولا يكرهني ولا يُبقي عينه عليّ ولا يعرفني البتّة، وأنا لا أحمل حبًّا ولا ولاءً إلى الربّ إلهي، ربّي موجودٌ وحسب.

لربما أنا أقرب إلى أليشا لييل، رائدةِ الفضاء. مثلها، أؤمنُ في شيءٍ أرى أنَّ عشيرتي التي تموت، عشيرتي التي تعيشُ في الإنكار والتخلّف، تحتاج إليه. لا أعرفُ كل شيء بعد، لا أعرفُ حتى كيف أنقلُ ما أعرف. عليَّ أن أتعلمَ الطريقة، يُخيفني كمُّ الأشياء التي أحتاجُ تعلمها، كيف لي أن أتعلمَها.

هل من شيءٍ حقيقيّ فيما أؤمن؟

أسئلةٌ خطيرة، أحيانًا لا أعرف الأجوبةَ، أشكّ في نفسي، أشكّ في ظني بما أعرف، أحاولُ نسيان الأمر، ففي النهاية، لو كان حقيقيًا

لماذا لم يعرفْ به أحدٌ غيري. الكلّ يعرف أنَّ التغيير حتميّ، من القانون الثاني للديناميكا الحراريةِ إلى الداروينية، من إصرار بوذا ألّا شيء يدوم وكلّ معاناتنا متأتيةٌ من أوهامنا بالديمومة، من مستهل الفصل الثالث في سِفْر الجامعة «لكلّ أمرٍ أوان»، التغييرُ من طبيعة الحياة، من طبيعة الوجود، من طبيعة الحكمة. لكن لا أظنُّنا نتعامل حقًّا مع كلّ ما يعنيه التغييرُ، حتى أننا لم نبدأ أصلًا بالتعامل معه.

ألسنتُنا تلهجُ بالقبول، وكأنما القبول كافٍ، ثم ننصرف إلى خلق بشرٍ خارقين، آباء خارقين، ملوك خارقين، شرطة خارقين، حتى نصيّرَها آلهتَنا وتعتني بنا، حتى تقفَ بيننا وبين الربّ. بينما الرب هنا، وعلى الدوام هنا، يصوّرنا ونصوّره على نحوٍ غير معلوم، أو لربما في مناحٍ عديدة في الآن ذاته، مثل الأميبا - أو السرطان، مثل الفوضى.

وحتى مع ذلك، لم لا يسعُني فعلُ ما يفعلُ الآخرون، تجاهلُ الحقيقة البيّنة وممارسةُ حياة طبيعية. لكن حتى الحياة الطبيعية أصبح من الصعب ممارستُها في عالمٍ كهذا.

لكن هذا الشيء (فكرةٌ؟ فلسفة؟ دينٌ جديد؟) لن يدعَني وشأني، لن يدعَني أنسى، لن يدعني أمضي. ربما، ربما هو عرضٌ لمتلازمتي: غرابةٌ أُخرى؛ وهمٌ آخر مجنون، وهمٌ متجذّرٌ لا فكاكَ لي منه، لا فكاك لي منه. ومع الوقت، سأضطرُّ إلى فعل شيء بشأنه، رغم ما سيقوله أبي أو يفعل بي، رغم العفن السّام خارجَ السور إلى

حيث قد أُنفَى، سأضطر إلى فعل شيءٍ بشأنه، وهذا الواقعُ يخيفني حتى الموت.

الأربعاء، ٦ نوفمبر ٢٠٢٤

البارحة، الرئيسُ ويليام ترنر سميث خسرَ الانتخابات، كريستوفر موربث دونر هو رئيسُنا القادم، رئيسُنا المنتخب، فعلامَ نحن مقبلون؟ دونر صرَّحَ بأنه ما إن يقسمُ يوم التنصيب العام القادم، حتى يبدأ في تفكيكِ برامج القمر والمريخ «العبثية، المبذرة، اللاضرورية». أما برامج الفضاء المتعلقة بالاتصالات والتجريب ستُخصْخص وتُباع.

لدى دونر أيضًا خطةٌ لإعادة الناس إلى العمل. يأمُل بتغيير القوانين، تعليقِ الحد الأدنى للأجور «التقييدي» وتعليقِ قوانين البيئة وحماية العمالِ لأجل أصحاب العمل المستعدّين لإيواء الموظفين المشرّدين، وتوفير تدريبٍ مهنيّ لهم مع توفير السكن اللائق والطعام.

لكن ما اللائق؟ أتساءلُ: بيتٌ أو شقة؟ غرفة؟ سريرٌ في غرفةٍ مشتركة؟ سريرٌ في ثكنة؟ مساحةٌ على الأرضية؟ مساحةٌ على الأرض؟ وماذا عن الناس أصحاب العائلات الكبيرة؟ ألن ينظرَ إلى إيوائهم استثمارًا سيئًا؟ ألن يكون منطقيًّا أكثرَ لدى الشركات توظيفُ العزاب، أو الأزواج بلا أولاد، أو، كحدٍّ أقصى، الأزواج مع طفلٍ أو طفلين؟ أتساءل.

وماذا عن تلك القوانين المُعلّقة؟ هل سيصبح من القانونيّ

تسميمُ الناس وتشويههم وتعريضُهم للأمراض ما دمت تؤمّن لهم الطعام والماء وفسحة يموتون فيها؟

بابا قرر ألّا يصوّتَ لدونر، لم يصوّتْ لأحد، قال إنَّ السياسيين يثيرون غثيانه.

## ٢٠٢٥

**إعمالُ العقل تكيّفٌ فرديٌّ ومتواصل، من التكيّف ما يحققُه جنسٌ عاقلٌ في جيلٍ واحد، وأجناسٌ أخرى في أجيالٍ عديدة من الاستيلاد والموت الانتقائيّ. وإعمالُ العقل يتطلبُ دوام الانتباه، إن زاغَ عن مساره صدفةً أو بنيّةٍ متعمدة، قد يعزّز عربداتِه من الاستيلاد والموت.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

# ٤

**ضحيةُ الربّ،**
**إن تعلَّمت التكيّف،**
**قد تصبح شريكًا للرب.**
**ضحيّةُ الرب،**
**عبْرَ التدبّرِ والتخطيط،**
**قد تصبح قادرةً على تصوير الرب.**
**أو ضحيةُ الرب،**
**عبْرَ ضعف التبصّر والخوف،**
**تظلُّ ضحيةَ الرب،**
**دميةَ الرب،**
**فريسةَ الرب.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

السبت، الأول من فبراير ٢٠٢٥

وقع حريقٌ لدينا. يقلقُ الناسُ أيما قلق بشأن النار، لكن سيظلُّ

الأطفال يلهون بها متى ما سنحت الفرصة. مع هذا الحريقِ كنا محظوظين، آمي دن، الثالثة عمرًا، تدبرتْ إشعالَ حريقٍ في مرآب عائلتها. ما إن أخذت النيرانُ تزحف على الحائط حتى ذعرتْ آمي وهرعتْ داخلًا إلى البيت. كانت مدركة أنها ارتكبتْ فعلًا سيئًا لذا لم تخبر أحدًا، اختبأت أسفلَ سرير جدتها.

حائط المرآب من الخشب الجاف خلف البيت احترق بسرعةٍ شديدة. روبن بالتر رأت الدخانَ وقرعتْ جرس الطوارئ على جزيرة شارعنا. روبن في العاشرة من العمر وحسب لكنها طفلةٌ ذكية، إحدى الطالبات المتفوقات لدى زوجة أبي، متيقظةٌ على الدوام، ولو لم تنبّه الناس ما إن لمحت الدخانَ، لانتشرت النيران.

سمعتُ الجرسَ وهرعتُ خارجًا مثلَ الجميع لأرَى ما الخطبُ الذي وقع. عائلة دن تعيشُ على الشارع مقابلنا، وبذا ما كان سيفوتني الدخان.

الخطةُ الأولية نُفّذت كما يفترض بها. البالغون من الرجال والنساء أخمَدوا النيران بخراطيم الحديقة والرفوش والمناشف الرطبة واللحف، ومن لا خراطيم لديهم ضربوا حواف النيران وخنقوها بالتراب. الأطفالُ من عمري لبّينا المساعدةَ حيثما نُوديَ علينا وأطفأنا أيَّ نيران جديدة أشعلتْها جمرات الحريق المتطايرة. أحضرنا من بيوتنا دلاءً حتى نملأها بالماء، ورفوشًا، ولحفًا، ومناشف. كان هناك الكثيرُ منا وأبقينا أعيننا مفتوحةً؛ المسنّون راقبوا الأطفال الصغار وأبقوهم بعيدًا عن الطريق وعن الأذى.

لا أحد افتقدَ آمي، لا أحد رآها في حديقةِ بيت دن الخلفية، لذا لم يخطرْ إلى أحد التفكير بها. جدّتها عثرت عليها في وقتٍ متأخر واستنطقت الحقيقةَ منها.

المرآبُ دُمّرَ بالكامل، إدوين دن أنقذ شيئًا من حديقته ومعداتِ النجارة، لكن ليس الكثير؛ شجرةُ العنب مقابلَ المرآب وشجرتَي الخوخ خلفها كانت أيضًا شبهَ محروقة، لكن ما زال من أملٍ في نجاتها؛ الجزرُ والقرع والكرنبُ والبطاطس كلها انهرستْ تحت الأقدام.

بالطبع لا أحد استدعَى الإطفاء، لا أحد كان سيحملُ على ظهره فاتورةَ خدماتٍ كبيرة فقط كي ينقذَ مرآبًا غيرَ مسكون. وعلى أية حال فمعظم بيوت الحيّ لا تُطيق دفع فاتورةٍ كبيرة أخرى، أصلًا الماء المهدور على إطفاء الحريق سيصعب دفعه.

ويا تُرى ما الذي سيجري للمسكينة الصغيرةِ آمي دن. لا أحدَ يكترث. عائلتها تطعمها، وبين وقتٍ وآخر، ينظفونها، لكنهم لا يحبونها ولا حتى يطيقونها. أمّها ترايسي أكبرُ مني بعامٍ وحسب، كانت في الثالثة عشر حين أنجبتْ آمي. كانت في الثانية عشر حين حملت من خالها ذي السابعة والعشرين بعد أعوامٍ من اغتصابها المتكرر.

المشكلة، أن الخال ديريك كان شابًّا وسيمًا وضخمًا وأشقر، مرحًا وذكيًّا ومحبوبًا، ترايسي كانت مملة وعادية، متجهمة ووسخة المظهر، حتى وهي نظيفةٌ تبدو ملطخةً ووسخة. لربما بعضُ مشاكلها هذه

جرّاءَ اغتصابها لسنواتٍ على يد خالها ديريك. هو شقيق والدتها الأصغر والمفضل، لكن حين أدرك الناسُ فعلته، اجتمع رجال الحيّ واقترحوا خروجَه والعيش في مكانٍ آخر، فلا أحد من الناس يريدُ وجوده يحومُ حول بناتهم. ولأنها امرأةٌ لا عقلانية لامت والدة ترايسي ابنتَها على نفيه، وعلى إحراجها.

ليس الكثيرُ من فتيات حيّنا يُنجبن قبل جرّهن فتى إلى أبي حتى يجمعَهما في الرباط المقدّس. لكن لا أحد سيتزوج ترايسي، ولا مال للإنفاق على رعاية ما قبل الولادة ولا الإجهاض؛ والمسكينة آمي، كلّما تكبر، تغدو أشبه وأشبه بترايسي، عجفاء وملطخة وبشعرٍ خفيفٍ وقاسٍ كما الأسلاك. لا أظنّها ستغدو يومًا فتاةً جميلة.

غريزةُ الأمومة لدى ترايسي لم تتحرك، وأشك أنَّ لأمّها كرسماس دن أيَّ غريزةِ أمومة أصلًا. فعائلة دن لها سمعة العائلة المجنونة، هناك ستة عشر منهم يعيشون في بيت دن، وثلثهم على الأقل مجانين. آمي ليست مجنونةً، هي مهملةٌ ووحيدة، ومثل أي طفلٍ صغير يُتركُ وحده أغلبَ الأحيان، ستعثرُ على طرقٍ تسلّي بها نفسها.

ما رأيت قَط أحدًا يضربُ آمي أو يشتمُها أو يؤذيها بأيّ شكل، فعائلة دن تكترث لما يظنّه الناس عنها. لكن أيضًا لا أحد يعيرُها أيّ اهتمام، تقضي معظم وقتها تلهو وحدها في التراب ثم تلتهمُه وتأكلُ أي شيءٍ تعثر عليه كالحشرات وغيرها. لكن مؤخرًا، فقط من باب الفضول، أحضرتُها إلى بيتنا، حمّمتها، وعلّمتها الأبجدية

وكيف تكتب اسمَها. أحبّت الكتابة، لها عقلٌ قادرٌ وجائع، وتهوى الاهتمام.

الليلةَ سألتُ كوري إن كان يُسمَح لآمي بدخول المدرسة في عمرٍ مبكر. لا تستقبل كوري أيَّ طفل أصغر من الخامسة، لكنها وافقت على استقبال آمي إن تولّيتُ أنا مسؤولية الاعتناء بها. مع أني توقعت ذلك، استأتُ. فأنا أساعدُ الأطفال في الخامسة والسادسة، ولطالما اعتنيتُ بالأطفال مذ كنت في الواحدة وسئمت من ذلك. ومع هذا، إن لم يفعل أحدُنا شيئًا لمساعدة آمي الآن، فيومًا ما سترتكبُ ما هو أفظع بكثير من حرق مرآب عائلتها.

الأربعاء، ١٩ فبراير ٢٠٢٥

بعض أقاربِ السيدة سمز العجوزِ ورثوا بيتها، محظوظون أنَّه ما يزال هناك بيت أصلًا يرثونه. فلولا سورنا لانتزع الناسُ أحشاءَ البيت أو احتلّوه أو حرقوه ما إن بات خاويًا. كل ما فعله أهل الحي أنهم استعادوا الأغراضَ التي منحوها للسيدة سمز بعد تعرّضها للنهب، وأخذوا كلَّ الطعام الذي كان لديها، فلا منطق في تركه يتعفّن. نحن لم نأخذ أيًّا من أثاثِها ولا قطع سجادها ولا أجهزتها، كان بيدِنا ذلك، لكنّا لم نفعل، فنحن لسنا لصوصًا.

واردل باريش وروزالي باين يظنّان العكس. كلاهما ضئيلُ الجسد، بشرتهما بلون الصدأ البني، وملامحُهما بغيضة، مثل السيدة سمز. هما ابنا ابن عمها الذي حافظت على علاقتها الجيدة معه.

واردل ترمّل مرتين، لا أطفال، وروزالي ترمّلت مرة واحدة، سبعة أطفال. ليسا أخًا وأختًا فحسب، بل توأم، وربما هذا ما يساعدُهما على تحمّل بعضهما البعض، فيقينًا لا أحد آخر يحتملهما.

سينتقلان اليوم، قدما مرات عدة كي يُلقيا نظرةً على المكان، وأظن البيت يروق لهما أكثر من بيت والديهما، فذاك البيت يتشاركانه مع ثمانية عشرَ شخصًا. يومها كنت مشغولة في وكري مع صفّ الأطفال الصغار لذا لم ألتقِ بهما إلا اليوم، رغم أني سمعتُ بابا يتحدث معهما. سمعتهما يجلسان في غرفة معيشتنا ويلمّحانِ إلى أننا سلبنا بيت السيدة سمز قبل وصولهما.

بابا حافظ على هدوء أعصابه «أنتما على علم بتعرّضها للسرقة قبل شهر من وفاتها» قال لهما، «بإمكانكما التحقق مع الشرطة، إن لم تفعلا ذلك أصلًا، مذ ذاك وأهل الحي قائمون على حماية البيت، لا استعملناه ولا جرَّدناه من كلّ ما فيه. إن اخترتما العيشَ معنا، فعليكما فهم ما أقول جيدًا، نحن هنا نساعد بعضَنا البعض، ولا نسرق».

«ما كنت لأتوقعك تقرّ بذلك»، دمْدم واردل باريش.

أخته قاطعتْه فورًا قبل أن يقول شيئًا آخر «نحن لا نتّهم أحدًا بأي شيء» قالت كاذبةً، «نحن كنا نتساءل فحسب، نعرف أن قريبتنا مرجوري كانت تملك أغراضًا قيمة، مجوهرات ثمينة جدًا ورثتها عن أمها».

«تحققي مع الشرطة»، أجابها أبي.



«أجل، أجل أعرف، لكن.»..

«نحن مجتمعٌ صغير» قال أبي، «كلٌّ يعرف الآخر هنا، وكلٌّ يعتمد على الآخر».

برهة صمت، ربما بدأ التوأم يستوعبانِ الرسالة.

«نحن لسنا بأناس اجتماعيين» قال واردل باريش، «ولا نتدخّل في شؤون أحد».

مرةً أخرى قاطعتْه أخته قبل أن يواصل «أنا موقنة أنَّ كل شيء سيسير على ما يرام، موقنة أننا سنتأقلمُ على نحوٍ جيّد».

لم أطقْهما وأنا أسمعُهما، لم أطقهما أكثر حين التقيتُ بهما، ينظران نحونا وكأنّ رائحةً نتنة تنبعث منا وهما لا. بالطبع، لا يهم إن أحببتهما أم لا، فثمة أناسٌ آخرون في الحي لا أطيقهم، لكنني لا أثق في عائلة باين-باريش. أطفالُ العائلة لا بأس بهم، لكن الكبار ما كنت لأريد يومًا الاضطرار للاعتماد عليهم، ولا حتى في أصغر الأشياء.

باين وباريش[1]، صدقًا اسمان على مسمى.

(١) يُنطق اسما العائلتين (Payne and Parrish) كـ (pain and perish): أي ألم وهلاك.

السبت، ٢٢ فبراير ٢٠٢٥

صادفنا اليوم قطيعًا من الكلاب الضالةِ الوحشية. كنا في طريقنا إلى التلال كي نتمرَّن على الرماية، أنا، أبي، جوان غارفيلد، قريبها وصديقها هارولد -هاري- بالتر، صديقي كرتس تالكوت، أخوه مايكل، أورا موس وأخوها بيتر، حارسنا البالغ الآخر كان والد جوان، جاي. جاي رجلٌ طيّب ورامٍ بارع. بابا يحبّ العملَ معه، رغم المشاكل التي تطرأ أحيانًا، فعائلتا غارفيلد وبالتر بيضاء، وبقيتنا عوائلُ سوداء. في أيامٍ كهذه يشكّل هكذا أمر خطرًا كبيرًا، ففي الشارع، يُتوقَّع من الناس أن تخشى وتكره كلَّ من لا ينتمي إلى نوعها. لكن مع تيقّظنا وتسلّحنا جميعًا، اكتفى الناس بالتحديق وتركونا وشأننا. حيُّنا صغيرٌ جدًا على ممارسة ألاعيب كهذه.

في البدء سار كلُّ شيء كما المعتاد. عائلة تالكوت تنازعتْ فيما بينها ثم دخلت في نزاعٍ مع عائلة موس، ديدنُ عائلةِ موس إلقاء ملامة أخطائهم على الآخرين لذا دائمًا ما يميلون إلى التجادل الصارخ مع بقيّتنا؛ بيتر موس هو الأسوأ لأنه يحاول دائمًا التشبّه بأبيه. أبوه أسوأ الرجال، وله ثلاث زوجات، كارن وناتالي وزهرا. كلّهن أنجبن منه، مع أنَّ زهرا، الأصغر والأجمل، لم تنجبْ منه سوى طفلةٍ واحدة. كارن هي زوجته القانونية، لكنها تركتْه يفلت دونما حسابٍ حين أحضر الأولى، ثم الجديدة، إلى البيت ودعاهما زوجتَيه. أظنها مع الوضع الحالي قدَّرت أنها لن تستطيع إعالةَ نفسها وأطفالها الثلاثة حين أحضر ناتالي، وأطفالَها الخمسة حين وجد زهرا.

عائلة موس لا تحضرُ إلى الكنيسة، فريتشارد موس ابتدع دينًا له، تجميعٌ من العهد القديم وطقوس تاريخية غرب-إفريقية. يدَّعي أنَّ الربَّ يريد من الرجال إقامة النظام الأبوي البطريركي، حيث الرجالُ قوّامون على المرأة ومدافعون عنها، وآباء الكثير من الأطفال. هو مهندسٌ لدى شركة ماء تجارية كبرى، لذا يسعه التقاطُ النساء اليافعاتِ الجميلات المشرّدات كي يعشْنَ معه في زواجٍ متعدد. بوسعه التقاط عشرين امرأة لو كان قادرًا على إطعامهن. فأنا أسمعُ بحدوث أشياء كهذه في الأحياء المجاورة، بعض الرجال من الطبقة الوسطى يثْبتون رجولتهم بارتباطهم بزوجات عدة إما في علاقات مؤقتة أو دائمة. بعضُ الرجال من الطبقة العليا يثبت رجولته بحصوله على زوجةٍ واحدة والعديد العديد من الخادمات اليافعات الجميلات القابلات للاستبدال، فحشٌ مقرف. ومتى ما حملتْ إحداهن ـ إن استنكف معيلُها الغنيُّ عن حمايتها ـ تلقي بها زوجةُ معيلها في الشارع وإلى الموت جوعًا.

أهكذا ستؤولُ الأمور؟ هل هذا مستقبلُنا: أعدادٌ هائلة من الناس عالقةٌ إما في نسخة دونر عن العبودية أو نسخة ريتشارد موس.

قدْنا دراجاتنا أعلى شارع ريفر، متجاوزينَ آخر سورٍ من أسوار الأحياء وآخر بيتٍ رثّ غيرِ مسوّر، ومتجاوزين آخر امتدادٍ من الاسفلت وصخور الراج والأكواخ المهلهلة حيث محتلّو البيوت وفقراء الشارع يحدقون فينا بتلك النظرة المرعبة، الخاوية، ثم أعلى الطريق الترابيّ إلى حيث التلال. أخيرًا ترجّلنا عن دراجاتنا وسرْنا بها أسفل المجاز الضيّق نحو أخدودٍ حيث نحن وغيرنا نتدرّب على

الرماية. هذه المرة بدا الأخدود على ما يرام، مع ذلك علينا دومًا توخّي الحذر، فالناس يستخدمون الأخاديد لأغراضٍ متعددة. إن حدث وعثرنا على جثةٍ في إحداها ابتعدنا عنها لبعض الوقت. بابا يحاولُ حمايتَنا مما يجري في العالم، لكن ليس بوسعهِ، ومدركًا ذلك، يحاول تعليمنا حماية أنفسنا.

معظمنا تدرّب في البيت ببنادقَ هوائية، نصوّب إما على أغراض أو سناجب وطيور. قمتُ بكل ذلك، تصويبي جيّد لكنني لا أهوَى قنصَ الطيور والسناجب، بابا من يصرُّ على تعلمي رميها. أخبرني بأنَّ التصويب على الأهداف المتحركة سيحسّن من مهارتي في الرماية. لا أظن هذا مقصده الوحيد، أظنّه أراد معرفة إن كان بوسعي فعلها، إن كان إطلاق النار على عصفورٍ أو سنجاب سيحفّز متلازمة فرط التقمص لديّ.

لم يحفزها، ليس تمامًا. لم يرُقْ لي إطلاق النار عليها، لكن ما كان مؤلمًا. كان إحساسًا غريبًا، مثلَ ضربةٍ قوية ناعمة، ضربة شبحيّة، كما لو أني رُميتُ بكرةٍ هائلة من الهواء، لكن ما كانت بنسيمٍ عليل، ولا تشبه الريح. الضربة، وإن تكن ناعمة، فمع السناجب وأحيانًا الجرذان تكون أقوى منها مع الطيور. وبكل الأحوال لزامٌ علينا قتل الثلاث، فهي تأكلُ طعامَنا أو تخرّبه، فثمار الأشجار ضحيتها المفضلة: الخوخُ، البرقوق، التين، البرسيمون، الجوز، والمحاصيلُ مثل الفراولة، العليق، العنب، أيًّا ما نزرع، إن كان بوسعها الانقضاضُ عليه ستنقضُّ. الطيورُ آفة الآفات لأن بوسعها الطيران،

ومع ذلك أهواها، أحسدُ قدرتها على الطيران. أحيانًا أنهض فجرًا وأقف خارجًا فقط حتى يتسنّى لي مشاهدتها دونما أحدٍ يذعرُها أو يطلق عليها النار. الآن وقد بلغتُ من العمر ما يكفي كي أذهب إلى تدريب الرماية أيام السبت، فلا أنوي قتلَ المزيد من العصافير، مهما يقولُ بابا. وبكلّ الأحوال، قدرتي على قنص عصفورٍ أو سنجابٍ لا تعني قدرتي على قنص إنسان، لصٍّ مثل اللصوص الذين نهبوا السيدة سمز. لا أعرف إن كان بوسعي، وإن فعلت، لا أعرف ما الذي سيجري عليّ، هل سأموت؟

أبي من يُلام على تركيز اهتمامِنا على المسدساتِ وإطلاق النار. هو يحملُ مسدسًا آليًا عيار تسع ملم كلما غادر الحيّ، يحملُه في خصره حتى يراه الناس، يقول إنَّ وجوده يحبطُ انزلاقَ الآخرين في الأخطاء. لا يعني هذا أنَّ المسلحين لا يُقتَلون، فمعظمهم يعْلَقُ في إطلاق نارٍ متبادل أو يُقتَل على يد قناص، لكنّ وتيرةَ موتِ غير المسلَّحين أسرعُ بكثير.

بابا يملك أيضًا مسدسًا شبه آلي عيار تسع ملم وبكاتم صوت، يتركُه لدَى كوري في البيت في حال وقع خطبٌ بينما هو في الخارج. كِلا المسدَّسين ألمانيّا الصنع – هكلر آند كوخ. لم يخبرْنا بابا من أين تحصّل على المسدس شبه الآلي، بالطبع المسدس غير قانونيّ، لذا أعذره، لكن لا بدّ كلفه ثمنًا باهظًا. مرات محدودة وحسب أخرجَه من البيت حتى يتسنّى له وكوري وأنا الاعتياد عليه، سيفعل الشيء ذاته مع إخوتي متى ما كبروا.

كوري تملكُ مسدس سميث آند ويسون، عيار ٣٨، وتتقنُ استخدامه. كان في حيازتها قبل زواجها من بابا، واليوم أعارتْني إياه. مسدساتنا ليست الأحدثَ ولا الأفضل في حيّنا، لكن كلها صالحةٌ للاستعمال. بابا وكوري يعتنيانِ بها حتى تبقى في حالٍ جيدة، والآن بات لزامًا عليّ المشاركة في هذه المهمة. ينفقانِ كل الوقت المطلوب على التدريب، وكلَّ المال المطلوب على الذخيرة.

اعتاد بابا، في اجتماعات لجنة الحيّ، حثّ البالغين في كلّ بيت على اقتناء السلاح والحفاظ عليه ومعرفة كيفية استخدامه. «اعرفْ سلاحَك كما تعرف راحةَ يدك» قال أكثر من مرة، «حتى تكونَ قادرًا على الدفاع عن نفسك في الثانية فجرًا كما لو كانت الثانية ظهرًا».

في البداية قلةٌ من الجيران اعترضوا. كبار السن قالوا أنَّ مهمةَ الشرطة حمايتهم، الأصغر عمرًا خشوا عثورَ أطفالهم على المسدسات، المتدينون رأوا ألا حاجة بقسٍّ إنجيلي لمسدس. ذاك كان قبل أعوام.

«الشرطة» قال لهم أبي «قد يثأرون لك، لكن لن يحْموك، فالأمور تزداد سوءًا، أما بشأن أطفالكم، حسنٌ، أجل، هي مخاطرة، لكن بوسعِكم إبقاء المسدسات بعيدًا عن متناول أيديهم بينما هم صغار، ثم تدريبهم عليها متى ما كبروا، هذا ما أنوي فعله، موقنٌ أنكم ستحظون بفرصةٍ أفضل في رؤيتهم يكبرون إن استطعتم حمايتهم». توقّفَ هنيهة، حدّق إلى الناس، ثم أردف «لي زوجةٌ وخمسة أطفال، سأصلّي لأجلهم جميعًا، لكني أيضًا سأحرصُ على تعليمهم كيف

يدافعون عن أنفسهم، وما دام فيّ نفَسٌ سأقف بين عائلتي وبين أيّ مقتحم» توقّف هنيهة أخرى «هذا ما أنا فاعل، وأنتم افعلوا ما تشاؤون».

اليوم لا يخلو بيتٌ من مسدَّسين على الأقل. بابا يشك أنَّ بعض تلك المسدسات، مثل مسدس السيدة سمز، مخبئةٌ بعناية بالغة حدًّا لن يكون في المتناول وقت الطوارئ. هو يعملُ الآن على حلّ هذه المعضلة.

كلُّ الأطفال الذين يؤمّون المدرسة في بيتنا يتلقّون تعليماتٍ أوليةً على استخدام المسدس. ما إن يجتازون تلك التعليمات ويبلغونَ الخامسة عشر، اثنان أو ثلاثة من رجال الحيّ يصحبونهم إلى التلال لأجل تمارينِ الرماية، أشبه بطقس عبور في حيّنا. أخي كيث ما ينفكُّ ينوح حتى يأخذه بابا ضمن مجاميع تمارين الرماية، لكن قانون السن صارم.

أنا قلقةٌ مما سيفعله كيث متى ما وضع يدَه على مسدس، بابا لا يبدو عليه القلق، لكني قلقة.

دائما ما نجد مجاميعَ قليلةً من المشردينَ وقطعانًا من الكلاب الضالةِ الوحشيةِ تعيش وراء آخر صفّ من الأكواخ أسفل التلال؛ الناسُ والكلابُ تصطاد الأرانب والأبوسوم والسناجب، وبعضها بعضًا. كلاهما ينقضُّ على أيّ جيفةٍ تقع عيناه عليها. اعتادت الكلابُ الانتماءَ إلى الناس، أو بالأحرى أسلاف الكلاب، لكن الكلبَ يأكل اللحم، وهذه الأيام لا شخص فقيرًا ولا من الطبقة الوسطى يملكُ في

يده قطعة لحم ويعطيها لكلب. الأغنياءُ ما زالوا يحتفظون بالكلاب، إما حبًّا أو بغْيَةَ حراسةِ ممتلكاتهم وأراضيهم ومؤسساتهم. ثمة الكثيرُ من أجهزة الحماية الأخرى في حوزة الأغنياءِ، لكن الكلابَ ضمانةٌ إضافية، الكلاب تُخيف الناس.

اليوم مارستُ القليلَ من الرماية. كنتُ متكئةً على جلمود، أرقب الآخرين يرمون، حين أدركتُ أنَّ ثمة كلبًا قريبٌ مني، يراقبني. كلبٌ واحد ذكر، أصفرُ بنّي، مستدقّ الأذنين وبوبرٍ قصير. ما كان كبيرًا كفايةً كي يصيّرني وجبته التالية، والسميث آند ويسون كان ما يزال في يدي، لذا بينما كان يتأمّلني، أمعنتُ النظر فيه. كان هزيلًا لكن لم يبدُ جائعًا، بدا متيقظًا وفضوليًّا. راح يتشمم الهواء، وتذكرتُ أنَّ الكلاب تستدلُّ طريقها بالرائحة لا البصر.

«انظري!» قلت لجوان غارفيلد التي كانت واقفة قربي.

استدارت، شهقَتْ، نخعَتْ مسدسها حتى تصوبه على الكلب، الكلب اختفي بين الأجمات وصخور الجلمود، وجوان راحت تتلفت حواليها كأنما تتوقع رؤية المزيد من الكلاب ترصدنا، لكن ما كان من كلب في الجوار. كانت ترتعش.

«أنا آسفة» قلت لها «لم أعرف بخوفك منها».

سحبتْ نفسًا عميقًا ونظرتْ نحو المكان حيث كان الكلب. «ولا أنا أيضًا» قالت هامسة، «لم أقف قَط على مقربةٍ من كلب، ليتني نظرت إليه جيدًا».

تلك اللحظة، صرختْ أورا موس وأطلقت النارَ من مسدس أبيها اللاما أوتوماتك؛ وثبتُ سريعًا عن الجلمود واستدرتُ فرأيت أورا تصوّبُ مسدَسها نحو صخورٍ وغدران.

«كان هناك!» الكلمة تتعثّرُ بالأخرى «حيوانٌ ما، أصفرُ قذرٌ بأسنانٍ كبيرة، فمه كان مفتوحًا، كان ضخمًا!».

«أيتها العاهرة الحمقاء، كدتِ تطلقين عليّ النار!» صاح مايكل تالكوت. وأرى الآن أنه توارى بسرعةٍ خلف جلمود. كان على مدى تصويب أورا، لكن لم يتعرّض للأذى.

«ضعي المسدسَ جانبًا أورا» قال أبي، أبقَى صوته خفيضًا، لكن كان غاضبًا. غضبه كان واضحًا لي، سواء رأته أورا أم لا.

«كان حيوانًا» قالت تصرّ على موقفها «حيوانٌ ضخم، لربما ما يزالُ في الجوار».

«أورا!» قال أبي بصوتٍ أعلى ونبرةٍ أحدّ.

نظرت أورا إليه، وبدت تعي أنَّ ليس الكلب وحده من يجب أن تقلقَ منه الآن. نظرتْ إلى المسدس في يدها، عبستْ، مرتبكةً وضعته على خاصية الأمان وأعادته في القراب.

«مايك؟» نادى أبي.

«أنا بخير» أجاب مايكل تالكوت «ليس بفضلها!».

«ليس خطئي» قالت أورا دونما تردد «كان هناك حيوانٌ، ولربما كان سيقتلُك! كان يتسلل نحونا».

«أظنه كان مجردَ كلب» قلت لهم «كلبٌ كان يقفُ هنا يراقبنا، فرَّ ما إن تحركتْ جوان».

«كان يجدر بكِ قتله» قال بيتر موس «ما الذي كنتِ تنتظرينه؟ أن ينقضَّ على أحدنا أولًا؟».

«ما الذي كان يفعلُه؟» سأل جاي غارفيلد «يراقبُ وحسب؟».

«أجل» أجبته «لم يبدُ لي مريضًا ولا جائعًا، وما كان حتى كبيرًا جدًا، لا أظنه شكَّل خطرًا على أيّ منا، فنحن كثر، وضخامٌ جدًا».

«المخلوقُ الذي رأيتُه كان ضخمًا» أصرت أورا «فمُه كان مفتوحًا!».

مضيتُ نحوها لأنَّ خاطرًا مفاجئًا خطر لي «كان يلهثُ» قلت لها «الكلابُ تلهث متى ما شعرتْ بالحر، لا تقصدُ أن تبدو غاضبةً أو جائعة». ترددتُ، ثم أردفتُ، «لم يسبق لكِ أن رأيت كلبًا، صحيح؟».

هزَّت رأسها.

«الكلابُ جريئة، لكنها ليستْ خطرة مع مجموعةٍ مثلنا، فلا داعي للقلق».

من ملامحِها أدركتُ أنها لم تصدقْني تمامًا، لكنها على الأقل اطمأنَّت بعض الشيء. بناتُ عائلة موس يعشْنَ في بيئة تنمّرٍ وانغلاق، بالكاد تتجاوزُ إحداهنَّ سور الحيّ. يتلقّينَ تعليمهن في البيت على يد أمهاتهن ووفق دين أبيهنَّ المبتدع، ودومًا ما يتلقين

النذير من الخطيئةِ والتلطخ بدنسٍ بقية العالم الخارجي. لذا فوجئتُ بانضمام أورا إلى تمرين ممارسةِ الرماية وتعليمات استخدام السلاح. آملُ أن يفيدها التمرين، وآمل النجاة لبقيتنا.

«لا أحدَ يتحركُ من مكانه» قال أبي، ثم رمقَ جاي غارفيلد ومضيا قليلًا نحو الصخور وأشجار البلوط الخفيضةِ كي يريا إن أصابت أورا شيئًا. أبقَى المسدسَ في يده بعد أن أزال عنه وضعيةَ الأمان، وغاب عن بصرنا فقط لدقيقة.

عاد وعلى وجهه ملامحُ عجزتُ عن قراءتها «ضعوا مسدساتكم جانبًا» قال لنا، «سنعود إلى البيت».

«هل قتلتُه؟» سألت أورا بفظاظة.

«لا، أحضروا دراجاتكم» هو وجاي غارفيلد تهامسا للحظة، وجاي غارفيلد تنهّد. جوان وأنا شاهدناهما، كنا محتارتَين وموقنتيْنِ أننا لن نسمع شيئًا منهما إلا متى ما أصبحا مستعديْنِ لإخبارنا.

«ليست مسألة كلبٍ ميّت» قال هارولد بالترِ خلفنا، جوان تراجعتْ للوراء كي تسير جانبه.

«إما قطيع كلاب أو قطيع بشر» قلت لهما، «أو ربّما جثة».

كانت جثة، كما عرفت لاحقًا، عائلة جثث: امرأة، صبيٌّ صغير في الرابعة، ورضيعٌ حديث الولادة، كلهم شبهَ مأكولين، لكن بابا لم يخبرْني إلا لدَى عودتنا إلى البيت. أما حين كنا في الأخدود، فكلُّ ما عرفناه أنه مهموم ومستاء.

«لو كان من جثةٍ في الأرجاء لكُنَّا شممنا رائحتها» قال هاري.

«ليس إن كانت ميتة للتو» رددتُ عليه.

جوان نظرتْ إليّ وتنهدتْ كما تنهيدة أبيها «إن كنتِ محقةً، فأين سنمارسُ تمرين الرماية المرةَ القادمة، هل ستكون هناك أصلًا مرةٌ قادمة؟».

بيتر موس وأبناء تالكوت علقوا في جدالٍ حول أورا وخطأ من كان أنها كادت تصيب مايكل. اضطر بابا لفكّ الجدال، ثم مضَى نحو أورا حتى يطمئنَّ عليها. قال لها شيئًا لم يتسنَّ لي سماعه، ورأيتُ دمعةً تنساب على وجهها. هي تبكي بسهولة، دائمًا ما تفعل.

مضى بابا عنها وبدا عليه الانزعاج، قاد بنا الطريقَ خارج الأخدود، سرنا مترجّلين عن دراجاتنا، نتلفتُ حوالينا طوالَ الوقت. صار بإمكانِنا رؤية كلابٍ أكثر، قطيعٌ كبيرٌ من الكلاب كان يرقبُنا، جاي غارفيلد تراجع إلى مؤخر الركب حتى يحمي ظهورنا.

«أخبرني أنَّ علينا البقاء معًا» قالت جوان بعد أن لمحتني أنظر خلفًا نحو أبيها.

«أنت وأنا؟».

«أجل، وهاري، أخبرني أنَّ على كلٍّ منا أن يحرسَ ظهر الآخر».

«لا أظن الكلابَ على هذا الحد من الغباء أو الجوع حتى تنقضَّ علينا في وضح النهار، الليلةَ ستنقض على مشرد تائهٍ وتلتهمه».

«بحقّ الرب، اخرسي!».

الطريقُ أعلى الأخدود كان ضيقًا، مكانٌ سيء تتعارك فيه الكلاب. قد يتعثرُ أحدنا على حافة الصخور المفتتة، أحدٌ أو كلبٌ قد يدفعُ بنا من على الحافة، ما يعني السقوط مئات الأقدام.

من أسفلنا، تناهت إلينا أصواتُ كلاب تتعارك، لربما نحن قريبون من أوجارها أو سكناها، أو لربما قريبون من وجبتها.

«إن اقتربتْ منا» قال أبي في صوتٍ هادئ وموزون، «اثبتوا، صوّبوا، أطلقوا، هذا ما سينقذكم، لا شيء آخر، اثبتوا، صوّبوا، أطلقوا، أبقوا أعينكم مفتوحةً وحافظوا على هدوئكم».

رددتُ الكلمات في عقلي ونحن نمضي أعلى المسار المتعرّج، لا شك أن أبي أراد منّا أن نرددها. التفتُّ إلى أورا ورأيتُ دموعها ما تزال تسحّ، ما تنفك تلطّخ وجهها بالتراب مثل طفلةٍ صغيرة، كانت منغلقة على نفسها وبلغت في بؤسها وخوفها حدًّا لن تكون نفعًا لنا.

بالكاد كنا بلغنا القمة وبدأت أعصابنا ترتخي، إذ مرّ وقتٌ لم ألمح فيه كلبًا، ثم من مقدمة الركب سمعنا ثلاث طلقات!

تجمّدنا في مكاننا، معظمنا عاجزٌ عن رؤية ما حدث للتو.

«واصلوا المشي» صاح أبي، «لا بأس، كلبٌ حاول الاقتراب منا».

«هل أنت بخير؟» ناديتُ عليه.

«أجل» أجابني، «فقط واصلوا المشي وأبقوا أعينكم مفتوحة».

واحدًا تلو الآخر، مرزْنا بمحاذاة الكلب الذي أصيب بالرصاص

وتجاوزناه. كان كلبًا رماديًّا، أكبرَ من الكلب الذي رأيته، وفيه رأيت جمالًا، إذ ذكّرني بالصور التي رأيتُها عن الذئاب. كان محشورًا على صخرةٍ معلَّقةٍ أقدامًا عدة أعلى سفح الأخدود المنحدر أمامنا.

تحرَّك، وفي رعشة جسده رأيت جراحه النازفة. عضضتُ لساني، فألمُه الذي لا بد يشعر به صار ألمي، ما العملُ الآن؟ أواصلُ المشي؟ لا أستطيع، خطوةٌ واحدة وقد أقع في التراب عاجزة أمام شدة الألم، أو لربما سأهوي عن الأخدود.

«لا يزالُ حيًّا» قالت جوان من خلفي، «لا يزالُ يتحرَّك».

قائمتاه الأماميتانِ تنتفضانِ وكأنما يجري، مخالبه تحكُّ الصخر.

ظننتني سأتقيّأ، بطني يؤلمُني أكثر وأكثر كأنما سيخٌ يثقبني. اتكأتُ على دراجتي بذراعي اليسرى، وبيدي اليمنى سحبتُ السميث آند ويسون، صوّبتُ، وأطلقتُ النار على رأس الكلب الجميل.

أحسستُ بصدمة الطلقة، ضربةٌ قويّة قاسية تتجاوز الألم، ثم أحسستُ بالكلب يموت. رأيته ينتخع، يرتعد، يمط جسده، ثم يجمُد. رأيته يموت. مثلما تنطفئ شعلةُ ثقاب كذا ذهب في غيابٍ مفاجئ للألم. الحياة فيه هبَّت، ثم خمدت. شعرتُ بجسدي يتنمل، ولولا الدراجة، لكنت انهرت.

الكل احتشد قريبًا مني، أمامي وخلفي، سمعتُ أصواتهم قبل أن يتسنَّى لي رؤيتهم بوضوح.

«مات» قالت جوان، «المسكين».

«ماذا؟» سأل أبي ملحًّا، «كلبٌ آخر؟».

ركّزتُ نظري عليه، لا بد أنه التف عائدًا بمحاذاة الجرفِ حتى يصل إلينا، لا بد كان يركض.

«الكلب عينه» أجبته، وقفتُ بظهرٍ منتصب، «لم يكن ميتًا، كان يتحرّك».

«لكني أصبته بثلاث طلقات».

«كان يتحركُ، أبانا أولامينا،» قالت جوان مصرّة، «كان يعاني، ولو لم تطلق لورن النارَ عليه لوجب على شخصٍ آخرَ أن يفعل».

بابا تنهّد، «حسنٌ، ما عاد يعاني الآن، فلنغادرْ هذا المكان» ثم بدا عليه استيعابُ ما قالته جوان ونظر إليّ، «هل أنتِ على ما يرام؟».

أومأتُ. لا أدري كيف بدوتُ حينها، فلم تبدُ على أحد أيّةُ ردة فعل تجاهي وكأني تصرفتُ بغرابة، لذا لا بد أني لم أظهر الكثير مما كنتُ أمر به. لا أحسب أحدًا غير هاري بالتر وكرتس تالكوت وجوان رآني أطلقُ النار على الكلب. نظرتُ نحوهم وكشَّر كرتس في وجهي، مال على دراجته وبحركةٍ بسيطة، كسلَى، سحب مسدسًا خياليًّا، صوّب بدقةٍ تجاه الكلب الميت، وأطلقَ رصاصة متخيّلة.

«باو! وكأنها معتادةٌ على إطلاق النار كل يوم» راح يقول، «باو!».

«هيّا، فلنمضِ من هنا» قال بابا.

عدنا للسير أعلى المجاز، غادرْنا الأخدودَ وشققْنا طريقنا نحو الشارع، ما عاد من وجودٍ للكلاب.

مشيتُ، ثم ركبت الدراجة، أقودها مع شعورٍ بالدوار. لم أكن قد تحررتُ بعد من الكلب الذي قتلتُ، شعرت بموته، ومع ذلك لم أمتْ. شعرتُ بألمه وكأنما إنسانٌ يتألم، شعرتُ بهبّة الحياة فيه وانطفائها، وها أنا ما أزال حيّة.

باو.

# ٥

**الإيمانُ**
**إمّا يستهلُّ الفعلَ ويرشدُ**
**أو لا يفعلُ شيئًا.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

الأحد، ٢ مارس ٢٠٢٥

السماءُ تمطر.

سمعنا ليلةَ البارحة على الراديو أنَّ عاصفةً كاسحةً آتية من المحيط الهادئ، لكنّ معظمَ الناس لم تصدّق. «ستهب علينا الريح» قالت كوري، «ريحٌ مع شيء من رذاذ المطر، أو جوّ معتدلٍ قليلًا، سنرحب به، لكن عدا هذا، لن يأتينا شيء».

فهذا كلُّ ما حصلنا عليه في الأعوام الستةِ الماضية. أتذكّر المطرَ قبل ستة أعوام، دوامات الماء في البركةِ الخلفية، لم تكن مرتفعةً كفاية

كي تدخلَ البيت، لكنها مرتفعةٌ بما يكفي لجذب إخوتي إلى الخوض واللهو فيها. كوري القلقةُ دومًا من التقاط عدوَى الأمراض ما كانت ستسمحُ لهم، قالت بأنهم سيتَرشرشونَ في حساءٍ من جراثيم ماء المجاري الذي نسقي به حدائقَنا لأعوام. ربما كانت على حق، لكنّ أطفال حيّنا لطَّخوا أنفسهم بالطين ودودِ الأرض ذاك النهار، ولا شيءَ فظيعًا حصل لهم.

تلك العاصفةُ كانت شبهَ استوائية، سريعةً، قاسيةً، دافئة، مطر سبتمبر، بقية الإعصار الذي ضرب ساحلَ مكسيكو على المحيط الهادئ. أما هذه فباردة؛ عاصفةٌ شتوية بدأت هذا الصباح بينما الناسُ مقبلونَ على الكنيسة.

في الجوقة أنشدْنا التراتيلَ القديمة الحماسية على إيقاع عزفِ كوري على البيانو يصاحبُه ضربُ الصواعق والرعد، كان مذهلًا، لكنّ بعضَ الناس فاتهم جزءٌ من العِظة لأنهم عادوا إلى بيوتهم كي يضعوا كلَّ البراميل والدلاء والسلالِ والأحواض والقدور وأيّ شيء وقعتْ عليه أيديهم خارجًا حتى يجمعوا الماءَ المجاني؛ آخرون عادوا كي يضعوا الدلاءَ والقدور داخلًا حيث الماءُ يتسرّب من السقف.

لا أذكر متى آخرَ مرة ترمَّمَ سقفُ بيتٍ من البيوت على يد محترفين. من حسن حظنا أنَّ كلَّ أسقفنا من الآجر الإسباني، أظن السقفَ القرميديَّ أكثرُ متانةً واستدامة من ألواح الإسفلت أو الخشب، لكنّ الزمنَ والريح والزلازلَ كلها تركتْ أثرًا؛ أغصانُ

الشجر تسببت بضررٍ أيضًا، مع ذلك لا أحدَ يملك مالًا إضافيًّا يهدره على شيءٍ غير ضروري كترميم السقف. في أفضل الأحوال، بعضُ رجال الحيّ -بأيةِ موادّ وقعت أيديهم عليها- يرقّعون السقف بألواحٍ مؤقتة، وحتى هذه لم يقم بها أحدٌ مذ زمن. فإن كانت السماءُ لا تمطرُ إلا مرةً كل ستة أو سبعة أعوام، فلم الاكتراث؟

حتى اليوم سقفُنا على ما يرام، والبراميل وغيرها التي وضعناها خارجًا بعد القداس ها هي ملأى أو تمتلئ. ماءٌ جيد، نظيف، مجانيٌّ من السماء. ليتها تمدنا بماءٍ أكثر.

الاثنين، ٣ مارس ٢٠٢٥

لا تزال السماءُ تمطر.

لا رعدَ اليوم، لكن ليل البارحة كنا لا نزالُ نسمع دويَّه. على مدار اليوم ظلَّ الرذاذ متواصلًا، مع هبّات مطرٍ غزير طوال النهار، مختلفٌ وجميل، ما سبق لي قَط أن غمرَني الماء هكذا. خرجتُ ومشيتُ في المطر إلى أن تبللْتُ، كوري لم ترضَ بخروجي لكني فعلتُها، وكم كان مذهلًا، كيف لها ألّا ترى ذلك؟ كان مذهلا ولا يصدق.

الثلاثاء، ٤ مارس ٢٠٢٥

آمي دن ماتت.

في عامها الثالث، مكروهة، ميتة. لا يعقل، كان بوسعها قراءة كلماتٍ بسيطة والعد حتى الثلاثين، أنا علَّمتها. كم أحبَّت الاهتمامَ

الذي منحتُها إياه حدَّ التصاقِها بي طوال ساعات المدرسة، حدًّا دفعني إلى الجنون، ما كانت تريدُني أن أذهبَ إلى الحمام إلا وهي معي.

ميتة!

كنتُ بدأتُ أحبها، رغم سلوكها الطفيليّ.

بعد حصّتنا اليوم رافقتُها إلى بيتها، كنتُ اعتدت على مرافقتها إلى بيتها لأن لا أحدَ من عائلة دن كان سيأتي لاصطحابها.

«تدلّ طريقها» كرسماس قالت، «فقط أرسليها إلينا، وستصل».

ما كان لديّ شكٌّ أنها تستطيع، إن مدَّت نظرها من بيتنا عبر الشارع وعبْر الجزيرة الوسطى سترى بيتها. لكن آمي تنزعُ إلى الطواف، إن أرسلتُها وحدها، قد تصل بيتها أو لربما تهيم في حديقة مونتايا تأكلُ العشب، أو في بيت الأرانبِ لدى عائلة موس تحاولُ إطلاق سراحِها. لذا سرتُ بها عبر الشارع، سعيدةً لوجود عذرٍ للمشي مرةً أخرى تحت المطر؛ آمي أيضًا أحبّت المطر، وفي الجزيرة تلكأنا دقيقةً أسفلَ شجرة الأفوكادو الكبيرة، كان ثمةَ شجرةُ برتقال السرّة على طرف الجزيرة الخلفي، قطفتُ منها ثمرتينِ ناضجتين، واحدة لآمي والأخرى لي، قشّرتُها وأكلناهما؛ المطرُ يلصق شعر آمي الخفيف الباهت برأسِها حتى بدت صلعاء.

أخذتها من يدها وتركتُها في رعاية أمها.

«ما كان من داعٍ لتركِها تتبلل هكذا» تذمّرتْ ترايسي.

«فلتستمتعْ بالمطر ما دام موجودًا» قلتُ ومضيت عنهما.

رأيتُ ترايسي تُدخل آمي البيتَ وتُغلق الباب، مع ذلك انتهَى الحال بآمي في الخارج مرةً أخرى، قريبًا من البوابةِ الأمامية، مقابلَ بيت عائلة غارفيلد/ بالتر/ دوري. جاي غارفيلد عثرَ عليها حين خرجَ ليستكشفَ ما ظنه صرَّةً أخرى رمَى بها أحدُهم من فوق البوابة، فالناس يُلقون علينا بالأشياء أحيانًا، هدايا حقدٍ وحسد: صرةً موبوءة باليرقان، جيفةَ حيوان، صرةَ خراء، وبين وقت وآخر طرفَ إنسانٍ مبتورًا أو طفلًا ميتًا؛ البالغون الأموات يُترَكونَ خارج سورنا. لكن كل أولئك غرباء، آمي كانت واحدةً منا.

أحدهم أطلق النارَ مباشرةً على آمي عبْر البوابة المعدنية، لا بد كان حادثًا لأنكَ ما كنت لترَى الحيَّ من خارج السور. مُطلق النار إما أطلقَ على شخصٍ واقف أمام البوابة أو على البوابة نفسها، على الحيّ، علينا نحن وعلى امتيازاتنا وثرائنا المفترض. معظمُ الطلقات ما كانت لتخترقَ البوابة، يُفترض بها أن تكون مصفحةً ضد الرصاص، لكن حدث أن اخترقتْها رصاصةٌ بين فترة وفترة، في الأعلى، قريبًا من القمة، والآن باتت لدينا ستةُ ثقوب جديدةٌ في الجزء السفلي، ستةُ ثقوبٍ والسابعةُ انبعاجٌ، غورٌ طويل أملسُ حيث ارتدّتْ رصاصةٌ دون اختراق.

نسمعُ الكثير من إطلاق الرصاص، ليلَ نهار، فرادَى أو انبثاقٌ مفاجئ وغريب من طلقاتِ الأسلحة الأتوماتيكية؛ وحتى -بين الفينة والأخرى- دويّ مدافعَ ثقيلةٍ أو انفجار قنابلَ يدويةٍ أو قنابلَ

أكبر. الأخيرة أكثر ما يقلقنا، لكن نادرًا ما تقع، فمن الصعبِ سرقةُ أسلحةٍ ثقيلة، وليس الكثيرُ من الناس حولنا يطيقُ تكلفة شراء غير القانونية منها، أو كذا يقول بابا. الأمر فحسب، أنَّنا اعتدنا سماعَ إطلاق النار حدًّا ما عدنا نسمعه. طفلانِ من عائلة بالتر قالا إنهما سمعا إطلاقَ نار، لكن كما المعتاد، لم يُعيرا بالًا، فالصوتُ آتٍ من الخارج، خلفَ السور، معظمُنا لم يسمع شيئًا سوى صوتِ المطر.

آمي كانت ستبلغ الرابعةَ في أسابيع، خططتُ لإقامةِ حفلةٍ صغيرةٍ لها مع بقيةِ أطفالي في الحضانة.

يا الله، كم أكرهُ هذا المكان.

أعني، أنا أحبّه، فهو موطني وأولاءِ الناس عشيرتي، لكني أكرهه. فالمكانُ بات كما الجزيرة المحاطةِ بأسماك القرش، عدا أنَّ أسماكَ القرش لن تزعجَكَ ما دمتَ لن تخوضَ في الماء، لكنَّ أسماكَ قرش البرِّ في طريقها إلينا، إنها مسألةُ وقت حتى تجوعَ كفاية.

الأربعاء، ٥ مارس ٢٠٢٥

مشيتُ في المطر هذا الصباح، كان باردًا، لكن منعشًا. آمي ترمَّدت، أتساءلُ إن ارتاحت أمّها الآن بعد أن انزاح همُّ آمي عنها. لا تبدو لي مرتاحة، لم تحب آمي قَط لكنها تبكي الآن، ولا أظنها تدّعي البكاء. العائلةُ تحملت كلفةً لا تطيقُها كي تستدعي الشرطةَ وتحاولَ العثور على القاتل؛ أظن أن الخيرَ الوحيد الذي سيتأتى عن

تدخلهم طردُ فقراء الناس القاطنينَ على الأرصفة والشوارع القريبة من سورنا.

أحقًّا خير؟

ففقراءُ الشارع سرعان ما سيعودون، ولن يحبّونا على إقحامنا الشرطةَ في شؤونهم، فمن غير القانونيّ التخييمُ على الشوارع كما يفعلون -كما هم مضطرون- وبذا ستنهال الشرطةُ عليهم ضربًا وتسلبُهم أيَّ شيء يستحق السرقة، ثم تأمرُهم بالرحيل أو تحبسهم في السجن. حينها سيزدادُ البؤساء بؤسًا، ولا شيء من هذا ينفعُ آمي، لكن لربما سيخففُ من وطأة إحساس عائلة دن بالذنب تجاه أسلوبِ تعاملهم معها.

في السبت، سيُلقي بابا العِظة في جنازة آمي. ليتني لم أضطر للتواجد هناك، الجنائز ما ضايقتني قَط، لكن هذه الجنازةَ مختلفة.

«أنتِ اكترثْتِ لآمي» قالت لي جوان غارفيلد لدى شكوايَ إليها؛ كنّا قد تناولنا الغداء معًا في غرفة نومي لأن المطرَ خارجًا كان لا يزال متقطعًا، وبقية البيت كان مزدحمًا بكل الأطفال الذين لم يعودوا إلى بيوتِهم لتناول الغداء. لكنّ غرفتي لا تزال لي لوحدي، المكانُ الوحيدُ في العالم الذي يمكنني دخوله ولا يلحقني أحدٌ دون دعوة مني. لا أعرفُ شخصًا آخر سواي يملكُ غرفةً لنفسه هذه الأيام، حتى بابا وكوري يطرقانِ بابي قبل الدخول، من خيرة مزايا كونك الابنة الوحيدة في العائلة. طبعًا ما زلتُ مضطرةً إلى طرد إخوتي منها على الدوام، لكنْ على الأقل بوسعي طردُهم خارجها. جوان

وحيدة أبويها، مع ذلك تتشارك في غرفتِها مع ثلاث فتياتٍ يافعات من أقربائها، ليزا المتذمرةُ لا تنفكّ تطالب وتتشكّى؛ روبن المقهقهةُ الذكيةُ بمعدل آي كيو يلامسُ العبقرية؛ جيسيكا الخفيّةُ التي تهمسُ وتحدّق في قدمَيها وتصيح باكيةً إن رمقْتها بنظرةٍ مسيئة. كلهن بنات عائلة بالتر، شقيقاتُ هاري وأبناء خالة جوان. الشقيقتان البالغتان وزوجاهما وأطفالهما الثمانية وأبواهما السيد والسيدة دوري كلهم محشورون في بيتٍ من خمس غرف نوم، ويظل ليس بالبيت الأشد اكتظاظًا في الحيّ. وكم أنا سعيدةٌ بأن لا داعيَ لأن أعيشَ تلك العيشة.

«تقريبًا لا أحدَ اكترث لآمي» قالت جوان، «لكن أنتِ اكترثتِ».

«أجل، من بعد الحريق، فقد خشيتُ عليها حينذاك، لكن قبلَ الحريق تجاهلتُها مثل الجميع».

«والآن الذنبُ يساورك؟».

«كلا».

«بل يساورك».

نظرتُ إليها متفاجئة «أنا أعني ما أقول، كلا، أكرهُ كونَها ميتةً، وأشتاق إليها، لكني لم أتسببْ بموتها، أنا فقط لا يسعني إنكار ما الذي يُفشيه موتها عنّا جميعًا».

«ماذا؟».

وجدتُني على وشك الكلام معها عن أشياء ما تكلمت عنها قَط،

أشياء كتبتُ عنها. أحيانًا أكتبُ كي لا أجنّ، ثمةَ عالمٌ من الأشياء التي لا أشعرُ بحرية الكلام عنها لأي أحد.

لكنَّ جوان صديقةٌ وتفهمُني أكثر من معظم الناس، وتملك عقلًا، لم لا أتكلمُ معها؟ فعاجلًا أم آجلًا سينبغي لي أن أتكلم.

«ما الخطب؟» كانت قد فتحتْ وعاءً بلاستيكيًّا من سلَطة الفاصوليا، والآن وضعته على المنضدة جانب سريري.

«هل سبق أن خطرَ إليك أنه لربما آمي والسيدة سمز هما المحظوظتان؟» سألتها، «أعني، هل تساءلتِ أبدًا عمّا سيجري على بقيتنا؟».

صفقةُ رعدٍ مكتومةٌ خافتة، وفجأةً انهمارٌ غزير، تقاريرُ الطقس على المذياع تقول إنَّ مطرَ اليوم آخرُ أمطار العاصفة الممتدةِ لأربعة أيام، أرجو ألّا يكون صحيحًا.

«بالتأكيد تساءلتُ، مع كبارٍ يطلقون النارَ على الأطفال كيف لي ألا أتساءل؟».

«الكبارُ يقتلون الأطفال مذ كان للناس وجود».

«لكن ليس هنا، لم يحدثْ أبداً قبل الآن».

«وهنا مربطُ الفرس، أليس كذلك؟ ما حصلَ نذيرٌ لنا حتى نصحو، النذير الأول».

«ما الذي تعنينه؟».

«آمي كانت أولَ من يُقتل على هذا النحو، ولن تكونَ الأخيرة».

تنهَّدت جوان، رعدةٌ تسري في تنهيدتها، «إذن أنتِ أيضًا تظنين ذلك؟».

«أجل، لكن لم أعرفْ أنك تُفكّرينَ بالأمر».

«اغتصابٌ، سطو، والآن جريمة، بالطبع كنتُ سأفكّر، الكلّ يفكّر فيما حدث، الكل قلق، ليت كان بوسعي مغادرة المكان».

«وأين كنتِ ستذهبين؟».

«هنا المشكلة، أليس كذلك؟ لا مكانَ نفرُّ إليه».

«لربما هناك».

«ليس إن لم تملكي المال، ليس إن كان كلُّ ما تعرفينه رعايةَ الأطفال والطهو».

هززتُ رأسي «ما تعرفينه أكثرُ بكثير من هذا».

«ربما، لكن لا شيء منها يهم، لن يكونَ بوسعي تحمّل تكلفةِ الجامعة، لن يسعَني الحصولُ على وظيفة أو الانتقال خارج بيت أهلي، فلا وظيفة ستمكّنني من إعالة نفسي وليست هناك أماكن آمنة أنتقلُ إليها، سحقًا! أبواي ما زالا يعيشان مع أبويهما».

«أدري، وعلى سوئه فهناك ما هو أسوأ».

«أسوأ؟ ألا يكفينا ما لدينا؟» كانت بدأت تناول سلطة الفاصولياء، بدت شهية، وخطرَ لي أني على وشك إفساد الوجبة عليها.

«هناك الكوليرا التي بدأت تتفشَّى في جنوب مسيسيبي ولويزيانا» قلت لها، «سمعتُ بالأمر البارحةَ على الراديو، فهناك الكثيرُ من الفقراء، أميّون، عاطلون، مشردون، بلا مرافق صحيةٍ لائقة ولا ماءٍ نظيف، لديهم الكثيرُ من الماء، لكن معظمَه ملوثٌ، وهل تعرفين ذاك المخدّرَ الذي يغوي الناس إلى إشعال الحرائق؟».

أومأتْ، فمُها ما زال يمضغ.

«عاد ينتشرُ من جديد، كان منتشرًا على الساحل الشرقي، وها قد وصل الآن شيكاغو. يقول المراسلون أن المخدّر يجعلُ مشاهدةَ النار أشدَّ متعة من الجنس، لا أدري إن كان المراسلون يستنكرونه أم يسوّقون له» سحبتُ نفسًا عميقًا، «الأعاصيرُ في ألاباما وكنتاكي وتينيسي وولايات أخرى تحطم كل ما في طريقها، ثلاثمائة شخص ماتوا حتى الآن، وهناكَ عاصفة ثلجية شديدة جمّدت شمالَ الغرب الأوسط حصدت أرواحًا أكثر حتى من الأعاصيرِ؛ في نيويورك ونيوجيرسي وباءُ الحصبة يقتل الناس، الحصبة!».

«سمعت بأمر الحصبة» قالت جوان، «غريب، حتى إن كان الناسُ لا يطيقون تكلفة التطعيم، فلا يُفترض بالحصبةِ أن تقتل».

«هؤلاء الناس كانوا نصفَ موتى من الأساس» قلت لها، «عانوا بردَ الشتاء، جائعون، مصابون بأمراض أخرى، وبالطبع ليس بوسعِهم تحمل تكلفة التطعيم، نحن محظوظون أنَّ آباءنا تدبّروا المال حتى نتلقّى كل تطعيماتنا، لكن إن أصبح لدينا أطفال، فلا أعرف كيف لنا أن نفعلَ ذلك لأجلهم».

«أدري، أدري» بدت شبه ضجرة، «الأمور سيئة، أمي تأملُ -مع قدوم الرجل الجديد، الرئيس دونر- أن تبدأ الأمور بالعودة إلى الوضع الطبيعي».

«الطبيعي!» تمتمت، «وما الطبيعيُّ، هل تتفقين مع أمك؟».

«لا، دونر لا يملكُ فرصة، أظنه سيصلحُ الأمور إن كان بيده، لكن هاري يقول إنَّ أفكاره مرعبة، يقول إنه سيجرُّ البلادَ مائة عام إلى الوراء».

«أبي يقول شيئًا كهذا، أنا متفاجئةٌ أنَّ هاري يتفق معه».

«بالتأكيد سيتفق، فأبوه يبجّلُ دونر كما لو كان الربّ، وهاري أبدًا ما كان يتفقُ مع أبيه على شيء».

مشتتةَ البال ضحكتُ، أفكّر بمعاركِ هاري مع أبيه، مفرقعات الحيّ، الكثير منها، لكن لا نار حقيقية.

«ولِمَ تودّين الحديث في تلك الأمور؟» سألتني جوان، تعيدُني إلى النار الحقيقية، «فلا شيء بيدنا فعله».

«يجبُ علينا أن نفعل شيئًا».

«أن نفعل ماذا؟ نحن في الخامسة عشر! ما الذي بيدنا فعله؟».

«بيدنا أن نكونَ مستعدين، هذا ما ينبغي بنا فعله الآن، الاستعدادُ لما هو قادم، الاستعدادُ للنجاة منه، لبناءِ حياة من بعده. التركيز على تدبّر نجاتنا بحيث لا نكون كرةً يتقاذفها المجانين واليائسون والسفاحون، والقادةُ الذين لا يفقهون ما هم فاعلون».

حدقتْ فيَّ «لا أدري عمَّ تتكلمين!».

لربما عليّ أن أخففَ من اندفاعي، «أتكلمُ عن هذا المكان، جو، عن حيّنا المسوَّر ذي الطريق المسدود، أتكلمُ عن اليوم الذي تقررُ فيه عصابة الرعاع من اليائسين والمجانين والجياع اقتحامَ المكان. أتكلم عمّا علينا فعله قبل وقوع ذلك حتى تتسنَّى لنا النجاةُ وإعادة بناء حياتنا، أو على الأقل النجاةُ والفرار إلى حيث نكونُ أيَّ شيء عدا متسولين».

«أحدهم سيحطم سورَنا ويدخل؟».

«بل يفجّره، أو يفجّر البوابة الأمامية، سيحدث يومًا ما، وأنت تعرفين ذلك كما أعرفه أنا».

«أوه لا، لا أظن ذلك» قالت معترضةً، انتصبتْ في جلستها، شبهَ متيبسة، ناسيةً للحظة غداءها، بينما عضضتُ على قطعةٍ من خبز جوز البلوط ملأى بالفاكهة المجففةِ والمكسرات، طعامي المفضل، لكني رحتُ أبلع وأمضغُ دون الانغماس في طعمه.

«جو، نحن مقبلون على كارثة، أنتِ اعترفتِ للتو بذلك».

«أكيد، إطلاقُ نار أكثر، حوادثُ سطو أكثر، هذا ما كنتُ أعنيه».

«ولأمدٍ من الزمن هذا ما سيحدث، ليت بيدي تقدير أمده، سنتعرضُ للضرب، المرة تلو المرة، إلى أن تأتي الضربةُ القاضية، وإن لم نكن مستعدّين لها، فسنلاقي مصير أريحا».

ظلّت على تصلّبها ورفضها، «وما أدراك؟ فليست بيدك قراءةُ المستقبل، لا أحد بيده».

«بل بيدك» قلتُ لها، «إن أردتِ، الأمرُ مخيف، لكن متى ما تخطيتِ الخوف، سيغدو سهلًا. أحياءٌ مسورةٌ في لوس أنجلوس، أكبرُ وأقوى من حيّنا، ما عاد لها اليوم من وجود، لا شيء تبقّى منها سوى الأطلال والجرذان ومحتلّو البيوت، وما وقع عليهم سيقع علينا، سنموتُ هنا إلا إذا شمَّرنا عن سواعدنا الآن وبذلنا أقصَى جهدنا في توفير سبلٍ للنجاة».

«إن كنت حقًّا تظنين ذلك، لم لا تخبرينَ أبويك؟ لم لا تحذرينَهما وتسمعين رأيهما؟».

«أنوي ذلك في أقرب وقتٍ ممكن، متى ما فكرتُ بالطريقة الأنسب لإخبارهما، وإن كنت أظنّهما يعرفان، على الأقل أظنُّ أبي يعرف، بل ومعظم البالغين، هم لا يريدون لنا أن نعرف، لكنهم يعرفون».

«لربما أمي محقة بشأن دونر، صدقًا بيده فعل شيء».

«لا، دونر مجرد درابزين بشريّ».

«ماذا؟».

«أعني أنه أشبهُ برمز من الماضي نتشبّثُ به بينما يُدفَع بنا دفعًا نحو المستقبل، هو لا شيء، لا فائدةَ تُرتجى منه، لكن وجوده -كونه الأخير من سلالة طويلة من الرؤساء الأميركيين على مدار القرنين ونصف

الماضيين- يوهمُ الناس بأنَّ البلد -الثقافة التي نشأوا عليها- ما يزال موجودًا، وبأننا سنتجاوزُ هذه الأيامَ الصعبة ونعود إلى الوضع الطبيعي».

«بيدنا» قالت لي، «لربما سنتجاوزُها، أظن يومًا ما سنتجاوزُها».

لا، هي لا تظنُّ ذلك، هي أذكى من تصديقِ الطمأنينةِ الزائفة في إنكارها، لكن حتى الطمأنينة الزائفة تظلُّ خيرًا من لا شيء، فحاولتُ مقاربةً أخرى.

«هل قرأتِ عن الطاعون الدبلي في أوروبا العصور الوسطى؟».

أومأتْ، فهي تقرأ كثيرًا كما أقرأ أنا، كلَّ صنوف الكتب، «القارةُ فَقدتْ معظم سكانها» قالت لي، «بعضُ الناجين ظنّوا أنها نهاية العالم».

«أجل، لكن ما إن أدركوا أنها ليست نهايةَ العالم، حتى أدركوا أيضًا أنَّ مساحاتٍ شاسعةً من الأراضي باتت مشاعًا للاستحواذ، وإن كان أحدُهم يمتهنُ حرفة، فقد بات له أن يطالبَ بأجرٍ أكبر؛ الكثيرُ من الأمور تغيّرتْ في حياة الناجين».

«وما الذي ترمينَ إليه؟».

«التغيير» فكرتُ للحظةٍ ثم أردفت، «كانت تغييراتٌ بطيئة مقارنةً بما قد يحصلُ هنا، لكن تطلَّب الأمرُ وباءً كي يقتنعَ الناس بأنَّ وجب على الأحوال أن تتبدّل».

«إذن؟».

«الأحوالُ تتبدل الآن، ولأن لا وباء مسحَ البالغين في حياتنا عن

الوجود فها نحن لا نزال متشبّثين بجلباب الماضي، في انتظار عودة الأيام الخوالي من جديد، لكن الأمور تغيرت كثيرًا، وعلى وشك أن تتغيرَ أكثر، فمن طبيعة الأشياء التغيير، وما نعيشُه الآن قفزةٌ كبيرة بدلًا من التغيير الذي يدبُّ خطوةً خطوةً فيسهلُ على الناس استيعابه. الناس غيروا مناخَ العالم، والآن ينتظرون عودةَ الأيام الخوالي».

«يقول أبوكِ إنه لا يصدق أنَّ الناس مَن غيروا المناخ، رغم كل كلام العلماء. يقول إنَّ الربَّ وحده من بيده تغييرُ العالم على هذه الصورة المتطرفة».

«وهل تصدقينه؟».

فغرتْ فاها، نظرت إليّ وأطبقت فمها، بعد برهة قالت «لا أدري».

«لأبي غفلاته» قلت لها، «هو خيرُ رجلٍ أعرفه، لكن حتى هو له غفلاته».

«وما الفرق؟» سألتني، «فليس بيدنا إعادةُ المناخ إلى ما كان عليه، أيًّا يكن السببُ الذي أدّى أصلا إلى التغيير. لا أنا ولا أنتِ بيدنا، ولا بيد الحيّ، لا شيء بيدنا فعله».

هنا فقدتُ صبري، «إذن فلنقتلْ أنفسنا الآن وننتهي من الأمر».

عبستْ، وجهُها الدائري الجديّ شبه غاضب، راحت تمزّق نتفًا من قشر برتقالة سرةٍ صغيرة، «إذن ماذا؟» ردَّت منزعجة، «ما الذي بيدنا فعله؟».

وضعتُ الكسرةَ الأخيرة من خبز جوز البلوط جانبًا وسرتُ حولها نحو منضدتي الليلية، تناولتُ كتبًا عدة من الجارور السفلي، عميقًا داخله، وأريتها «هذا ما كنت أفعله على مرّ الشهور الماضية، أقرأ هذه الكتبَ وأدرسها جيدًا، الكتبُ عتيقةٌ كما حال كل الكتبِ في بيتنا، كذلك، متى ما سمح لي بابا، استعنتُ بحاسوبه لقراءة الجديد».

عابسةً، تفحَّصتْ الكتب، ثلاثةُ كتبٍ حول النجاة في البريّة، ثلاثة حول الأسلحة وإطلاق النار، كتابان أحدهما عن التعامل مع الطوارئ الطبية، حول النباتات الطبيعية والمستوطنة في كاليفورنيا، والآخر حول أساسيات الحياة كبناء الأكواخ ورعي الماشية وتربية الدواجن والحراثة وصنع الصابون، أمور من هذا القبيل. وفورًا استوعبت جوان ما أرمي إليه.

«ما الذي تفعلينه؟ هل تحاولينَ تعلم الاعتماد على الأرض؟».

«أحاول تعلّمَ كل ما بيدي تعلّمُه حتى أنجو خارج الأسوار، وأرى أنَّ علينا جميعًا دراسةَ كتبٍ كهذه. أرى أنَّ علينا أن ندفنَ مالًا وغيره من الضرورات حيث لا تصل أيادي اللصوص، كما أنَّ علينا إعداد حقائب طوارئ، نلتقطها ونفرّ بها، في حال اضطررنا إلى مغادرة الحيّ على عَجل، مال، طعام، ملابس، أعواد ثقاب، لحاف؛ وأظن أن علينا تحديدَ أماكنَ خارجَ السور نلتقي عندها في حال انفصلنا عن بعضنا؛ تبًّا، ثمة أمورٌ كثيرة أراها، وأدري، أدري! أنّي مهما فكّرتُ في تلك الأمور التي ينبغي لنا فعلها، فلن تكونَ

كافية، كلّ مرة أغادر بها أحاولُ تخيّل كيف ستكونُ عليه الحياة دونما أسوار، فأدركُ أني لا أعرف شيئًا».

«إذن لماذا؟».

«أنوي النجاة».

حدقتْ فيَّ وحسْب.

«أعني تعلّمَ كلّ ما بيدي تعلمه ما دمت قادرة» قلت لها، «في حال وجدتُ نفسي خارجًا، لربما ما أتعلمه الآن سيساعدني حينذاك على أن أعيشَ عمرًا أطول بما يكفي لتعلم المزيد».

ابتسمتْ لي ابتسامة متوترة، «على ما يبدو قرأتِ الكثير من كتب المغامرات؟».

عبست، كيف لي أن أصلَ إليها، «الأمر ليس مزحةً جو».

«وماذا تسمينه إذن؟» أكلتْ آخرَ قطعة من البرتقالة، «ما الذي تريدين مني قوله؟».

«أريدكِ أن تأخذي الأمرَ بجديّة، أنا مدركةٌ أني أعرف القليلَ وحسب، لا أحد منا يعرفُ سوى القليل، لكن بيدنا جميعًا التعلم، ثم لنا أن يُعلم أحدُنا الآخر، بيدنا الكفّ عن إنكار الواقع أو التأمل بأنه سيختفي بفعل حيلةٍ سحريّة».

«أنا لا أفعل ذلك».

للحظةٍ نظرتُ خارجًا نحو المطر، أهدئ نفسي.

«حسنٌ، حسنٌ، وما الذي تفعلينه؟».

اعترَتْها ملامحُ عدم الارتياح، «ما زلتُ لست واثقةً أن بيدنا حقًّا فعل شيء».

«جو!».

«أخبريني ما الذي بيدي فعله حتى لا أقعَ في مشاكلَ أو يظنني الجميع مجنونةً، فقط أخبريني شيئًا».

أخيرًا، «هل قرأتِ كل كتب عائلتك؟».

«بعضَها، ليس كلها، فليس كلُّ الكتب تستحقُّ القراءة، والكتب لن تنقذنا».

«لا شيء سينقذُنا، إن لم ننقذْ نحن أنفسَنا فنحن هالِكونَ لا محالة، والآن، استخدمي خيالكِ، هل من كتبٍ على رفوف عائلتكِ لربما تعينكِ إن علِقْتِ خارج السور؟».

«لا».

«تعجلْتِ الإجابةَ، اذهبي إلى بيتكِ وألقي نظرة أخرى، وكما قلت، استخدمي خيالك، أيُّ نوعٍ من المعلومات سيساعدكِ على النجاة، سواءً من الموسوعات أو السِير الذاتية، أيُّ شيءٍ يساعدنا على الاعتماد على الأرض والدفاع عن أنفسنا، حتى الروايات قد تساعد».

رمقتني شزرًا، «أراهنكِ أنها لن تساعد».

«جو، إن لم تجِدي نفعًا في تلك المعلومات فلن يضرّكِ معرفتها،

ستعرفين اليوم أكثر مما عرفتِ البارحة، فما الضرر؟ بالمناسبة، هل تدوّنين الملاحظات لدى قراءتك؟».

نظرةٌ متوجسة، «أحيانًا!».

«اقرئي هذا» وناولتُها كتابًا عن النباتات. هذا الكتابُ عن الهنود الحمر في كاليفورنيا، النباتات التي استفادوا منها وكيف استفادوا منها، كتابٌ صغير وممتع ومثير للاهتمام. ستفاجأ به، لا شيء فيه يخيفُها أو يهددها أو يدفع بها إلى الحافة، إذ أظنني أخفتها بما يكفي.

«دوّني ملاحظاتك» أخبرتُها، «سيساعدكِ أكثر على التذكر إن فعلتِ».

«ما زلتُ لا أصدقك» قالت لي، «لن تؤول الأمورُ بالضرورة إلى السوء الذي تظنين».

وضعتُ الكتابَ بين يديها، «ركّزي على ملاحظاتك، وأعيري اهتمامًا خاصًّا للنباتات التي تنمو بين إقليمنا والساحل، وبين إقليمنا وأوريغون على طول الساحل، سترين أنّي علّمتُ المواقع على الكتاب».

«أخبرتكِ أني لا أصدقك».

«لا يهمني».

نظرتْ نحو الكتاب، مررتْ يدَيها على جلدته السوداء من القماش والورق المقوى، «إذن سنتعلمُ أكل الحشيش والحياة في الأدغال؟» تمتمت لنفسها.

«سنتعلم النجاة» قلت لها، «الكتابُ جيّد، اعتني به، فأنتِ تعرفين إلى أيّ حد أبي متعلقٌ بكتبه».

الخميس، ٦ مارس ٢٠٢٥

المطرُ توقف. نوافذي تطلُّ على الجانب الشمالي من البيت ولي أن أرى السحبَ تنقشع، الريحُ تنفخها نحو الجبال في طريقها إلى الصحراء. عجيبٌ كيف لها أن تتحركَ بهذه السرعة، الريحُ باردة وقوية، وستكلفنا أشجارًا عدة. أتساءلُ كم من السنين ستمضي علينا قبل رؤيةِ المطر من جديد.

# ٦

**أحيانًا**

**يموتُ الغرقَى**

**وهم يصارعونَ يدَ الإنقاذ الممدودة.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

السبت، ٨ مارس ٢٠٢٥

جوان نقلتْ الكلام.

نقلت الكلامَ إلى أمّها، مَن نقلتهُ إلى أبيها، مَن نقله إلى أبي، مَن استهلَّ معي محادثة من تلك المحادثات الجديّة.

اللعنة عليها، اللعنة عليها!

اليومَ رأيتُها في القداس الذي أقمناه لروح آمي والبارحةَ رأيتها في المدرسة، ولا كلمة نطقتْها عمّا فعلتْ بي. تبيّن أنها أخبرت أمَّها

الخميس، وربما كان يفترض بالأمر أن يبقى سرًّا بينهما أو ما شابه، لكن، أوه، فيليدا غارفيلد كانت جدُّ قلقةً عليّ، قلقةً مني، ولم يرق لها إخافتي جوان، وهل كانت جوان خائفة؟ على ما يبدو لا، ليس بما يكفي كي تشغّل عقلها. لطالما بدت جوان جدّ عاقلة، هل ظنَّت أنها بتوريطي في مشكلة ستطردُ الخطر بعيدًا عنا؟ لا، ليس هذا، بل إنكارٌ على إنكار: اللعبةُ الغبية التافهة ذاتها «إن لم نتحدثْ عن الأشياء السيئة فلربما لن تقع لنا» غبية! لن يسعَني بعد الآن إخبارها بأي شيء ذي أهمية.

ما الذي كان سيحدثُ لو أني انفتحتُ عليها أكثر؟ لو أني تحدّثتُ معها عن الدين، لرغبتُ في ذلك، لكن كيف سيتسنّى لي بعد اليوم محادثة أيّ شخصٍ بشأن الدين؟

ما قلته ارتدَّ عليَّ الليلة، السيد غارفيلد تكلم مع أبي بعد الجنازة، كان أشبه بلعبة التهامس التي يلهو بها الأطفالُ الصغار، الرسالةُ عبرت كلَّ الطريق من «نحن في خطرٍ هنا وعلينا أن نبذل كل جهودنا لإنقاذ أنفسنا» إلى «لورن تتكلمُ عن الفرار لأنها خائفةٌ من ثورة الغرباء وإطاحتهم الأسوارَ وقتلهم إيانا جميعًا!».

حسنٌ، قلت شيئًا من هذا القبيل، وجوان أبدتْ بكل صراحة اعتراضَها، لكنني لم أذكر فقط التنبؤاتِ السيئةَ كما غراب الشؤم: «سنموت جميعًا، بوو-هوو،» إذ ما الفائدة؟ مع ذلك، السلبي وحسب من كلامي رُدَّ إليّ.

«لورن، ما الذي قلتهِ لجوان؟» سألني أبي بحزم، كان قد دخلَ

غرفتي بعد العشاء عوضًا عن إنهاء العمل على عِظته لقداس الغد. جلس على كرسيّي الوحيد وحدّق إليّ بنظرةٍ توحي بـ «أين عقلُكِ؟ ماخطبُك؟» تلك النظرةُ مع ذكر اسم جوان أنبأتني بما حصل، عمَّ سؤاله إياي، صديقتي جوان، اللعنة عليها!

جلستُ على سريري ونظرتُ إليه، «أخبرتُها أننا مقبلون على أوقاتٍ صعبة وخطيرة، وحذرتها أنَّ علينا من الآن تعلُّمَ كلِّ ما بيدنا تعلمه حتى تتسنَّى لنا النجاة».

وهنا أخبرني كم منزعجة هي أمُّ جوان، كم منزعجة هي جوان، وكيف أنَّ كلْتَيهما تظنانِ أنَّ عليَّ «التحدثَ مع أحدهم» لأني أرى عالَمنا مقبلاً على نهايته.

«وهل تظنين عالَمنا مقبلٌ على نهايته؟» سألني بابا، وبلا أيةِ مقدمات انتابتْني رغبة عارمة بالبكاء، وبذلتُ كل ما بيدي فعله لئلّا أبكي. ما قلته في دواخلي، «كلا، بل أظن عالمكَ مقبلٌ على نهايته، ولربما أنتَ معه». كانت خاطرة مريعة، إذ ما سبق لي أن فكرتُ بالأمر على هذا النحو الشخصي. استدرتُ وتأملتُ خارج النافذة إلى أن هدأتُ، حين عدتُ والتفتُّ إليه أجبته، «أجل، ألا تظن أنت ذلك؟».

عبس في وجهي، لا أظنه توقع إجابةً كهذه مني، «أنتِ في الخامسة عشر» قال لي، «ولا تفهمين حقًّا ما الذي يجري هنا، المشاكلُ الحاليةُ هي تراكماتُ أعوام طويلة قبل حتى ولادتك».

«أدري!».

كان لا يزالُ عابسًا، تساءلتُ عمّا يريد مني قوله، «إذن ما الذي كنتِ تفكرين به؟ بقولكِ أشياء كهذه لجوان؟».

كنت قررتُ مواصلة قول الحقيقة قدر المستطاع، فأنا أكره الكذب عليه، «أخبرتُها بالحقيقة» أجبته بإصرار.

«لستِ ملزمةً بالإفصاح عما تعتقدين للآخرين، ألم تستوعبي هذا بعد؟».

«جوان وأنا كنا صديقتَين» أجبته، «ظننتُ بوسعي مصارحتها».

هزَّ رأسه، «مواضيعُ كهذه ترعبُ الناس، وخيرٌ لنا ألا نتحدث عنها».

«لكن، بابا، وقتها سنكونُ كما... كمن يتجاهلُ الحريقَ في غرفة المعيشة لأن جميعنا في المطبخ، وكذلك، حرائق البيوت أيضًا مخيفٌ الحديث عنها».

«لا تحذري جوان ولا غيرها من أصدقائك» قال لي، «ليس الآن، أعرفُ أنك تظنينَ أنك على حق، لكنكِ لا تنفعين أحدًا بتصرفاتك هذه، أنت فقط تثيرين الذعر بين الناس».

تدبرتُ كبتَ فورة غضبٍ بتغيير الموضوع قليلًا، فأحيانًا الطريقةُ الأنسب للتأثير في بابا هي بمهاجمته من جبهات عدة.

«هل أعاد إليك السيد غارفيلد كتابك؟».

«أيّ كتاب؟».

«كنتُ أعرت جوان كتابًا عن نباتات كاليفورنيا واستخدامات

الهنود الحمر لها، كان واحدًا من كتبك، آسفة أني أعرتُها إياه، لا شيء مخيفٌ في الكتاب لذا لم أظن أنه سيسببُ أية مشكلة، لكني كنتُ مخطئة».

جفل، ثم كاد يبتسم، «حسنٌ، لا بد من استعادة ذاك الكتاب، ما كنتِ لتحصلي على خبز جوز البلوط الذي تعشقين لولاه، وأشياء أخرى أيضًا اعتاد الناسُ التسليم بوجودها».

«خبزُ جوز البلوط؟».

أومأ، «كما تعرفينَ فمعظمُ الناس في هذا البلد لا يأكلون جوزَ البلوط، ليس من عاداتهم وتقاليدهم تناولُه، لا يعرفون حتى كيفية إعداده، ولسببٍ ما يرون في تناوله أمرًا مقززًا. بعضُ جيراننا أرادوا قطعَ كل أشجار البلوط الكبيرةِ في حيّنا وزرْعَ شيء مفيد، لن تصدّقي المعاناة التي عشتُها حتى أغيّرَ رأيهم».

«وما الذي كان يأكلُه الناس قبلًا؟».

«خبزٌ مصنوع من القمح وحبوب أخرى، ذرة وشعير وشوفان، وما شابه».

«لكنها باهظة!».

«ليس وقتذاك، استعيدي الكتابَ من جوان» وسحبَ نفسًا عميقًا، «والآن فلنعدْ إلى طريقنا بعد أن حِدْنا عنه، ما الذي كنت تخططين له؟ هل كنتِ تحاولين إقناعَ جوان بالفرار معك؟».

تنهدتُ وأجبت، «بالطبع لا».

«أبوها يقول إنك فعلتِ».

«أبوها مخطئ، حدَّثتها عن البقاء أحياء، تعلمِ سبل الحياة خارج السور حتى -إذا ما جاء اليوم واضطررنا- نكون قادرينَ على النجاة».

راح يتطلّع فيَّ وكأنما بوسعه قراءة الحقيقةِ في عقلي. حين كنتُ طفلةً صغيرة، ظننته قادرًا على ذلك. «حسنٌ» قال لي، «لربما نيّتك كانت حسنة، لكن لا مزيدَ من قصص الرعب».

«ليست قصصَ رعب، نحن صدقًا بحاجةٍ إلى التعلم ما دام لدينا وقت».

«ليس شأنك، لورن، لستِ صاحبة القرار في هذا المجتمع».

سحقًا، لو أني فقط أعثرُ على نقطة التوازن بين الكبتِ والاندفاع، قدرة الخوض في الوحل، «حاضر، سيدي».

مال بظهره للوراء ونظر إليَّ، «والآن أخبريني بالضبط ما الذي قلتِه لجوان، كلمة كلمة».

أخبرته، حرصت على إبقاء صوتي فاترًا خاويًا من أيةِ عاطفة، لكني لم أحذفْ كلمة مما قلت. أردتُه أن يعرف، أن يفهمَ ما أؤمن به، على الأقل الجزء اللادينيّ منه. حين فرغتُ، توقفتُ وانتظرت، بدا يتوقّع مني قول المزيد. جلس لبرهةٍ يحدق إليّ، عجزتُ عن قراءة مشاعره، ما كان لآخرَ أن يقرأ مشاعرَ أبي متى ما لم يرغب بإظهارها، لكني لطالما كنتُ قادرة، معظم الأوقات،

لكن في هذه اللحظة شعرتُ كأني مقصيّة، ولا شيء بيدي فعله، فانتظرت.

أخيرًا زفرَ وكأنما كان يحبس أنفاسه «لا تفتحي الموضوعَ مرة أخرى» في نبرةٍ لا تشجع على الدخول في نقاش.

نظرتُ إليه، غير راغبةٍ بإعطاء وعدٍ لن يسعني الإيفاء به.

«لورن».




«بابا».

«أريدُ وعدًا منكِ أنكِ لن تخوضي أبدًا في هذا الموضوع».

وما الذي كان بيدي قوله؟ ما كنتُ لأعده، لا أستطيع. «فلنعدَّ حقائبَ زلازل» اقترحتُ عليه، «حقائبَ طوارئ لنا أن نحملَها متى ما اضطررنا إلى مغادرة البيت بسرعة، إن سمّيناها حقائبَ زلازل فالفكرة لن تزعجَ الناس، ليس كثيرًا، فالناسُ معتادون على القلق بشأن الزلازل»، كل هذا تلفّظتُه في فورة اندفاع.

«أريد وعدًا منكِ، بنيّتي».

انهرتُ، «لماذا؟ فأنت تعرفُ أني محقّة، حتى السيدة غارفيلد نفسها لا بد تعرف، فلماذا إذن لا نتكلم عنه؟».

ظننتُه سيصيح بي أو يعاقبني، سمعتُ في صوته النبرةَ المنذرة التي نسمّيها أنا وإخوتي صليلَ الحيّة، إن دفعتَ به عن حافة الصليل، فلا محالة أنت في مشكلة، وإن ناداكَ «بنيّ» أو «بنيّتي» فأنت على وشك الوقوع فيها.

«لماذا؟» سألته مصرّةً.

«لأنَّ لا فكرةَ لديك عمَّا تفعلين» أجابني عابسًا ويفركُ جبينه. حين عاد وتحدث إليّ كانت نبرةُ الصليل قد اختفت، «تعليمُ الناس خيرٌ من إخافتهم لورن، فإن أخفتِهم ولم يحدثْ شيء، سيفقدون الخوف وستخسرين شيئًا من سلطتكِ عليهم، وستغدو أصعبَ إخافتُهم مرةً أخرى، تعليمُهم مرةً أخرى والفوزُ بثقتهم مرةً أخرى،» فمُه اعْوجَّ إلى ابتسامة صغيرة، «مثيرٌ للاهتمام اختياركِ الكتابَ الذي أعرتهِ لجوان بدايةً لمحاولاتك، هل خطر لك إعطاءُ دروسٍ من الكتاب؟».

«تدريس أطفالي في الحضانة؟».

«ولمَ لا، أرشديهم إلى الخطوة الأولى في الطريق الصحيح، بوسعكِ إعدادَ حصةٍ للأطفال الأكبر والبالغين، مثل حصصِ السيد إبارا عن النجارة، وحصص السيدة بالتر عن التطريز، ومحاضراتِ الشاب روبرت شو عن الفلَك؛ فالناسُ ضجرة، ولن يمانعوا درسًا غيرَ رسمي بعد أن خسروا تلفاز يانس. إن تدبرتِ طريقةً تجمعين فيها بين التسلية والتعليم، ستنجحي في نقلِ رسالتك إليهم، وستحققي هدفكِ دونما ينظر أحد للأسفل».

«للأسفل؟».

«إلى الهاوية، بنيّتي».

ما عدتُ واقعةً في مشكلة، ليس اللحظة. «أنتِ لمحتِ الهاوية

وحسب، البالغون في هذا المجتمع قضوا أعوامًا يترنَّحون على حافتها، أعوامًا تفوق عمركِ».

نهضتُ، مضيتُ نحوه وأمسكتُ بيده «الوضع يزدادُ سوءًا، بابا».

«أدري».

«ربما حان الوقتُ للنظرِ للأسفل، ربما حان الوقت للوقوفِ بثباتٍ على الحافة قبل أن يدفعَنا أحدهم عنها».

«لهذا لدينا تمرينُ الرماية الأسبوعي وأسلاك الليزر القاطعة وجرس الطوارئ، فكرتكِ عن حقائب الطوارئ في محلها، ثمة أناس أعدّوها في حال وقوع الزلازل، البعضُ سيعدُّها إن اقترحتُ عليهم، وبالطبع، بعضهم لن يفعلَ شيئًا على الإطلاق، دومًا ثمة أناس لن يفعلوا شيئًا على الإطلاق».

«هل ستقترحُ إعدادها؟».

«أجل، في اجتماع الحيّ القادم».

«وماذا بيدنا فعله أيضًا؟ فالوقت يسبقنا بابا».

«نسلمُ أمرنا لله» ونهض، سورًا عريضًا شاهقًا.

«لمَ لا تسألي في الأرجاء، إن كانَ من أحدٍ في الحيّ يعرف شيئًا عن مهارات فنون القتال. فأنتِ بحاجة إلى ما هو أكثر من الكتاب حتى تتعلمي مهاراتِ القتال دونما سلاح».

عيني طرفت، «حسنٌ».

«اسألي السيدَ شو والسيد والسيدة مونتايا».

«السيد والسيدة؟».

«على الأرجح، تحدّثي معهما عن إعطاء دروس، لا عن أهوال القيامة».

رفعتُ عينيَّ إليه، ونظر هو إليّ، من علٍ، وأكثر من أي وقتٍ مضى بدا حقًّا أشبه بسور، واقفًا ينتظر. وقد عرضَ عليّ الكثير، كل ما بيديّ الحصول عليه منه، وتنهدت. «حسنٌ بابا، أعدكَ، سأحاول ألا أخيفَ أحدًا، آمل أن تظلَّ الأمور متماسكةً طويلًا بما يكفي لندركَ النجاة على طريقتك».

تنهّد، يردّد صدى تنهيدتي، «أخيرًا، حسَنٌ، والآن تعالي معي خارجًا، ثمة أمورٌ مهمة مدفونة في الفناء الخلفي، في أوعيةٍ محكمة الإغلاق، آن لكِ أن تعرفي مكانها، في حال وقع طارئ».

الأحد، ٩ مارس ٢٠٢٥

اليومَ ألقى بابا عِظته من فصلِ سفْرِ التكوين السادس: نوحُ والسفينة: «ورأى الربُّ أنَّ شرَّ الإنسان قد كثُرَ على الأرض وأنَّ كلَّ ما يتصوّره قلبُه من أفكارٍ إنما هو شرٌّ طوال يومه، فندم الربُّ على أنه صنعَ الإنسانَ على الأرض وتأسَّف في قلبه، فقال الرب: «أمحو عن وجه الأرض الإنسانَ الذي خلقت، الإنسانَ مع البهائم والزحافات وطيور السماء، لأني ندمتُ على أني صنعتُهم» أما نوح فنال حظوةً في عيني الرب».

ثم، كما هو متوقعٌ، غير الرب رأيه وقال لنوح «اصنع لك سفينةً من خشب قطرانيّ واجعلها مساكنَ واطْلها بالقار من داخلٍ ومن خارج».

في عِظته ركّز بابا على الطبيعة الثنائية للقصة. الربُّ قرر تدمير كل شيء عدا نوح وعائلته وبعض الحيوانات، لكن، مع ذلك، إنَّ كان سيُكتَب لنوح النجاة، فأمامه الكثير من العمل المجهد كي يقوم به. جوان أتتني بعد قداس الكنيسةِ وعبَّرت عن أسفها الشديد على كلّ الجنون الذي تسببتْ به.

«حسنٌ» أجبتها.

«ما زلنا صديقتَين؟».

ما كنتُ لأمنحَها إجابةً ترضيها: «لسنا عدوَّتين، أعيدي إليَّ كتابَ أبي، فهو يريده».

«أمّي أخذته، ما كنت أعرفُ أنها ستنزعجُ إلى هذا الحد».

«ليس كتابَها، أعيديه إليّ، أو دعي أباكِ يعيده إلى أبي، لا أكترثُ كيف، فقط أعيديه لأن أبي يريده».

شاهدتُها تغادر البيت، كم بدت أهلًا للثقة، طويلةً ومنتصبةَ القامة وجديّة وذكيّة. ما زلت أنحو إلى الثقة بها، لكن لا، لا أستطيعُ، لا فكرةَ لديها عن الأذى الجسيم الذي كانت ستلحقُه بي لو أني أعطيتها بضع كلماتٍ أخرى تستخدمُها ضدي، لا أظنني سأثق بها ثانيةً، وكم أكره هذا. كانت أعزَّ صديقة، والآن ما عادت.

الأربعاء، ١٢ مارس ٢٠٢٥

ناهبو الحدائقِ تسللوا داخلًا الليلةَ الماضية، جرّدوا كلَّ أشجار الحمضيّات في فناء عائلتيْ شو وتالكوت من ثمارها، وفي طريقهم، سحقوا بأقدامِهم المتبقي من محصول الشتاء والكثيرَ من مزروعات الربيع.

بابا يقول إنَّ علينا تنظيم جولاتِ خفارةٍ ليلية. حاول أن يدعو إلى عقد اجتماع لجنة الحيّ الليلة، لكنها ليلةُ عملٍ لدى بعض الجيران، منهم غاري شو الذي ينامُ في مقر عمله متى ما استدعي إلى الحضور شخصيًّا. من المفترض أن نعقدَ اجتماعًا السبت، لكن في الوقت الحالي جنَّد بابا جاي غارفيلد ووايات وكايلا تالكوت وأليكس مونتايا وإدوين دن حتى يحرسوا الحيَّ في دورياتِ خفارةٍ متناوبة، في أزواج مسلحة. عدا وايات وكايلا مَن يمثّلان زوجًا (الحانقان غضبًا على نهب حديقتهما وأشفقُ على أي لص يقع في طريقهما) فعلى الآخرين البحث عن شركاء بين بالغي الحيّ.

«جد شخصًا تثق به كي يحمي ظهرك» سمعت أبي يقول للمجموعة الصغيرة. كل زوج ينطلقُ في دوريته لساعتَين، وسيبدأ تناوبُ الدوريات من قبل الغروب بقليل إلى ما بعد الفجر. فمشْيُ المناوبة الأولى عبر الأفنية الخلفية والاطمئنان عليها سيعوّد أهل الحيّ، بينما هم بعد مستيقظين، على فكرة وجود الحرَّاس.

«من يتولَّ النوبة الأولى فليحرصْ على أن يراه الناس» قال

بابا، «مرآكم سيذكّرهم أنَّ حرَّاسًا سيجولون طوال الليل، فلا نريد لأحد أن يختلطَ عليه الأمر ويظنكم لصوصًا».

منطقيّ، فالناس تخلدُ إلى فراشها بعيد الليل حتى توفرَ الكهرباء. وبين العشاء والظلمة يقضون أوقاتَهم على الشرفات أو في أفنيتِهم حيث الجو ليس قائظًا؛ البعض يستمع إلى الراديو في الشُّرفِ الأمامية أو الخلفيّة، يجتمعون بين آنٍ وآخر حول عزف الموسيقى والغناء وألعاب الطاولة والتسامر، أو يمضونَ نحو الأرصفة حيث يلهون بالكرة الطائرة، الرغبي، كرةِ السلة، التنسِ. اعتاد الناس لعبَ البيسبول، لكن ما عدنا نطيق تكلفتَها على النوافذ. قلةٌ منهم تأوي إلى ركنٍ وتقرأ كتابًا ما دام ثمة بقيةٌ من نهار. وقت ترفيه طيّب ومريح، وللأسف الشديد سيفسدُ على مرأى التذكير بالواقع، لكن ما باليد حيلة.

«وما الذي ستفعلونه إن قبضتم على لص؟» سألتْ كوري أبي قُبيل مغادرته، كان سيتولَّى النوبة الثانية. هو وكوري كانا في المطبخ يحتسيان كوبًا نادرًا من القهوة بينما ينتظران، القهوةُ فقط للمناسبات الخاصة، وما كان ليفوتني عبقُ رائحتها في غرفتي حيث استلقيت مستيقظة.

استرقتُ السمع، لا أضع أكوابًا فارغةً على الحيطان ولا أقرفصُ مع أذني على الباب، بل أظلّ مستيقظة وقتًا طويلًا من بعد حلول الظلام حيث يفترضُ بنا نحن الأطفال الاستغراق في نومٍ عميق؛ المطبخُ مقابلَ الرواقِ حيث غرفتي، وحجرةُ الطعام قريبةٌ من نهاية

الرواق، وغرفةُ والديّ جانب غرفتي. البيتُ قديمٌ ومعزول على نحو جيّد، إن كان من بابٍ مغلق بيني وبين النقاش فلن أسمعَ الكثير، لكن في الليل، حيث كلّ أو أغلب الأنوار مطفأة، لي أن أتركَ الباب مواربًا، شقٌّ صغير، فإن كانت الأبوابُ الأخرى مفتوحة، سأسمعَ الكثير وأتعلم الكثير.

«نخيفه، على الأقل هذا ما آمله» قال بابا، «هذا ما اتفقْنا عليه، سنخيفُه وندعه يعرف أنَّ ثمة طرقًا أسهل لكسب دولار».

«دولار؟!».

«أجل، دولار، فلصوصُنا لم يسرقوا كلَّ تلك الثمار لأنهم جائعون، هم جرّدوا تلك الأشجار من كل ثمرها، حملوا كل ما يستطيعون منها».

«أدري» قالت كوري، «فقد أخذتُ بعض الليمون والغْريب فْروت إلى عائلتَي شو ووايات وأخبرتهم أنَّ بإمكانهم أن يقطفوا من ثمار شجرِنا متى ما احتاجوا المزيد، وأخذت إليهم بذورًا أيضًا، فكثيرٌ من مزروعات العائلتين انسحق، لكن ما زلنا في بداية الموسم، وثمة وقت لإصلاح الضرر».

«أجل» تريّث أبي، «لكن ترين ما أعنيه، هؤلاءِ الناس سرقوا لأجل المال، ليسوا يائسين، بل جماعات جشعة وخطيرة، ولربما سنخيفهم فيعدلوا عن نهبنا، ويبحثوا عن أهداف أسهل».

«لكن ماذا إنْ لم تنجحْ طريقتك؟» سألتْ كوري، شبهَ هامسة، صوتُها انخفض كثيرًا حدّ أنني خفت أن يفوتني شيء.

«هل ستطلقُ عليه النار؟».

«أجل».

«أجل؟!» كررتْ على ذات الصوت الهامس، «أجل.. بهذه البساطة؟» ما أشبهها بجوان، التجسيد البشري لإنكار الواقع، صدقًا! على أيّ كوكب يعيش أولاء الناس!

«أجل،» أجابها أبي.

«لماذا؟».

برهة صمتٍ طويلة، حين عاد أبي وتكلّم، تكلَّم في صوتٍ رهيف، «حبيبتي، إن ظلَّ أولاء الناس يسرقون منا، سنضطرُّ إلى الصرف أكثرَ مما نطيقُ على الطعام، إما هذا أو نجوع، ونحن بالكاد نتدبّر أمورنا، تعرفين بنفسكِ صعوبة الوضع».

«لكن.. لم لا نتّصلُ بالشرطة؟».

«لأجل ماذا؟ فنحن عاجزون أصلًا عن تحمل تكلفة رسومهم، ولا يكترثون لفعل شيء إلا بعد وقوع الجريمة، وحتى حينذاك، إن اتصلتِ بهم، فلن يأتوا إلا بعد ساعات، وربما حتى بعد يومين أو ثلاثة».

«أدري».

«إذن ما الذي تقولينه؟ أتريدينَ أن يجوعَ الأطفال؟ أتريدين أن يقتحم اللصوصُ البيوتَ ما إن يجردوا الحدائقَ من كل شيء؟».

«لكنهم لم يفعلوا ذلك».

«بالطبع فعلوا، والسيدةُ سمز آخر ضحاياهم».

«هي عاشت وحدها، ولطالما أخبرناها ألّا تفعل».

«أتريدين أن تثقي بأنهم لن يؤذوكِ أو الأطفال فقط لأن سبعةً يقطنون في البيت؟ حبيبتي، لا يسعُنا مواصلة العيشِ موهومين بأن الحياة لا تزال على حالها قبل عشرين أو ثلاثين عامًا».

«لكن قد تُسجَن!» كانت تبكي دونما نحيب، تتكلمُ بصوتها المفعم بالدموع الذي تنجح أحيانًا في أدائه.

«لا،» أجابها بابا، «إن اضطررْنا إلى إطلاق النار على أحدهم فكلُّنا متورطون، ما إن نطلق عليه حتى نحمِلَه إلى أقرب بيت، فإطلاقُ النارِ على مقتحمي البيوت ما زال قانونيًّا، بعدها نتسبب ببعض الفوضَى ونوفِّقُ بين قصصنا».

صمت، صمتٌ طويل..

«ولو، ستقعُ لا محالة في مشكلة».

«سأخاطر».

صمتٌ طويلٌ آخر.. «لا تقتل» همستْ كوري.

«نَحَمْيا الفصل الرابع، الآية ١٤» أجابها بابا.

لا كلمة قيلت بعدها، دقائق وسمعتُ أبي يغادر. انتظرتُ إلى أن سمعتُ كوري تمضي نحو غرفتِها وتغلقُ الباب، ثم نهضتُ، أغلقتُ بابي، حرَّكتُ المصباح حتى لا ينسلَّ نوره من أسفل الباب،

أضأتُه وفتحتُ إنجيل جدتي، كانت تقْتني الكثير من نسخِ الإنجيل، وبابا سمحَ لي بالاحتفاظ بهذا.

نحميا، الفصل الرابع، الآية ١٤: «ونظرتُ ونهضتُ وقلتُ للأشراف والحكام ولسائر الشعب: (لا تخافوهم، بل اذكروا الربَّ العظيمَ الرهيب، وقاتلوا عن إخوانِكم وبنيكم وبناتكم ونسائكم وبيوتكم)».

مثيرٌ للاهتمام، غريبٌ كيف أنَّ بابا يحتفظ بهذه الآية جاهزةً لديه، وأنَّ كوري عرفتْها ما إن سمعتْها، على الأرجح لم تكن تلك محادثتَهما الأولى.

السبت، ١٥ مارس ٢٠٢٥

الأمر رسميّ.

أصبحت لدينا دوريةُ خفرٍ منتظمة، قائمةُ منتسبينَ من كل بيت ممن تجاوزوا الثامنةَ عشر وماهرون في استخدام السلاح، سلاحهم وأسلحة غيرهم، وموثوقٌ بهم في عين أبي وأعينِ الجيران ممن شاركوا في نوبات الخفارةِ الليلية الماضية. وبما أنَّ لا أحد من الخفَرِ كان شرطيًّا أو حارسَ أمن، ستتوزّع الدورياتُ على أزواج، كلٌّ يحمي ظهرَ الآخر ويحمي الحيّ، إن اعتازَ أحدهم مساعدةً ينفخ في الصفارة. كذلك سيُقام اجتماع أسبوعي للقراءة والنقاش وممارسة فنون القتال وتقنيات إطلاق النار؛ عائلةُ مونتويا ستُعطي حصصًا

في فنون القتال، لكن ليس بناءً على اقتراحي. السيد شو المسنُّ يعاني من آلامٍ في الظهر وفي الوقت الحالي لن يدرِّسَ شيئًا، لكن عائلة مونتويا تبدو كافية. أنوي حضورَ تلك الحصصِ ما أمكن، بقدر احتمالي مشاركةَ آلام تمارين الجميع.

هذا الصباحُ لمَّ بابا كل كتبه مني، لم يتبقَّ لديَّ الآن سوى دفاترِ ملاحظاتي. لا مانع لديّ، إذ بفضل ناهبي الحدائق بات الناسُ يعدّون أنفسهم للأسوأ، إحساسٌ من الامتنان أكاد أحمله لأولئك اللصوص.

بالمناسبة، لصوصُنا لم يعودوا، ومتى ما عادوا سنمنحُهم ضيافةً غير متوقعة.

السبت، ٢٩ مارس ٢٠٢٥

لصوصُنا زارونا ليلةَ البارحة.

ربما ما كانوا اللصوصَ أنفسَهم، لكنّ نواياهم كانت ذاتها: سلبَ ثمرةِ جهودِ وعرَقِ إنسانٍ آخر في أشد الحاجة إلى ثماره.

هذه المرة أعينهم كانت على أرانبِ ريتشارد موس. تلك الأرانبُ مصدرُ اللحم الوحيد في الحيّ، بعد الدجاج الذي حاولتْ عائلتا مونتويا وكروز تربيته قبل أعوام. فالدجاج سُرِق ما إن كبُرَ كفايةً لإصدار الأصوات وإعلام الغرباء خارجَ السور بوجوده؛ حتى العام الماضي ظلّت أرانبُ عائلةِ موس سرًّا إلى أن

أصرَّ ريتشارد موس على بيع اللحم خارجَ السور مع كل ما تستطيع زوجاته دباغتَهُ من جلد الأرانب النيء أو المسفوع. وبالطبع عائلة موس كانت تبيعُ علينا: اللحمَ والجلودَ والسماد، أيَّ شيء عدا الأرانبِ الحيّة، فتلك ادّخرها واحتكرَها للتوالد. لكن الآن بعناده، بغطرسته وبطمعه، قرر أن بيده كسبَ المزيد إن باع بضاعتَه خارجًا، وها أمرُ الأرانب الملعونة انفضح في الشارع، وأحدُهم قرر ليلةَ البارحة المجيء وسلبَ غنيمته.

وفقًا لبابا، فبيتُ أرانب عائلة موس كان مرآبًا لثلاثِ سيارات أُضيفتْ ملكيته إلى البيت في الثمانينيات، من الصعب التصديقُ بأنَّ أيةَ أسرةٍ كانت تملك ثلاث سيارات، بل ثلاث سياراتٍ تسير على البنزين، لكني أذكر المرآبَ القديم قبل أن يحوّلَه ريتشارد موس. كان مرآبًا ضخمًا مع ثلاث بقع زيتٍ سوداء على الأرض حيث كانت تأوي يومًا السيارات الثلاث؛ أصلحَ ريتشارد موس الجدران والسقف، فتح نوافذَ للتهوية، وعلى العموم، حوّله إلى مكانٍ يكاد يليق بسكنَى البشر، بل أفضلُ بكثير من البيوت التي يعيش فيها الكثيرُ من البشر خارجًا. بنَى مدرَّجًا من صفوف الأقفاص -زرائب صغيرة- وركَّب المزيدَ من الإضاءة الكهربائية ومراوحِ السقف، المراوح لها أن تعملَ بطاقة الأولاد، فقد شبكَ المراوح بدراجة قديمة، وكلّ طفل كبير من عائلة موس يستطيع تحريك العجلات سيجنده أبوه فورًا لتوليد طاقةِ المراوح. يمقت أبناء موس فعلَ ذلك، لكنهم مُدركون المصير الذي سيلقونه إن رفضوا.

لا أدري كم أرنبًا تملكه عائلةُ موس، لكني دومًا ما أراهم منشغلين في القتل والسلخ وكلّ الأمور المقرفة التي يفعلونها في دبغ الجلود، وعلى ما يبدو فحتى الاحتكار بهذا الحجم الصغير يتطلبُ الكثير من الجهد والشقاء.

استطاع اللصّان حشو ثلاثة عشر أرنبًا في أخياشٍ قبل أن يقعَ عليهما خفراء الليل. الخفيران كانا أليجاندرو مونتويا وجوليا لنكولن، إحدى شقيقات شاني يانس؛ طفلا السيدة مونتويا مصابان بالإنفلونزا لذا فهي خارجُ قائمة الخفر حاليًا.

السيدة لنكولن والسيد مونتويا اتبعا الخطةَ التي وضعها الخفراءُ في الاجتماعات، دون كلمةٍ أو صيحة آمِرَة، أطلقا النار في الهواء، كلٌّ أطلق مرتَين أو ثلاث، في الوقت ذاته، ثم نفخا صفارتَيهما بشدة وبقيا مسْترينِ. لكن أحدهم داخل بيت عائلة موس استيقظ وأنار إضاءةَ بيت الأرانب، فكان خطأً قاتلًا ضد الخفيرين، بيدَ أنهما حافظا على تخفّيهما خلف شجيرات الرمان.

اللصان فرَّا كما الأرانب.

رميا بالأخياشِ، الأرانب، المخول، لفة طويلة من الحبال، قواطعِ أسلاك، بل حتى سلّمًا ممتازًا وطويلا من الألومنيوم، وفي ثوانٍ تسلّقا السلَّمَ مذعورَينِ وقفزا من أعلى السور. يصل ارتفاع سورنا إلى ثلاثةِ أمتار، وقمته مدججة بقطع الزجاج المكسور مع المعتاد من الأسلاك الشائكة وسلك الليزر الخفي، لكن ورغم جهودنا فكل تلك الأسلاك قُطعتْ. للأسف لا نطيقُ تكلفة كهربةِ

السور أو إضافة المزيدِ من الفخاخ عليه، لكن على الأقل فالزجاج -أقدم حيلنا وأبسطها- نالت من أحدِهما. فهذا الصباح عثرنا على دفقٍ غزير من الدم الجاف على الجانب الداخلي من السور.

كذلك عثرنا على مسدس غلوك عيار ١٩ ألقى به أحدُ اللصين، ما يعني احتمالية تعرض السيد مونتويا والسيدة لنكولن لإطلاق النار. ولولا الذعر الذي أصاب اللصَّين فهرعا فورًا لربما اندلع قتالٌ بالأسلحة، لربما تعرض أحدٌ من عائلة موس أو الجيران للإصابة أو القتل.

كوري انقضَّتْ على بابا بهذا الشأن ما إن باتا وحدهما الليلة في المطبخ.

«أدري» قال بابا، بدا مرهقًا وبائسًا، «لا تظني أننا لم نفكر بتلك الاحتمالات، لهذا نحن نسعَى لإخافة اللصوص، فحتى إطلاق النار في الهواء ليس آمنًا، لا شيء آمن».

«هذه المرة هربا، لكن لن يفرّوا كل مرة».

«أدري».

«وما العمل إذن؟ تحمي الأرانبَ أو البرتقال، ولربما تُعرّضُ طفلًا للقتل؟».

صمت..

«يستحيلُ أن نعيشَ هكذا!» صاحت كوري. فزعتُ، إذ لم يسبق لي أبدًا أن سمعتُ صياحها.

«نحن نعيشُ هكذا» قال بابا. ما كان في صوته غضبٌ ولا ردٌّ عاطفيّ على صياحها، ما كان من شيء. فقط الإرهاقُ والحزن. ما سبق لي أن سمعته مرهقًا إلى هذا الحد، مهزومًا. ومع ذلك هو المنتصر، ففكرتُه هزمتْ لصّينِ مُسلحين دون تعريض أحد للأذى، وإن آذَى اللصوصُ أنفسهم، فتلك مشكلتهم.

بالطبع سيعودان، أو لربما سيأتينا آخرون، واقعٌ لا محالة، وكوري محقّة، فاللصوص المرة القادمة قد لا يُلقونَ بأسلحتهم ويفرون، لكن ما الحل؟ هل ينبغي لنا الاستلقاء على أسرّتنا وترْكهم يسلبونَ كلَّ ما لدينا ونأمل باكتفائهم بتجريد حدائقنا؟ وحتّامَ يظل اللص شبعًا؟ وما هو شعورُ النوم جوعًا؟

«ليس بوسعنا النجاة بدونك» قالت كوري، لم تكن تصيح، «لربما كنتَ أنتَ الواقفَ هناك، تواجهُ المجرمين، المرة القادمة قد تكون أنتَ، أنت مَن يطلقون عليه النار بينما تحمي أرانب الجيران».

«هل لاحظتِ؟» قال بابا، «كيف ليلةَ البارحة كلُّ خفيرٍ خارج نوبته لبّى نداءَ الصفّارة؟ كلهم هبّوا للدفاع عن مجتمعهم».

«سحقًا لهم! أنتَ من أقلقُ عليه!».

«لا» قال بابا، «لا يسعُنا التفكير هكذا بعد اليوم، كوري، لا أحد سيساعدُنا سوى الربّ وأنفسنا، أنا أحمي بيتَ موس رغم رأيي به، وهو يحمي بيتي رغم رأيه بي، كلٌّ يعتني بالآخر».. تريّثَ لوهلة «لديّ الكثير من الضمانات، أنتِ والأطفال ستتدبرون أموركم إذا ما..».

«لا!» قالت كوري، «أتظنُّ أنَّ هذا ما أقلقُ عليه؟ المال؟ أهذا ما تظن؟».

«لا، حبيبتي، لا» وهلة صمت.. «أعرفُ ما يعنيه أن تُترَكَ وحيدًا، وهذا ليس بعالمٍ تُترَكُ فيه وحدك».

صمتٌ طويل، ولم أظن أنَّهما سيقولان المزيد. استلقيتُ على فراشي، أفكّرُ بالنهوض وإغلاق الباب حتى يتسنَّى لي إضاءة المصباح والكتابة، لكن كان هناك قليلٌ من الكلام بعد.

«وما المفترَضُ بنا فعله إن متَّ»، ألحَّتْ في سؤالها، وأظنها كانت تبكي، «ما المفترَضُ بنا فعله إن أطلقوا عليكَ النار لأجل أرنب لعين؟».

«عيشوا!» قال بابا، «هذا كلُّ ما بوسع أحد فعله، نعيش، نتشبثُ بالحياة، ننجو، لا أدري إن كانت حياتُنا الطيبة ستعود من جديد، لكني أعرفُ أننا إن لم ننجُ من أوقاتنا الصعبة هذه فلا فائدة».

انتهى الكلام بينهما، استلقيتُ في الظلمة وقتًا أطول أفكّرُ فيما قالاه. مرة أخرى كوري كانت محقّة، قد يصابُ أبي، قد يقتل، ولا أعرف كيف يُفترض بي أن أشعر نحو تلك الحقيقة. لي أن أكتب عنها لكني لا أشعرُ بها، أظن -عميقًا في دواخلي- لا أصدقها، على ما يبدو حتى أنا ماهرةٌ في إنكار الواقع.

إذن كوري محقّة، لكن لا يهم، وأبي محقٌّ، لكنه عاجزٌ عن أخذ الخطوة الأبعد. الربُّ هو التغيير، وفي النهاية، الربُّ سينتصر. لكنّ

الربَّ إلهَنا موجودٌ على صورتنا، نحن من نصوّره، وليس كافٍ النجاة وحسب، السير بساقٍ عرجاء، مواصلة الحياة كما المعتاد بينما الأمورُ تسوء وتسوء. إن كان هذا هو الشكل الذي سنصوّر عليه الرب، فيومًا ما حتمًا سنغدو جدّ ضعفاء وفقراء وجوعى ومرضى للدفاع عن أنفسنا، وحينها سيبيدُنا الرب. حتمًا ثمة المزيدُ بيدنا فعله، مصيرٌ أفضلُ نصنعه، مكانٌ آخر، سبيلٌ آخر، أي شيء!

# ٧

**كلُّنا بذرةُ الرب، مثلنا**

**مثلُ أيّ صورةٍ من صور الكون،**

**حيث بذرُة الرب هي الدائمة،**

**هي التغيير.**

**بذرةُ الأرض هي كلُّ ما يمدُّ**

**حياة الأرض إلى عوالمَ جديدة.**

**الكونُ بذرةُ الرب. ونحن بذرةُ الأرض.**

**ومصيرُ بذرة الأرضِ أن تغرسَ جذورها**

**بين النجوم.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

السبت، ٢٦ أبريل ٢٠٢٥

أحيانًا تسْمِيتُكَ الشيءَ -منحُه اسمًا أو اكتشافُ اسمِه- يساعدُك

على البدء بفهمه. معرفةُ اسم الشيء ومعرفةُ الغرض من ذاك الشيء يقوّي قبضتي عليه.

نظامُ معتقدي **الربُّ -هو- التغيير**، والذي أراه الإيمان الصحيح، سأسميه **بذرة الأرض**. كنت حاولتُ تسميته من قبل، ولأني فشلت، حاولتُ تركه بلا اسم. في الحالتين لم أرتحْ، فالاسم زائد الهدف يساوي لديّ التركيز.

حسنٌ، اليوم عثرتُ على الاسم، عثرتُ عليه بينما كنت أقتلعُ الحشائش الضارة من حديقتنا الخلفية وأفكّرُ كيف للنباتات أن تغرسَ بذرتها بنفسها، تحملُها الريح، يحملها الحيوان، يحملها الماء، بعيدًا عن أبويها في موطنها الأصلي.

فلا قدرةَ لديها على الارتحال مسافاتٍ شاسعةً بقوتها الذاتية، ومع ذلك، ترتحل. حتى أنها لا تقيمُ في المكان ذاته في انتظار أن تُباد. هناك جزُرٌ على بعد آلاف الأميال من أي مكان -مثلًا جزر هاواي وجزيرة القيامة- غرستْ النباتاتُ فيها نفسها بنفسها ونمت قبل وصولِ الإنسان إلى تلك الجزر بأزمان طويلة.

**بذرة الأرض.**

أنا **بذرةُ الأرض**، ولأيٍّ منا أن يكونَ **بذرةَ الأرض**، وأظن، يومًا ما، سيكونُ هناك الكثير منا، وأظن أنه سينبغي لنا غرسُ أنفسنا أبعدَ وأبعد عن هذه الأرض الميتة.

لم أشعر أبدًا أنني مَن يبتدعُ كل هذا، لا الاسم **بذرة الأرض**، ولا أيّ شيء متعلق به. أعني، لم أشعر مطلقًا بأيّ شيء تجاهه سوى

أنه حقيقيّ، اكتشافٌ لا اختراع، استكشافٌ لا خلق. ليتَ كان بيدي التصديقُ في الماورائيات، في الوحي المُرسَلِ من الرب، لكنني لا أؤمن بذاك الصنف من الرب. كلّ ما أفعلُ هو المراقبة وتدوين الملاحظات، أحاول كتابته بأسلوبٍ قوي، بسيط، مباشر، تمامًا كما أشعر به، لكنني عاجزةٌ أبدًا عن فعل ذلك. ما أنفكُّ أحاول، لكنني عاجزة. لستُ جيدة كفاية ككاتبة أو شاعرة أو أيًّا يكن الذي أحتاجُ أن أكون عليه، ولا أدري ما أفعلُ حِيال ذلك. أحيانًا يدفعُني الإحباط إلى الاهتياج. أجل أنا أتحسّنُ مع الوقت، لكن ببطء.

الأمرُ وحسب أني، حتى مع مشاكلي في الكتابة، كلّ مرةٍ أستوعب فيها نزرًا أكثر، أتساءلُ لمَ تطلَّبَ فهمه كلَّ هذا الوقت؟ كيف مرَّ عليّ وقتٌ لم أفهم فيه شيئًا جليًّا وحقيقيًّا كهذا؟

وها هي الأحجيةُ في المسألة برمّتها، المفارقةُ الوحيدة، الأشبهُ بالاستدلال الدائري أو التفكير غير المنطقي أو أيًّا يكن:

**لماذا الكونُ؟**

**حتى يصوّرَ الرب.**

**لماذا الرب؟**

**حتى يصوّرَ الكون.**

ليس بيدي التخلصُ منه، حاولتُ تغييرَه أو حذفَه، لكن ليس بيدي، لا أستطيع، يبدو لي وكأنه أكثرُ شيءٍ حقيقيّ كتبتهُ في حياتي، غامضٌ وجليّ مثل كلّ تفسيرٍ آخرَ قرأته عن الرب أو الكون، عدا أنَّ التفاسيرَ الأخرى تبدو لي -بأفضل حالاتها- غيرَ وافية.

عدا الأحجية، فكلُّ ما في **بذرةِ الأرض** تفسير: ما الرب؟ ما الذي يفعله الرب؟ ما نحن؟ وما الذي ينبغي لنا فعله؟ ما الذي لا يسعنا منع أنفسنا عن فعله؟...تأمَّلْ هذا، سواء كنت إنسانًا، حشرةً، جرثومة، حجرًا، تظل الآية التالية صحيحة.

**كلُّ شيءٍ تلمسُه**
**تُغيّره.**
**كلُّ شيءٍ تُغيّره**
**يُغيّرك.**
**الحقيقةُ الوحيدةُ الثابتة**
**هي التغيير.**
**الرب هو التغيير.**

سأتصفّحُ دفاترَ يوميّاتي القديمة وأجمعُ الآياتِ التي كتبتها في مجلّدٍ واحد. سأدوّنها في دفترٍ من دفاتر التمارين التي توزّعُها كوري على الأطفال الأكبر سنًّا بما أنَّ عدد الحواسيب في الحي قد قلَّ. كنتُ كتبتُ الكثير من الكلام التافه في تلك الدفاتر، أحلُّ عليها واجبات الثانوية حتى أتخلصَ من عبئها، لكني الآن سأسخّرُ دفترًا منها لغايةٍ أفضل، ثم، يومًا ما، متى ما أعار الناسُ انتباهًا إلى ما أقولُ أكثر من انتباههم إلى كم أبلغُ من العمر، سأستخدمُ تلك الآيات في انتزاعهم نزعًا من ماضيهم المتفسّخ، ولربما أدفعُ بهم نحو إنقاذ أنفسهم وبناء مستقبلٍ منطقي. هذا بافتراض أنَّ الأمور ستظلُّ متماسكةً على مر السنوات القليلة القادمة.

السبت، ٧ يونيو ٢٠٢٥

أخيرًا رتّبتُ حقيبةَ طوارئ صغيرةً لي، حقيبةَ الفرار السريع. احتجتُ إلى التنقيب في المرآب والعليّة بحثًا عن بعض الأغراضِ التي أحتاجُها حتى لا يشتكي أحدٌ من أخذي أغراضًا يحتاجونها. فمثلًا جمعتُ فأسًا، وقدْرَينِ صغيرين، خفيفَينِ ومعدنيين؛ هناكَ الكثيرُ من أغراضٍ كهذه ملقاةٌ في كلّ مكان، فلا أحد يرمي شيئًا قد يكون مفيدًا يومًا أو قابلًا للبيع.

جمعتُ مدّخراتي من مئات الدولارات، نحو ألفِ دولار، علّها تطعمني لأسبوعين إن تسنَّى لي الاحتفاظ بها، وإن تحليت بالحذر الشديد حول ما أشتري ومن أين أشتريه. فأنا مواكبة للأسعار، أسأل بابا عنها كلما عاد ورجال الحيّ من رحلات التسوّق الأساسي. أسعار الأغذية باهظة على نحو جنونيّ، دائمًا في ارتفاع وأبدًا لا تنخفض، الكل يشتكي منها.

عثرتُ على حافظة ماء قديمة وقارورة بلاستيكية، وعزمت على إبقائهما نظيفتين ومملوءتين، وضّبتُ أعواد ثقاب، غيار ملابس كامل مع حذاء في حال اضطررتُ للنهوض ليلًا والفرار، مشط، صابون، فرشاة ومعجون أسنان، فوط صحية، ورق حمام، ضمادات، دبابيس، إبر وخيوط، كحول، أسبرين، ملاعق وشوك عدة، فتّاحة علب، سكين جيب، رزم من دقيق جوز البلوط، فواكه مجففة، مكسّرات وبذر، حليب جاف، قليل من السكر والملح، مدونات النجاة، أكياس بلاستيكية للتخزين، كبيرة وصغيرة، الكثير من

بذور الزرع، دفتر يومياتي، دفتر **بذرة الأرض**، أمتار وأمتار من حبل الغسيل. كلها حشوتها في غطائيْ وسادة قديمين، غطاء داخل الآخر للتحصين، ثم طويت غطائَي الوسادة القديمين في لحافٍ وربطته في صرة بقطعة من حبل الغسيل لأتمكن من القبض عليها والفرار من دون فقدان شيء منها، لكني أيضًا جعلتها سهلة الفتح من الأعلى لإدخال وإخراج دفتر يومياتي وتبديل الماء حتى يظل صحيًّا، وعلى منوال أقل، تبديل الطعام وتفحّص البذور. فآخر ما أريد اكتشافه بعد فراري أنني عوضًا عن الطعام وبذور الزراعة، أحمل على ظهري أكوامًا من الحشرات والدود.

ليت بيدي أخذ مسدس، فأنا لا أملك مسدسًا وبابا لن يسمحَ لي بالاحتفاظ بواحد في غرفتي. سأحاول جهدي التقاطَ مسدسٍ متى ما وقعت المصيبة، لكن على الأرجح لن أتمكّن. سيكون جنونيًّا الفرارُ ولا شيءَ معي خارج السور سوى سكينٍ ونظرةٍ مرعوبة، لكن هذا ما قد يحصل. بابا ووايات تالكوت صحبونا اليوم إلى تمارين الرماية، وبعد انتهائنا حاولتُ إقناع بابا بالسماح لي بالاحتفاظ بمسدس من مسدساته في غرفتي.

«لا» أجابني فيما يجلس، مرهقًا مغبرًّا، خلف طاولة مكتبه في حجرته الفوضوية. «لا مكان لديك تحتفظين به في أمان وقت النهار، وأشقاؤك داخلون خارجون منها».

ترددت، ثم أخبرته عن حقيبة الطوارئ التي أعددتها.

أومأ، «ظننتها فكرةً جيدة حين اقترحتها بادئ الأمر،» قال لي،

«لكن فكّري، لورن، وكأنك لففتِ هديةً إلى لص، مال، طعام، ماء، مسدس، معظم اللصوص لا يعثرون على كل ما يريدون في صرةٍ واحدة قابعة في انتظارهم، وإن دخل سارقٌ بيتنا فخيرٌ لنا أن نصعّب عليه الحصول على مسدس».

«ليست سوى لحافٍ مطويّ ومرميّ في كومة ملاءات في خزانتي، لا أحد سيلاحظها حتى».

«لا» هزَّ رأسه، «لا، المسدسات ستبقَى في مكانها».

قضي الأمر، أظن تطفُّل إخوتي في الغرفة يقلقه أكثر من دخول اللص. فكلُّ إخوتي، طوال حياتهم، تعلّموا أساسيات التعامل مع المسدسات، لكن غريغ في الثامنة وبن في التاسعة، وبابا ليس مستعدًا بعد لوضعهم أمام تجربة الإغواء. ماركوس في الحادية عشر وجديرٌ بالثقة أكثر من العديد من البالغين، لكن كيث، من في الثالثة عشر، علامة استفهام كبيرة. ما كان ليسرق من أبي، ما كان أبدًا ليجرؤ، لكن سبق أن سرق مني أشياء صغيرة وحسب. لكنه يريد مسدسًا، يريده بشدة كما يريد العطشَى الماء، يريد أن يصبح رجلًا البارحة قبل اليوم. أكره قرار أبي، لكنه على الأغلب محق.

«وأين ستذهب؟» سألته، كي أبدّلَ الموضوع، «إن أُجبرنا على الرحيل من هنا، إلى أين ستأخذنا؟».

نفخ وجنتيه وزفر نفسًا عميقًا، «إلى الجيران أو الجامعة» أجابني، «فالجامعة خصصت مساكنَ طوارئ للموظفين ممّن احترقت بيوتهم أو طردوا منها».

«ثم؟».

«إعادة البناء، التحصين، فعل كل ما بيدنا فعله حتى نعيشَ ونكون في أمان».

«هل ستفكّرُ في احتمالية تركِ المكان والانتقال شمالًا حيث الحصولُ على الماء ليس صعبًا كما هنا، والطعام أرخص؟».

«لا» حدَّق في الفضاء، «وظيفتي هنا مؤمَّنة، ولا وظائف هناك. القادمون الجدد يعملون مقابلَ الطعام، هذا إن وجدوا عملًا من الأساس. الخبرةُ لا تهم، شهاداتك لا تهم، والكثيرُ الكثير من اليائسين يكدحون بكل ما فيهم من قوة مقابل كيس فاصولياء، والشارع سكناهم».

«سمعتُ أن الأمور أسهلُ في الشمال، في أوريغون وواشنطن وكندا».

«حدودها مغلقة، عليكَ أن تتسللَ إلى أوريغون هذا إن دخلتَها أصلًا، والتسللُ إلى واشنطن أصعبُ وأصعب، كلّ يوم يُقتل الناس بالرصاص لمجردِ محاولتهم التسللَ إلى كندا، فلا أحد يريدُ زبالة كاليفورنيا».

«لكنّ الناسَ تهاجر، ودومًا ما يهاجرون شمالًا».

«يحاولون، فهم يائسون ولا شيءَ لديهم يخسرونه، لكن أنا لديّ. هنا موطني، وعدا الضرائب فلا أُدين بسنت لأحد. هنا، أنت وإخوتُكِ ما عشتمُ الجوع يومًا، وبمشيئة الله، لن تعيشوه أبدًا».

في دفتر بذرة الأرض كتبت:

**الشجرةُ**

**لا يمكنُها النمو**

**في ظلّ والدَيها.**

هل من الضروري كتابةُ أشياء كهذه؟ فالكلُّ يعرفها، وعلى أية حال، ما الذي تعنيه الآن؟ ما الذي تعنيه هذه العبارةُ إن كنتَ تعيشُ في حيٍّ مسوَّر نهايةَ شارعٍ مسدود؟ ما الذي يعنيه إن كنت محظوظًا لعينًا بعيشك في حيٍّ مسوَّر نهاية شارعٍ مسدود؟

الإثنين، ١٦ يونيو ٢٠٢٥

اليوم استمعتُ إلى تقريرٍ مطوَّل على الراديو عن نتائج بحث المحطة الكوزمولوجيّة الآنجلو-يابانية على القمر. المحطة، بمنظومتها الهائلة من أجهزة التليسكوب ومناظير التحليل الطيفيّ فائقة الحساسية، التقطتْ كواكبَ أكثر تدورُ في الأفلاك حول نجوم قريبة. وعلى مرّ اثني عشر عامًا التقطت المحطةُ الكثيرَ من العوالم الجديدة، وثمة أدلةٌ تشير إلى أنَّ قلةً من الكواكب لربما مأهولة بالحياة. أصغيتُ وقرأتُ كل نتفةِ معلومةٍ وقعت عيني عليها، ولاحظتُ أن الجدلَ ضد احتمالية وجود حياةٍ في عوالمَ أخرى غدا أقل وأقل، والفكرةُ بدأت تحظَى بقبول علميّ.

بالطبع لا أحدَ يملك فكرةً إن كانت الحياة خارجَ منظومتنا الشمسية لا تزيد عن تريليونات من الجراثيم. والناسُ تخمّن عما

إذا كان من حياةٍ ذكية هناك، فمن الممتع تصوّر وجودها، لكن لا أحدَ حتى اليوم ادّعى عثوره على أحدٍ يتبادل معه الكلام. لا يهمني، الحياةُ في ذاتها كافية، تثيرني وتحمّسني وتهمّني حدًّا أعجز عن تفسيره، ثمة حياةٌ هناك، ثمة عوالمُ حيّة على بعد أعوامٍ ضوئية منّا، والولايات المتحدة منشغلةٌ بالانسحاب من العوالمِ الأقرب والميتة، القمر والمريخ. أفهم الداعي وراء انسحابها، أفهم، لكن ليتها لم تفعل.

أظن التكيفَ مع عالمٍ حيّ والعيش عليه سيكونُ أسهل دون حبلٍ سريّ وطويل وباهظ يربطنا بالأرض، أسهل لكن ليس سهلًا. مع ذلك، يظل شيئًا، إذ لا أظن ثمة حبل سري بطول سنواتٍ ضوئية سيربطنا. من سيرتحل إلى عوالمَ خارجَ نظامنا الشمسي لن يجد سوى نفسه يعتمد عليها -بعيدًا عن أهل السياسة والمال، عن الاقتصادات المنهارة والبيئة المعذَّبة- وبعيدًا عن يد المساعدة، بعيدًا جدًّا عن ظل عالم والديه.

السبت، ١٩ يوليو ٢٠٢٥

غدًا سأبلغ السادسة عشر، السادسة عشر وحسب. أشعرُ بأني كبرت، أريد أن أكون أكبر، أحتاج أن أكون أكبر، أكره كوني طفلةً، الزمن يجرُّ نفسه جرًّا!

ترايسي دن اختفت، كانت مكتئبةً مذ مقتل آمي. متى ما تكلمتْ، إنْ تكلمتْ أصلًا، فكل حديثها كان عن الموت والرغبةِ في الموت

واستحقاقِها الموت. الكل أَمِلَ تجاوزها فاجعتَها -أو ذنبها- والمضيّ قدمًا بحياتها. ربما ما استطاعت. بابا تحدثَ معها مرات عدة، وأعرف أنه كان قلقًا بشأنها. عائلتُها المجنونة لم تكن عونًا لها، عاملوها كما عاملوا آمي: تجاهلوها.

الإشاعة تقولُ إنها خرجت في وقتٍ ما البارحة. زمرةٌ من أطفال عائلتَي موس وباين يقولون إنهم رأوها تخرجُ من البوابة وقت خروجهم من المدرسة، ومذ ذاك لا أحد رآها.

الأحد، ٢٠ يوليو ٢٠٢٥

ها هي هدية عيد ميلادي التي خطرتْ لي هذا الصباح ما إن استيقظت، سطران وحسب:

**مصيرُ بذرةِ الأرض**

**أن تمدّ جذورَها بين النجوم.**

هذا ما كنتُ أحاول الإمساك به الأيامَ القليلة الماضية ما إن لفتتْ انتباهي قصةُ اكتشاف كواكبَ جديدة، وبالطبع هي الحقيقة، واضحة وجليّة.

لكن اللحظة مستحيلة. فالعالمُ في صورةٍ مروّعة، حتى الدول الغنية لا تبلي حسنًا كما يقول التاريخُ أنها بالعادة تبلي في أوقاتٍ كهذه. الرئيس دونر ليس الوحيد الذي يفكك مشاريعَ الفضاء ويبيعها، ولا أحد آخر يتوسعُ في برامج الفضاء إلا إن كانت تجلبُ

الربح السريع أو على الأقل تعد بمستقبل مربح. فلا مزاج الآن لعمل أي شيء يراه الناس هدرًا أو غير ضروري، ومع ذلك.

**مصيرُ بذرة الأرض**

**أن تمدَّ جذورَها بين النجوم.**

لا أعرف كيف سيتحققُ أو متى، فهناكَ الكثيرُ لفعله حتى قبل تنفيذِ الخطوة الأولى، وأحسبه متوقعًا أن يكون هكذا. فدائمًا هناك الكثير لفعله قبل ذهابك الجنة.

# ٨

**حتى تصفوَ علاقتُكَ مع ربّك،**
**خذ في الاعتبارِ عواقبَ تصرفاتك.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

السبت، ٢٦ يوليو ٢٠٢٥

ترايسي دن لم تعدْ إلى بيتها بعدُ ولم تعثرْ عليها الشرطة، ولا أظن سيُعثَر عليها. لم تغبْ أكثر من أسبوع لكن الأسبوع خارجًا أسبوعٌ في جهنم. فالناسُ تختفي خارجًا، يجتازون بوابةَ السور مثل السيد يانس والكلُّ ينتظر عودتَهم، لكن أبدًا لا يعودون، أو يعودون في جرّة رماد. أحسب ترايسي دن ميتة.

بيانكا مونتويا حامل. ليستْ مجرد نميمة بل الحقيقة، وتهمني على نحوٍ ما. فبيانكا في السابعة عشر، غير متزوّجة، مهووسةٌ بحبّ خورخي إتربى الذي يقطن بيت إبارا، وهو أخ يولاندا إبارا.

خورخي اعترفَ أنه الأب، لا أدري لماذا لم يتزوّجا قبل أن ينفضحَ أمرهما هكذا إلى العلن. خورخي في الثالثة والعشرين، وهو -على الأقل- كان يُفترض به أن يتصرف بعقلانية. على أية حال سيتزوجان، وعائلتا إتربى وإبارا دخلتا في عداءٍ مع عائلة مونتويا طوال الأسبوع. يا للغباء، كأن لا شيء آخرَ لديهم يفعلونه. على الأقل الطرفان لاتينيّان، لا عداء عرقيًّا هذه المرة.

فالعام الماضي كريغ دن، الأبيضُ والأعقل في عائلة دن، وقعوا عليه يمارسُ الحبَّ مع سيتي موس السوداء، وفوق هذا، الكبرى من بنات ريتشارد موس. حسبتُ أحدهم سيُقتل لا محالة.

يا للجنون.

مقصدي ليس عمّن ينامُ مع مَن، ومَن على عداءٍ مع الآخر، مقصدي -سؤالي- كيف يُعقل لأيّ أحدٍ أن يتزوجَ وينجب أطفالًا في عالمٍ كهذا؟

أعني، أعرف أنَّ الناسَ لطالما تزوجوا وأنجبوا أطفالا، لكن الآن.. الآن ما عاد من مكان، ما عاد من عمل. شخصان يتزوجان، وإن كانا محظوظَين كفايةً سيجدانِ غرفة أو مرآبًا يأويهما دونَ أمل في شيء أفضل، بل كل الأسباب حتى يتوقعا مصيرًا أسوأ.

حياة بيانكا المختارة أحدُ خياراتي، ليس الخيار الذي أنوي ممارسته، لكن قريبٌ جدًّا مما يتوقعه مني أهل الحي، من أيّ فتاةٍ في عمري. اكبري قليلًا بعد، ثم تزوجي وأنجبي الأطفال. كرتس تالكوت يقول إنَّ عائلة إتربى الجديدة ستحظَى بنصف مرآبٍ تعيش

فيه بعد تزويج العائلة أخت خورخي، سيليا إتربى كروز، حيث سيحظى زوجها والطفل بالنصف الآخر. عائلتان في مرآب وبلا وظيفة واحدة معيلة. أفضل خيار متاح لديهم الانتقال إلى مجمع سكني للأثرياء والعمل خدمًا مقابلَ السكن والطعام حيث لا سبيل لادخار أيّ مال، ولا الانتقال إلى حياةٍ أفضل.

وماذا إن رغبوا في الانتقال شمالًا، البحثِ عن حياةٍ أفضل في أوريغون أو واشنطن أو كندا؟ سيكونُ الترحالُ أصعبَ بكثير مع طفل أو طفلَين، ومحاولةُ التسلل عبْر حرّاس عدائيين وقطعُ الحدود المحلية أو الدولية أخطر بكثير مع وجود رضيع بين يديك.

لا أدري إن كانت بيانكا شجاعةً أم غبية، هي وأختها مشغولتانِ في تعديل مقاسات فستان زفافِ أمهما القديم، والكل يطبخ ويتجهز ويرتب لحفلةٍ كأننا نعيش الأيام الخوالي الرائعة، كيف يعقل؟

يعجبني كرتس تالكوت كثيرًا، وربما أحبه، أحيانًا أظنّ أني أحبه، وهو يقول إنه يحبني. لكن إن كان كل ما سأتطلّعُ إليه الزواجُ وإنجاب الأطفال والفقر المستفحل فقرًا، فأوثر قتلَ نفسي.

السبت، ٢ أغسطس ٢٠٢٥

كان لدينا تمرينُ رماية اليوم، وللمرة الأولى مذ تلك المرة التي قتلتُ فيها الكلب، عثرنا على جثة أخرى. هذه المرة كلنا رأيناها، امرأة مسنة وعارية، موبوءة باليرقان ونصف مأكولة، وأكثر من مقززة.

كانت القشةُ التي قصمت أورا موس. تقول إنها لن تمارسَ

تمارينَ الرماية بعد اليوم أبدًا. حاولتُ التحدثَ معها، لكنها تقول إنها وظيفةُ الرجال أصلًا، حمايتنا نحن النساء. تقول إنَّ على النساء ألا يمارسنَ مطلقًا تمارين الرماية.

«وماذا إن اضطررتِ إلى حماية إخوتك الصغار؟» فمعظم الوقت هي المسؤولة عن رعايتهم.

«أعرفُ ما يكفيني لأحميهم».

«بلا تمارين ستضعفُ مهارتك».

«لن أغادر مرةً أخرى» قالت مصرَّة، «ليس من شأنك! لستُ مجبرة!».

عجزتُ عن التأثير عليها، خوفها صيَّرها دفاعية. قال بابا إنَّه كان عليَّ الانتظار إلى أن تتلاشَى ذكرَى الجثة ثم أحاول إقناعها. أظنه محقًّا، لكن أسلوب عائلة موس يغيظني، فدومًا ما يدع ريتشارد موس زوجاتِه وبناتِه يتصرفنَ على هذه الطريقة. يستعبدهنَّ في حدائقه وعملية تربية أرانبه وبيته، لكن متى ما حان الوقت كي يساهِمْنَ بجهودهنَّ في خدمة المجتمع، يدعهنَّ يتصرفْنَ كما لو كنَّ «سيدات راقيات». إن رفضت الواحدةُ منهن القيامَ بدورها في الحيّ استنفر ووقف إلى جانبها؛ ديدنٌ خطيرٌ وغبي، إذ يغرس الامتعاضَ في نفوس أهل الحيّ. فلا امرأةٌ من عائلة موس ساهمت في دوريةِ الخفر الليلية، ولستُ الوحيدة التي لاحظت هذا.

أكبرُ أبناء عائلة باين، دويل ومارغريت، رافقانا للمرة الأولى،

من سوء حظهما. مع ذلك لم يخافا، بل أبديا شكيمة قويّة. خالهما واردل باريش لم يرغبْ في حضورهما، أبدى الكثير من التعليقات المسيئة عن بابا وأناه المتضخمة وعن الميليشيات ودوريّات الخفر وعن ضرائبه، وكيف دفع من الضرائب ما يكفي في حياته كي يحظَى بحق الاعتماد على الشرطة كي تحميه. بلاه بلاه بلاه. رجلٌ غريبٌ ونوّاحٌ منعزل. سمعت أنه في حياته السابقة كان غنيًّا. بابا يتفق معي أنه ليس أهلًا للثقة، لكنه ليس والد دويل ومارغريت، وأمهما روزالي باين لا تقبلُ بأن يُملي عليها أحدٌ كيف تُربّي أطفالها الخمسة. فالقوةُ الوحيدة التي تملكها في هذا العالم سلطتُها على أطفالها ومالها، وهي تملك القليلَ من المال ورثته عن أبويها. هو أضاع ورثه ولذا محاولتُه إملاءَ أوامره عليها فيما يخص أطفالها كانت حركةً غبية، كان يجدر به أن يكونَ أذكى من ذلك. لمصلحة أولاء الأطفال، فأنا سعيدة أنه لم يكن.

أخي كيث، كما المعتاد، توسَّل الذهاب معنا. سيبلغ الثالثةَ عشر في أيام -الرابع عشر من أغسطس- وفكرة انتظاره عامَين حتى يبلغ الخامسةَ عشر يستحيلُ عليه تحملها. أفهمه، فالانتظار كريه، والانتظار حتى تصبحَ أكبر هو أسوأ صنوفِ الانتظار لأنَّ لا شيء بيدكَ فعله كي تسرّعَ عقارب الوقت. المسكينُ كيث، المسكينة أنا.

على الأقل بابا يدعُ كيث يطلق النار على السناجب والعصافير ببندقية العائلة الهوائية، لكن كيث ما ينفك يتذمر.

«حرام» قال اليوم للمرة العشرين أو الثلاثين، «لورن ليستْ

سوى فتاة لكنك تدعها تذهب، دائمًا ما تسمحُ لها بفعل أمورٍ كهذه، علمني وسأساعدكَ في دورية الخفر وإخافة اللصوص». مرةً ارتكب خطأً عَرْض المساعدة على «إطلاق النار على اللصوص» عوضًا عن إخافتهم، وبابا أطلقَ عليه عظةً من عظاته. نادرًا ما يضربنا بابا، لكن بيده أن يرهبك من دون أن يرفع إصبعًا.

وبالطبع، كيث لم يأتِ معنا اليوم، وتمرينُ الرماية سار على ما يرام إلى أن عثرنا على الجثة. لم نرَ كلابًا هذه المرة، لكن أكثر ما أزعجني أنَّ الأكواخ الرثةَ من الألواح والورق المقوى وسعف النخيل على مدّ طريقنا نحو التلال على شارع ريفر زادت قليلًا عمّا قبل. دومًا ما تزداد مع كلّ رحلة. وعدا اللعان والتسوّل، فلا أحد من فقراء الشارع يتعرضُ لنا، هم يحدقون فقط، ويصعب عليّ أكثر وأكثر المرور جانبهم. البعضُ هياكل عظمية حيّة، جلدٌ وعظام وأسنانٌ قليلة، يقتاتون على ما يجدون.

أحيانًا أحلم بالطريقة التي يحدقون بها إلينا.

لدى عودتنا إلى البيت كان أخي كيث قد تسلَّل خارج الحيّ، بعيدًا خارج البوابة الأمامية. سرق مفتاحَ كوري ومضى وحده. بابا وأنا لم نعرفْ شيئًا إلا لدى عودتنا. كان كيث ما يزال غائبًا وكوري أدركتْ أنه لا بد خارج الحيّ. تحققت من الأمر مع آخرين من أهل الحيّ، واثنان من أطفال عائلة دن، التوأم أليسون وماري في عمر السادسة، قالتا إنهما رأتاه يغادر البوابة، وفورًا عادت كوري إلى البيت حيث اكتشفت اختفاء مفتاحها.

بابا -مرهقًا وغاضبًا ومذعورًا- كان في طريقه خارجًا للبحث عنه، لكن كيث عاد. كوري وماركوس وأنا كنا قد رافقنا بابا إلى الشرفة الأمامية، ثلاثتنا نحاولُ تخمين المكان الذي ذهب إليه كيث. تطوعنا أنا وماركوس لمرافقة أبي في البحث إذ كادت الظلمة تحل.

«عودا إلى البيت ولا تتحركا منه» قال بابا، «يكفيني سوءًا أنَّ أحدكم خارجَ السور». وراح يتفحّص مسدسه نصف الآلي، وتيقن أنه محشوّ بالكامل.

«بابا، انظر» قلت له، فقد لمحت شيئًا يتحرّكُ على بعد ثلاثة بيوت، خيالٌ سريعٌ يتحرك بمحاذاة شرفة بيت غارفيلد، لم أعرفْ أنه كيث، شدّت انتباهي حركته خلسةً، أحدٌ ينسلّ محاولًا الاختباء.

بسرعة لمح بابا الخيال قبل اختبائه عند بيت غارفيلد، وفورًا مضى حاملًا مسدسه ليتحققَ من الأمر فيما انتظرنا نراقب.

بعد لحظات قالت كوري إنها تسمعُ ضجةً غريبة في البيت. كنت مركزةً جدًّا على بابا وما يحصل خارجًا فلم أسمعها، أو أعرْها انتباهًا. مضت داخلًا، أنا وماركوس كنا لا نزال على الشرفة حين سمعنا صراخها.

فورًا أنا وماركوس تبادلْنا النظر ثم نظرنا نحو الباب الأمامي، ماركوس اندفعَ بقوة نحو الباب، وأنا صحت على بابا، ما كان بوسعي رؤيته لكنني سمعته يجيب ندائي.

«تعال بسرعة» صحتُ وهرعت إلى البيت.

كوري وماركوس وبينيت وغريغوري كانوا في المطبخ، محتشدينَ حول كيث. كيث كان منبطحًا على الأرضية، يلهث، لا شيء عليه سوى ملابسه الداخلية، كشوطٌ ورضوضٌ على جسده، متسخٌ وينزف. كوري جثتْ جانبه، تتفحّصه، تسأله باكية.

«ما الذي حدث؟ من فعلَ بك هذا؟ لماذا ذهبت خارجًا؟ وأين ملابسك؟ ماذا؟».

«أين المفتاح الذي سرقته؟» قاطعَها بابا «هل أخذوه منك؟».

الكل جفلَ، نظرنا إلى بابا ثم كيث.

«ما كان بيدي» قال كيث، لا يزال يلهث، «لم يكن بيدي بابا، كانوا خمسة».

«إذن حصلوا على المفتاح».

وكيث أومأ، يتحاشى عيني بابا.

فورًا استدار أبي وبخطىً واسعة غادر البيت، شبهَ راكض. كان الوقت قد تأخّر كثيرًا على الطلب من جورج أو بريان شو تغيير قفل البوابة. لا مناصَ من تأجيل المهمة حتى الغد وتوزيع مفاتيحَ جديدةٍ على أهل الحي.

كنت مدركةً أنَّ أبي ذاهبٌ حتما إلى تحذير أهل الحيّ واستدعاء أفرادٍ أكثرَ في دورية الخفر. أردتُ عرض المساعدة في تحذير الناس، لكني لم أفعل، فبابا بدا غاضبًا جدًّا على قبول أية مساعدة من أبنائه، وكيث كان مدركًا أنه سيُعاقَب ما إن يرجع بابا، عقابًا شديدًا.

بنطالٌ وقميص وزوجُ حذاء، كلها سُلبت. كوري ما كانت أبدًا لتسمحَ لنا بالركض حفاةً خارج البيت كما يفعلُ الكثير من الأطفال. فتعريفها للتحضّر لا يتضمن الأقدامَ القذرة المتيبسة كما لا يتضمن الجلدَ الموبوء القذر. الأحذيةُ باهظة، ودائمًا ما تكبر مقاساتنا فتضيق علينا، لكن كوري أصرَّت. رغم تكلفتها، كلُّ واحد منا لا بد أن يملك على الأقل زوجَ حذاء قابلاً للارتداء، والأحذية تكلف الكثير. والآن لا بد من تدبير المال لشراء زوجٍ إضافيّ لكيث.

كيث تكوَّر على الأرضية، يلطخُ البلاط بدم أنفهِ وفمه، يصيح باكيًا حاضنًا نفسه ما إن غادر بابا. تطلبَ الأمرُ دقيقتين أو ثلاث كي تتمكن كوري من رفعه وشبه حمله إلى الحمام. حاولتُ مساعدتها، لكنها حدَّقتْ بي وكأني أنا من ضربه، لذا تركتهما وشأنهما. أصلًا لم أرد المساعدة، لكني ارتأيت أنَّ من واجبي عرضها، فكيث كان في ألمٍ حقيقيّ، وكان صعبًا عليّ مشاركته إياه.

نظفتُ البلاط من الدم حتى لا ينزلقَ أحد أو يدوسَ عليه فيلطخ سائر الأرضية، ثم أعددتُ العشاء. تناولته وأطعمتُ إخوتي الثلاثة الأصغر، وحفظتُ البقية لبابا وكوري وكيث.

الأحد، ٣ أغسطس ٢٠٢٥

صباح اليوم، في قداس الكنيسة، توجَّب على كيث الاعتراف بما فعل. أُجبِر على الوقوف أمام الرعيةِ بأسرها وإخبارِهم بكل شيء، بما في ذلك ما فعله به قاطعو الطريق الخمسة. بعدها أُجبِر

على الاعتذار إلى الرب، وإلى أبويه، وسائر الرعيّة التي هدد أمنها وسببَ لها الاضطراب. بابا أجبره على كل ذلك رغم كل اعتراضات كوري.

لم يمد بابا يده عليه قط، رغم أنه ليلة البارحة كاد يفعل. «لِمَ تفعلُ شيئًا كهذا؟» ظلَّ يلح عليه بالسؤال، «كيف لابنٍ من صُلبي أن يتصرفَ بهذا الغباء! أين عقلك؟ ماذا حسبت نفسك فاعلًا؟ أنا أتكلم معك جاوبني!».

كيث ظلَّ يجاوب ويجاوب ويجاوب، لكن لا جوابَ بدا منطقيًّا لأبي، «ما عدتُ طفلًا!» راح ينوح، أو «أردتُ أن أريك، أردتُ أن أريك! دائمًا ما تدع لورن تقومُ بتلك الأشياء!» أو «أنا رجل! والرجلُ لا يختبئ خلف السور، لا يختبئ في البيت كما النساء؛ أنا رجل!».

وظل كيث ينوحُ الموّال ذاته لأنَّه كان رافضًا الاعتراف بارتكابه أي خطأ. أراد أن يرينا أنه رجل لا فتاة مذعورة، ليس خطؤه أن زمرةَ رجالٍ انقضوا عليه، ضربوه، سلبوه. هو لم يفعل شيئًا، ما كان خطؤه على الإطلاق.

بابا حدَّق إليه بمنتهى الاشمئزاز، «عصيْتني» قال له، «سرقتَ، عرَّضتَ جميع حيوات وممتلكات أهل الحيّ للخطر، منهم أمك وأختك وإخوتك الصغار، لو كنتَ الرجل الذي تظن، لهريتك ضربًا الآن!».

كيث حدَّق في استقامة، «الرجالُ السيئون يأتون حتى إن لم يكنْ لديهم مفتاح» تمتم قائلًا، «يأتون ويسرقون، ليس خطئي!».

تطلّب الأمرُ ساعتين من أبي حتى يجبر كيث على الاعتراف بخطئه بلا أية مبررات، هو ارتكب خطأً جسيمًا، ولن يكرره.

أخي ليس ذكيًّا، لكنه يعوّضُ عن نقص الذكاء بقوة العناد. أبي ذكيٌّ وعنيد، ما كان من فرصةٍ أمام كيث، لكنه أجبر بابا على بذل جهدٍ كبير لتحقيق انتصاره.

صباح اليوم التالي نال بابا انتقامه. لا أظنه رأى في إجبار كيث على الاعتراف العلنيّ انتقامًا، لكن من ملامحِهِ لدى اعترافه، فهكذا يراه كيث.

«كيف لي أن أفرَّ من هذه العائلة؟» تمتمَ ماركوس لي بينما كنا نشاهدُ الاعتراف. تعاطفتُ معه، فهو يتشاركُ الغرفة مع كيث، سنةٌ واحدة تفصل بينهما ودومًا في خناق بعضهما البعض، وحتمًا ستسوء الأمور بينهما الآن.

كيث هو الأثيرُ لدى كوري. إن سألتها ستنكرُ أنَّ لها أثيرًا من بين أطفالها، لكن لديها. ما تنفكُّ تعاملُه بأمومةٍ زائدة وتدعه يُفلت من العقاب على تفويتهِ أداءَ مهامّه وواجباته، على كذبه الصغير وسرقاته الصغيرة. ربما لهذا يظنُّ كيث أنَّ متى ما أفسد الأمور فلا بأس.

عِظةُ هذا الصباح دارت حول الوصايا العشْر مع تشديدٍ على «أكرمْ أباك وأمك،» و«لا تسرقْ». أحسبُ أنَّ أبي، في إلقائه العِظة، قد فرَّغ الكثير من غضبه وإحباطه. بينما كيث، الواقف منتصبًا، متحجّر الوجه، بملامحَ أكبر من سنوات عمره الثلاث عشرة، كتمَ غضبه.

رأيته يكتمه داخلًا، يقبضُ عليه داخلًا، يغصُّ به.

## ٩

كلُّ صراعٍ
في جوهرِهِ
صراعُ قوى.
من ذا الذي سيحكمُ،
من ذا الذي سيقودُ،
من ذا الذي سيُعرّفُ،
يهذّبُ،
يخططُ،
من ذا الذي سيسيطرُ.
كلُّ صراعٍ
في جوهرِهِ
صراعُ قوى،
وفي أغلبِها
لا يعقلُ طرفاه
أكثرَ من كبشيْن




الأحد، ١٧ أغسطس ٢٠٢٥

حكمةُ أبوَيّ خانتهما هذا الأسبوع مع عيد ميلاد كيث. أهدياه بندقية هوائية، لم تكن جديدةً، لكنها صالحة، وفي يده بدتْ أشدَّ خطورة من ذي قبل. كانت مُلْكه، لا حاجة به ليشاركَها. النيةُ وراءها -على ما أظن- تخفيف ألم اضطراره الانتظارَ عامينِ قبل أن يضعَ يده على سميث آند ويسون، أو حتى الأحسن، هكلر آند كوخ. وبالطبع، كان يفترَضُ بالهدية مساعدتَه على تجاوز رغبتهِ الغبية بالتسلل خارجَ السور، وتجاوز إذلال اعترافه العلني.

كيث أطلقَ النار على حمائمَ وغربانٍ أكثر، وهدد بإطلاق النار على ماركوس -الذي أخبرني الليلة بذلك- ثم انطلقَ البارحة إلى نواحي مجهولة حاملًا معه بندقيتَه الهوائية. لا أحد رآه على مرّ ثماني عشرة ساعة، ولا شكَّ بأنه قد غادر السور ثانيةً.

الإثنين، ١٨ أغسطس ٢٠٢٥

خرج بابا باحثًا عن كيث، حتى أنه اتصلَ بالشرطة. يقول إنه لا يعرفُ كيف سنطيق تكلفةَ الرسوم، لكنه مذعور، فكلما مرَّ وقتٌ أطول يزيدُ احتمالُ إصابته أو قتله. ماركوس يظن أنَّ كيث خرج

باحثًا عن الشبابِ الذين ضربوه، لا أصدق. فحتى كيث لن يسعَى باحثًا عن خمسة شباب، ولا حتى شابًّا واحدًا، ولا يحمل في يده سوَى بندقيةٍ هوائية.

كوري كانت أشدَّ اضطرابًا من أبي، مذعورةً وجفلة ويتملّكها الغثيان وما تنفكّ تبكي. أقنعتُها بالعودة إلى فراشها وتولّيتُ تعليم دروسها. فعلتُ ذلك أربع أو خمس مرات من قبل فلم يستغرب الأطفال وجودي كثيرًا. استعنتُ بدفاتر تحضير كوري، وخلال الجزء الأول من اليوم رتبتُ أزواجًا من طلبة كوري وأطفالَ حضانتي حتى يحظى طلبة كوري بتجربة التدريس وأطفالي بتجربة التعلُّم من شخصٍ آخر. بعض طلبة كوري من عمري وأكبر، وقلة من هؤلاء -كأورا موس ومايكل تالكوت- غادروا. هم موقنون أني أفهم العمل المطلوب، فقد اجتزتُ امتحانات الثانوية ومتطلباتها قبل عامين تقريبًا، ومذ ذاك وأنا آخذ دروسًا جامعية «مجانية» بلا وحدات مع بابا. مايكل وأورا يعرفان ذلك، لكن يظنان أنهما كبيران على تعلم أي شيء من أشباهي. سحقًا لهما، مؤسفٌ أن يكون لحبيبي كرتس أخٌ مثل مايكل. مؤسفٌ أنَّ لا أحد منا يحظى بفرصة اختيار أشقائه.

الثلاثاء، ١٩ أغسطس ٢٠٢٥

لا خبرَ عن كيث، وكوري دخلت في حداد. اليوم أيضًا توليتُ مدرستَها عنها، وبابا عاد للبحث. لدَى عودته الليلة بدا منهكًا، وكوري راحت تصيح فيه باكية.

«أنتَ لم تحاولْ حتى!» قالت مع وجودنا أنا وأشقائي الثلاثة، فقد خرجنا لنرى إن كان بابا قد عاد بكيث، «لو حاولتَ لعثرتَ عليه!».

حاول بابا الاقترابَ منها، لكنها تراجعت للخلف، لا تزال على صراخها: «لو عزيزة قلبك لورن مَن كانتْ وحدها خارجًا، لكنتَ عثرتَ عليها! لكن كيث فلا يهمك!».

ما سبق قط أن قالت شيئًا كهذا.

أعني، لطالما كُنا كوري ولورن، ما طلبتْ مني مطلقًا مُناداتها بـ «ماما» وما خطر لي أن أفعل. لطالما عرفتُ أنها زوجة أبي، لكن، مع ذلك، أحببتُها كثيرًا. صحيح أربكني اختيارها كيث الأثيرَ لديها، لكن ما أنقصَ يومًا من حبي لها. كنت طفلتها، لكن ما كنت طفلتها. ليس تمامًا. ليس حقًّا. لكن لطالما ظننت أنها تحبني.

بابا نَهَرنا وأمرنا بالعودة إلى غرفنا، هدَّأ روع كوري وعاد بها إلى غرفتها، بعد دقائق دخل غرفتي.

«لم تعْنِ ما قالته، لورن، فهي تحبكِ كما لو كنتِ ابنتها».

نظرتُ إليه وحسب.

«تريدكِ أن تعرفي أنها آسفة».

أومأتُ، وبعد تطميناتٍ أخرى غادر.

هل هيَ آسفة؟ لا أظن.

هل عنتْ ما قالت؟ أوه أجل، يقينًا عنته، تبًّا.

الخميس، ٢٨ أغسطس ٢٠٢٥

كيث عادَ الليلة الماضية.

ببساطة دخل البيت وقت العشاء، كما لو أنه كان يلهو بكرة القدم خارجًا لا مختفٍ منذ الأحد. وهذه المرة بدا على ما يرام، لا علامة واحدة على جسده، وفي ملابسَ أفضل، بل مع زوج حذاء جديد. كلها من نوعيةٍ أفضل من التي كانت عليه وقتَ خروجه، وأغلى ثمنًا بكثير مما نطيق.

كانت البندقيةُ الهوائية لا تزال في يده قبل أن ينتشلَها بابا منه ويحطمها.

كيث ما كان ليفصحَ عن أين كانَ وكيف تحصَّلَ على كل تلك الأغراض الجديدة، فانهال بابا عليه ضربًا، ضربًا داميًا.

لم أر بابا على هذه الحال سوى مرة واحدة، حين كنتُ في الثانية عشر. كوري حاولت إيقافه، سحبه عن كيث، تصيح فيه، بالإنجليزية، ثم بالإسبانية، ثم بلا كلمات.

غريغوري تقيأ على الأرض وشرعَ بينيت بالبكاء، ماركوس انسحبَ من المشهد بأسره وانسلَّ خارج البيت، ثم انتهى الأمر.

كيث كان يصيحُ كما الرضيع ابن العامين في حضن كوري، وبابا يقف أعلاهما، مشدوهًا.

لحقتُ بماركوس عبر الباب الخلفي وتعثرتُ وكدتُ أقع على درجات الشرفة، لم أعرفْ ما الذي أفعله. ماركوس لم يكن في

الأرجاء فجلستُ على الدرجات في الظلمة الدافئة وتركتُ جسدي يرتعشُ ويتألم ويتقيأ في تعاطفه اليائس مع كيث، ثم أغمي عليّ.

أفقتُ لاحقًا على ماركوس يهزّني ويهمس باسمي.

نهضتُ مع ماركوس يتشبثُ بذراعي، يحاول إسنادي، إلى أن أوصلني غرفتي.

«دعيني أنام هنا الليلة» همسَ ما إن جلست على فراشي، دائخةً متألمة، «سأنامُ على الأرض، لا يهمني».

«حسنٌ» أجبتُه، ولم أكترثْ حقًّا لأين ينام. استلقيتُ على الفراش ولم أخلع حتى فردتي حذائي، وفوق لحافي كوَّرتُ جسدي على وضعية الجنين، ولا أدري إن نمتُ أو مرة أخرى أغميَ عليّ.

السبت، ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٥

كيث غادر الحيّ مرةً أخرى، غادرَ عصر البارحة، الليلة وحسب اعترفت كوري أنه لم يسرقْ مفتاحها فقط هذه المرة، بل مسدسها، الـ سميث آند ويسون.

بابا رفض الخروجَ والبحث عنه، نام في مكتبه ليلَ البارحة، والليلة أيضًا سينامُ هناك.

عمري ما أحببت أخي، أبدًا، والآن أكرهُه لما يفعله بهذه العائلة، لما يفعله بأبي، أكرهه.

اللعنة، أكرهه.

الإثنين، ٣ نوفمبر ٢٠٢٥

كيث عادَ الليلةَ بينما أبي في زيارةٍ إلى بيت تالكوت. أظنه حامَ وراقبَ البيت وانتظر مغادرةَ بابا. أتى لرؤية كوري، وأحضرَ لها معه رزمةً كبيرة من المال.

حدقت في المال، ومشدوهةً تناولته «هذا كثير، كيث» همستْ قائلةً، «من أين لك كل هذا؟».

«كله لك» أجابها، «كله لك، ولا شيء له».

تناول يدها وأطبقَ قبضتها على المال ولم تمنعه، رغم معرفتها أنه إما مالٌ مسروق، أو مال مخدرات، أو أسوأ.

أهدى كيث بينيت وغريغوري ألواحًا كبيرة باهظة من الشوكولا بالحليب والمكسرات، واكتفى بابتسامة لي وماركوس، ابتسامة «سحقًا لكما». ثم -وقبل وصول بابا وعثوره عليه هنا-غادر مرةً أخرى؛ كوري لم تدركْ لحظتَها أنه ينوي المغادرة ثانية، فراحت تصيحُ وتتشبث به:

«لا تذهبْ! ستُقتَلُ خارجًا! ما خطبك؟ ابقَ في البيت!».

«ماما، لن أدعه يضربني مرةً أخرى، أنا في غنَى عن ضربه ومواعظه وتأمُّره عليّ، قريبًا جدًّا سأكسبُ في اليوم ما يكسبه في أسبوع، بل حتى في شهر».

«ستُقتَل!».

«لا، لن أُقتَل، فأنا أعرفُ ما أنا فاعل». قبَّلها، ثم -في يسرٍ

مفاجئ- رفع ذراعَيها عنه. «سأعود لرؤيتك» قال لها، «وسأحضرُ المزيد من الهدايا».

وهكذا، تلاشَى عبر الباب الخلفي، ومضى.

## ٢٠٢٦

**الحضارةُ في حياة الجماعات تُماثِلُ الفكرَ في حياة الأفراد، هي وسيلةُ جمْعِ فكْر الأفراد نحو تحقيق تكيُّف الجماعة.**

**الحضـارةُ، كمـا الفكر، قد تؤدي غرضَهـا على نحوٍ ملائم، أو تفشـل فـي أداء وظيفتهـا التكيُّفيّة. ومتى ما فشـلت الحضـارةُ فـي تلبيـة وظيفتهـا فلا بد لهـا أن تنحـلّ، إلا إنْ رصَّتهـا من جديد قـوى موَحِّدة، داخليـة أو خارجية.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

## ١٠

وقتَ يتفكّكُ الاستقرار الظاهريّ

كما هو حتميّ -

فالربُّ إلهُنا هو التغيير -

ينحو الناسُ إلى الاستسلام

للخوفِ واليأس

الحاجةِ والطمع.

في غيابِ مؤثرٍ قويّ كفاية

يوحّدُ الناسَ

فالناس تنقسم،

يتصارعون،

الواحد ضد الآخر،

الجماعة ضد الجماعة،

بُغيةَ النجاة، المركز، السلطة.

يستدعون أحقادَهم القديمةَ ويبتدعون جديدة،

يخلقون الفوضى ويغذونَها،

**يقتلون ويقتلون ويقتلون،**

**إلى أن ينالَهم الإرهاق أو الدمار،**

**أو إلى أن يُهزَموا على يد قوى خارجية،**

**أو إلى أن يغدو أحدُهم**

**قائدًا**

**تتبعه الأغلبية،**

**أو طاغيةً**

**الكلُّ يخافه.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

الخميس، ٢٥ يونيو ٢٠٢٦

كيث عاد إلى البيت الليلة الماضية، أكبرَ حجمًا من أي وقتٍ مضى، طويلٌ ونحيل كما بابا طويلٌ وعريض. ليس بعد في الرابعة عشر، لكنه يقينًا يبدو كما الرجلِ الذي تاق أن يكون. نحن هكذا، عائلة أولامينا – طوالُ القامة، أقوياء، ونكبرُ بسرعة، وعدا غريغوري الذي يبلغ التاسعة، فكلنا الآن نفوقُ كوري طولًا. ما زلتُ أنا الأطول، لكن يبدو أنَّ طولي هذه الأيام يزعجها. لكنها تحبُّ حجم كيث، ابنها الكبير، وتكرهُ حقيقة أنه ما عاد يعيشُ معنا في البيت.

«حصلتُ على غرفة» قال لي البارحة، فقد تحادثت معه؛ كوري كانت برفقة دوروتيا كروز، إحدى صديقاتها المفضلات والتي أنجبتْ للتو طفلًا آخر، بقية الأولاد كانوا يلعبون في الشارع أو

على الجزيرة، وبابا كان قد ذهب إلى الجامعة. سيقضي الليلة هناك، فالآن، أكثر من أي وقتٍ مضى، بات الفجرُ الوقتَ الآمنَ للخروج. واحْرِصْ ألا تعود إلا مع فجر اليوم التالي، هذا إن كنت مضطرًّا أصلًا للخروج. بابا مضطرٌّ إلى الخروج مرةً في الأسبوع، فالرديء من الطفيليات لا تزال تحوم ليلًا وتنام نهارًا. لكن ها كيث يعيش خارجًا.

«حصلتُ على غرفة في مبنى مع أناس آخرين» قال لي، الترجمة: هو وأصدقاؤه احتلوا مبنىً مهجورًا، ومَن أصدقاؤه؟ عصابةٌ؟ قطيعُ موامس؟ ثلةُ رواد فضاء يطيرون انتشاءً على المخدرات؟ عرينُ لصوص؟ كل ما سبق؟ كلَّما زارنا أحضر مالًا لكوري وهدايا صغيرة لبينيت وغريغوري.

من أين له المال؟ يقينًا ليس من عملٍ صالح.

«هل يعرفُ أصدقاؤك كم عمرك؟».

كشَّر في وجهي، «بالتأكيد لا، ولماذا أُخبرُهم؟».

أومأتُ، «أحيانًا ينفعكَ أن تبدو أكبرَ من عمرك».

«هل تودُّ تناولَ شيء؟».

«هل ستطبخينَ لي؟».

«لطالما طبختُ لك، مئات المرات، آلاف».

«أدري، لكنكِ فعلتِها مجبرة».

«دع عنك التغابي، ألا تظنّ أنَّه كان بيدي التصرف مثلك: التخلي

عن مسؤولياتي متى ما يحلو لي؟ هذا ليس ديدني، فهل تريد أن تأكلَ أم لا؟».

«بالتأكيد».

أعددتُ يخنةَ أرانب وخبزَ جوز البلوط، ما يكفي لكوري وكل الأولاد متى ما حضروا. راح يتسكعُ حولي يراقبني أطهو، ثم بدأ يتحدثُ معي. ما فعلها قط، فأبدًا أبدًا لم نطق بعضَنا البعض، لكن كان يملك معلوماتٍ أنا في حاجة إليها، وبدت عليه الرغبةُ في الكلام. لا بد أني أكثرُ شخصٍ آمنٍ بوسعهِ التحدث معه، ما كان خائفًا من صدمي، أصلًا لا يكترثُ لما أظنه، وما كان خائفًا من إخباري بابا وكوري بأيّ شيء يقوله. وبالطبع ما كنتُ لأفعل، فلماذا أزيد من جراحِهم؟ ومن الأساس أنا لستُ وشّاية.

«ليس سوى مبنى تعسٍ من الخارج» كان يقول عن بيته الجديد، «لكن لن تصدقي روعته متى ما دخلته».

«بيتُ دعارة أم سفينةُ فضاء؟».

«يحوي ما لم تريه قط» تهرّب من سؤالي، «نوافذُ تلفزيّة تعبرينها عوضًا عن الجلوس ومشاهدتها، سماعات رأس، أحزمة، وخواتم لمس، ترين وتشعرين بكل شيء، تفعلين أيَّ شيء، أي شيء! هناك أماكنُ وأشياء لك أن تبلغيها دون حاجةٍ على الإطلاق للخروج إلى الشارع إلا للحصول على الطعام».

«وأيًّا يكن مالِكُ هذه الأشياء، آواك؟».

«أجل».

«لماذا؟».

نظر إليَّ لوهلةٍ طويلة، ثم انفجر ضاحكًا، «لأني أقرأ وأكتب» أخيرًا قال، «ولا أحد منهم يقدر، كلهم أكبر مني ومع ذلك لا أحدَ منهم بيده قراءة كلمة ولا كتابتها، سرقوا كل تلك الأشياء الرائعة وما استطاعوا استخدامَها، حتى أنهم قبل انضمامي إليهم عطَّلوا أغراضًا لأنهم عجزوا عن قراءة كتيب التعليمات».

لطالما عانينا الأمرَّين أنا وكوري في تعليمه القراءة والكتابة، فقد كان سئمًا، نافد الصبر، أي شيء إلا متحمّسًا.

«إذن أنتَ تقرأ مقابل لقمة عيشك؟ تساعد أصدقاءك الجددَ على تعلم استخدام الأغراض المسروقة؟».

«أجل».

«وماذا بعد؟».

«لا شيء!».

يا له من كاذبٍ حقير، ولطالما كان معدومَ الضمير. هو ليس ذكيًّا كفاية كي يختلقَ أكاذيب مقنعة، «مخدرات كيث؟ دعارة، نهب؟».

«أخبرتكِ، لا شيء! لا شيء يا أم العُرِّيف!».

تنهدتُ، «أنت لم تفرغْ بعد من إيلام بابا وكوري، هذه البداية فقط».

بدا وكأنما ينوي الصراخَ عليّ أو ضربي، ولربما كان سيفعلُ لو لا أني ذكرتُ كوري.

«سحقًا له، لا أكترثُ له البتة»، قال لي، في صوتٍ خفيضٍ قبيح. كان صوتَ رجل، بات لديه كلُّ ما يملكه الرجلُ عدا عقله، «أنا أكثرُ عونًا لها منه، أُحضرُ لها المال وأغراضًا جميلة، وأصدقائي، أصدقائي يعرفون أنها تقطنُ هنا، ولهذا يتركون المكانَ وشأنه، هو لا شيء!».

استدرتُ ونظرت إليه ورأيتُ فيه وجه أبي، أفتح بشرةً، أصغر، أنحف، لكن يظلُّ وجه أبي، بلا أي شك، «هو أنت» قلت هامسة، «كلّ مرة أنظر فيها إليك أراه هو، كل مرة تنظر فيها أنتَ إليه، ترى نفسك».

«خراء».

هززتُ كتفي.

وقتٌ طويل مرّ قبل أن يعاودَ الكلام، أخيرًا قال «هل سبق له أن ضربكِ؟».

«مرةً قبل خمس سنوات».

«ولماذا ضربكِ حينذاك؟».

فكّرتُ بالأمر، وقررت البوحَ له، فهو كبيرٌ كفاية، «وقع عليّ أنا وروبن كوينتانلّا معًا بين الشجيرات».

وهتف كيث في ضحكةٍ مفاجئة، «أنت وروبن؟ حقًّا؟ كنتِ تفعلينها معه؟ لا بد أنكِ تمزحين».

«اللعنة، كنا في الثانية عشر».

«محظوظةٌ أنك لم تحملي».

«أدري، الثانية عشر سنٌّ غبيّة».

أشاح بعينيه، «لكن بالتأكيد لم يبرحْكِ ضربًا كما فعل بي!».

«أرسلكَ وإخوتكَ إلى اللعب في بيت تالكوت» ناولته كأسًا باردة من عصير البرتقال، وصببت كأسًا لي.

«لا أتذكر».

«كنتَ في التاسعة، ولا أحد كان سيخبرُكَ عمّا يجري. على ما أذكر، أخبرتكَ أني وقعت على درجاتِ الشرفة الخلفية».

عبس، لربما تذكّر، فوجهي يومها لا يُنسى، بابا لم يبرحْني ضربًا كما فعل مع كيث، لكنني بدوتُ أسوأ، بلا شك يتذكر.

«هل ضربَ ماما؟».

هززتُ رأسي، «لا، لم أرَ قط أيَّ علامة، ولا أظنه يفعلها، فهو يحبُّها، أنت تدري كم يحبها من قلبه».

«الحقير!».

«هو والدُنا، وخير رجلٍ أعرفه».

«وهل كان هذا رأيكِ به وهو يضربك؟».

«لا، لكن لاحقًا حين أدركتُ كم كنتُ غبية، سعدتُ لكونه صارمًا معي، وحينذاك، وقت كان يضربني، كنتُ ممتنةً أنه لم يقتلني».

ضحكَ ثانية، مرتين في ظرف دقائق، وفي المرّتين على أشياء قلتها، لربما هو مستعدٌ الآن للحديثِ معي بصدق.

«أخبرْني عن الحياة خارجًا، كيف تعيشُ هناك؟».

كان قد أفرغ الكأسَ الثانية من العصير، «أخبرتكِ، أعيش حياة رائعة».

«لكن كيف عشتَ بداية خروجك، حين قررتَ البقاء خارجًا».

نظر إليّ وابتسم، ابتسامته قبل أعوام حين خدعَني بالحبر الأحمر حتى أنزفَ تعاطفًا معه على جرحٍ وهميّ، ابتسامتُه الخبيثة تلك أبدًا محفورةٌ في ذاكرتي.

«تريدين الخروجَ، أليس كذلك؟».

«يومًا ما».

«عوضًا عن الزواج من كرتس وإنجابِ كومة أطفال؟».

«أجل، عوضًا عن ذلك».

«كنت أتساءلُ علام لطفكِ الزائد معي».

من رائحة الطعام عرفتُ أنه بات جاهزًا، لذا نهضتُ وتناولتُ الخبز من الفرن والآنية من الخزانة. راودتْني الرغبة في إجباره على صب الطعام لنفسه، لكني كنتُ أعرف أنه سيغرف كلّ قطعِ اللحمة من اليخْنة، ولا يترك لبقيتنا سوى الخضار والبطاطا، لذا أعددتُ طبقه وطبقي، غطيتُ القدر، تركته على أخفضِ درجة نار، وغطيت الخبز بالمنشفة.

تركته يتناول طعامَه في سلام، مع معرفتي بحضور الأولاد في أية لحظة، جائعين، ثم خفتُ الانتظار لحظة أطول، «أخبرْني كيث» قلت له، «فأنا حقًّا أريد أن أعرفَ، كيف نجوتَ أول خروجكَ هناكَ؟».

ابتسامته هذه المرة أقل شيطانيّة، لربما الطعام لينَ قلبه، «أولُ ثلاثة أيام نمتُ في كرتونٍ مقوّى وسرقتُ الطعام، لا أدري لماذا لبثتُ أعود إلى ذاك الكرتون، كان لي أن أنامَ في أي ركنٍ قديم، بعض الفتية يحملون معهم كرتونهم المقوَّى حتى يناموا عليه، كي لا يناموا مباشرةً على الأرض».

«ثم حصلتُ على كيس نومٍ من رجلٍ عجوز، كان جديدًا، كما لو أنه لم يستخدمه قط، ثم..».

«سرقته؟».

رمقني بنظرةِ ازدراء، «وما الذي توقعتهِ مني؟ فلا مال لديّ، فقط المسدس، مسدس ماما عيار ٣٨».

أجل، كان قد أعاده لها قبل ثلاث زيارات، مع علبتين من الذخيرة، بالطبع لم يفصحْ من أين أحضر الذخيرة، أو كيف حصل على مسدسه البديل هكلر آند كوخ عيار ٩، مثل مسدس أبي. هو يظهرُ فجأةً مع كل تلك الأشياء ويدّعي أنك إن كنتَ تملك المال فبيدِكَ شراء أيّ شيء خارجًا، أبدًا لم يعترفْ من أين له أصلًا بالمال.

«حسنٌ» قلت له، «إذن سرقتَ كيس النوم، وواصلتَ سرقة الطعام؟ ولا أحد قبض عليك؟ عجيب».

«الرجل المسنُّ كان لديه بعضُ المال، فاستخدمته في شراء الطعام، ثم بدأت المسير إلى لوس أنجلوس».

حلمه القديم، ولأسبابٍ لا تُعقل إلا في ذهنه هو. يحلم بالذهاب إلى لوس أنجلوس، وأيُّ شخصٍ عاقل سيمتَنُّ شاكرًا على العشرين ميلًا الفاصلة بينه وبين تلك الدمّل التعيسة المتقرّحة.

«الطريق السريع محتشدٌ بالجماعات القادمة من لوس أنجلوس، حتى أنَّ هناك من قدم مشيًا من سان دييغو، لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، تكلمتُ مع أحدهم، وقال إنه ينوي الذهاب إلى ألاسكا، اللعنة، ألاسكا!».

«فليكن الحظ معه» قلت له، «سيُجابهُ الكثير من الأسلحة قبل وصوله إليها».

«لن يصلها، فألاسكا على بُعد آلاف الأميال من هنا!».

أومأتُ، «بل أبعد، ومع اضطراره قطع حدودَ الولايات العدائية وحدود كندا، سيحتاج إلى الحظ، لكنْ حسنًا يفعل، فهذا هدف منطقي».

«كان يملكُ ثلاثةً وعشرين ألف دولار في حقيبة ظهره».

لم أقل شيئًا، جمدت، وحدَّقت فيه باشمئزاز وكرهٍ متجدد، لكن بالطبع يعقل، بالطبع.

«أنتِ من أراد أن يعرف» قال لي، «كذا هي الحياةُ خارجًا، إن كنتَ تحمل مسدسًا، نلتَ الاحترام، إن لم يكنْ لديك، فأنت خراء، والكثيرُ من الناس خارجًا لا يملكون مسدسًا».

«ظننتُ أغلبهم مسلحين، عدا الفقراء المعدومين من أيّ شيء يُسرَق».

«وأنا ظننتُ ذلك، لكن المسدسات باهظةٌ جدًا، وأسهل عليك الحصول على مسدسٍ إن كنت أصلًا تملك واحدًا».

«ماذا لو كان رجلُ ألاسكا يملك مسدسًا، لكنت ميتًا الآن».

«تسللتُ نحوه حين كان نائمًا، كنتُ تتبعته إلى أن انزاحَ عن الطريق حتى ينام، ثم انقضضتُ عليه، لكنه أبعدني عن طريقي إلى لوس أنجلوس».

«أطلقتَ عليه النار؟».

الابتسامة الخبيثة.

«تحدثَ إليكَ، كان ودودًا معك، وأطلقتَ عليه النار؟».

«ما الذي كان يفترضُ بي فعله؟ أنتظرُ الربَّ يمدّ لي يده ويمنحني المال؟ ما الذي كان يفترض بي فعله؟».

«تعود إلى البيت».

«خراء».

«ألا يزعجك أبدًا أنك سلبت شخصًا حياته، قتلته؟».

بدا يفكّرُ في الأمر لبرهة، ثم هزَّ رأسه «لا، لا يزعجني» أجابني قائلًا «في البدء كنت مرعوبًا، لكن.. لكن بعد أن فعلتها، لم أشعرْ بشيء، ولا أحد رآني، تناولتُ أغراضه وتركته هناك، ومن يدري، لربما لم يكنْ ميتًا، فالناس لا يموتون دومًا إذا أطلقتَ عليهم النار».

«ألمْ تتأكد؟».

«أردتُ أغراضه وحسب، وعلى كلٍّ، ليس سوى رجل مجنون، ألاسكا!».

لم أقل شيئًا، ولم أسأله شيئًا.

راح يتحدثُ عن لقائه ببعض الشباب والانضمام إليهم، عن اكتشافه عجزهم عن القراءةِ والكتابة رغم كونهم أكبر منه. كان عونًا لهم، جعل حياتَهم أسهلَ وأكثر متعة، ربما لهذا السبب لم يقتلوه وهو نائم ويسلبوا غنائمه لأنفسهم.

بعد برهةٍ تنبه إلى امتناعي عن قول شيء، فضحِكَ «خيرٌ لكِ أن تتزوجي بكرتس وتنجبي الأطفال» قال لي «في الخارج، خارجَ هذا السور، لن تنجي يومًا واحدًا، مع فرط تقمّصكِ اللعين هذا ستنهارين من دون أن يلمسَكِ أحد».

«تظن ذلك؟».

«اسمعي، رأيتُ رجلًا بأم عينيَّ تُفقأ عيناه، بعدها أشعلوا فيه النار ووقفوا يرْقبونه يجري ويصيح وتتآكلُه النيران، هل تظنين أن لديكِ القدرةَ على مشاهدة شيء كهذا؟».

«أصدقاؤك الجدد فعلوا ذلك؟».

«أعوذ بالله، لا! المخابيل من فعلها، المصبوغون، يحلقون رؤوسهم وحواجبهم، ويطْلون جماجمَهم بالأخضر أو الأزرق أو الأحمر أو الأصفر، يأكلون النار ويقتلون الأثرياء».

«يفعلون ماذا؟».

«يتناولونَ ذاك المخدّر الذي يصيرُكَ مهووسًا برؤية النيران، نار مخيم، نار قمامة، حريق بيت، وأحيانًا يمسكون برجلٍ ثريّ ويشعلون فيه النار».

«لماذا؟».

«وما أدراني، مخابيل، سمعتُ بعضهم يقول إنهم كانوا أطفالًا أغنياء، لذا لا أدري لماذا باتوا يمْقتون الأغنياء إلى هذا الحد، ذاك المخدّر سيء، أحيانًا يعشق المصبوغون النارَ حدَّ اقترابهم كثيرًا منها، ووقتَها حتى أصدقاؤهم لن ينقذوهم، يقفون فقط ويرْقبونهم يحترقون، أشبه بـ... كما لو أنهم يضاجعون النار، أمتع مضاجعة يعيشونها!».

«وهل جربته؟».

«أعوذ بالله! قلتُ لك لا! هؤلاء مخابيل، حتى الفتيات منهم يحْلِقْن رؤوسَهن، واللعنة كم هنَّ قبيحات!».

«إذن معظمهم يافعون؟».

«أجل، في عمركِ وحتى العشرين، قلة منهم أكبر عمرًا، في

الخامسة والعشرين، أو حتى في الثلاثين، لكني سمعتُ أن معظمهم لا يعيش عمرًا طويلًا».

لحظتها دخلت كوري والأولاد، غريغوري وبينيت متحمسان لفوز فريقهما في كرة القدم، كوري سعيدةٌ وتواقة في حديثها مع ماركوس عن دوروتيا كروز وطفلتها الجديدة. بالطبع تبدّلت الأحوالُ ما إن رأوا كيث، لكن الأمسيةَ لم تكن بهذا السوء. كيث أحضرَ معه هدايا للأولاد الصغار، وبالطبع أحضر المال لكوري ولا شيء لي وماركوس، لكن هذه المرة كان مُحرَجًا قليلًا مني.

«ربما سأحضر شيئًا لكِ المرة القادمة» قال لي.

«لا، لا تُحضر لي شيئًا» قلت له، وفي ذهني الرجلُ المرتحل إلى ألاسكا «لا بأس، لا أرغبُ في شيء».

هزَّ كتفَيه واستدار نحو كوري يحادثها.

الإثنين، ٢٠ يوليو ٢٠٢٦

اليوم جاء كيث لرؤيتي قبل حلول الظلام، وجدَني أسيرُ عائدةً من بيت تالكوت حيث كرتس كان يتمنى لي عيدَ ميلادٍ سعيد. نحن جد حذرين، أنا وكرتس، لكن تسنّى له، من مكانٍ ما، الحصول على مخزونٍ من الواقيات الذكرية، قديمة الطراز لكن تنفع، وثمة ركن مظلم في مرآب بيت تالكوت.

كيث أرعبَني وطيَّر مزاجي الحلو مني، تتبّعني على مدِّ بيتين

دونَ صوت، كان تقريبًا قد بلغَني قبل أن أُدركَ أنَّ أحدَهم خلفي، فاستدرت لأواجهه.

رفع يديه، مبتسمًا، «أحضرتُ لكِ هدية عيد ميلادك» ودسَّ شيئًا في يدي اليسرى، مال.

«كيث، لا، أعطِه لكوري».

«أنتِ أعطها إياه، تريدينَ أن يكون المال لها، أنتِ أعطها إياه، أنا أهديتك أنتِ».

رافقتُه حتى البوابة، قلقةً من أن يلمحه خفيرٌ فيطلقُ عليه النار. إلى هذا الحد بات طويلَ القامة، أكثرَ بكثير مذ توقف عن العيش معنا. بابا كان في البيت لذا ما كان ليدخل، شكرتُه على المال وأخبرتُه أني سأعطيه إلى كوري، أردتُه أن يعرفَ لأني لا أريده أن يُحضرَ لي شيئًا آخر، على الإطلاق.

لم يبدُ عليه الانزعاج، قبَّل وجنتي قائلًا، «عيد ميلاد سعيد» وخرج، كان لا يزال يحتفظ بمفتاح كوري، ورغم معرفة أبي بذلك، فلم يطلب تغيير القفل.

الأربعاء، ٢٦ أغسطس ٢٠٢٦

اليوم، اضطرَّ أبواي إلى النزول للمدينة حتى يتعرَّفا على جثة أخي كيث.

السبت، ٢٩ أغسطس ٢٠٢٦

منذ الأربعاء وأنا عاجزةٌ عن كتابة كلمة، لا أدري ما أكتب، كانت جثة كيث. بالطبع لم أرها، بابا قال إنه حاول إثناء كوري عن رؤيتها، فالأمور التي ارتكبَها أحدهم بكيث قبل أن يموت ...لا، لا أريد الكتابة عنها، لكنني بحاجةٍ إلى كتابتها، فأحيانًا كتابةُ الشيء تسهّل علينا تقبله.

أحدُهم قطَّع وحرق معظم جلد أخي، كل جلده عدا وجهه. حرقوا عينيه، لكن تركوا بقيةَ الوجه سليمًا، وكأنما أرادوا لنا أن نتعرفَ عليه. قطّعوا وكَووا، قطّعوا وكَووا، بعض الجروح عمرها أيام؛ أحدُهم حمل في قلبه كرهًا شديدًا لأخي.

جمعنا بابا حوله ووصفَ لنا ما ارتكبوه بأخي، ووصفه لنا في نبرةٍ فاترة، في صوتٍ رتيب ميّت. أراد أن يرعبَنا -بالذات ماركوس وبينيت وغريغوري- أرادنا أن نستوعبَ إلى أيّ حد العالم خارجَ السور خطير.

الشرطةُ تقول إنَّ تجار المخدرات هم من يعذبون بهذه الطريقة، يعذبون من يسرقُ منهم ومن يتنافسُ معهم. لا أدري إن كان كيث يفعلُ أيهما، كلُّ ما نعرف أنَّ كيث ميت، رموا بجثتهِ في البلدة أمام مبنى محترق قديم كان يومًا دارَ رعاية للمسنين، رموه على الإسفلت المتكسّرِ بعد ساعاتٍ من موته. كان بيدهم الرمي به في الأخدود حيث لن يجدَه إلا الكلاب، لكن أحدهم أراد أن يُعثَر عليه، أن يتعرفَ عليه. أكان قريبًا أو صديقًا لأحد ضحاياه وأخيرًا انتقم منه؟

بدت الشرطةُ متحمسةً لمعرفة من قتله، ومن أسئلتِهم أحسستُ بأنهم سيكونون سعداء بالقبض على بابا أو كوري أو كلَيهما، لكن كلَيهما يعيش حياةً اجتماعية عامة، ولا أحد منهما غابَ أو كسر روتين يومه. عشراتُ الأشخاص لهم أن يؤكدوا حجج غيابهما، وبالطبع، لم أقل شيئًا عمّا أخبرَني به كيث، فما الفائدة؟ هو ميتٌ الآن ميتةً شنيعة، وسواء قُتلَ عمدًا أو بالصدفة، فكل ضحاياه نالوا انتقامهم.

واردل باريش شعَر بأنه ملزمٌ بإخبار الشرطة عن العراكِ الكبير بين كيث وبابا العام الماضي، إذ بالطبع سمعه، نصفُ الحيّ سمع، فعراكُ البيوت العائلي مسرح الحيّ، ومن بطولة مَن! بابا! الكاهن!

أعرف أنَّ واردل باريش هو من أخبرَ الشرطة، فابنةُ أخته الصغرى تانيا زلَّ لسانها، «خالي واردل قال إنه كرهَ الاضطرار إلى ذكر..».

أوه أراهنُ أنه كره، الحقيرُ اللعين! لكن لا أحد سانده، الشرطةُ دسَّت أنفها في بيوت الحيّ تتشممُ أي خبر، لكن لا أحدَ أقرَّ بمعرفته أيّ شيء عن أي عراك، ففي النهاية، كلهم موقنون أنَّ أبي لم يقتلْ كيث، وكلهم يعرفون أنَّ الشرطة تهوَى حلَّ القضايا بـ«استكشاف» الأدلة حول من قرروا مسبقًا أنه المذنب، فخيرٌ ألا يمنحوهم أيّ شيء. فالشرطةُ ما ساعدتهم قط متى ما استدعوها، دومًا ما يأتي رجالُها متأخرين، بعد وقوع المصيبة، وفي أغلب الأوقات، يضاعفون فداحتها.

اليوم كان قداسُ أخي، طلب بابا من صديقه المبجّل روبنسون أن يتولى القداس. بابا جلس جانب كوري مع بقيّتنا، مُنحنِيَ الظهر ومسنًّا، هَرِمًا.

كوري قضت اليومَ باكيةً، دونَ صوت، منذ الأربعاء وهي تبكي. حاول ماركوس وبابا مواساتها، حتى أنا حاولتُ، رغم أنَّ الطريقة التي ما تنفكّ ترمقُني بها، وكأنما لي يدٌ في موتِ كيث، كأنها شبه تكرهني. ما ألبث أحاولُ مدَّ يدي إليها، أجهلُ ما الذي بيدي فعله غير ذلك، ربما مع الوقت، ستكونُ قادرةً على مسامحتي على كوني لست ابنتها، على كوني حية بينما ابنها ميت، على كوني ابنة أبي من امرأة أخرى؟ لا أدري.

بابا ما ذرفَ دمعة، في حياتي كلها ما رأيته يبكي، ليته يبكي اليوم، ليته.

كرتس تالكوت ظلَّ يحوم حولي طوال اليوم، نتحدثُ ونتحدث، أظنني كنتُ في حاجة إلى الكلام، وكرتس كان مستعدًا لتحمّلي.

قال إنه يجدرُ بي البكاء، وإنه مهما كانت الأمورُ سيئةً بيني وبين كيث أو بين كيث والعائلة، فعليَّ أن أدع نفسي تبكيه. غريب -قبل كلامه هذا- ما خطر لي غيابُ الدموع عني، لم أبكِه البتة، ولربما كوري تنبّهتْ، لربما وجهي الجاف من الدمع حقدٌ جديد ستحمله ضدي.

لم أكن ممتنعةً عن البكاء من باب الرواقيّة، كل ما في الأمر أني كرهت كيث بقدر حبّي له. فقد كان أخي -نصف أخي- لكنه

أيضًا كان أكثرَ شخصٍ سيكوباتيّ عرفته، ولو قدّرتْ له حياةٌ أطول لغدا وحشًا، ولربما أصلًا كان وحشًا، فما اكترثَ قط لما يفعل، وإن أراد فعْلَ شيء لا يعود عليه بألمٍ جسدي مباشر، لارتكبه، ولتُلْقَ الأرض بمن عليها في الجحيم.

عبثَ بعائلتنا وحطمَها إلى شيءٍ دون العائلة، مع ذلك، ما كنت لأتمنى له الموت، ولا تلك الميتةَ الشنيعة لأيّ أحد. أحسبه قُتل على يد وحوشٍ أشدّ فظاعةً منه، ولا أعرفُ كيف لإنسانٍ أن يفعل هذا بإنسانٍ آخر. لو كانت متلازمةُ فرْط التقمّصِ مرضًا أكثر انتشارًا، لما ارتكبَ الناس تلك الأمورَ الفظيعة، لقتلوا فقط إن اضطُروا، ولحَملوا على ظهورهم ذنبَ المقتول، فإما ينوءون بحمله أو ينهارون. لكن إن قُيّض لكل إنسان أن يشعرَ بآلام غيره، فمن ذا الذي سيعذِّب؟ من ذا الذي سيتسببُ لآخر بألم لا داعي له؟ ما سبق لي أن فكرتُ بمشكلتي على أنها خير، لكن مما أراه، أراها عونًا، وليت بيدي أن أعدي الناس، لكن بما أنَّ ليس بيدي، ليتني أجد الأناس الآخرين المصابين بها، فأعيش بينهم. فضميرٌ بيولوجيّ خيرٌ من انعدام الضمير.

أمَّا عن بكائي، فإن كنتُ سأبكي، لبكيت وقتَ انهال أبي ضربًا على كيث. حينَ انتهى الضرب ورأى بابا ما فعلتْ يداه، وكلنا رأينا نظرةَ كوري وكيث إليه، لحظتَها عرفت أنَّ لا أحد منهما سيسامحُه، أبدًا. شيءٌ عزيزٌ انكسر وأبدًا ما كان ليتصلَّح.

ليت أبي يبكي ابنَه، لكني لا أشعرُ بأيةِ حاجة للبكاء على أخي. فليرقدْ بسلام، في جرة رماده، في الجنة، أينما يكون.

# ١١

**أيُّ تغييرٍ قد يحملُ في طيّه بذورَ المنفعة،**
**اغتنمه.**
**أيُّ تغييرٍ قد يحملُ في طيّه بذورَ الضرر،**
**اجتنبْه.**
**الربُّ مطواعٌ على الدوام.**
**الربُّ إلهُنا هو التغيير.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء.

السبت، ١٧ أكتوبر ٢٠٢٦

بدأنا نتشتت.

المجتمعُ، العوائلُ، أبناء العائلة الواحدة. نحن حبلٌ، ما ينفكّ يتهتَّك، فتلةً فتلة.

سطوٌ آخرُ وقع الليلة الماضية أو محاولةُ سطو، وليته كان مجردَ

سطو. هذه المرة لم تكن الحدائق بغيتَهم، ثلاثةُ أشخاص تسللوا من أعلى السور وبالعتَلة شقوا طريقهم إلى بيت عائلة كروز التي بالطبع لديها إنذارٌ لصوص صاخب ونوافذُ محصّنة بالقضبان، وبيبان محصّنة بالرتاج، مثل كل بيوتنا. لكن على ما يبدو ما عاد شيءٌ منها مهم، فإن أراد الناس اقتحام بيتك سيقتحمونه. استخدم اللصوص أدوات بسيطة، عتل، روافع هيدروليّة، أدوات في متناول الجميع، لا أدري كيف عطّلوا جهازَ الإنذار، أعرف أنهم قطعوا الكهرباءَ وخطَّ الهاتف عن البيت، لكن ما كان ليصنعَ فرقًا بما أنَّ الجهاز مزودٌ ببطارية احتياطية. أيًّا كان ما فعلوه، ومهما كان الخطأ الذي وقع، فالجهازُ لم ينطلق، وبعد أن استخدم اللصوصُ العتَلة على الباب، دخلوا المطبخ واستخدموها على جدة دوروتيا كروز، في الخامسة والسبعين من عمرها. كان نوم السيدة العجوز خفيفًا ومن عادتِها الاستيقاظ ليلًا وغلي كوبٍ من شاي الإذخر، عائلتها تقولُ إنها كانت في طريقها إلى المطبخ وقتَ اقتحمَ اللصوصُ البيت.

بعدها هرع شقيقا دوروتيا، هكتور وروبن كوينتانيلا، إلى المطبخ، كلٌّ يحمل مسدسًا في يده. فغرفتهما الأقرب إلى المطبخ وسمعا ضجةَ الاقتحام وضجةَ ارتطام الجدة كوينتانيلا بالطاولة والكراسي. قتلا اثنينِ من اللصوص، بينما فرّ الثالث مصابًا على الأرجح، كان هناك الكثيرُ من الدم، لكن السيدة كوينتانيلا ماتت.

هذه الحادثةُ السابعة منذ مقتل كيث. أناسٌ أكثرُ وأكثر يتجاوزون سورَنا لسلْبِنا أغراضنا، أو الأغراض التي يظنوننا نملكُها، سبعةُ

اقتحاماتِ بيوتٍ وحدائقَ في أقل من شهرين، في مجتمعٍ من إحدى عشرة عائلة، إن كان هذا ما يحدث لنا، فكيف الحال مع الأثرياء؟ لكني أحسبُ مع أسلحتهم الكبيرة وميليشيات الحرّاس والأجهزة الأمنية على آخر طراز، فهم أقدر منا بكثير على المواجهة. ربما لهذا نحن مَن يتلقى كل هذا الاهتمام، فنحن نملكُ القليلَ مما يستحقُّ السرقة ولسنا محصنينَ إلى هذا الحد. وهكذا، من الاقتحامات السبعة، ثلاثةٌ نجحت، اللصوصُ دخلوا وخرجوا مع غنيمة، أجهزة راديو، خيشة جوز، طحين قمح، دقيق ذرة، قطع مجوهرات، تلفاز عتيق، حاسوب، كل غرضٍ محمولٍ سيسلبونه، وإن كان ما أخبرني به كيث صحيح، فهذا يعني أننا فريسةُ اللصوص الأفقر. فلا شك أن الأقوى والأشجعَ والأذكى يسلبون المتاجر والشركات، أمَّا نحن فتُرِكْنا لفقراء اللصوص يقتلوننا على مهل.

العامُ القادم سأبلغ الثامنة عشر، وكما يقول بابا، سأكونُ كبيرةً بما فيه الكفاية كي أشاركَ في خفر الليل. ليت بيدي المشاركة الآن، ما إن يُسمح لي فورًا سأشارك، لكن لا أظن سيكون كافيًا.

مضحكٌ ما يجري الآن، كوري وبابا باتا يستخدمانِ بعضًا من المال الذي أحضره كيث في مساعدةِ الناس المنهوبين، مالٌ مسروقٌ لمساعدة ضحايا السرقة. نصفُ المال مخبوءٌ في الحديقة الخلفية في حال وقعت الكارثة، دائمًا ثمة مالٌ مخبوء هناك، والآن بات لدينا ما يكفي لصنْع فرْق. النصف الآخر تبرعا به لصندوق الكنيسة لمساعدة الجيران في حال الطوارئ، لكن لن يكون كافيًا.

الثلاثاء، ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٦

شيءٌ جديدٌ يبدأ، أو لعلَّه شيءٌ قديمٌ وحقيرٌ يُبعَث. شركةٌ تُدعى كاجيموتو، ستام، فرامبتون وشركاه -«كي إس إف»- استولتْ على مدّ المدينة الساحلية المدعوّة أوليفار. أوليفار، البلدةُ الناشئة في الثمانينيات، ليست أكثرَ من ضاحية من ضواحي لوس أنجلوس الشاطئية، صغيرةٌ وموسرة، تتمتع بصناعةٍ محدودة، زاخرة بالتلال، الكثير من المشاع وخط ساحليّ متفتت. أناسها -مثل بعض أهل الحيّ هنا في روبليدو- ينالون رواتبَ كانت فيما مضى تؤمّنُ لهم حياةً مريحة ومرفهة. في الواقع، أوليفار أغنى منا بكثير، لكن بما أنها مدينة ساحلية فضرائبها أعلى، وبما أنَّ الكثير من أراضيها غيرُ مستقر، فنصيبها أكبر من المشاكل. بعضُ أراضيها تتفتتُ في المحيط، متآكلةٌ أو منقوعة إثْرَ الماء المالح، فمستوياتُ البحر ما تنفكّ ترتفعُ مع الاحتباس الحراري، عدا الزلازل المعهودة طبعًا. شاطئ أوليفار الرمليُّ المسطحُ بات ذكرى من ماضٍ بعيد، وكذا البيوتُ والمتاجر التي قامت يومًا على الشاطئ، وأوليفار بحاجةٍ إلى مساعدة خاصة، مثلَ كلّ المدن الساحلية حول العالم. مجتمعُها ينتمي إلى الطبقة الوسطَى العليا، بيضاء، متعلمة، اعتاد أناسُها أن يكونَ لهم شنّة ورنّة، أما الآن، فحتى السياسيون الذين ساعدوا على انتخابهم لن يقفوا في صفهم. يقولون لنا أنَّ الولاية بأكملها، البلد، العالم بأسره بحاجة إلى مساعدة، فعلامَ أوليفارُ الضئيلة اللعينة تنوح؟

المجتمعاتُ الأكثر ثراءً والأقل نشاطًا جيولوجيًّا تنالُ المساعدة، سدود، أسوار بحرية، عمليات إجلاء، أيًّا يكن المطلوب. أوليفار،

الواقعةُ بين البحر ولوس أنجلوس، يصبُّ فيها دفقُ الماء المالح من جهة ودفقُ الفقراء اليائسين من الجهة الأخرى. تملكُ مصنعَ تحليةِ مياهٍ بالطاقة الشمسية، على أرضٍ من أراضيها الأكثر استواءً واستقرارًا، ويؤمّن الناس بمصدر ماء مستقر.

لكنْ ليس بيدها الدفاع عن نفسِها من البحر المُعتدي والأرض المفتتة، الاقتصادِ المتفتت، أو اللاجئين اليائسين. حتى الرَّواح والغدو لأجل العمل، بالنسبة إلى القلة الذين لا يستطيعون أداء وظائفهم في البيت، بات خطرًا على حياتهم كما الحال معنا. محنةٌ مريعة يُجبر المرء على عيشها مرارًا وتكرارًا.

ثم ظهر رجالُ «كي إس إف»، وبعد كثيرٍ من الوعود، الكثير من المماحكات، الشك، الخوف، الأمل، النزاع القانوني، قرر الناخبونَ وممثلو أوليفار السماحَ بالاستيلاء على بلدتهم، تُشترى، تخصخص. «كي إس إف» ستوسّع معملَ تحلية المياه إلى مصنعٍ ضخم، والمعملُ سيكون الأولَ من معاملَ كثيرة. فالشركةُ تنوي السيطرةَ على الزراعة وبيع الماء والطاقة الشمسية والهوائيةِ في معظم الجنوب الغربي، حيث اشترت -مقابل قروش- مساحاتٍ مهولةً من الأراضي الخصبةِ فقيرة الماء. حتى الآن، أوليفار إحدى أصغر استحواذاتها الساحلية، لكن باستحواذها على أوليفار تحصّلت الشركةُ على قوةٍ عاملة متعلمة ونشطة، أناسٌ أكبر مني ببضع سنواتٍ فقط وخياراتهم جدّ محدودة. والآن، مع كل الأراضي العامةِ التي أصبحت تحت سيطرتهم، فنيّتُهم الاستحواذُ على الماء والطاقة والصناعات الزراعية في منطقةٍ أغلب الناس يئسوا منها. خططُهم طويلة الأمد، وأهل

أوليفار قرروا الانضمامَ إلى خطتهم، بالقبول برواتبَ أقل من رواتب مستواهم الاجتماعي الاقتصادي التي اعتادوا عليها، وذلك مقابل الأمان والضمان الغذائي والوظائف والمساعدة في معركتهم ضد المحيط الهادي.

ما زال هناك أناس في أوليفار غير مرتاحين للتغيير، يعرفونَ بما حصل في تاريخ بلدات الشركات الأميركية حيث غشّت الشركاتُ الناس واستغلتهم.

لكن هذه المرة ستختلفُ عن سابقاتها، فأهل أوليفار ليسوا ضحايا جياعًا مذعورين، بل أناسٌ قادرون على الاعتناء بأنفسهم وحمايةِ حقوقهم وممتلكاتهم. هم أناسٌ متعلمون لا يريدون العيش في الفوضَى التي عاشت ببقية لوس أنجلوس، كذا قال بعضهم في الوثائقي الإذاعي الذي استمعنا إليه جميعًا ليلةَ البارحة، حيث استعرضوا على العامة حفلةَ بيع أنفسهم على «كى إس إف».

«فلْيرافقْهم الحظ» قال بابا، «وإن كنتُ لا أظنه سيُرافقهم على المدى الطويل».

«ما الذي تعنيه؟» سألتْ كوري متذمرةً «أظن الفكرةَ بأكملها رائعة، هي تمامًا ما نحتاج إليه هنا، لو أنَّ شركةً كبيرة تأتي وتفعلُ بروبليدو الشيء ذاته».

«لا» قال بابا، «حمدًا لله لن يأتينا أحدٌ منهم».

«ما أدراك! ولماذا لن تأتينا شركة مثلها؟».

«روبليدو كبيرةٌ جدًا، فقيرة جدًا، سوداء ولاتينية جدًا، حتى تكونَ محطَّ اهتمام أيةِ شركة. ولا خطَّ ساحليًّا لدينا، ما نملكه فقراء الشارع، ومكبّ جثث، وذكرى حياةٍ موسرة، أشجار ظليلة وبيوت كبيرة، تلال وأخاديد، معظمها لا تزال لدينا، لكن لا شركة ستريدنا».

مع ختام الوثائقي أذاعوا إعلانًا عن حاجة «كي إس إف» إلى ممرضين مرخّصين، ومعلّمين ذوي خبرة، وأصحابِ مهنٍ أخرى ممن يرغبون في الانتقال إلى أوليفار والعمل مقابلَ السكن والطعام. بالطبع لم تكن تلك صيغة العرض، لكن المعنى واضح، مع ذلك سجّلت كوري الرقمَ واتصلت فورًا، هي وبابا كلاهما معلم، وكلاهما لديه دكتوراه، حاولتْ مستميتةً التقدم على الجموع، بابا هزَّ كتفَيه وتركها تفعل ما تريد.

السكنُ والطعام، الرواتبُ المعروضة منخفضة حدَّ إن عمل بابا وكوري فلن يجْنيا الراتب الذي يتحصَّله بابا من الجامعة. وفي الخارج سيدفعانِ الإيجار ويتحمّلان بقية النفقات، بل إن حسبْتها يكنْ من الواضح أن مع وجودنا نحن الستة، فلن نجني ما يكفي من المال لتأمين نفقاتِ معيشتنا. ربما سنتمكّن من ذلك إن حصلتُ أنا على وظيفة، لكن في أوليفار هم ليسوا بحاجة إليّ، فهناك على الأقل المئات من أمثالي، إن لم يكن الآلاف. فكل مجتمعٍ ناجٍ متخمٌ بالشباب العاطلين، من أنصافِ المتعلمين والأميين.

أيُّ شخص توظفه «كي إس إف» سيعاني حياةً صعبة على الراتب الممنوح، وفي وقتٍ ليس طويلاً، سيغدو الموظفون الجددُ مَدينينَ

للشركة. حيلة قديمة في كتيب شركات البلدات، سهّل على الناس الاقتراض، ثم ألحَّ عليهم بالسداد، وأجبرهم على الكدحِ ساعاتٍ أطول. عبيد الدَّيْن، هو ذا النظام الذي سيسري في أميركا كرستوفر دونر، قوانين العمال والقوانين المحلية والفيدرالية لن تعود إلى سابق عهدها.

«لِمَ لا نحاولُ؟» أصرَّت كوري على بابا، «سنكون آمنينَ في أوليفار، قد يذهبُ الأطفال إلى مدرسةٍ حقيقية ولاحقًا يحصلون على وظائف لدى الشركة، ففي نهايةِ المطاف، أين تتوقعهم أن يذهبوا من هنا؟».

بابا هزَّ رأسه، «لا تأملي بذلك، كوري، فلا خير في الاستعباد».

ماركوس وأنا كنا لا نزال مستيقظين، نستمع، أما الصغيرَين فقد خَلَدا إلى فراشِهما، لكن أربعتنا كنا لا نزال متحلّقين حول الراديو، والآن ماركوس تكلم، «لا تبدو لي أوليفار بلدةً مستعبدة، فأولاءِ الأثرياء لن يسمحوا للشركة أن تستعبدهم».

وفي ابتسامةٍ حزينة أجابه بابا، «ليس الآن، ليس في البدء» ثم هزَّ رأسه وأردف: «كاجيموتو، ستام، فرامبتون: يابانية، ألمانية، كندية. حين كنت شابًا، قال الناس إنَّ الأمور هكذا ستؤول، حسنٌ، لِمَ لا تشتري الدولُ الأخرى ما تبقى منَّا ما دمنا نعرضه للبيع، أتساءل كم من الناس يعلمون حقًّا ما هم فاعلون؟».

«أظن القليلَ وحسب» أجبته «لا أظنهم سيجرؤون على ترك أنفسهم يعرفون».

نظر إليّ، وبادلْته النظر، ما زلتُ أتعلمُ كيف للعناد أن يعمي الناس عن حقيقة واقعهم، حتى إن كانت حياتُهم وحريتهم على المحك. هو عاش مع هذا العناد زمنًا أطول، أتساءل كيف تحمّل.

ماركوس قال: «لورن، أنتِ من بين كل الناس سترغبين في الذهاب إلى مكانٍ مثل أوليفار، فأنتِ تتقمصين الألمَ كل مرةٍ تَرَينَ فيها مصابًا، الألمُ سيكون أقلَّ بكثيرٍ في أوليفار».

«مع كثيرٍ من الحرّاس» أجبته «ولاحظتُ كيف للناس أن يتصرفوا متى ما ملكوا شذرةَ قوة، كلُّ أولاء الحراسِ الذين ستحضرهم «كي إس إف» لن يُسمحَ لهم بإيذاء الأثرياء، على الأقل ليس في بادئ الأمر، لكنَّ الوافدين الجدد، من لا ظهر لهم، الموظفين مقابل السكن والطعام، أراهنك سيكونون لقمةً سائغة».

«لا سببَ يدعونا إلى التصديق بأنَّ الشركة ستسمحُ بوقوع شيءٍ كهذا» قالت كوري «ما باللكِ دومًا ترينَ الأسوأ في الناس؟».

«حين يتعلقُ الأمر بغرباء مع مسدسات» أجبتها «فالشكُّ ما سيبقيكَ حيًّا لا الثقة».

أصدرَتْ صوتًا حادًّا يعبِّر بلا كلمات عن اشمئزازها، «وما أدراكِ، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن هذا العالم، تظنينَ نفسكِ تعرفين لكنكِ لا تعرفين شيئًا».

لم أجادلْها، فلا نفْعَ أصلًا في مجادلتها.

«على أيّةِ حال، أشك أنَّ أوليفار ستقبلُ بعوائلَ سودٍ ولاتينية»

قال بابا «عوائلُ بالْتر وغارفيلد وربما بعضٌ من عائلة دن قد يُقبل بهم، لكن لا أحسبهم سيقبلون بنا، حتى إن قررتُ أن أضعَ ثقتي في «كي إس إف» وأودعَ عائلتي بين يديها، هم لن يقبلوا بنا».

«لكن بيدنا أن نحاول» أصرَّتْ كوري «ينبغي علينا! فلن يسوءَ حالنا إن رفضونا، وإن دخلنا ولم يعجبْنا الوضع بإمكاننا دومًا العودة، سنؤجّرُ البيتَ على إحدى العوائل الكبيرة هنا، مقابلَ مبلغٍ زهيد، ثم..».

«ثم نعودُ عاطلين مفلسين» قال بابا «لا، وأعني ما أقول، المسألةُ برمّتها توحي بمقدمات حربٍ أو خيالٍ علمي، لا أثق فيها أبدًا. الحريةُ خطيرة كوري، أجل، لكنها عزيزة، ولا يصحُّ أن ترمي بها أو تدعَها تنزلق من بين يديك، لا يصحُّ لك بيعها مقابل رغيف خبزٍ وطبق حساء».

كوري حدَّقتْ فيه، حدَّقت وحسب، وهو رفَض أن يشيح بعينَيه عنها. نهضتْ ومضتْ نحو غرفة نومها، بعد دقائق رأيتُها، جالسةً على فراشها، تهدهدُ جرةَ رماد كيث، وتبكي.

السبت، ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٦

ماركوس أخبرَني أنَّ عائلة غارفيلد تحاولُ الانضمامَ إلى أوليفار، فقد بات يقضي الكثيرَ من الوقت برفقة روبن بالتر وهي من أخبرتْه. هي تمقتُ فكرة رحيلهم لأنها تحبّ قريبتَها جوان كثيرًا، أكثرَ مما

تحبُّ أختَيها، وهي خائفة إن رحلت جوان إلى أوليفار، فأبدًا لن تراها ثانية، وأظنها محقة.

لا يسعني تخيّل المكان بلا عائلة غارفيلد، جوان، جاي، فيليدا. خسرْنا أفرادًا من قبل، أكيد، لكن لم نفقدْ مرةً عائلة بأكملها، أعني سيظلون أحياء، لكن سيرحلون بلا عودة.

آمل أن يُرفض طلبهم، أعرفُ أنه تمنٍّ أنانيّ، لكن لا يهمني، فلن تصنع تمنياتي أي فرق. سحقًا، أتمنّى لهم كل ما فيه خير، كل ما سيساعدهم على النجاة، آمل أن يكونوا بخير.

في الثالثة عشر، أصبح أخي ماركوس الوحيدَ في العائلة الذي أراه وسيمًا بحق، البنات في عمره ما يفتأنَ يحدقْنَ فيه متى ما كان ساهيًا، يقهقهْنَ كثيرًا حوله ويطاردْنَه كالمجانين، لكنه ملتصقٌ بروبن. هي ليستْ جميلة على الإطلاق، ليست سوى جلدٍ وعظام وذكاء لكنها مرحة وعاقلة، في عامٍ أو عامين، سيكتنز اللحمُ فيها وسينال أخي منها الجمال بالإضافةِ إلى ذكائها، ثم، إن بقي الاثنان معًا، حياتُهما ستغدو أكثر إثارة للاهتمام.

بدَّلت رأيي. اعتدتُ انتظار الانفجار، الانهيار الكبير، فوضى مفاجئةٌ تعصف بالحيّ وتبيده، لكن في واقع الأمر، الحيُّ ينحل، يتفسَّخ، عروةً عروة. سوزان تالكوت بروس وزوجُها قدَّما طلب الانضمام إلى أوليفار، أناسٌ آخرون يتناقشون الوضعَ فيما بينهم ويفكّرون بالتقديم، هناك جامعةٌ صغيرة في أوليفار، أجهزةٌ أمنية فتّاكة تبقي اللصوص وفقراء الشارع خارجًا، هناك وظائف أكثر

باتت متاحة. لربما أوليفار هي المستقبل، وجهٌ من وجوهه؛ المدنُ المحكومة من الشركات الكبيرة حيلة قديمة في قبعة الخيال العلمي. جدّتي تركت رفوفًا ملأى بروايات الخيال العلمي، وثيمة مدن الشركات لطالما احتلَّ بطولتها شخصٌ بالغ الذكاء، إما يطيح بـ «الشركة» أو يفرّ منها. لكن ما سبق لي قطّ أن قرأتُ روايةً يقاتل بطلُها بكلّ قواه حتى يقبلَ في الشركة ويبخسوا حقّه في الراتب. في واقع الحياة، هذا ما ستؤولُ إليه الأمور، هذا ما يحدث الآن.

وما عساي أن أفعل؟ ما بيدي أن أفعل؟ في أقلّ من عام سأبلغُ الثامنة عشر وأغدو راشدةً، راشدة دون مستقبلٍ سوى مواصلة الحياة في الحيّ المندثر، أو **بذرة الأرض**.

وحتى أستهلّ طريقي في **بذرة الأرض** فحتمًا عليَّ المغادرة، ولطالما عرفتُ ذلك، منذ وقتٍ طويل، لكنّ الفكرةَ ترعبني مثلما أرعبتني طوال تلك السنين.

العام القادم متى ما بلغتُ الثامنة عشر، سأرحل، هذا يعني أنَّ عليَّ من اللحظة إعداد خطة الخروج.

السبت، ٣١ أكتوبر ٢٠٢٦

سأشدّ رحالي شمالًا. جدّاي فيما مضى ارتحلا كثيرًا في سيارتهما، وتركا لنا الكثير من خرائط الطرق، خرائط كلّ مقاطعةٍ في الولاية وخرائط أجزاء أخرى من البلاد. أحدثُ تلك الخرائط تعود إلى

أربعين عامًا، لكن لا يهم، فالطرقُ لا تزال هناك، عدا أنها أسوأ حالا مما كانت عليه حين سلكَها جدّاي بسيارتهما المزودة بالبنزين. دسستُ في حقيبة الطوارئ خرائط مقاطعات كاليفورنيا شمالَ حيّنا والخرائط القليلة التي وجدتها لمقاطعاتِ واشنطن وأوريغون.

أتساءل إن كان الناس خارجًا سيدفعون لي مقابلَ تعليمهم أساسيات القراءة والكتابة، أو يدفعون لي مقابل القراءة والكتابة لهم. كيث من زرع الفكرة في رأسي، حتى أني أفكّر بتعليم بضعٍ من آيات **بذرة الأرض** ضمن دروسِ القراءة والكتابة. إن تسنى لي الخيار سأعلم، حتى إن اضطررت إلى العمل في وظائفَ أخرى حتى أؤمن قوت يومي. وإن أحسنتُ العمل، سأجذب الناس إلى دعوتي، إلى **بذرة الأرض**.

**كلُّ الحيواتِ الناجحة**

**متكيّفة،**

**انتهازية،**

**مثابرة،**

**مترابطة،**

**ومبدعة.**

**اِفهمْ هذا،**

**استخدمْه،**

**صوّر الربَّ إلهَكَ على صورتك.**

كتبتُ هذه الآية قبل أشهر، ومثل كلّ سابقاتها تنطقُ الحقيقة. والآن، أكثر من أي وقت مضى، تتجلى الحقيقة فيها، وتؤازرني في خوفي.

أخيرًا وجدتُ عنوانًا لكتاب آياتي عن **بذرة الأرض** - «**بذرة الأرض: كتاب الأحياء**». هناك كتبُ الموتى المصرية والتبتيّة، فبابا لديه نسخٌ منها، لكن ما سمعتُ قط عن كتابٍ للأحياء، ولن أتفاجأ إن وجدتُ شيئًا من هذا القبيل. لا يهمني، فأنا أحاول نطقَ الحقيقة وكتابتها، أحاول أن أكونَ واضحة، لا أكترثُ للبلاغة ولا الأصالة، يكفيني الوضوح والحقيقة، لو بيدي فقط إيصالها. وإن حدثَ ووجدت أناسًا آخرين يعظون حقيقتي، سأنضمّ إليهم، عدا ذلك، سأتكيفُ مع الظروف، سأنتهز الفرصَ أو أصنعها، سأتشبث، أجمع التلامذةَ من حولي، وأعلِّم.

# ١٢

**نحنُ بذرةُ الأرض،**

**الحياةُ التي تشهدُ التغيُّر في نفسها.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء




السبت، ١٤ نوفمبر ٢٠٢٦

عائلةُ غارفيلد قبلت في أوليفار.

سينتقلون الشهرَ المقبل، بهذه السرعة. عرفتُهم طوال حياتي، وسيرحلون. أجل، كانت لنا خلافاتُنا أنا وجوان، لكن كبرْنا معًا، ولطالما ظننتُ أني مَن سيغادر وأتركُها حيث ستبقى، حيث الكل سيبقى، جامدًا في الزمن، تمامًا كما تركتهم. لكن لا، هذا مجردُ خيال، فالربُّ هو التغيير.

«هل تودّين الذهاب؟» سألتُها هذا الصباح. كنا قد اجتمعنا حتى نقطفَ الثمارَ المبكرة من الليمون وبرتقالِ السرة والبرسيمون،

برتقالٌ شبه ناضج وساطع. التقطْنا ثمر أشجار حديقة بيتي، ثم بيتها، مستمتعتَينِ، فالطقسُ كان منعشًا، يُغري بقضاء الوقت خارجًا.

«مجبرة على الذهاب، فما الخيارُ الآخر أمامي، أمام أي أحدٍ منا؟ فالأحوال هنا تنزلق نحو الهاوية، وأنت تعرفين ذلك».

حدَّقتُ إليها، أظن ما عاد يزعجُها الحديثُ في تلك الأحوال بعد أن وجدتْ مخرجًا آمنًا لها.

«لذا قررتِ الذهاب إلى حصنٍ آخر؟» قلت لها.

«حصنٍ منيع، حيث لن يتسلقَ أناسٌ السور ويقتلون العجائز».

«أمك تقول إنَّ كل ما ستحصلون عليه شقة، لا فناء ولا حديقة، ومالٌ أقل، ونفقة الطعام ستزيد حتمًا».

«سنتدبّر أمورنا!» كان ثمةَ انفعالٌ في صوتها.

وضعت جانبًا المدمّة القديمةَ التي أستخدمُها في قطف الثمار، تنفعني دومًا مع الليمون والبرتقال.

«خائفة؟» سألتها.

وضعتْ جانبًا قطّافة الفواكه الحقيقية بمقبضِها الغريب مع سلتها الصغيرة، هي الأداة الأفضل في قطف البرسيمون، وحضنت نفسها، «عشتُ هنا طوال عمري، برفقة الأشجار والحدائق، لا.. لا أعرف كيف سيكون الحالُ عليه في شقةٍ خانقة، الفكرة ترعبني، لكن سنتدبرُ أمورنا، لزامٌ علينا».

«بيدكِ دومًا العودةُ إن لم يرق لك الأمر، فجدّاك وعائلة خالتك باقون هنا».

«هاري سيظل هنا» همستْ ناظرةً نحو بيتها. سيتحتَّم عليَّ التوقف عن اعتباره بيتَ عائلة غارفيلد. هاري وجوان كانا قريبَين، قربي أنا من كرتس، لم يخطرْ لي التفكير برحيلها عنه، بمشاعرها. يعجبني هاري بالتر، أتذكّر دهشتي حين بدأ وجوان يتواعدانِ، فقد عاشا في البيت نفسه طوالَ حياتهما، ولطالما رأيتُ هاري بمثابة أخٍ لها، لكنهما أبناء خالة، وضد كل الاحتمالات تدبرا الوقوع في الحب، أو هذا ما ظننت. لسنواتٍ لم يتواعد أحدهما مع أيّ شخصٍ آخر، والكل افترض أنهما سيتزوجان ما إن يكبرا قليلا.

«تزوّجيه واصطحبيه معك».

«لن يذهب» قالت على النبرة الهامسة ذاتها، «تحدثنا طويلاً في الأمر، يريد مني البقاء هنا، الزواجُ سريعًا والرحيل شمالًا، هكذا، نرحلُ بلا أيّ آمال، لا شيء، محض جنون».

«ولمَ لا يريد الذهابَ إلى أوليفار؟».

«يظنُّ بها ذات ظنَّ أبيك، يرى أوليفار فخًّا، فقد قرأ عن مدن الشركاتِ في القرن التاسع عشر ومطلعِ القرن العشرين، ويقول إن أوليفار مهما بدت عظيمةً الآن، فلن نجني منها سوى الدَّين وخسارة حريتنا».

عرفت أنَّ هاري عاقل. «جو» قلت لها، «ستبلغينَ سن الرشد

العام القادم، ولكِ أن تبقي هنا مع عائلة بالتر حتى ذاك الوقت وتتزوجانِ، أو قد تقنعي والدكِ بالسماح لك الآن بالزواج».

«ثم ماذا؟ ننضمُّ إلى فقراء الشارع؟ نبقى مكاننا ونحشو البيتَ المزدحم بأطفال أكثر، فهاري لا يملكُ وظيفة، ولا فرصةً حقيقية أمامه بالحصول على واحدة يتكسّب منها، فهل يُفترض بنا أن نعيشَ على مدخول والدَي هاري؟ أيُّ مستقبلٍ هذا؟ مستقبلٌ مسدود! مسدود!».

منطقية، محافظة ومنطقية وناضجة ومخطئة، هي هي جوان ولن تتغير.

أو لربما أنا المخطئة، ربما الأمان الذي ستجده جوان في أوليفار هو الأمانُ الوحيد المتاح لأيّ شخصٍ غير ثري. لكن، بالنسبة لي، فالأمان في أوليفار لا أجد فيه أمانًا أكثر من الذي وجده أخي كيث أخيرًا في جرة رماده.

قطفتُ المزيدَ من حبات الليمون والبرتقال وتساءلتُ ما الذي ستفعله إن عرفتْ أني أخطط للرحيل العام القادم، هل ستهرعُ إلى أمها من جديد، مذعورةً عليّ، متحمسةً لإنقاذي من شرّ نفسي؟ قد تفعل، فهي تريد مستقبلًا تفهمه وتعتمدُ عليه، مستقبلًا شبيهًا بحاضر أبويها، لكني لا أراه محتملًا، فالأمور تتغيرُ على نحوٍ كبير، نحوٍ سريع، ومن منا بيده محاربة الرب؟

وضعنا سلالَ الفاكهة داخلَ باب الشرفة الخلفي في بيتي، ثم توجهنا إلى بيتها.

«وما الذي تنوينَ فعله؟» سألتْني ما إن دخلنا، «هل ستبقين هنا وحسب؟ أعني هل تنوين البقاءَ والزواج من كرتس؟».

هززتُ كتفيَّ وكذبت، «لا أدري، إن كنتُ سأتزوج أحدًا سيكون كرتس، لكني لست واثقةً بشأن الزواج، مثلكِ لا أريد إنجاب أطفالٍ هنا، أعرف أننا سنبقى هنا فترة أطول، فبابا لن يسمحَ لكوري بالتقديم إلى أوليفار، وأنا سعيدةٌ بذلك لأني حقًّا لا أريد الذهاب هناك، لكن سيكون ثمة أوليفار أخرى وأخرى، ومن يدري إلى أين سيؤولُ مصيري». العبارةُ الأخيرة ما كانت كذبًا.

«برأيكِ سيكون هناك المزيدُ من بلدات الشركات؟» سألتني.

«إن نجحتْ أوليفار أكيد، سيقسمون البلدَ ويبيعونها بالقطعة، أرضًا رخيصةً وعمالة أرخص. عندما يتوسل أناسٌ موسرونَ مثل أهل أوليفار حتى يُباعوا، فحتمًا سينتهي المآل بأهل المدنِ المكافحة إلى التحوّل إلى مستعمراتٍ اقتصادية لمن يطيق تكلفة شرائهم».

«يا الله، ها أنتِ عدتِ إلى حديثك الكئيب من جديد، لا ترينَ في المستقبل سوى الكوارث».

«أرى الموجود، وأنتِ أيضًا ترينه، لكنك تنكرينه».

«هل تتذكرينَ حين ظننتِ أنَّ قطعانًا من الجياع ستزحفُ من على أسوارنا وكيف سنفرُّ بجلدنا إلى الجبال ونقتاتُ على العشب؟».

هل أتذكّر؟ أدرتُ وجهي لها، في البدء غاضبة، حانقة، ثم فجأةً ودون أتوقع، حزينة، «سأشتاق إليكِ» قلت لها.

لا بد أنها قرأتْ مشاعري، «آسفة» همسَت لي.

تعانقنا، لم أسألْها علامَ هي آسفة، ولم تقل كلمةً أخرى.

الثلاثاء، ١٧ نوفمبر ٢٠٢٦

بابا لم يأتِ اليوم، كان يُفترض به المجيء هذا الصباح.

لا أدري ما يعني هذا، عاجزة عن التفكير، مرعوبة حدَّ الموت.

كوري اتصلت بالجامعة، أصدقائه، رفاقه الكهنة، زملائه بالعمل، الشرطة، المستشفيات.

لا شيء، لم يلقَ القبض عليه ولا هو مريضٌ ولا مصابٌ ولا ميت، على الأقل ليس على حدّ معرفتنا. لا أحد من أصدقائه أو زملائه رآه مذ غادر الجامعة هذا الصباح، دراجته كانت على ما يرام، هو كان على ما يرام.

قاد دراجته إلى البيت مع ثلاثةٍ من زملاء عمله ممن يعيشون في أحياء مجاورةٍ لحيّنا، كلُّ واحدٍ منهم قال الشيء ذاته: أنهم تركوه كما المعتاد عند شارع ريفر حيث يتقاطعُ عند شارع دورانت، لا يبعدُ سوى خمسة مربعاتٍ سكنية عن هنا، فنحن نقطنُ نهاية شارع دورانت.

فأينه إذن؟

اليوم مجموعةٌ منا، كلنا مسلحون، قدْنا دراجاتنا الهوائية من البيت عبْر شارع ريفر وحتى الجامعة، خمسة أميال، تفحّصْنا الشوارعَ

الجانبية، الأزقةَ، المباني المهجورةَ، في كل مكانٍ خطرَ إلينا. كنت معهم، واصطحبت ماركوس معي لأني إن لم أفعل سيغادر وحده؛ لديّ مسدس السميث آند ويسون، وماركوس لديه سكّينه، هو سريعٌ ورشيقٌ في استخدامها، وقويٌّ بالنسبةِ لعمره، لكن أبدًا ما استخدمها على مخلوقٍ حيّ. لو أصابه ضرر لما جرؤتُ على العودة إلى البيت، أصلًا كوري مذعورة حدَّ الموت، ومع فقدانها كيث... لا أدري. الكل ساعد، جاي غارفيلد من سيغادرنا قريبًا مدَّ يد المساعدة، بل هو من قادَ عملية البحث. هو رجلٌ طيّب، وفعلَ كل ما باستطاعته للعثور على بابا.

غدًا سنذهبُ صوب التلال والأخاديد، لا بد لنا. لا أحد يريد الذهاب هناك، لكن ما الخيار الآخر لدينا؟

الأربعاء، ١٨ نوفمبر ٢٠٢٦

ما رأيتُ قذارةً قط، بقايا بشريةً قط، كلابًا ضالة قط، أكثر مما رأيتُ اليوم. حتمًا سأكتب، لا بد أن أرمي بكلّ ما رأيت في الورق، لا أستطيعُ الاحتفاظ به داخلي. قبل اليوم لم تزعجْني رؤية الموتى، لكن هذا..

بالطبع كنا نبحثُ عن جثة أبي، بالطبع، حتى وإن لم يقلْها أحدٌ صراحةً، لا أستطيع إنكارَ هذا الواقع ولا تحاشي التفكير فيه. كوري اتصلت مرة أخرى بالشرطة والمستشفيات، مع أي شخص خطر إلينا أنه قد يعرف بابا.

لا شيء.

وهكذا اضطررْنا إلى الذهابِ صوب التلال. كنا حين نذهبُ هناك لأجل تمارين الرمايةِ لا نتعنَّى النظر حوالينا، نتلفتُ سريعًا فقط من باب الأمان، لا نبحثُ في الأرجاء عمّا لا نريد رؤيته. اليوم، في جماعاتٍ من ثلاثة وأربعة أشخاص، مشَّطنا المنطقة الأقرب من أعلى شارع ريفر. أبقيتُ ماركوس جانبي، لم يكن بالأمر السهل، ما هذا الشيطانُ الذي يتملَّك أولاء الفتيان ويخدعُهم إلى التجوال وحدهم والتعرّض للقتل؟ ما إن تنبت شعرةٌ أو شعرتين على ذقونهم حتى يُسارعوا إلى إثبات أنهم رجال.

«احمِ ظهري وسأحمي أنا ظهرك» قلت له، «لن أسمحَ لشيء أن يصيبك بالأذى، فلا تخذلني».

وأجابني بشبه الابتسامةِ تلك التي تقول إنه يفهم تمامًا ما أعنيه، وأنه سيفعل تمامًا ما يرضيه. ثار غضَبي وأمسكته من كتفيه.

«اللعنة عليكَ ماركوس، كم أختًا لديك؟ كم أبًا لديك!» أبدًا ما لجأتُ إلى اللعان والشتم معه إلا في حال الضرورة القصوى، والآن نلت انتباهه.

«لا تقلقي».. تمتم قائلا، «سأساعدك».

عثرْنا على ذراع! ماركوس مَن اكتشفها، شيءٌ داكنٌ ملقى حافة الطريق التي نتّبعها، كانت معلقةً على الأغصان الخفيضة لشجرة بلوط.

الذراعُ كانت مقطوعةً مؤخرًا ومكتملة، اليد والذراع والساعد، ذراع رجلٍ أسود، لون أبي حيث للون أن يُرى، فالجلدُ منتوف، ومع ذلك لا تزال تبدو قويةً طويلة العظام، طويلة الأصابع، معضَّلة وسميكة، مألوفة؟

عظمةٌ بيضاء، مصقولة، ناتئة من طرفِ الكتف، الذراع بُترت بسكين حاد، العظمة لم تكن مكسورةً، وأجل، قد تكون ذراعه.

ماركوس تقيّأ ما إن رآها. أنا أجبرتُ نفسي على تفحصها، البحث عن شيء مألوف، عن اليقين. حاول جاي غارفيلد إيقافي، فدفعتُ به ولعنته، كنت آسفة على ما قلت، ولاحقًا اعتذرت منه، لكن كان عليّ أن أعرف، ومع ذلك، ما زلتُ لا أعرف، فالذراع مغطاةٌ بالشقوق والدم الجاف، ما كان بوسعي التأكد؛ جاي غارفيلد أخذ بصماتها على دفتر ملاحظاته، لكن تركْنا الذراع، فكيف لنا أن نعود بها إلى كوري؟

وواصلنا البحث، إذ ما بيدنا فعله؟ جورج شو عثرَ على أفعى مجلجلة، لم تعض أحدًا ولم نقتلْها، لا أظن أيًّا منا كان في مزاجٍ لقتل أي شيء.

رأينا الكلاب، لكنها ظلت على مسافةٍ منا، حتى أني رأيت قطةً ترقبنا من أسفل شجيرة، القطط إما تفرُّ مذعورة أو تربضُ وتجمد مكانها، مثيرٌ للاهتمام مشاهدةُ القطط، في أي وقتٍ آخرَ لكان من المثير للاهتمام مشاهدتها.

أحدهم راحَ يصرخ، ما سمعتُ أبدًا صراخًا كهذا، صراخًا لا

ينقطع، كان رجلًا يصرخ، متوسلًا، راجيًا، مصليًا: «لا! لا! يا الله لا! أرجوك كفَى، بحق المسيح، بحق المسيح، بحق المسيح كفى، أرجوك!» تلتْها صيحاتٌ بلا كلمات، صرير نحيبٍ عالٍ وبكاء أطفال مروِّع.

كان صوت رجل، ما كان صوت أبي، لكن أيضًا ما كان مختلفًا كثيرًا عنه. عجزنا عن العثور على مصدر الصوت، فالأصداءُ تتقافز من حول الأخدود، تربكنا، تبعث بنا في اتجاهٍ ثم آخر؛ الأخدود مليء بالصخور الفالتة وبالنباتات الضارة الشائكة التي ما تنفكُّ تُبقينا على مسارنا حيثما هناك مسار.

الصراخُ توقف، ثم عاد الصوت مرةً أخرى في بقبقة فظيعة مروّعة.

كنتُ تركت نفسي أتقهقرُ حتى نهاية الصف. لم أكن واقعةً في مشكلة، فالصوت لا يثير فيَّ فرط التقمص، عليّ أن أرى الشخصَ يتألم حتى أشاركه ألمه، وهذا الشخص سأفعل المستحيلَ حتى لا أراه.

ماركوس تراجعَ للوراء جانبي وهمس: «هل أنت بخير؟» وأجبته: «أجل، أنا لا أريد معرفة أي شيء عمّا يتعرض له ذاك الرجل».

«كيث».

وافقته «أدري».

سرْنا بدراجتَينا خلف الآخرين، نراقبُ الركب. كايلا تالكوت تراجعت للوراء حتى تطمئن علينا، لم ترغبْ أصلًا في مجيئنا، لكن بما أننا أصررْنا، أتت ورافقتنا، حتى تُبقي عينها علينا، هي ذي طبيعتها.

«لا يشبه صوتَ بابا،» قالت لنا، «لا يشبه صوته على الإطلاق».

كايلا من تكساس مثل أمي البيولوجية. أحيانًا تبدو كما لو أنها لم تغادرْ تكساس يومًا، وأحيانًا تبدو كما لو أنها لم تقتربْ يومًا من الجنوب بأسره، فهي قادرةٌ على إغلاق زرّ لهجتها وفتحه بإرادتها، تنحو إلى فتحه لدَى مواساتها الآخرين، ولدَى تهديدها إياهم بالقتل. أحيانًا متى ما كنتُ مع كرتس، أرى ملامحَها في وجهه، وأتساءل أيّ نوع من القربى، أي نوع من الحموات، ستكون. اليوم أنا وماركوس كنا ممتنَّين لوجودها، فقد احتجْنا إلى وجودٍ أموميٍّ قويّ إلى جانبنا.

الصياحُ المروّع انتهى، لربما المسكينُ مات وارتاح من بؤسه، آمل.

لم نعثر عليه، وجدْنا عظامًا بشريةً وحيوانية، وجدْنا خمسَ جثثٍ عفنة متناثرة بين صخور الجلمود، عثرنا على بقايا باردة من نار، وفي الرماد وجدنا عظمة فخذٍ بشرية وجمجمتين.

أخيرًا، عدنا إلى بيتنا وتدثَّرنا بسور مجتمعنا وربضْنا جاثمينَ في وهم أماننا.

الأحد، ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٦

لا أحد عثر على أبي. تقريبًا كلُّ راشدٍ في الحيّ قضى وقتًا يبحث عنه؛ ريتشارد موس لم يفعل، لكن ابنه البكْر وابنته الكبرى بحثا؛ واردل باريش لم يفعل، لكن أخته وابنها البكْر بحثا؛ لا أعرف ما الذي بيد الناس فعله عدا ذلك، لو أني أعرفُ لفعلته بنفسي.

ومع ذلك لا شيء، لا شيء، لا شيء! الشرطةُ لم تأتِ لنا بأي دليل، وهو لم يظهرْ في أيّ مكان، اختفى، تلاشى، حتى بصمات الذراع المبتورةِ ما كانت بصماته.

كل ليلةٍ منذ الأربعاء وأنا أحلمُ بذاك الصراخ المريع. غادرتُ مرتين مع فرقة البحث لاستكشاف الأخاديد، ما عثرْنا على شيء، فقط المزيد من الموتى وأفقر الفقراء، أناسٌ بأعين محدقةٍ وعظام ناتئة؛ عظامي تؤلمني تعاطفًا معهم، أحيانًا إن نمتُ دونما سماعي الصراخ، أراهم، الأحياء الأموات، دائمًا أراهم، أبدًا لا أراهم.

فريقُ بحث لم أكن برفقته رأوا طفلًا تأكلُه الكلاب، قتلوا الكلاب ووقفوا يائسين يرقبون الطفل يموت.

هذا الصباح ألقيتُ أنا العِظة، لربما كان واجبي، لا أدري؛ الناس قدموا إلى كنيستنا، الكل مضطربٌ وقلق، لا يعرفون ما يجدر بهم فعله. أظنهم أرادوا الالتفاف حول بعضهم البعض، ولطالما كانت عادتهم منذ سنين الالتفافَ في بيتنا كلَّ صباح أحد. الكل كان مضطربًا ومترددًا، ومع ذلك أتوا.

كلٌّ من وايات تالكوت وجاي غارفيلد عرض إلقاءَ بضع

كلمات، وكلاهما أبَّن أبي على نحوٍ غير رسميّ، رغم أنَّ لا أحد منهما كان سيقرُّ بحقيقة تأبينه. خفتُ أن يحذو الجميع حذوهما ويتحوّل القداسُ إلى جنازةٍ مرتجلة لا تطاق؛ حين نهضتُ، لم أنهض حتى ألقي بضعَ كلمات وحسب، بل قصدتُ منحهم شيئًا يعودون به إلى بيوتهم، شيئًا يشعرهم أنَّ ما قيل اليوم كافٍ ووافٍ.

شكرتُهم جميعًا على جهودهم المتواصلة -شدَّدْتُ على المتواصلة- للعثور على أبي، ثم تحدثتُ عن المثابرة. ألقيتُ عِظة عن المثابرة كما يُتوقَّع من طفل غير مكرَّس إلقاءَ عظة؛ لا أحد منهم كان سيوقفني، كوري الوحيدةُ التي لربما كانت ستحاولُ إيقافي، لكنها كانت كما السائر في غيبوبة، ما كانت لتفعلَ شيئًا ليست مضطرة لفعله.

لذا ألقيت عِظةً من إنجيل لوقا، الفصل الثامن عشر، من الآية الأولى حتى الثامنة: مثلُ القاضي الظالم، أحدُ الأمثال التي أحبُّها. أرملةٌ ما انفكَّت تلحُّ طالبةً العدل من قاضٍ لا يخافُ الله ولا الناس، وأخيرًا حصلتْ على مبتغاها، كيف: بمثابرتها الإلحاح عليه حتى أزعجته.

الدرس الأخلاقي: للضعيف أن ينتصرَ على القويّ إن ثابر الضعيفُ على المطالبة بحقه؛ المثابرةُ ليست دائمًا بالخيار الآمن، لكن في أغلب الأحوال الخيارُ الضروري.

أبي والراشدون الحاضرون اليوم في الكنيسةِ خلقوا مجتمعًا وحافظوا عليه رغم الفاقة والعنف المحيط بنا خارجًا.

والآن، سواء بوجود أبي أو بدونه، فعلى مجتمعنا أن يثابرَ في بقائه، يتعاضد، ينجو؛ تحدثت عن كوابيسي ومصدر تلك الكوابيس،

بعض الحضور ما كان ليرغب بسماع الأطفال حديثًا كهذا، لكن ما همَّني. ربما لو كان كيث أدرَى بحقيقة الواقع، لكان حيًّا يُرزق بيننا، لكنني لم آت على ذكْر كيث، فالناس قد تقولُ إنه نال ما يستحق، لكن لا أحد سيجرؤ على قول هذا عن أبي، ولا أريدُ لأحد أن يقولَ هذا يومًا عن مجتمعنا.

«كوابيسي هذه هي مستقبلُنا إن خذلنا بعضنا البعض» قلت في ختام عظتي، «الجوعُ، الألم المبرح على يد مسوخٍ ما عادت بشرًا، تمزيق أجسادنا قطعًا، الموت».

«الربُّ إلهُنا معنا ونحن مع بعضنا البعض، لدينا مجتمعُنا، جزيرةٌ هشة، لكن أيضًا حصنٌ منيع، قد تبدو صغيرة جدًا وضعيفة جدًا على النجاة، وكما الأرملة في مَثَل المسيح، أعداؤها لا يخافون الله ولا الناس، لكن أيضًا، كما تلك الأرملة، مجتمعنا ثابَرَ على البقاء، نحن ثابرْنا على البقاء، فهذا وطننا، مهما جرى عليه وكان».

تلك كانت رسالتي، تركتُها معلقةً على آذانهم دونَ ختامٍ قاطع، شعرتُ بهم يتوقعون المزيد، وبعد إدراكهم أني لن أزيدَ على ما قلت كلمةً واحدة، شعرتُ بهم يحاولون هضم كلامي.

وفي اللحظةِ المناسبة، راحت كايلا تالكوت تُرنّم أنشودةً قديمة، والآخرون انضموا إليها، يغنون على مهل، لكن بكل إحساس: «لا، لن يقتلعونا... لن يقتْلعونا»[١].

---

(١) We Shall Not be Moved: ترنيمة قديمة روحيّة أنشدها المستعبدون في أميركا، ثم تحولت إلى أنشودة مرافقة لحركة الحقوق المدنية.

لو أني مَن بدأتُ ترنيمها لجاء وقعُها أضعف أو حتى مثيرًا للشفقة، فلا أملك صوتًا غنائيًّا، لكن صوت كايلا صدّاح، آسر، جليّ، قادرٌ على تلبيةِ كل ما تطلبه صاحبته منه، كذلك، فكايلا معروفة بأنها لا تحركُ إصبعًا إلا بإرادتها.

لاحقًا -لدى مغادرتها- شكرتُها.

نظرتْ إليّ، كنتُ قد تجاوزت قامتَها عبر السنين، وكان عليها أن ترفعَ عينيها، «أحسنتِ» قالت لي، أومأتْ ومضت نحو بيتها. كم أحبها.

نلتُ كلمات ثناء أخرى، وأحسبُها كلّها صادقة؛ المعظم قال، بطريقةٍ أو بأخرى: «معك حق» و«لم أظنكِ قادرة على إلقاء المواعظ بهذه البراعة» و«لكان أبوكِ فخورًا بك اليوم».

وأنا أيضًا أتمنَّى هذا، فقد ألقيتُها لأجله، هو من أقام من هذه البيوت المشتتة مجتمعًا متراصًّا، والآن -على الأرجح- هو ميت، ما كنتُ لأسمح لهم بدفنه، لكني أدرى، فأنا لست ماهرةً في إنكار الواقع وخداع النفس. هذه كانت جنازة أبي التي ألقيت فيها عظتي، جنازته وجنازة مجتمعنا، لأني -مهما أردتُ تصديقَ ما تفوهتُ به- لا شيء حقيقي مما قلت، كلنا سنُقتلع، السؤال متى؟ وعلى يد من؟ وإلى كم قطعة؟

# ١٣

**لا نهايةٌ**
**لما سيتطلّبه منكَ**
**العالمُ الذي تعيشُه.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

السبت، ١٩ ديسمبر ٢٠٢٦

اليوم، المبجلُ ماثيو روبنسون من تعمَّدتُ في كنيسته، حضرَ كي يعظَ في جنازة أبي. كوري أعدَّت الترتيبات، ما كان ثمةَ جثمانٌ ولا جرةُ رماد، لا أحد يعرفُ ما الذي وقع لأبي، لا نحن ولا الشرطة استطعْنا معرفة ما حدث، لو كان حيًّا لعثرَ على طريق عودته إلى البيت، لذا نحن موقنون أنه ميت.

لا، لسنا موقنينَ، لسنا موقنين على الإطلاق، هل هو مريضٌ في مكانٍ ما؟ مصاب؟ رهينة لدى وحوش لا نعرفها لأسباب لا نعرفها؟

هذه ميتةٌ أشنع من ميتة كيث، أشنعُ بكثير، فعلى فظاعة ميتته، عرفنا أنه ميت، وأيًّا يكن ما عاناه، عرفنا أنه ما عاد يعانيه، على الأقل ليس في هذا العالم، عرفنا. الآن نحن لا نعرف شيئًا، هو ميت، لكننا لا نعرف!

لا بد كان هذا شعور عائلة دن حين اختفتْ ترايسي. على جنونهم، على جنونها، لا بد كان هذا شعورهم، وما شعورُهم الآن؟ ترايسي أبدًا ما عادت، إن لم تكنْ ميتة، فما الحياةُ التي تعيشها خارج السور؟ فتاةٌ وحدها في الخارج لن تجدَ سوى مستقبلٍ واحد ينتظرها. أنوي تقمّصَ هيئة رجلٍ متى ما غادرت.

وماذا سيكون شعورُهم متى ما رحلت؟ سأغدو ميتةً في نظرهم، في نظر كوري وإخوتي والحيّ، سيأمْلون موتي، خيرٌ من المصير الآخر. شكرًا لأبي على طول قامتي وقوتي.

والآن لن أُجبرَ على هجر بابا، فبابا من هجَرني، كان في السابعة والخمسين، وما السببُ الذي يدعو غرباءَ إلى الاحتفاظ برجلٍ كهلٍ في السابعة والخمسين حيًّا؟ إما يسلبوه أو يخلوا سبيله أو يقتلوه. لو تركوه لعاد إلى البيت، ماشيًا، أعرجَ، زاحفًا.

لذا هو ميت.

هو ذا.

قُضيَ الأمر.

الثلاثاء، ٢٢ ديسمبر ٢٠٢٦

اليوم رحلتْ عائلة غارفيلد إلى أوليفار - فيليدا وجاي وجوان. شاحنة «كى إس إف» مدرعة حضرت من أوليفار حتى تحملَهم وتحملَ متاعهم. البالغون من أهل الحيّ فعلوا كل ما باستطاعتهم حتى يمنعوا الأطفالَ الصغار من تسلقِ الشاحنة وإزعاج السائقين. فمعظم الأطفال في عمر إخوتي ما سبقَ لهم قط أن اقتربوا من شاحنةٍ تعمل، بعض الأطفال الأصغر من عائلة موس ما سبق لهم أصلًا رؤية شاحنة، فأطفالُ موس ما كان مسموحًا لهم زيارة بيت يانس وقت كان التلفاز صالحًا.

الرجلانِ من «كى إس إف» كانا صبورَينِ مع الأطفال ما إن أدركا أنهم ليسوا سرّاقًا ولا مخرّبين. كلٌّ من الرجلين في زيه الرسمي، مع مسدسه، سوطه، هراوته. هيئة رجل شرطة لا ناقلَ أثاث. لا شك أنَّ لديهما أسلحةً أعتَى من هذه في الشاحنة؛ أخي بينيت قال إنه لدَى تسلقه غطاء الشاحنة رأى مسدساتٍ أكبر منصوبة داخلها، لكن إن أخذتَ في الاعتبار كم تبلغ قيمة شاحنة بهذا الحجم، وعدد الناس الذين لن يتوانوا عن تخليصها منها ومن محتوياتها، فالتسلحُ إلى هذا الحد ليس مستغربًا.

أحدُ الرجلين كان أبيضَ والآخر أسود؛ ورأيتُ كيف اعتبرتها كوري دلالة أمل، أنَّ أوليفار لربما ليست بالبلدةِ البيضاء المنغلقة التي تخيلها أبي.

كوري حاصرت الرجلَ الأسود واستغلت كلَّ لحظةٍ سمح

فيها بمحادثته. هل ستحاولُ الآن إدخالنا إلى أوليفار؟ أحسبها ستفعل، ففي نهاية المطاف، بلا راتب أبي، سيكونُ عليها فعل شيء. لو واصلنا الدعاء الليلَ بالنهار لا أملَ لنا بدخول أوليفار، وشركة التأمين لن تدفعَ تعويض أبي، أو ستدفع بعد وقتٍ طويل. فأناسُ تلك الشركة اختاروا رفضَ التصديق بموت أبي، ودون دليل فعلينا الانتظارُ سبع سنوات حتى يعلن قانونيًّا أنه ميت، فهل سيقبضون على أموالنا كل تلك السنوات؟ لا أدري، لكن لن أستغربَ إن فعلوا، وفي تلك السنوات السبع كم جوعًا سنعيش؟ لا بد كوري مدركة أنها وحدها في أوليفار لن تكسبَ ما يكفي لإعالتنا وإطعامنا، فهل تأملُ الحصولَ على وظيفةٍ لي؟ لا أدري، لا أدري ما الذي سنفعله.

جوان وأنا ودَّعنا بعضنا البعض، متعانقتَين باكيتَين، كلٌّ وعدت الأخرى بمهاتفتها، بالبقاء على تواصل. لا أظن سيكون بمقدورنا، فتكلفة الاتصال بأوليفار أعلى، ولن يكون بمقدورنا تحمّلها، ولا أظن بمقدورها هي، على الأرجح لن أراها ثانية؛ الأناس الذين كبرتُ معهم يتساقطون من حياتي، الواحد تلو الآخر.

ما إن غادرتْنا الشاحنة، وجدتُ كرتس وصحبتُه إلى غرفة التحميض العتيقة حتى نمارسَ الحب. كان مرَّ وقتٌ طويل على آخر مرة، وكم كنتُ في حاجة ماسة إليها. ليت بيدي تخيّل نفسي أتزوجُ كرتس، البقاء هنا، وإقامة حياة طيبة معه.

مستحيل، حتى إن لم يكن من وجود **لبذرة الأرض**، لكان

مستحيلًا. بمغادرتي الآن سأصنع معروفًا بعائلتي، فاهٌ أقل تقلق كوري حول إطعامه، إلّا إن عثرتُ بطريقةٍ ما على وظيفة.

«علينا أن نغادرَ المكان» قال كرتس بينما كنا راقدَين جانب بعضنا البعض، مسترخيين، نغوي الأقدار، نخشى فقدانَ إحساس أحدنا بالآخر بهذه السرعة، لكن لم يكن هذا مقصده. التفتُّ ونظرت إليه.

«ألا تريدين الرحيل؟» سألني، «ألا تريدين تركَ هذا الطريق المسدود، ترك روبليدو؟».

أومأتُ: «كنت أفكّر لتوي بالأمر، لكن..».

«أريدكِ أن تتزوجيني، وأريدُ لنا أن نغادرَ هذا المكان» قال لي في همسةٍ خافتة، «فهذا الحيُّ يحتضر».

رفعتُ نفسي واتكأتُ على مرفقيَّ ونظرت أسفلًا إليه، الضوءُ الوحيد في الغرفة ينسل من نافذةٍ وحيدة قرب السقف، لا شيء عاد يغطيها، وزجاجها مكسور، ومع ذلك لا ينسل منها إلا شعاعٌ صغيرٌ من ضوء، وجه كرتس تغيّمه الظلال.

«وأين تريدُ الذهاب؟» سألته.

«ليس أوليفار» أجابني، «فتلكَ طريقٌ مسدودة أسوأ من حينا».

«إذن إلى أين؟».

«لا أدري، أوريغون أو واشنطن؟ كندا؟ ألاسكا؟».

لا أحسبُ وجهي أفشى أيةَ دلالةٍ على حماسٍ مفاجئ؛ يقول

الناس إنَّ وجهي لا يعبر لهم عن مشاعري، ففرطُ التقمص كان خيرَ معلم، لكنه لمحَ شيئًا.

«أنتِ أيضًا تفكّرين بالرحيل، أليس كذلك؟» سأل مُلحًّا، «لهذا لا تتكلمين عن الارتباط والزواج».

وضعتُ يدي على صدره الأملس.

«كنتِ تفكّرين بالذهاب وحدك!» أمسكَ بمعصمي، بدا كأنما سيبعدُ يدي عنه، لكنه تشبّث بها، «كنت سترحلينَ وتهجرينني».

أشحتُ بوجهي عنه حتى لا يراه، لأني خشيتُ أنَّ وجهي في هذه اللحظة سيفضحُ مشاعري: الارتباك، الخوف، الأمل. بالطبع كنتُ أنوي الرحيلَ مفردي، وبالطبع لم أقل لأحدٍ أني راحلة، ولم أقررْ بعدُ كيف لاختفاء أبي أن يؤثرَ في قراري، فاختفاؤه أثار لديّ أسئلةً مرعبة، ما هي مسؤولياتي؟ وأيّ مصيرٍ سيلقاه إخوتي إن تركتهم لكوري؟ هم أبناؤها، وستهزُّ الأرض بأسرها من أجلهم، لإطعامِهم وكسوتهم، لكن هل لها أن تفعلَ ذلك وحدها؟ وكيف؟

«أريدُ الرحيل» اعترفتُ له؛ عدّلتُ وضعية استلقائي على فرش أكياس النوم التي بسطناها على الأرضيةِ الخرسانية، «خططتُ للرحيل، لا تخبر أحدًا».

«كيف لي أن أفعلَ إن كنتُ سأرحل معك؟».

ابتسمتُ، كلّي حبٌّ له، لكن... «كوري وإخوتي في حاجة إلى

العون» قلت له، «في وجود أبي، كنتُ خططتُ للرحيل ما إن أبلغ الثامنة عشر، الآن... لا أدري».

«وأين كنتِ ستذهبين؟».

«شمالا، إلى كندا ربما، وربما لا».

«وحدكِ؟».

«أجل».

«لماذا؟» ما يعنيه، لماذا وحدي.

هززتُ كتفيّ: «لربما سأقتَلُ ما إن أغادر، ربما سأجوع، تقبض الشرطةُ عليّ، الكلاب تلتهمني، مرضٌ يصيبني، أيُّ مكروه قد يقع لي؛ كل تلك الاحتمالاتِ السيئة فكرتُ بها، حتى أني لم أذكرْ لكَ نصفها».

«لهذا تحتاجينَ إلى من يساعدكِ!».

«لهذا لم أستطع الطلبَ من أحدٍ تركَ الطعام والمأوى والأمان، على القدر الموجود في عالمنا هنا، ويشدّ رحاله معي شمالًا، على أمل أن يؤولَ مصيرنا إلى مكانٍ جيد؛ كيف كنتُ سأطلب منك هذا؟».

«ليس بالأمر السيء، كلما ابتعدْنا شمالًا، زادت احتمالات حصولنا على وظائف».

«ربما، لكن لأعوامٍ والناس تنزح شمالًا، طوفانٌ من الجموع، وحتى هناك أصبحت الوظائفُ شحيحة، وحدود الولايات كلها مغلقة».

«لا شيء ينتظرنا هناك!».

«أدري».

«إذن كيف تنوينَ مساعدة كوري وإخوتك؟».

«لا أدري، لم نستقر بعد على خطوتنا التالية، حتى الآن، لا شيءَ فكرتُ به سينفع».

«إن غادرتِ سيزيد نصيبُ كل منهم».

«ربما، لكن، كرتس، كيف لي أن أهجرَهم؟ هل كنتَ سترحل وتهجر عائلتك، جاهلًا كيف سيتدبرون أمورهم؟».

«أحيانًا أظنني قادرًا».

تجاهلتُ كلامه. هو ليس على وفاقٍ مع أخيه مايكل، لكن عائلته لربما أكثر العوائل تراصًّا في حيّنا، إن تعرضتَ بالأذى لأحدهم ستجابهُ غضبهم جميعًا، ما كان أبدًا ليتخلَّى عنهم إن وقعوا في مشكلة.

«تزوّجيني الآن» قال لي، «سنبقى ونساعد عائلتك حتى تقفَ على قدميها، ثم سنرحل».

«ليس الآن» أجبته، «لا أرى كيف لأيِّ شيء أن ينفع الآن، فالوضع بأسره جنوني».

«وهل تظنين الوضعَ سيعود منطقيًّا؟ أصلاً لم يكن منطقيًا، اسمعي، عليكِ أن تمضي قدمًا في حياتك، مهما يكن».

لم أعرفْ بم أجيبه، لذا قبَّلته، لكني لم أنجحْ في تشتيت انتباهه.

«أمقتُ هذه الغرفة» قال لي، «أمقتُ الاختباء هنا معكِ والتلاعب حتى نختلسَ وقتًا معًا» تريّث ثم أردف، «لكني أحبكِ، اللعنة! أحيانًا أتمنى لو أني لم أحببكِ».

«لا تتمنَّ هذا» قلتُ له.

يعرفُ القليل عني، ويظنُّ نفسه يعرفُ كل شيء. فمثلًا، ما أخبرته قط عن متلازمة فرط التقمص. سأضطرُّ لإخباره قبل زواجنا، إن لم أخبرْه واكتشف الأمر لاحقًا، سيعرف أني لم أثق فيه كفاية لإخباره، لم أكن صادقةً معه. القليل القليل معروف عن هذا المرض، فرضًا أورثته لأطفالي؟

وهناك **بذرةُ الأرض**، سأضطر لإخباره، وماذا سيظنّ بي إن عرف؟ أني جننت؟ لا، ليس بيدي إخباره، ليس الآن.

«فلنسكنْ في بيتكِ» قال لي، «أبواي سيساعدانِ في الطعام، وربما سأعثرُ على وظيفة ما.».

«أريدُ الزواج منكَ» قلتُ له. ترددتُ.. صمتٌ مطبق خيّم علينا، لم أصدّق أني قلت شيئًا كهذا، لكن كانت الحقيقة. لربما غالبني الإحساسُ بالهجران، كيث، أبي، عائلة غارفيلد، السيدة كوينتانيلا... فما أسهلَ اختفاء الناس، أردت شخصًا معي يكترثُ لي، شخصًا لن يختفي، لكن مع ذلك لم أخسر رجاحة عقلي.

«متى ما وقفتْ عائلتي على قدميها، سنتزوج» أخبرتُه، «ثم

سنغادرُ هذا المكان، لكن عليَّ التأكد أولًا أن وضْع إخوتي سيكونُ على ما يرام».

«إن كنا سنتزوجُ لا محالة، فلم لا نتزوجُ الآن؟».

وفي نفسي أجبته، لأن ثمةَ الكثيرَ أخبرك به، لأنك إن رفضتَني أو أجبرتَني بردة فعلك على رفضك فلا أريدُ البقاء هنا ورؤيتك مع شخص آخر.

«ليس الآن، انتظرْني».

هزَّ رأسه في اشمئزازٍ واضح: «اللعنة! ألا ترينَ أن هذا ما كنتُ أفعله؟».

الخميس، ٢٤ ديسمبر ٢٠٢٦

ليلة الميلاد.

ليلةَ البارحة أشعلَ أحدهم النار في بيت باين-باريش، وبينما حاولَ أهل الحيّ إطفاءها ومنعها من الانتشار، ثلاثةُ بيوتٍ نُهبت، أحدُها بيتنا.

اللصوص سرقوا كلَّ طعامنا الذي اشتريناه، دقيق القمح، السكّر، المعلبات؛ نهبوا مذياعنا الأخير. الأمرُ الجنونيّ، أنَّنا قبلُ خلودنا إلى النوم كنا استمعنا إلى تقريرٍ إخباري لنصف ساعة حول تزايدِ معدلات الحرق العمد، الناس يشعلونَ الحرائق حتى يغطوا على جرائمهم، وإن كنت لا أدري علام العناء، فالشرطةُ ما عادت

تمثلُ أي تهديد للمجرمين. يشعلُ الناس الحرائق حتى يفعلوا ما فعلَ المجرم في حيّنا، إجبار جيران البيت المحترق على تركِ بيوتهم بلا حماية، ويشعلُ الناس الحرائق للتخلصِ من أي شخص لا يحبونه، عدوٍّ لدود أو شخصٍ بملامحَ غريبة أو عرقٍ مختلف، ويشعل الناس الحرائق لأن الناسَ محبطة، غاضبة، يائسة، لا قوةَ لديهم على تحسين حياتهم، لكن لديهم القوة على جعل حياة الآخرين أشد بؤسًا، والدليلُ الوحيد على امتلاكك القوة هي في ممارستها على غيرك.

ولا تنسَ مخدر الحرائق بأسمائه الإثني عشر وزيادة: بلايز، فوغو، فلاش، سن فاير، وأكثر أسمائه شعبية: بايرو -مُختصَر بايرومانيا- أسماء عديدة لمخدر واحد، والمخدر منتشر منذ فترة، ومما أخبرني به كيث فشعبيته تتزايد مع الوقت، يصيّر مشاهدةَ أنماط اللهيب الواثبة المتغيرة أكثر حدّة، ويمنحُ الرائي نشوةً أطول من النشوة الجنسية. ومثل براسيتو، مخدر أمي البيولوجية المفضل، فبايرو يعبثُ بالكيمياء العصبية لدى المرء. لكن براسيتو بدأ مخدرًا قانونيًّا يساعد مرضى الزهايمر، بايرو كان حادثة، خلطة منزلية، مخدر سرداب اخترعه شخص يحاولُ تركيبَ وصفة مخدر شوارع آخر باهظ الثمن، ارتكبَ المخترع خطأً كيميائيًّا بسيطًا، وانتهى به الحال مع بايرو. تلك الحادثة وقعت على الساحل الشرقي وتسببت فورًا بزيادةٍ في عدد جرائم الحرق العمد اللامنطقية، حرائق كبيرة وصغيرة.

بايرو شقَّ طريقه غربًا بلا جهدٍ يُذكر، والآن شعبيته في ازدياد؛ وفي جنوب كاليفورنيا الجافة كما العصف اليابس، سيعيش مشعلو الحرائق عربدةً من نار.

«يا الله» قالت كوري ما إن انتهى التقرير الإذاعي، وفي صوتٍ خافت، أقرب إلى همسة، اقتبست من رؤيا يوحنا: «سقطتْ، سقطتْ بابل العظيمة! وصارت مسكنًا للشياطين».

والشياطينُ أشعلوا النار في بيت باين - باريش.

نحو الثانيةِ صباحًا استيقظتُ على صليل الجرس: طوارئ! زلزال؟ حريق؟ متسللون؟ لكن ما كان من هزة، ولا صوت غير مألوف، لا دخان، أيًّا تكن حالة الطوارئ فليست في بيتنا. نهضتُ، بسرعة ارتديتُ ملابسي، ولثانية فكّرتُ إن كان يجدر بي التقاط حقيبة الطوارئ، ثم تركتُها؛ لم يبدُ أن بيتنا يتهدده خطرٌ مباشر، وحقيبتي آمنة في الخزانة، مدسوسةٌ بين اللحفِ وأكوام الملابس القديمة، وإن اضطررتُ للحصول عليها، فلي أن أعود وأنتشلها في ثوانٍ.

ركضتُ خارجًا لأرى ما المطلوبُ فعله للمساعدة وفورًا رأيته، بيت باين- باريش بأكمله في قلب النار، اللهبُ يحيطه من كل جانب. خفيرٌ في نوبته كان ما يزال يقرع جرسَ الطوارئ، الناسُ تدفقت من كل البيوت ورأوا ما رأيت، بيت باريش ضاع. من على الجانبين راح الجيرانُ يرطّبون نواحي بيوتهم؛ بلُّوطةٌ حيّة -إحدى أشجارنا الضخمة العتيقة- تلتهمها النار، كانت ثمة ريحٌ خفيفة تهب، تحملُ فتات الأوراق والغصون المحترقة وتنثرها؛ شاركت الناس في ترطيب الأرض وإخماد جمرات النار.

وأين عائلة باين؟ أين واردل باريش؟ هل اتصل أحدهم بفرقة الإطفاء؟ فهذا بيتٌ مزدحم بأهله وليس حريق مرآب.

سألتُ عددًا من الأشخاص، كايلا تالكوت قالت إنها اتصلت بالإطفاء، شعرتُ نحوها بالامتنان والخزي، ما كنت لأسألها وغيرها لو كان بابا حيًّا، لكنت أنا اتصلت، لكن ما عدنا نتحملُ كلفة الاتصال.

لا أحد رأى فردًا من عائلة باين، وجدتُ واردل باريش في فناء عائلة يانس حيث كوري وأخي بينيت كانا يدثرانه بلحاف، كان يسعلُ بشدة ويصعب عليه الكلام؛ لا شيء عليه سوى بنطال بيجامته.

«هل هو على ما يرام؟» سألتُ كوري.

«استنشق الكثير من الدخان، هل اتصل أحدهم بـ.»..

«كايلا تالكوت اتصلت بفرقة الإطفاء».

«حسنٌ، لكن لا أحد عند البوابة للسماح لهم بالدخول».

«أنا سأذهب» استدرتُ لكنها أمسكت بذراعي.

«الآخرون؟» سألت هامسة، تعني عائلة باين.

«لا أدري».

أومأتْ وتركتني.

مضيت نحو البوابة، أحملُ في يدي مفتاح ألكس مونتويا، استعرتُه في طريقي لأنه دومًا ما يحمله في جيبه، كان بفضلِهِ أني لم أعد إلى بيتنا وأقاطع عملية سطو وأُقتَل.

الإطفائيون وصلوا، وما كانوا على عجلةٍ من أمرهم، سمحتُ لهم بالدخول، أقفلت البوابة بعدهم، ووقفت أرقبُهم يطفؤون النار.

لا أحد رأى فردًا من عائلة باين، كان لنا أن نفترَض أنهم لم يخرجوا. حاولت كوري اصطحاب واردل باريش إلى بيتنا، لكنه رفض مغادرةَ المكان قبل معرفة ما جرى لتوأمه وأبنائها وبناتها.

حين بدأت النيرانُ تخمد، راح الجرسُ يقرع مرة أخرى، كلنا تلفّتنا، كارولين بالتر، والدة هاري، كانت تهزُّ الجرس وتدفعه بعنف وتصيح.

«مقتحمون!» صرختْ ملء صوتها: «اللصوص اقتحموا البيوت!».

وكلنا بلا تفكير هرعْنا فورًا إلى بيوتنا. واردل باريش لحق بعائلتي، ما يزال يسعل، أنفاسه صفير، عاجزٌ بلا سلاح، مثل بقيتنا. كنّا سنُقتَل باندفاعنا هكذا إلى البيت، لكن كنا محظوظين ونجحنا في تخويف لصوصنا.

إلى جانب طعامنا والراديو، سرقَ اللصوصُ عددًا من أدوات أبي ومخزونه، مسامير، أسلاك، براغي، مسامير ملولبة، أشياء كهذه، لم يسرقوا الهاتف أو الكمبيوتر أو أي شيء في مكتب أبي. في الواقع لم يدخلوا مكتب أبي على الإطلاق، أحسبنا أخفناهم قبل أن يتسنَّى لهم الدخول في أرجاء البيت.

سرقوا ملابسَ وأحذيةً من غرفة كوري، لكن لم يلمسوا غرفتي وغرف الأولاد، حصلوا على شيءٍ من أموالنا، مال المطبخ، كما

تسمّيه كوري، خبأته في المطبخ في علبة مسحوق غسيل. ظنت أن لا أحد سيسرقُ شيئًا كهذا، في الواقع، لربما سرق اللصوصُ العلبة كي يبيعوها ولا فكرة لديهم عمّا حقًّا موجودٌ فيها؛ كان للوضع أن يصبحَ أسوأ، فمالُ المطبخ ليس سوى ألف دولار للطوارئ البسيطة.

لم يسرق اللصوصُ بقية مالنا، بعضه مدفونٌ عند شجرة الليمون، وبعضه مخبّأ مع مسدسَينا أسفل الأرض في خزانة كوري. فقد تعنَّى بابا عناءً كبيرًا كي يعدَّ خزنة أرضية بلا قفل، لكن خبيئة تمامًا أسفل السجادة وخزانة أدراج مضروبة ملأى بأغراض الخياطة ورقع ملابس وأزرار وسحابات وعقائف وأشياء من هذا القبيل. بوسع أي أحد تحريك خزانة الأدراج بيدٍ واحدة، تنزلقُ من أحد الجانبين إلى الآخر إن دفعتها على النحو الصحيح، وفي ثوانٍ المال والسلاح في يدك؛ خدعةُ الإخفاء ما كانت لتنطلي على أناس لديهم الوقتُ للبحث بعمق، لكنها انطلت على لصوصنا، رموا ببعض الأدراج أرضًا، لكن لم يفكّروا بالبحث أسفل خزانة الأدراج.

سرق اللصوصُ ماكينة خياطة كوري، كانت ماكينةً محمولة وقوية وعتيقة مع علبتها الخاصة، لكن كلا العلبة والماكينة سرقتا؛ تلك كانت ضربةً قوية، فكوري وأنا كلتانا نستخدم الماكينةَ في خياطة ملابس العائلة وتعديلِها ورقعها، حتى أني فكرتُ بالعمل عليها وكسب المال مقابل الخياطة لأهل الحي، لكن ما عاد من ماكينة الآن، وبتنا مجبرتينِ على الخياطة اليدوية. سيأخذ منا وقتًا أطول، وقد لا تبدو الملابسُ جيدة كما اعتدنا، أمرٌ سيء، صعب، لكن ليس بالضربة

القاضية. بكت كوري على خسارتها الماكينة، لكن بيدنا المضيّ بلاها؛ كوري منهكةٌ من الضربات المتتالية، لكننا سنتأقلمُ، لا خيار أمامنا، فالربُّ هو التغيير.

كرتس تالكوت جاء للتو إلى نافذتي كي يخبرَني أنَّ فرقة الإطفاء عثرتْ على جثث وعظام متفحمة في رماد بيت عائلة باين-باريش؛ الشرطة أتت، والآن تدوّن محضرًا بوقائع الحريق العمد والسرقات. أبلغتُ كوري، لها أن تخبرَ واردل باريش أو تتركَ المهمة للشرطة؛ هو الآن مستلقٍ على أريكة في غرفة جلوسنا، أشك أنه نائم. حتى وإن لم أحببه يومًا، أشفق عليه، فقد خسر بيته وعائلته، وهو الناجي الوحيد؛ يا ترى ما كنه هذا الشعور؟

الثلاثاء، ٢٩ ديسمبر ٢٠٢٦

لا أدري حتّام سيستمر الوضع، لكن كوري، على نحوٍ أشك أنه قانوني، تولت جزءًا من وظيفة أبي التي عمل فيها سنواتٍ عديدة. ستعطي الحصص ذاتها التي كانت لأبي، ومع وجود الكمبيوتر وكل ملحقاته، سيتسنَّى لها توزيع المهام واستلام الواجبات وتلقي الاتصالات والمشاركة في المؤتمرات الحاسوبية؛ الجزء الإداري من وظيفة بابا سيتولاه شخصٌ آخر سيستفيد من المال الإضافي، ومستعدٌّ للقدوم إلى الجامعة أكثر من مرة أو مرتين شهريًّا، سيكون الأمرُ وكأن أبي ما يزال يدرّس، لكن قرر التخلي عن مسؤولياته الإدارية.

كوري تدبّرت الأمرَ بالتوسل والرجاء، بالدموع والتملقِ والتذكير بكل معروف والتواصل مع كل صديق خطر لها؛ الناسُ في الجامعة يعرفونها، فقد درَّست هناك قبل ولادتها بينيت، وقبلَ رؤيتها الحاجة إلى وجودها هنا وفتْحها غرفةَ مدرسةٍ تخدم كلَّ أطفال الحيّ؛ بابا وافقها فورًا على قرارها تركِ الجامعة إذ لم يردْ لها الذهاب والمجيء، معرَّضةً لكل الأخطار المحدقة خارجًا؛ يدفع الجيران رسومًا مقابلَ كل طفل، لكن ليس بالكثير، ليس بما يكفي لإعالة بيت.

والآن ستضطرُّ كوري للخروج ثانية، بدأت أصلًا بتجنيدِ رجالٍ وفتيان كبارٍ من أهل الحي لمرافقتها متى ما اضطرّتْ للمغادرة، ثمة الكثيرُ من الرجال العاطلين هنا، وكوري ستدفع لهم أجرًا زهيدًا.

وهكذا، بعد أيامٍ عدة، سيبدأ الفصلُ الدراسيُّ الجديد وكوري ستتولى عمل أبي، وسأتولى أنا عملها. سأتولى المدرسة بمساعدتها ومساعدة راسل دوري، جدُّ جوان وهاري. كان معلمَ رياضيات في ثانوية، تقاعد منذ سنوات لكن ما زال حادَّ الذهن. لا أظنني بحاجة إلى مساعدته لكن كوري تظنّ ذلك، وهو مستعدٌّ للمساعدة، لذا قضي الأمر.

أليكس مونتويا وكايلا تالكوت سيحلّان محل بابا في إقامة القدّاس وإلقاء العِظة الأسبوعية، لا أحد منهما مكرَّس، لكن كلاهما سبق أن حلَّ محلّ أبي في الماضي. كلاهما له هيبته ومكانته في المجتمع والكنيسة، وبالطبع، كلاهما يعرف إنجيله.

هكذا سنتعاضدُ وننجو، وسيمشي الحال، لا أدري حتامَ، لكن في الوقت الحالي سيمشي.

الأربعاء، ٣٠ ديسمبر ٢٠٢٦

أخيرًا واردل باريش جرَّ نفسه اليوم عائدًا إلى عشيرته، الجزء من عائلته الذي عاش معه قبل أن يرثَ وأخته بيت سمز. كان قد بقي معنا مذ مقتلِ أخته وأطفالها؛ كوري أعطته من ملابس بابا، وكانت كبيرة عليه، كبيرة جدًا.

ما انفكَّ يجول في الأنحاء، أخرسَ كما الأعمى، بالكاد يأكل، ثمَّ البارحة، ومثل ولدٍ صغير قال: «أريد العودةَ إلى بيتي، لا أستطيعُ البقاءَ هنا، أكره المكان هنا؛ الكل هنا ميت! عليّ العودة إلى بيتي».

واليوم أتَى وايات تالكوت ومايكل وكرتس ورافقوه إلى بيته، يبدو أكبرَ بأعوام مذ كان عليه الأسبوع الماضي، ولا أظنه سيعيش عمرًا أطول.

## ٢٠٢٧

**نحن بذرةُ الأرض، نحن الجسدُ – جسدٌ**
**واعٍ، جسدٌ يسعَى نحو ضالّته، جسدٌ يحلُّ مشاكله.**

نحن ذاك الوجه من حياة الأرضِ الأقدرُ على تصوير الربّ عن معرفة. نحن حياةُ الأرض في نضوجِها. نحن حياةُ الأرض في سقوطِها بعيدًا عن عالم والديها. نحن حياةُ الأرض المتأهَبةُ لغرس جذورها في أرضٍ جديدة. حياةُ الأرض التي تحقق وجودها، وعدها، مصيرها.

# ١٤

**حتى تنهضَ**

**من رمادِها**

**لا بدَّ للعنقاء**

**أولاً**

**أن**

**تحترق.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

السبت، ٣١ يوليو ٢٠٢٧

ليلةَ البارحة، حين هربتُ من الحيّ، كان يحترق. البيوتُ، الأشجارُ، الناس: تحترق.

الدخان أيقظني، وصرختُ في الرواق على كوري والأولاد، انتشلتُ ملابسي وحقيبةَ الطوارئ ولحقت بكوري وهي تسوقُ الأولاد خارجًا.

الجرس ما رنَّ البتّة، لا بد أنَّ الخفرَ قُتِلوا قبل أن يصلوا إليه.

كلُّ شيءٍ كان في فوضى، الناس تركضُ، تصيحُ، تطلق النار، البوابةُ دُمّرت، المهاجمونَ قادوا شاحنةً قديمة عبرها، لا بد أنهم سرقوا شاحنةً فقط حتى يتسنَّى لهم تحطيم بوابتنا.

لا بد كانوا مدمني البايرو - أناسٌ حليقو الرأس، مصبوغو الرأس والوجوه والأيدي، وجوهٌ حمراء، وجوهٌ زرقاء، وجوهٌ خضراء، أفواهٌ صارخة، عيونٌ شرهة، مجنونة، متوقّدة في لهب النيران.

أطلقوا علينا النارَ، وأطلقوا وأطلقوا. رأيت ناتالي موس تركضُ، تصيح، تُقذَف للوراء، نصفُ وجهها تفجّر، جسدُها لا يزال مندفعًا للأمام، وقعتْ على ظهرها هامدةً ووقعتُ أنا معها، عالقةً في موتها. رُميتُ هناك دائخةً، أصارعُ حتى أتحركَ، حتى أنهضَ. كوري والأولاد -الفارُّون أمامي- ما التفتوا أبدًا للوراء، واصلوا الفرار.

نهضتُ، تلمّستُ الأرض، عثرتُ على حقيبتي، وركضتُ، حاولتُ ألا أرى شيئًا مما يجري حولي؛ سماعُ إطلاق الرصاص والصراخ لم يوقفني؛ جثةٌ ميتة -إدوين دن- لم توقفني، انحنيتُ، التقطتُ مسدسه، وواصلتُ الفرار.

أحدهم صرخَ جانبي، قبض عليّ وثبّتني على الأرض، وفي ردةِ فعلٍ مرعوبة أطلقتُ النار، وتلقيت الصدمةَ القوية في معدتي، وجهٌ أخضرُ تعلَّق فوقي فاغرًا فاه، محدقَ العينين، لم يشعر بعدُ بألمه،

أطلقتُ النارَ عليه ثانية، مرعوبة من أن يشلّني ألمه متى ما شعر حقًّا به، بدا وكأنه قضَى دهرًا حتى يموت.

ما إن بتُّ قادرةً على الحراك ثانية، دفعتُ بجسده عنّي، نهضت، لا أزال قابضةً على المسدس، وفررتُ نحو البوابة المحطَّمة.

خيرٌ لي الوجودُ خارجًا، الاختباء في الظلمة.

ركضتُ أعلى شارع ميريديث بعيدًا عن شارع دورانت، بعيدًا عن إطلاق الرصاص والنيران. كنتُ خسرتُ أثر كوري والأولاد، ظننتهم سيتّجهون صوبَ التلال وليس وسط المدينة، كل الاتجاهات خطرةٌ، لكنّ الأخطرَ حيث الناس أكثر، فامرأةٌ وثلاثة أطفال -ليلًا- قد يبدون سلةَ هدايا من الطعام والمال والجنس.

شمالًا صوبَ التلال، شمالًا عبر الشوارع المظلمةِ حيث التلالُ والجبال القريبة تحجب النجوم عن الأنظار.

ثم ماذا؟

لم أعرفْ، كنت عاجزةً عن التفكير. ما سبق لي قط أن تواجدتُ خارج الأسوار في الظلمةِ الحالكة، أملي الوحيد بالبقاء على قيد الحياة كان في الإصغاء، في سماع أيةِ حركةٍ قبل اقترابها مني، رؤيةِ ما أستطيع على ضوء النجوم، التزامِ أقصى درجات الهدوء.

واصلتُ السير وسط الشارع أُمعنُ نظري وسمعي محاولةً تفادي حُفر الطريق وكتل الإسفلت المكسور، لم أر سوى القليل من القمامة، فأيّ شيء قابل للاحتراق يستخدمه الناسُ وقودًا، أيّ

شيء قابل لإعادة الاستعمال أو البيع لمّه الناس؛ اعتادت كوري أن تعلّق على هذا الوضع بمقولتها: الفقرُ صيّرَ الشوارع نظيفة.

وأين هي؟ وإلى أين أخذتْ إخوتي؟ هل هي على ما يرام؟ هل تمكّنوا أصلًا من الفرار من الحيّ؟

توقفتُ، هل إخوتي ما زالوا هناك؟ كرتس؟ لم أره على الإطلاق؛ إن كان لأحدٍ أن ينجو من هذا السعار فهم عائلة تالكوت، لكن ما كان لدينا من سبيلٍ للعثور على بعضنا.

صوتُ خطى، زوجانِ من الخطَى الراكضة، بقيتُ حيث أنا، جامدةً في مكاني، لا حركات مفاجئةً ألفتُ فيها الانتباه إلى نفسي، هل رأوني؟ وهل لهم أصلًا أن يروني؟ خيالٌ أشدُّ ظلمةً من الظلمة في شارعٍ خاوٍ. الصوتُ كان خلفي، أصغيتُ وعرفت أنه متجهٌ نحو جانبٍ واحد، يقترب، يتجاوزُني، شخصانِ يركضان أسفل الشارع الجانبيّ، لا مبالياَنِ بالصوت الصادر عنهما، لا مبالياَنِ للأخيلةِ المنتحلة صورةَ امرأة.

زفرتُ نفسًا واستنشقتُ نفسًا عن طريق فمي، فهكذا أحصلُ على هواءٍ أكثر في صوتٍ أخفض، ما كان بيدي العودة إلى النيران والألم؛ إن كانت كوري والأولاد هناك، فهم موتَى، أو أسوأ، أسرَى، لكنهم كانوا أمامي، لذا لا بد خرجوا، وكوري ما كانت أبدًا لتعود بهم بحثًا عني. ضوءٌ يتوهّجُ في السماء أعلى المكان حيث كان حيّنا، إن كانت فرّت بالأولاد، فكل ما عليها الالتفاتُ للوراء كي تعرفَ أنها لا تريد العودة.

وهل أخذتْ معها مسدس السميث آند ويسون؟ أتمنى لو كان بحوزتي مع علبتيّ الذخيرة، كل ما لديّ السكّينُ في حقيبتي ومسدسُ إدوين دن الآلي العتيق عيار ٤٥، وكل الذخيرة التي لديّ موجودة فيه، هذا إن لم يكنْ فارغًا أصلًا. أعرفُ المسدس، وأعرف أنَّ سعته سبع طلقات، أطلقتُ رصاصتين، وكم مرة أطلق إدوين قبل أن يُطلقَ أحدهم النار عليه؟ لم أتوقعْ معرفةَ الجواب حتى الصباح. كان لديّ مشعلٌ ضوئيٌّ في حقيبتي، لكن لم أنوِ استخدامه إلا إن كنت متيقنةً أني لا أجعلُ من نفسي هدفًا سائغًا.

مرأى الانتفاخ في جيبي وقتَ النهار كافٍ كي يدفع بالناسِ إلى التفكير مرتين قبل سرقتي أو اغتصابي، لكن ليلًا فالمسدس سيكونُ خفيًّا حتى إن حملتُه في يدي، وإن كان فارغًا، فلن يكونَ سوى هراوة، ولحظةَ أضرب أحدهم به، فكأنني ضربتُ نفسي، وإن فقدتُ الوعي لأي سبب كان أثناء القتال، فسأخسرُ كل ممتلكاتي وحتى حياتي. الليلة لزامٌ أختبئ.

في الغد لا خيارَ لديّ سوى الخداع قدْرَ المستطاع. معظمُ الناس لن يجبروني على إطلاق النار فقط حتى يختبروا إن كان المسدسُ محشوًّا أم لا، فبالنسبة لفقراء الشارع، غير القادرين على تحمل كلفة الخدمة الطبية، فأبسطها جرحٌ قاتل.

أنا الآن من فقراء الشارع، ليس بفقر البعض، لكنّي مشردة، وحيدة، مع كثيرٍ من الكتب وجهلٍ عميق بالواقع. إلى أن ألتقي

بأحدٍ من أهل الحيّ، فليس هناك إنسان سأخاطر بوضع ثقتي به، وليس من أحد سيقف في ظهري.

ثلاثةُ أميال صوب التلال، التزمتُ مساري في الأزقة الخلفية على ضوء النجوم، أصغي وأتلفَّت؛ المسدسُ كان في يدي، تعمّدت حمله، أسمعُ نباح كلاب وأصوات جمهرةٍ تتعارك في مكانٍ ليس بعيدًا عن هنا.

عرقٌ بارد يتصببُ مني، في حياتي ما شعرتُ بذعر كهذا، مع ذلك لا شيء هاجمني، ولم يعثر عليّ أحد.

لم أقطعْ كل الطريق إلى التلال، عوضًا عن ذلك وجدت بيتًا محروقًا وغير مسوَّر، على بعد مربعات سكنية من نهاية شارع ميريديث، خوفي من الكلاب جعلني متيقظةً لأي شيء أجد فيه ملجأً.

البيتُ كان أطلالًا، أطلالًا منهوبة، لم يكن من الآمن الدخولُ فيه دون ضوء، كان عظامًا سوداء منتصبة بلا سقف، لكن كان مرتفعًا عن الأرض؛ خمس درجات خرسانية تقود إلى ما كان سابقًا الشرفة الأمامية، لا بد من طريقٍ للاختباء أسفل البيت.

لكن ماذا إن كان ثمة أناسٌ فيه؟

طفتُ حول البيت، أرهفُ السمع وأحاول الإبصار، ثم -عوضًا عن التجرؤ على الزحف أسفل الشرفة- اكتفيتُ بالجزء المتبقي من المرآب، زاويةٌ منه كانت لا تزال قائمة، وكان هناك ما يكفي من

الركام أمام تلك الزاوية تحجبُني عن الأنظار إن لم أنر المشعل، كذلك، إن فوجئت، فالجريُ أسرع لي خارج المرآب من الزحف أسفل البيت؛ الأرضية الخرسانية لن تنهارَ من تحتي على خلاف الأرضية الخشبية في أنقاض البيت، كان هذا أفضلَ المتاح، وكنت منهكةً، لم أعرف إن كنتُ سأستطيع النوم، لكن كان لا بد أن أرتاح.

طلعت الشمس، وما الذي عليّ فعله الآن؟ نمتُ قليلًا، لكن أبقيتُ عينيَّ مفتوحتين. كل صوتٍ أيقظني، الريح، الجرذان، الحشرات، من بعدها السناجب، الطيور. لا أشعر أني ارتحتُ، لكني أقلُّ إرهاقًا، فما عليّ فعله الآن؟

لا أدري كيف لم نتفقْ على موقع التقاءٍ خارجًا، تلتقي به العائلةُ بعد وقوع كارثة. أتذكّر اقتراحي شيئًا كهذا على بابا، لكن ما فعلَ شيئًا حياله، وأنا لم أصر كما كان يفترض بي، (تصويرٌ ضعيفٌ للرب، قلة تدبُّر).

*والآن ماذا!*

الآن عليّ الذهابُ إلى بيتي. لا أريد الذهاب، الفكرةُ ترعبني حدَّ الموت؛ تطلَّبَ الأمر مني وقتًا طويلًا حتى أكتب الكلمة: بيتي، لكن عليّ أن أعرفَ ما الذي جرى لإخوتي وكوري وكرتس، لا أدري كيف سأطيقُ رؤيتهم إن كانوا مصابين أو رهائن، لا أدري ما الذي ينتظرني في الحي، المزيدُ من الوجوه المصبوغة؟ الشرطة؟ في كلتا الحالتين سأقع في مشكلة. إن كانت الشرطةُ هناك فلا بد أن أخبئ مسدسي، ومالي القليل؛ حملُ مسدسٍ قد يلفت انتباهًا لا ترغب به

من الشرطة، لا سيما إن كانوا في مزاج سيء، مع ذلك كل من يملك مسدسًا يحمله. الحيلة، بالطبع، هي ألا يُلقَى القبض عليك وأنت تحمله.

من جهة أخرى، إن كانت الوجوهُ المصبوغة لا تزال هناك، فلن أستطيع الدخول إطلاقًا. وحتام يظل هؤلاء الناس منتشين على البايرو والنيران؟ هل يتسكَّعون في المكان بعد انتهاء حفلتهم حتى يسرقوا ما تبقَّى وربما ليقتلوا مزيدًا من الناس؟

لا يهم، عليّ أن أذهب وأرى، عليّ أن أعود إلى بيتي.

السبت، ٢٣ يوليو ٢٠٢٧

عليّ أن أكتب، لا أعرف ما أفعل غير ذلك، الآخرون نائمون، لكن العتمة ليست حالكة بعد. أنا من أتولى نوبةَ الحراسة لأني عاجزةٌ عن النوم حتى إن حاولت، متنرفزة وجزعة، عاجزة عن البكاء، أريد أن أنهض وأطلق ساقيَّ للجري، أركض وأركض بعيدًا عن كل شيء، لكن ما من مفر.

عليّ أن أكتب، فالكتابةُ الشيء الوحيد المألوفُ المتبقّي لديّ؛ الرب هو التغيير، أكره الرب! عليّ أن أكتب.

ما من بيت في الحيّ إلا والتهمتْه النيران، وإن كانت بعض البيوت أسوأ حالًا من أخرى؛ لا أعرف إن حضرت الشرطةُ أو فرقة الإطفاء، إن أتوا، فلا بد رحلوا قبل مجيئي، الحيُّ صار مشاعًا، جيفةً ينهشها منقّبو القمامة.

وقفتُ عند البوابة، أحدّق في الغرباء يتلقّطون من بين عظام بيوتنا السوداء؛ الدخان كان ما يزال يتصاعدُ من الخرائب، لكن الرجال والنساء والأطفال كلهم كانوا هناك، ينقّبون فيها، يقطفون الثمار عن أشجارنا، يعرّون موتانا، يتنازعون أو يتعاركون حول الغنائم الجديدة، يخبئونها في ثيابهم أو في صرر، من هم أولاء الناس؟

وضعتُ يدي على مسدسي، أربع طلقات تبقَّت فيه ودخلتُ، كنت سخماءَ من التراب والرماد الذي نمت عليه طوال الليل، لا أظن سألفتُ انتباه أحد.

رأيت ثلاثَ نساء صوب الجزء غير المسوّر من شارع دورانت، يُنقّبن في بقايا بيت عائلة يانس، كنَّ يضحكْن ويتقاذفْن قطع الخشب وألواح الجص.

أين شاني وبناتها؟ أين أخواتها؟

مشيتُ عبر الحيّ أتجاوز بنظري كل يرقاتِ الذباب البشري، محاولةً العثور على الناس الذين نشأتُ معهم. عثرت على الموتى منهم، إدوين دن مُستلقٍ حيث تركته بعد سلبي مسدسَه، عدا أنه الآن عارٍ عن قميصه وحذائه، جيوبه مقلوبة.

الجثث المتفحمة منتشرة على الأرض، بعضها شبهَ محترقة والأخرى مزقتها نيران الأسلحة الأتوماتيكية؛ بركٌ من الدماء الجافة وشبه الجافة على مد الشارع، رجلان كانا يخلعانِ جرس طوارئ حيّنا؛ ضياءُ الشمس الساطع النقي في الصباح الباكر صيّر المشهد أقل واقعية، أقرب إلى كابوس. توقفتُ أمام بيتنا وحدقت في الراشدين

الخمسة والطفل ينقبون في الخراب، مَن تلك النسور الضارية؟ هل جذبتهمُ النار؟ هل هذا ما يفعله فقراءُ الشارع؟ يركضون نحو النار آملين العثور على جثة يعرّونها؟

كان هناك وجهٌ أخضرُ ميت على شرفتنا الأمامية، صعدتُ الدرجات ووقفت أنظر إليه - إليها، الوجه الأخضر كان امرأةً طويلة، نحيلة، صلعاء، لكن امرأة، ولأجل ماذا ماتت؟ ما كان المغزَى من كل هذا؟

«دعيها وشأنها» قالت امرأةٌ تسير في خطى سريعة نحوي وتمسك في يدها فردتي حذاء من أحذية كوري.. «ماتت لأجلنا جميعًا، دعيها وشأنها».

في حياتي بأسرها لم أرغبْ في قتل أحد مثلما رغبت لحظتها.

«ابتعدي يا حقيرة عن طريقي» قلت لها. لم أرفع صوتي، ولا أعرف كيف بدوت، لكن السارقة تراجعت.

خطوتُ فوق الوجه الأخضر ودخلتُ جثة بيتنا، اللصوص الآخرون نظروا إليّ، لكن لا أحد منهم قال شيئًا. زوجٌ لفت انتباهي، رجلٌ وولدٌ صغير، الرجل كان يُلبس الولد بنطال جينز يعود لأخي جريجوري، البنطالُ كان كبيرًا جدًا عليه، لكن الرجل حزَّم خصر البنطال وطوى ثنيتيه.

وأين جريجوري، أخي المهرّج المتذاكي؟ صغيري؟ أين هو؟ أين الجميع؟

سقفُ بيتنا انهار، معظمه احترق، المطبخ، غرفة المعيشة، غرفتي، لم يكن آمنًا المشي على الأرضية، رأيتُ أحد المنقّبين يهوي فيها، صاح متفاجئًا، ثم تسلّق بلا أذى إلى العارضة.

لا شيء تبقّى في غرفتي أنقذه، رمادٌ، هيكلُ سريري المعدني مشوّه، مصباحي حطامٌ من الخزف والمعدن، ملابسي وكتبي أكوامُ رماد. الكثيرُ من الكتب لم تحترق كلية لكن لا نفع منها، فقد كانت مصفوفةً متلاصقة بحيث حرقت النيران أطرافها وحواشيها، المتبقّي دوائر صفحات لم تنلْها النار ومحاطة بالرماد. لم أجد صفحة واحدة مكتملة.

غرفتا النوم الخلفيّتان كانتا في وضعٍ أحسن، هناك تجمع المنقبون، وإلى حيث اتجهت.

عثرتُ على أزواج جوارب لأبي، سراويلَ تحتيةٍ وقمصانٍ مطوية، وقِراب إضافيّ لي أن آخذه لمسدسي عيار ٤٥. كلّ هذه الأشياء عثرتُ عليها أسفل خزانة الأدراج التي لا توحي بخير، فمعظم الأشياء الخبيئة أسفلها احترقت، لكني دسستُ ما تمكنت من إيجاده في حقيبتي. الرجلُ مع الطفل جاءا ينهشان قربي، ولسببٍ ما، ربما بسبب الطفل، ربما لأن الرجلَ في الخرق القذرة كان أبَ طفلٍ آخر، لم أمانع؛ الولدُ الصغير وقف يرقبنا كلينا، وجهه الأسمرُ الصغير خاوٍ من أي تعبير، بدا شبيهًا بجريجوري.

نقّبتُ حقيبتي وانتشلت منها مشمشةً مجففة ومددتها إليه، لا أحسبُ عمره يفوق السادسة، لكن ما كان ليلمسَ الطعام إلى أن

يأذنَ له الرجل، ولدٌ مهذَّب. الرجل أومأ له فخطفَ المشمشة، قضم لقمةً صغيرة منها كي يتذوقها، ثم دسها بأكملها في فمه.

وها أنا، برفقة خمسة غرباء، أنهبُ بيت عائلتي. الذخيرة أسفل أرضيةِ الخزانة في غرفة أبويّ قد احترقت، لا شكّ انفجرت. الخزانة متفحمة، لا أمل في نجاة المال الخبيء فيها.

أخذتُ خيطَ أسنانٍ وصابونًا وعلبة فازلين من حمّام أبويّ، كل ما عداها اختفى.

تدبرتُ جمْعَ طقم ملابسَ لكلّ من كوري وإخوتي، وخصوصًا الأحذية؛ كان ثمة امرأة تنقّب بين أحذية ماركوس حملْقت بي، لكنها التزمت الصمت. إخوتي فروا من البيت ببيجاماتهم، كوري رمت على نفسها معطفًا؛ كنتُ آخرَ من غادر البيت لأني خاطرتُ بالتوقف لالتقاط بنطالي الجينز وبلوزة وحذاء وحقيبة الطوارئ، على الأرجح كنت سأُقتل. لو أني استغرقتُ في التفكير حول ما ينبغي فعله، إن كان عليّ أن أفكّر أصلًا، لا شك كنت سأُقتل. لكني تصرفتُ كما درَّبت نفسي، رغم أني لفترةٍ طويلة لم أحدِّث خطتي وفق آخر المعطيات. فراري كان أقربَ إلى فعل الذاكرة، فمذ زمن لم أتدربْ في ساعات الليل المتأخرة، ومع ذلك كله، انضباطُ النفس الذي منحني إياه التدريبُ نفعني.

الآن، إن كان لي أن أوصلَ تلك الملابس إلى كوري وإخوتي، لربما سأعوّض عليهم افتقارهم إلى التمرين، لا سيما إن استطعتُ الوصول إلى المال الخبيء أسفل الصخور عند شجرة الليمون.

دسستُ الملابس والأحذية في غطاء وسادة انتشلته، وتلفتُّ حولي باحثةً عن لحف، لكن لم أجد واحدًا، لا بد كانت من أوائل الأغراض التي نهبت. داعٍ أقوى حتى أضع يديّ على مال شجرة الليمون.

غادرتُ البيت صوب شجرة الدراق، ولكوني طويلة، تمكنتُ من قطف ثمرتي دراق شبه ناضجتَين فاتتا أعين منقّبي القمامة، ثم رحتُ أتلفت نحوي كأني أبحث عن شيء آخر أسلبه، وإذ أتفاجأ برغبتي في البكاء على مرأى حديقة كوري الكبيرة الخلفية التي أولتها كل عنايتها، مسحوقة بكل ما فيها، الفلفل، الطماطم، القرع، الجزر، الخس، الليمون، عباد الشمس، الفاصولياء، الذرة، معظمُها لم ينضج بعد، لكن ما لم تسلبه الأيدي سحقته الأقدام.

تلقّطتُ جزرات عدة، ملء قبضتَين من بذور عباد الشمس من رؤوس الأزهار المرميّة على الأرض، وبعض قرون الفاصولياء من الكَرمة التي زرعتْها كوري حتى تتسلقَ على سيقان عباد الشمس. كنت أتلقّط المتبقّي مثلما يفعل الناهبُ الآتي متأخرًا. ثم شققتُ طريقي نحو شجرة الليمون، ولدى وصولي إليها، ملأى بثمار الليمون الخضراء، رحتُ أتصيّد أيةَ ثمرة عليها ولو لمحةٍ من صفار، قطفتُ القليل منها وتلقطتُ الواقع منها. كوري كانت زرعت زهورَ مُحبةٍ للظل عند جذع الشجرة، حيث نمتْ وانتشرت، هي وأبي وزَّعا صخورَ جلمودٍ صغيرة حولها على نحوٍ أقرب إلى الزينة. وجدتُ القليل منها مقلوبة، تسحق الأزهار قربها؛ الصخرةُ حيث المال أسفلها كانت مقلوبة، لكن الترابَ أعلى المال، على عمق

بوصتين أو ثلاث حيث المالُ مغلّفٌ في حزمةٍ من ثلاث طبقات من البلاستيك الواقي من الحرارة، لم يلمسْه أحد.

انتشلتُ الحزمة بسرعةٍ وكأني أقطفُ ثمرة ليمون. في البداية تبينتُ الموقع، ثم خطفت الحزمةَ في قبضةٍ من تراب، أتحرّقُ على المغادرة لكنني مذعورةٌ من لفت الانتباه؛ قطفتُ ثمارَ ليمونٍ أكثر وطفتُ في الأرجاء أتلقّطُ المزيد من الطعام.

التينُ كان يابسًا وأخضر بدل الأرجواني، والبيرمسون صفراء خضراء بدل البرتقالي؛ عثرتُ على كوز ذرة واحد مُتبقٍ على الساق المتدليةِ واستخدمْته في حشو حزمة المال عميقًا في حقيبتي، ثم غادرت.

مع حقيبتي على ظهري وغطاءِ الوسادة أسنده بذراعي اليسرى على وركي -كما تسند الأم طفلها- سرتُ خارج درب البيت نحو الشارع. أبقيتُ يدي اليمنى خاويةً مستعدة للمسدس في جيبي الأيمن، إذ لم يتسنَّ لي ارتداء القراب.

الأناسُ بين جدران السور أكثر مما وجدت لدى مجيئي، كان عليّ تجاوز معظمهم حتى أتمكن من الخروج؛ كان هناك آخرون يغادرون محمّلين بغنائمهم، حاولتُ اللحاق بهم دون أن أربط نفسي بمجموعةٍ محددة. اضطررت إلى السير في خطىً أبطأ مما أريد، وبات لديّ الوقتُ لأرى الجثثَ وأبصرَ ما لا أريد أن أراه.

ريتشارد موس، عاريًا من كل شيء، راقدٌ في بركةٍ من دمائه، بيته -الأقرب إلى البوابة من بيتنا- احترق حتى سُوّيَ بالأرض؛ المدخنةُ

وحدها ظلت منتصبةً، متفحمة وعارية، من بين الركام. أين أرملتاه كارن وزهرا؟ هل ترملتا أصلًا؟ وأين كل أطفاله الكُثر؟

الصغيرةُ روبن بالتر، عاريةٌ، قذرة، دامية بين قدمَيها، باردة، نحيلة، بالكاد بلغت. لربما يومًا كانت ستغدو زوجةَ أخي ماركوس، تصبحُ أختي. لطالما كانت طفلةً ذكية وحادةَ الذهن ورائعة وجدّية، في الثانية عشر في طريقها إلى الخامسة والثلاثين، كذا اعتادت كوري أن تقول، ودائمًا ما قالتها في ابتسامة.

راسل دوري، جد روبن، سلبوه فقط فردتَي حذائه؛ رصاصُ الأسلحة الأتوماتيكية مزَّقَ جسده إربًا. مسنٌّ وطفلة، ما الذي جنتْه الوجوه المصبوغة من كل هذا القتل؟

«ماتت لأجلنا» كذا قالت المنقّبة عن الوجه الأخضر، أشبه بحركة سياسيّة مجنونة، **احرقوا الأغنياءَ** كذا قال كيث. ما كُنا أبدًا بالأغنياء، لكن في عين البؤساء بدَونا أغنياء، كنا الناجين الذين أحطْنا أنفسنا بسور. هل مات مجتمعُنا حتى يتسنّى لُمدمني المخدرات رفعَ الصوت مناصرةً للفقراء؟

المزيدُ من الجثث، لم أمعن النظرَ في معظمها، متناثرة في الأفنيةِ الأمامية والشارع والجزيرة. جرسُ الطوارئ اختفى، الرجلان اللذان رغبا فيهِ حملاه خارجًا، على الأغلب سيبيعانه معدنًا.

رأيتُ لايلا يانس، ابنة شاني الكبرى -مثل روبن- اغتُصبت؛ رأيت مايكل تالكوت، نصف رأسه مسحوق؛ لم أتلفَّت حولي بحثًا عن كرتس، كنتُ مذعورةً من رؤيته جثة هامدة. أصلًا كنتُ فاقدةً

سيطرتي وبالكاد تدبرتُ السير من دون لفت الانتباه إليّ. ما كان بيدي أن أكون أي شيء سوى منقّبة قمامة تحمل غنيمتها.

الجثثُ مرّت تحت عينيّ، جيريمي بالتر، أحد إخوة روبن، فيليب موس، جورج شو، زوجته وابنه الأكبر، جوانا مونتويا، روبن كوينتانلا، ليديا كروز التي كانت في الثامنة، وهي أيضًا اغتصبت!

خرجتُ من البوابة، لم أنهَرْ، لم أرَ كوري وإخوتي في المذبحة، هذا لا يعني أنهم ليسوا هناك، بل يعني أني لم أرهم. لربما هم أحياء، لربما كرتس حيّ، وأين عساي أبحث عنهم؟

لعائلة تالكوت أقاربُ في روبليدو لكن لا أعرف أين، في مكانٍ ما على الجانب الآخر من شارع ريفر. لا أستطيعُ البحث عنهم، ربما ذهب كرتس إليهم، لماذا لم يعد أحدٌ غيري لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

حمتُ حول الحيّ، أُبقي على السور في مدى نظري، ثم حمتُ في دائرة أكبر. لم أر أحدًا، أو على الأقل لم أر أحدًا أعرفه، رأيتُ فقراء شارعٍ آخرين يحدقون بي.

وهكذا، لأني لم أعرفْ ما أفعل، توجهتُ إلى المرآب المحترق في شارع ميريديث. ما كان بوسعي الاتصال بالشرطة، فكلُّ الهواتف التي أعرفها استحالت رمادًا، ولا غريب سيدعني أستخدمُ هاتفه إن كان لديه هاتف، ولم أعرفْ أحدًا أدفع له وأثق بأنه سيتصل. معظم الناس ستتفاداني أو تحتفظ ببالي ولا تتصل؛ وعلى أي حال، إن كانت الشرطة تجاهلتْ ما حدث لحيّنا، تجاهلت النيران وكل تلك الجثث، فما الذي يدفعني للذهاب إليهم؟ ما الذي بيدهم فعله،

القبضُ عليّ؟ سلبي مالي مقابل رسوم خدماتهم؟ ما كنت لأتفاجأ، خيرٌ لي البقاء بعيدًا عنهم.



لكن أين عائلتي؟

أحدهم نادى اسمي!

التفتُّ، يدي في جيبي، ورأيتُ زهرا موس وهاري بالتر - زوجة ريتشارد موس الصغرى وأخ روبن بالتر الأكبر. كانا زوجًا غيرَ اعتيادي، لكن بالتأكيد كانا معًا، وتدبّرا، من دون أن يمس أحدهما الآخر، أن يعطيا انطباعًا بأنهما يخصان بعضهما البعض. كلاهما كان ملطّخًا برذاذ الدم، وكلاهما كان رثّ الملابس. نظرتُ إلى وجه هاري المضروبِ المتورّم وتذكرتُ كيف أحبَّته جوان -أو كيف ظنتْ أنها تحبه- وكيف رفض الزواج منها والانتقالَ معها إلى أوليفار لأنه آمنَ بما آمنَ به أبي عن حقيقة أوليفار.

«هل أنت بخير؟» سألني.

أومأتُ -مع روبن في بالي- هل يعرف؟ راسل دوري، روبن، جيريمي..

«ضربوك؟» سألتُه، بدوتُ غبيةً وخرقاء. لم أردْ إخباره أنَّ جده وأخيه وأخته موتى.

«شققتُ طريقي خارجًا بالعراك، كنتُ محظوظًا أنهم لم يرموني بأسلحتهم». ترنّح وراح يتلفّت حوله: «فلنجلس على حافَّة الرصيف هناك».

كلانا أنا وزهرا تلفَّتنا حولنا، نتأكد ألّا أحد في الجوار. جلسنا مع هاري بيننا، جلستُ على غطاء الوسادةِ المحشو بالملابس. زهرا وهاري كانا في كامل ملابسِهما، رغم الدم والتراب الذي يغطيهما، لكن لا أحد منهما حمل شيئًا معه. هل لا يملكان شيئًا أم خبآ ما أخذا في مكانٍ ما، لربما مع المتبقي من عائلتَيهما؟ وأين بيبي طفلة زهرا؟ وهل تعرفُ أنَّ ريتشارد موس ميت؟

«الكلُّ ميت» همستْ زهرا وكأنها تجيب أفكاري: «الكل، الوجوه المصبوغة السفلة قتلوا الجميع!».

«لا!» هزَّ هاري رأسه، «نحن نجونا، فلا بدَّ آخرون نجوا». جلس ووجهه بين يديه، وتساءلتُ إن كانت إصابته أبلغ مما ظننت، فلم أتشاركْ أيّ ألم مبرح معه.

«هل رأى أحدُكما كوري وإخوتي؟».

«أموات» همست زهرا: «مثل طفلتي بيبي، كلهم أموات».

قفزتُ عن مكاني: «لا! ليسَ الجميع! لا! هل رأيتهم؟».

«رأيتُ معظم عائلة مونتويا» قال هاري، لم يكنْ يتكلم معي بقدر ما كان يُناجي نفسه بصوتٍ عالٍ: «رأيناهم ليلةَ البارحة، قالوا إنَّ جوانا ماتت، والبقية سيتوجّهون مشيًا على الأقدام إلى غلندايل حيث يعيش أقرباؤهم».

«لكن..».

«ورأيت لاتيشيا شو، مطعونةً أربعين أو خمسين مرة».

«لكن هل رأيتَ إخوتي؟» كان لا بد أن أسأل.

«قلتُ لك، كلهم موتى» قالت زهرا، «كانوا قد فرُّوا، لكن الوجوهَ المصبوغة انقضت عليهم وجرّوهم داخلًا وقتلوهم، أنا رأيتُ، أحدُهم أمسك بي و... رأيتهم».

هل كانت تُغتصب حين رأتْ عائلتي تُجر داخلًا وتقتل؟ هل هذا ما حصل؟

«عدت هذا الصباح» قلتُ لها، «لم أرَ جثثهم، لم أرَ أيًّا منهم». *كلا، كلا، كلا*.

«رأيتهم، أمك، إخوتك، جميعهم، رأيتهم» حضنتْ زهرا نفسها: «رغمًا عني، رأيتهم».

جلسنا صامتين، لا أدري كم من الوقت مضى على جلوسنا. بين الفينة والأخرى يسير أحدٌ بمحاذاتنا ويُلقي نظرة علينا، أحدٌ قذر ورثَ الثياب مع صرر، أناسٌ أنظف يقودون دراجاتهم الهوائية في جماعاتٍ صغيرة، ثلاثةٌ مرّوا بدراجاتهم النارية، طنينهم الكهربائي غريبٌ في الشارع الهادئ.

حين نهضتُ، نظر الاثنان إليّ، ودون سبب ـ بحكم العادة ـ حملتُ غطاءَ الوسادة عن الرصيف. لا أدري ما المفترَض بي فعله بمحتوياتها، كلُّ ما شغل بالي حينها العودة إلى مرآبي قبل أن يستقرَّ أحدٌ آخر فيه. عقلي كان مذهولا، تصورتُ المرآب بيتي، وكل ما أردته لحظتها العودة إليه.

هاري نهض وكاد يقع، انحنَى وتقيأ في البالوعة، مرآه يتقيأ تملّكني، وبالكاد تدبرتُ الإشاحة بوجهي عنه حتى لا أنضمَّ إليه. فرغ، بصق، والتفتَ نحو زهرا ونحوي، وراح يسعل:

«لست بخير».

«ضربوه على رأسه ليلةَ البارحة» فسّرت زهرا: «أنقذني من الرجل الذي كان... تعرفين ما أعنيه، سحَبني بعيدًا، لكنهم آذوه».

«هناك مرآبٌ محترق حيث نمتُ ليلة البارحة» قلت لهما، «الطريق إليه سيرًا طويل، لكن له أن يرتاحَ هناك، كلنا لنا أن نرتاح هناك».

تناولتْ زهرا غطاء الوسادة وحملتها، ربما شيءٌ فيه سينفعُها. أنا وزهرا حاوطنا هاري، كلٌّ من جانب، حتى لا يتوقفَ أو يتوه أو يترنّح؛ بمعجزة وصلنا به إلى المرآب.

# ١٥

**الطيبة تُيسِّر التغيير.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء.

الأحد، الأول من أغسطس ٢٠٢٧

هاري نام معظم اليوم. أنا وزهرا تناوبْنا البقاء معه، يُعاني من ارتجاجٍ على الأقل، ويحتاجُ وقتًا حتى يشفَى؛ لم نتحدث أنا وزهرا عمَّا سنفعل إن ازدادتْ حالته سوءًا عِوضًا عن الشفاء، زهرا لا تريدُ التخلي عنه لأنه عاركَ حتى ينقذَها، وأنا لا أريد التخلّي عنه لأني عرفتُه طوال حياتي، وهو شابٌ طيّب؛ أتساءلُ إن كان من سبيل إلى التواصل مع عائلة غارفيلد، سيمنحونه بيتًا، أو على الأقل يحرصون على تلقّيه رعاية طبية.

حالته على ما يبدو لا تتدهور، يسير مترنحًا صوب الفناء الخلفي المسيَّج حتى يتبوّل، يتناول الطعامَ والماء الذي أمنحه إياه بلا جدال.

نتناولُ ونشرب من مؤونتي أنا، بتقتير، فهي كل ما نملك. وعن قريب جدًا سنضطرُّ إلى المخاطرة والخروج حتى نشتري المزيد. لكن اليوم، الأحد، يومُ راحةٍ وشفاء.

صداعُ هاري ورضوض جسده موضعُ ترحيب لديّ، فمع بكاء زهرا وحديثها عن طفلتِها الميتة، كلها إلهاء. لا شيء آخر في بالي يشغلني.

بؤسهم يهوّن عليَّ بؤسي، يمنحني لحظاتٍ لا أفكر فيها بعائلتي، الكلُّ ميّت، لكن كيف يعقل هذا؟ الكل؟

لزهرة صوتٌ ناعم، صوتُ فتاة صغيرة. كنتُ أظنه صوتًا زائفًا، لكن أرى الآن أنه حقيقيّ، في ضيقها يتلبس صوتَ حك ورق السنفرة، يبدو مؤلمًا، وكأنما الصوت لدى خروجه منها يكشط حنجرتها.

هي رأت ابنتَها تُقتل، رأت الوجهَ الأزرق الذي أطلق النار على بيبي وبينما زهرا تفرُّ بها، بين ذراعيها. هي موقنةٌ أنَّ الوجه الأزرق كان مستمتعًا، يطلقُ النار على كل الأهداف المتحركة، أخبرتْني أنَّ تعابير وجهه ذكّرتْها بملامح رجلٍ يضاجع.

«سقطْتُ» قالت هامسةً، «ظننتني ميتةً، ظننتُه قتلني، كان ثمة دم، ثم رأيتُ رأس بيبي يتدلى، وجهٌ أحمر انتشلها مني، لم أرَ من أين أتى، انتشلَها ورمى بها في بيت عائلة شو، البيتُ كان يحترق، رمى بها في النار».

«جننتُ، لم أعرف ما أفعل، أحدهم أمسك بي، ثم تحررتُ منه،

ثم أحدهم ألقى بي أرضًا وهمد فوقي، عجزتُ عن التقاط نفس، مزَّقَ ملابسي، ثم باتَ فوقي، وعجزت عن فعل شيء، حينها رأيتُ أمك، وإخوتك...

ثم ظهرَ هاري وسحب الحقير عني، أخبرني لاحقًا أني كنتُ أصرخ، لا أدري ما الذي كنت أفعله، كان يضربُ الرجلَ الذي سحبه عني حين انقض عليه رجلٌ آخر، ضربتُ الرجلَ الجديد بصخرةٍ وهاري أوقع الآخر أرضًا، ثم هرعْنا خارجًا، جرينا دونَ وعي، لم ننم، اختبأنا بين بيتَينِ غير مسوّرَين أسفل الشارع، بعيدًا عن النار إلى أن أقبلَ علينا رجلٌ يحمل فأسًا وطردَنا، مذ ذاك ونحن نحوم إلى أن عثرنا عليك. قبل البارحة ما كنا حتى نعرف بعضنا، فكما تعرفين، ريتشارد منعنا من الاختلاط مع الجيران، لا سيما البيض منهم».

أومأتُ، أتذكّر ريتشارد موس: «إنه ميت» أخبرتُها، «رأيتُه»، ما إن نطقتُ تلك الكلمات تمنيت لو بيدي سحبها، لا أعرف كيف أخبرُ امرأةً أنَّ زوجَها مات، لكن لا بد من أسلوبٍ ألطف وأرق من أسلوبي.

حدقت فيَّ مصعوقةً، أردتُ الاعتذار عن فظاظتي، لكن لم أر النفْع من أي اعتذار. «آسفة» قلت لها وكأني أتأسفُ منها على كل شيء. شرعتْ في البكاء، وكررتُ اعتذاري: «أنا آسفة».

حضنتُها وتركتها تبكي. هاري استيقظ وشربَ القليل من الماء، وأصغَى إلى زهرا تسردُ علينا كيف أخذها ريتشارد موس من أمّها

المشردة وقت كانت فقط في الخامسة عشر من عمرها ـ أصغر مما ظننت ـ وأحضرَها إلى أول بيتٍ تسكنه في حياتها. أعطاها ما يكفي من الطعام، ولم يضربْها أبدًا، وحتى مع كره شريكتِيها لها، كان خيرًا ألف مرةٍ من الحياة خارجًا مع أمّها والتضور جوعًا. وها هي الآن في الخارج ثانية، في ست سنوات انتقلت من لا شيء إلى لا شيء.

«هل لديكُما مكانٌ تقيمان فيه؟» أخيرًا سألتنا.. «هل تعرفانِ أحدًا لا يزالُ يملك بيتًا؟».

نظرتُ إلى هاري: «لربما بمقدورك الذهاب إلى أوليفار إن استطعتَ الترحال إليها مشيًا، عائلة غارفيلد ستستقبلك».

فكَّر بالأمر لبرهةٍ ثم قال: «لا أريد الذهابَ، لا أحسبُ أن ثمة مستقبلاً في أوليفار أفضل مما كان عليه في حيّنا، على الأقل في حيّنا كانت لدينا مسدساتنا».

«وما نفعتْنا بشيء» تمتمت زهرا.

«أدري، لكن تظلُّ مسدساتُنا، وليس زمرة مسلحين مأجورين، وما كان لأحد أن يسلِّط مسدساتنا علينا، لكن في أوليفار -ومما قالته جوان- لا يُسمح لأحدٍ بامتلاك السلاح إلا قوات الأمن، ومن يدري أصلًا من هم هؤلاء السفلة؟».

«رجال الشركة» أجبته، «أناسٌ من خارج أوليفار».

أومأ: «هذا ما سمعته أيضًا، لربما ستغدو الأمورُ على ما يرام، لكنها لا تبدو لي على ما يرام».

«خيرٌ من التضور جوعًا» قالت زهرا، «لا أحد منكما نام يومًا بلا عشاء، أليس كذلك؟».

«سأتّجه شمالًا» قلتُ لهما، «كنتُ أخطط للرحيلِ ما إن تقفُ عائلتي على قدميها، والآن لا عائلة لديّ، سأرحل».

«شمالًا أين؟» سألتْ زهرا باهتمام.

«صوبَ كندا، مع الظروفِ الحالية قد لا أقطعُ كلَّ الطريق إليها، لكني سأصلُ إلى مكانٍ حيث لا يكلف الماءُ أكثر من الطعام، وحيث العمل يدخلُ عليك راتبًا، حتى إن كان صغيرًا، لا أنوي قضاءَ بقية حياتي عبدةً من عبيد القرن الحادي والعشرين».

«الشمالُ وجهتي أيضًا» قال هاري، «فلا شيء هنا، حاولتُ على مدار العام البحث عن وظيفة، أية وظيفة تدر دخلًا، لا شيء، أريد العمل مقابلَ المال، ونيل شهادة جامعية. الوظائفُ الوحيدة التي تدر مالًا جيدًا هي التي شغلها آباؤنا، الوظائفُ التي تتطلب شهادة جامعية».

نظرتُ إليه، أريد سؤاله، ترددتُ، ثم اندفعت: «هاري، ماذا عن أبويك؟».

«لا أدري» أجابني، «لم أرهما يُقتلان، زهرا تقول إنها لم ترَهما، لا أعرف مصيرَ أي فرد من عائلتي، فقد تشتتنا».

بلعتُ غصّتي: «لم أرَ أبويك» أخبرته، «لكني رأيتُ أفرادًا من عائلتك موتى».

«مَن؟» سأل بإلحاح.

لا أحسب ثمة طريقةً لإبلاغ الناس خبرَ موت أقربائهم سوى لفظ الخبر كما هو، مهما تمنيت عكس ذلك، «جدّك» أجبته، «وجيريمي وروبن».

«روبن وجيريمي؟ أطفال؟ أطفال صغار؟».

زهرا أمسكت يده: «هم يقتلون الأطفالَ الصغار، هنا، في هذا العالم خارجَ السور، يقتلونَ الأطفال كل يوم».

لم يبكِ، أو لربما بكَى حين كنا نائمتَين. في البدء انطوى على نفسه، توقَّف عن الكلام، توقَف عن الاستجابة، عن فعل أي شيء حتى بداية حلول الظلام؛ حينذاك كانت زهرا قد خرجت وعادت مع قميص أخي بينيت مليئًا بثمار الدرّاق الناضج.

«لا تسأليني من أين أحضرتُها؟» قالت لي.

«أظنكِ سرقتِها» أجبتُها، «آمل أنك لم تسرقيها من أحدٍ في الجوار، فلا منطق في إغضاب جيراننا».

رفعَت حاجبها: «لا أحتاج دروسًا منكِ عن النجاة هنا، فأنا ولدتُ هنا، هاكِ كُلي الدراق».

أكلتُ أربعًا منها، كانت شهيةً، ناضجة جدًا وستفسد سريعًا إن احتفظت بها.

«لِمَ لا تجرّبين شيئًا من الملابس؟» قلتُ لها، «خذي منها ما يناسبُك».

لم يناسبْها قميصُ ماركوس وبنطالُه -رغم اضطرارها إلى طي الثنْيتين السفليتين- بل حذاؤه أيضًا؛ الأحذيةُ باهظة، والآن بات لديها زوجان.

«دعيني أتولى المهمة، سأقايضُ الأحذية الصغيرة مقابل الطعام».

أومأتُ لها: «في الغد، أيًا ما ستحْصلين عليه، نتقاسمُه، وبعدها سأرحل».

«شمالًا؟».

«أجل».

«شمالًا فقط، ألا تعرفينَ شيئًا عن الطرق والبلداتِ ومن أين تشترينَ الأشياء أو تسرقينها؟ هل لديكِ أيَّ مال؟».

«لديّ خرائط» أجبتُها، «قديمةٌ، لكن أظنها لا تزال نافعةً، فلا أحد مذ ذاك شيَّد طرقًا جديدة».

«بالتأكيد لا، لديك مال؟».

«القليل، ولا أظنه كافيًا».

«لا وجود لمالٍ كافٍ، وماذا عنه؟» أشارتْ نحو ظهر هاري الجامد، كان مستلقيًا على بطنه، ما كنتُ لأعرف إن كان نائمًا أم لا.

«عليه أن يقررَ بنفسه» أجبتها، «لربما سيودُّ البقاءَ وقتًا أطول والبحثَ عن بقية عائلته قبل رحيله».

استدار على مهل، بدا مريضًا، لكن بكامل وعْيه؛ زهرا وضعت حبات الدُّراق التي احتفظت بها له جانب رأسه.

«لا أريد انتظار أيّ شيء، لو بيدي الرحيلُ الآن لرحلت، فأنا أكره هذا المكان».

«هل سترحلُ برفقتها؟» سألته زهرا، تخزني بإبهامها.

نظر إليّ، «لربما سنساعدُ بعضنا البعض» أجابها، «على الأقل نعرف بعضنا البعض، و... وقد تدبرت التقاط حفنة صغيرة من مئات الدولارات لدى هروبي من البيت». كان يعرض عليّ أن نتبادل الثقة، ليس أبدًا بالأمر الهيّن.

«كنتُ أفكر بالترحال كرجل» أخبرته.

بدا كأنما يحبسُ ابتسامته: «سيكون آمنًا لك، فعلى الأقل أنتِ طويلة كفايةً لخداع الناس، لكن ستحتاجين إلى قصّ شعركِ».

زهرا نخرت: «أيُّ زوج مختلط الأعراق سيثيرُ العداء سواء كان زوجًا مثليًّا أم لا، هاري سيغيظُ كل السود وأنت ستغيظين كلَّ البيض، فليكن الحظ معكما».

تأملْتها وهي تقول ما قالته، وأدركتُ الكلام المتواري: «هل تريدين القدومَ معنا؟».

تنشَّقتْ وأجابت بازدراء: «ولماذا؟ فأنا أبدًا لن أقصَّ شعري!».

«لا حاجة لكِ لقصّه» أجبتها، «أنا وأنتِ سنلعب دورَ الزوجينِ الأسودَين وهاري صديقنا الأبيض، إن تسنَّى لهاري أن يكتسبَ

بعض السمرة، سندّعي أنه قريبٌ عائلي».

ترددتْ، ثم همستْ: «أجل، أريدُ الذهاب معكما» وراحتْ تبكي، هاري يحدّق فيها باستغراب.

«هل حقًّا ظننتِ أننا سنهجركِ؟» سألتها.

«لا أملكُ مالًا» قالت لي، «ولا حتى دولارًا واحدًا».

تنهّدتُ وسألتها: «ومن أين أحضرتِ الدراق؟».

«أنتِ محقة، سرقتُها».

«إذن تملكين مهارةً نافعة، وتملكينَ كل المعلومات عن تدبّر العيش في الخارج» والتفتُّ صوب هاري: «ما رأيك؟».

«ألا تزعجُكِ سرقتها؟» سألني.

«أنوي النجاةَ» أجبته.

«لا تسرق» اقتبسَ لي من الإنجيل «أعوامٌ وأعوام، عمرٌ بأكمله من سماع لا تسرق».

كان عليّ إخماد هبّة الغضب التي اعترتْني قبل أن يتسنى لي الرد، فهو ليس بأبي، وليس من شأنه اقتباس الإنجيل لي، هو نكرةٌ، لا شيء. لم أنظر إليه ولم أنطق بكلمة إلى أن عرفتُ أنَّ صوتي سيبدو طبيعيًّا: «أخبرتكَ، أنوي النجاة، ألا تريدُ النجاة؟».

أومأ قائلاً: «لم يكن انتقادًا، أنا متفاجئ فقط».

«آمل ألا تؤدي السرقة إلى إلقاء القبض علينا أو تركِ شخصٍ

آخر يجوع» قلتُ له، وفوجئتُ بنفسي أبتسم: «فكرت بالأمر وهذا هو شعوري، لكني ما سرقتُ شيئًا قط في حياتي».

«تمزحين!» قالت زهرا.

هززتُ كتفيّ: «هي ذي الحقيقة، كبرتُ وأنا أحاول أن أكونَ قدوةً لإخوتي وأعيش وفق توقعات أبي، بدا أنَّ هذا ما ينبغي لي فعله».

«الابنُ الأكبر» قال هاري، «أعرف ما تقصدين» كان الأكبرَ بين إخوته.

«الأكبر!» قالت زهرا ضاحكة: «هنا لستما سوى رضيعَين!».

لم أجد ما قالته مهينًا، ربما لأنها كانت الحقيقة، «أنا عديمة الخبرة» اعترفتُ لها: «لكن بيدي التعلم، وأنت ستكونين أحد أساتذتي».

«أحدهم؟» سألتني: «ومَن لديك غيري؟».

«الكلّ».



بدت هازئةً: «أي لا أحد».

«كلُّ مَن ينجو في هذا العالم يعرفُ أمورًا أنا في حاجة إلى معرفتها» أجبتها، «سأراقبُهم، أصغي إليهم، أتعلم منهم، إن لم أفعل سأُقتل، وكما أخبرتكما، أنا أنوي النجاة».

«سيبيعونكِ وعاءً من الغائط» أخبرتني.

أومأت: «أدري، وسأشتري أقل الممكن منها».

تأملتْني برهة طويلة، ثم تنهّدتْ: «ليتني عرفتكِ عن قربٍ قبل وقوع كل هذا، يا للكِ من ابنة واعظٍ غريبة. إن كنتِ لا تزالين تريدين تقمّص دورِ الرجل، فأنا مستعدة لقص شعركِ».

الإثنين، ٢ أغسطس ٢٠٢٧

(من الملاحظات التي دوّنتُها الأحد، الثامن من أغسطس).

نحن في طريقنا.

هذا الصباح أخذتْنا زهرا إلى مجمَّع هانيغ جوس، أكبر متجر مؤمَّن في روبليدو. يمكننا الحصولُ على كل ما نريد من هناك، ففروع هانيغ تبيعُ كل شيء من طعام الذواقة إلى الكْريم مزيل القمْل، من خبز القربان إلى عدّة الولادة في البيت، من المسدسات إلى أحدث طرازٍ من خواتم اللمس والسمّاعات والتسجيلات؛ بيدي قضاء أيامٍ أحومُ في المتجر عبر الممرات، أحدقُ إلى كل الأغراض التي لا أطيقُ تكْلفتها، إذ ما سبق لي أبدًا الذهاب إلى هانيغ، ولا رؤية شيء كهذا بأم عيني.

كان علينا التناوبُ في دخولنا المتجر، شخصٌ يدخل واثنان يبقيانِ خارجًا كي يحرسا صررنا، بما فيها مُسدسي. هانيغ -كما سمعت مراتٍ كثيرة على الراديو- كان أكثر الأماكن أمنًا في المدينة. وإن كنتَ تمانعُ كلابَها الشمّامة، المرورَ في كاشف المعادن، القيودَ على إدخال الحقائب، الحراسَ المسلّحين، انصياعَكَ للتفتيش الجسدي لأي شخص يشْتبهون به لدى دخوله أو خروجه، فلكَ أن تتسوق

في مكانٍ آخر. المتجرُ كان مكتظًا بالناس المستعدين لتحمّلِ كل هذا الإزعاج والتعدّي على الخصوصية لأجل شراء الأشياء التي يحتاجونها بسلام.

لا أحد فتشني جسديًّا، لكن كان مطلوبًا مني إثبات أني لستُ معوزة.

«أرنا قرصَ هانيغ أو المال» أحدُ الحراس المسلحين طالبني عند البوابة الضخمة؛ كنتُ مذعورةً من احتمال سرقتِهِ مالي، لكنني أريتُه أوراق الدولاراتِ التي نويت صرفَها، وهو أومأ ولم يلمسها قط. لا شكَّ أنَّ كلينا مراقَبان، وكلُّ تصرفٍ من تصرفاتنا تسجله كاميرات المراقبة، فمتجرٌ يروّج لنفسه أنه «المتجرُ الآمن» لن يريد من حراسهِ سرقة زبائنه.

«تسوّقي بسلام» قال لي دون لمحة ابتسامة.

اشتريتُ ملحًا وأنبوبة عسلٍ صغيرة وأرخصَ الطعام المجفف، الشوفانَ، الفاكهة، طحين الفول، العدس، قليلاً من اللحم المقدد، كل ما ظننتُ أني وزهرا قادرتان على حمله. اشتريتُ المزيدَ من الماء وحاجياتٍ أخرى، أقراصَ تنقية الماء -في حال احتجناها- واقيَ الشمس فكلانا سنحتاجه أيضًا، واقيًا من لدغات الحشرات، مرهمًا كان يستخدمه أبي لآلام العضلاتِ التي سنعاني منها كثيرًا؛ اشتريتُ المزيد من ورق الحمام والفوط الصحية ومرهمَ شفاه؛ اشتريتُ لنفسي دفترًا جديدًا وقلمَين، ومؤونة باهظة من ذخيرة المسدس عيار ٤٥، وكم شعرتُ بتحسن حينما اشتريته.

اشتريتُ ثلاثةً من أكياس النوم الرخيصة الكبيرة متعددة الأغراض - تصلح كحقائب تخزين متينة والفراش المفضل لدى معظم المشردين الموسرين؛ فالبلد مليء بالناس الذين لهم أن يؤمّنوا لقمة عيشهم من ماء أو طعام إما بالعمل مقابلها أو سرقتها، لكنهم عاجزون عن استئجار كوخ، هؤلاء الناس ينامون في الشوارع أو في عششٍ عشوائية، وإن كان بيدهم، سيضعون حقيبة نوم بين أجسادهم والأرض. أكياس النوم بأربطتها يمكن تحويلها إلى حقائبَ في النهار، خفيفة ومتينة وتقاوم معظم الأذى، وهي كذلك دافئة إن اضطررتَ إلى النوم على الخرسانة، لكنها رفيعة، مفيدة أكثر منها مريحة. أنا وكرتس اعتدنا ممارسةَ الحب على حشيةٍ منها.

اشتريتُ كذلك ثلاثة معاطفَ من الحجم الكبير، من ذات النسيج المسامي الصناعي الخفيف المستخدم في أكياس النوم، ستؤدي الغرض في إبقائنا دافئينَ في طريقنا شمالًا. تبدو رخيصةً وقبيحة، ميزة جيدة، إذ ربما لن تُسرَق.

وهكذا صرفت كلَّ مالي، المال الذي وضّبته في حقيبة الطوارئ. لم ألمسْ بعد المال الذي أخذتُه من أسفل جذع شجرة الليمون. ذاك المال قسمته إلى نصفَين، كل نصف دسسته في جورب من جوارب أبي، وثبتُّهما بالدبوس داخل بنطالي الجينز، مخفيًّا وبعيدًا عن النشالين.

ليس بالكثير من المال، لكن أكثر مما حظيتُ به يومًا، وبالتأكيد أكثر مما يتوقع الآخرون مني. ثبتّه بدبّوس، أعدتُ لفَّه بالبلاستيك ودسسْته في الجورَبين. فعلتُ ذلك السبت ليلًا حين فرغتُ من

الكتابة، لا أكفُّ عن التفكير والتذكّر ومعرفة أن لا شيء بيدي فعله بخصوص الماضي.

ليلتها راودتْني ذكرى ملموسةٌ عن التقاطي حزمةَ المال وقبضة التراب وحشو كليهما في حقيبتي؛ طاقةٌ عصبية هائلة فارت فيَّ وهدرتُها على النرفزة. يداي مرتعشتانِ وبشق الأنفس، في الظلمة، وجدتُ المال بالتلمّس. صيّرتُ مهمةَ البحث عن المال والجوارب والدبابيس تمرينًا في التركيز، قسمتُ المال إلى نصفَين، أقرب إلى النصفين بما إني كنتُ عاجزةً عن الرؤية، دسستُه في الجوربين، وثبته بالدبوس في المكان المناسب. تحققتُ من نجاح مهمتي لدَى خروجي صباح اليوم التالي للتبوّل، أدائي كان ممتازًا، الدبابيسُ غير ظاهرةٍ على الإطلاق، فقد شبكتُها بالدرز أسفل كاحليّ، لا شيء متدلٍّ، لا مشاكل على الإطلاق.

أخذتُ المشترياتِ الكثيرةَ خارجًا إلى المكان الذي اعتاد أن يكونَ مبنى مواقف سيارات، والآن بات سوق بالة شبه مطوَّق. كثيرٌ من الأغراض المنتشلة من الرماد والركام ينتهي بها الحال هنا، القاعدة هي أنك إن اشتريتَ غرضًا من المتجر، يحق لك بيع ما يوازي سعره في سوق البالة هذا. فاتورتك، المصدّقة بالباركود والتاريخ، هي رخصة بيعك في السوق.

هناك خفرٌ في المبنَى، مهتمّون بتفحّص الفواتير أكثر من الحرص على سلامة الموجودين وأموالهم، مع ذلك، يظل المبنَى أكثر أمانًا من الشارع.

وجدتُ هاري وزهرا جالسَيْن على صررنا، هاري ينتظرُ دوره في الدخول إلى المتجر، وزهرا في انتظار رخصتِها. كانا يسندانِ ظهريهما إلى جدار المتجر في بقعة بعيدةٍ عن الشارع وبعيدةٍ عن الحشد الأكبر من المشترين والبائعين. أعطيت زهرا الفاتورة وبدأنا في جرد وإعادة توضيبِ حقائبنا بالمشتريات الجديدة، كنا سنرحلُ ما إن ينتهي هاري وزهرا من مهام الشراء والبيع.

مشينا على الطريق السريع -طريق ١١٨- واستدرنا غربًا. كنا سنسلكُ طريق ١١٨ إلى ٢٣ ومنه إلى طريق الولايات السريع ١٠١ الذي سيأخذنا شمال الساحل صوب أوريغون. وجدنا أنفسَنا في نهرٍ من السائرين غربًا على الطريق السريع. قلة كانت تسير ضد التيار، يسيرون على وجوههم باتجاه الشرق حيث الجبال والصحراء. وإلى أين يتجه السائرون غربًا؟ هل من وجهةٍ محددة، أم مجرد الابتعاد من هنا؟

رأينا القليلَ من الشاحنات -معظمها تتحرك ليلًا- وسروبًا من الدراجات هوائية وكهربائية، وسيارتَين، كلها لديها المجال للانطلاق بسرعة على الحارات أقصى اليمين واليسار. وجدنا أن من الآمنِ الالتزام بالحارة اليسرى بعيدًا عن الطرق المنحدرة. في كاليفورنيا السير على الطرق السريعة مخالفٌ للقانون، لكن القانون عتيق، كل من يرتحلُ سيرًا سيسلكُ لا محالة الطرق السريعة، فتلك الطرق تصل مباشرةً بين المدن وبين أجزاء المدينة. لطالما سار بابا على تلك الطرق أو سلكها بدراجته. ثمة عاهراتٌ وبائعون متجوّلون

يبيعون الطعام والماء وضرورياتٍ أخرى يعيشون على مدّ الطرق السريعة، إما في سقائفَ أو عششٍ في العراء، وهناك أيضًا متسوّلون ولصوص وقتلة يعيشون هنا.

لكن ما سبق لي أبدًا السيرُ على طريقٍ سريع. وجدتُ التجربة مثيرةً ومرعبة في الآن ذاته، على نحوٍ ذكّرني بمشهدٍ من فيلم قديم عن شارع صينيّ في منتصف القرن العشرين، مشّاءون، ركابُ دراجات هوائية، أناسٌ يحملون أغراضًا من كل الأصناف، إما يسحبونها أويدفعون بها؛ لكن الحشدَ في الطريق السريع هذا حشدٌ متعدد الأعراق، سود وبيض، آسيويون ولاتينيون. عائلاتٌ بأسرها يتحرك أفرادها مع أطفالِهم على ظهورهم أو جاثمين أعلى المتاع في عرباتٍ أو سلال الدراجات، وأحيانًا تجد برفقتهم شخصًا معاقًا أو مسنًّا. مسنّون آخرون ومرضى ومعاقون يعرجون على الطريق يسيرون بقدر استطاعتهم متكئينَ على العصيّ أو على مرافقين أصحاء؛ الكثير منهم مسلّح بالسواطير والبنادق، وبالطبع المسدسات في قرابها ظاهرة لأعين الجميع، الشرطي العابر لا يُلقي بالًا لشيء.

الأطفالُ يصيحون، يلعبون، يربضون، يفعلون كل شيء عدا الأكل، تقريبًا لا أحد يأكل وقت السير؛ لمحت قلة تشرب من مطّاراتها، يعبّون جرعاتٍ سريعة مختلسة وكأنهم يفعلون شيئًا يدعو للخزي، أو يلفت الخطر.

امرأةٌ جانبنا انهارتْ، لم أشعر بأي انطباعٍ عن ألمها إلا حين

اصطدم جسدها فجأة وبكل ثقله على ركبتَيها؛ ترنّحتُ على وقع الصدمة، لكن لم أقع؛ المرأة جانبنا جلستْ حيث وقعتْ لثوانٍ عدة، ثم نهضتْ على قدميها متثاقلةً وبدأت السير من جديد، ظهرها منحنٍ للأمام أسفل حقيبتها الثقيلة.

الكلّ كان متسخًا تقريبًا، متاعُهم وصررهم وحقائبُ ظهورهم متسخة، الكل رائحته نتنة، ونحن، مَن نمنا على الأرض الخرسانية في الرماد والتراب، من لم نْستحم لثلاثة أيام، انتمينا جيدًا إلى الركْب. حقائبُ أكياس نومنا الشيء الوحيد الذي قد يفضحُ كوننا سائرينَ جددًا على الطريق أو على الأقل نملكُ متاعًا جديدًا يستحقُّ السرقة؛ كان يجدر بنا توسيخ حقائبنا قليلًا قبل انطلاقنا، سنفعلُ تلك الليلة، سأحرصُ بنفسي على ذلك.

كان ثمة شبابٌ يافعون حولنا، سريعون ومرنون، بعضهم متّسخ، والآخر ليس متسخًا على الإطلاق، هؤلاء هم كيث -كيث اليوم- ما انفكَّ يضايقني وجودهم، الكثير منهم لا يحملُ إلا القليل من المتاع، وبعضهم لا يحمل شيئًا سوى الأسلحة.

مفترسون، يتلفَّتون معظم الوقت، يحدّقون في الناس، والناس تشيح بوجوهها عنهم. أشحتُ وجهي، وارتحتُ لرؤية هاري وزهرا يفعلان الشيء ذاته، فلسنا في حاجة إلى افتعال المشاكل، وإن اعترضتْنا مشكلة، آمل أن نقتلها سريعًا ونمضي في طريقنا.

المسدس الآن محشوٌّ بالكامل، وضعتُه في القراب وارتديته حول خصري، لكن نصفه فقط ظاهرٌ للعيان من أسفل قميصي؛ هاري

اشترى لنفسه سكّينًا، المال الذي انتشله لدى فراره من بيته المحترق لم يكْفه لشراء مسدس، كان يمكنني شراء مسدسٍ آخر، لكن ذلك يستلزم دفعَ الكثير من مالي، وما زالَ الطريق أمامنا طويل جدًّا.

زهرا استخدمت مالَ الحذاء في شراء سكينٍ لنفسها وبعض الأغراض الشخصية؛ رفضتُ أخذ نصيبي من المال، فهي بحاجةٍ إلى بضع دولارات في جيبها.

آمل متى ما استخدم هاري وزهرا السكين أن يقتلا به، إن لم يفعلا، سأضطر أنا إلى القتل، فرارًا من الألم، وما الذي سيظنّانه بي حينها؟

يستحقان معرفة معاناتي من فرط التقمّص، لأجل سلامتهما لا بد أن يعرفا، لكن ما سبق لي أبدًا أن أخبرتُ أحدًا، ففرط التقمّص ضعف، سرٌّ مخزٍ، والشخصُ الذي سيعرف بأمري قد يؤذيني، يغدرُ بي، يشلّني بأقل جهد.

لا، لا أستطيع الإفصاح الآن، سأضطرُّ إلى إخبارهما عاجلًا، أدري، لكن ليس بعد. أجل نحن معًا، نحن الثلاثة، لكن لسنا متَّحدين بعد، أنا وهاري لا نعرفُ زهرا جيدًا، ولا هي تعرفنا جيدًا، ولا أحد منا يعرفُ ما الذي سيحدثُ إن واجهنا عائقًا؛ أوهى عائقٌ عرقيّ قد يفرقنا بسهولة. أريد أن أثق فيهما، فأنا أحبهما، و... وهما كل ما تبقى لدي، لكني بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقت حتى أقرر، ليس بالأمر الهيّن ربطُ نفسك بأناسٍ آخرين.

«هل أنتِ بخير؟» سألتني زهرا.

أومأتُ.

«تبدينَ في حالٍ سيئة، كذلك فوجهكِ جامدٌ معظم الوقت ولا أعرفُ ما الذي تفكّرين به..».

«أفكّر فقط» أجبتها، «هناكَ الكثير للتفكير بشأنه».

النفَسُ الذي تنهّدتْهُ جاء أقرب إلى صفير، «أجل، أعرفُ، لكن أبقي عينيكِ مفتوحتين. إن استغرقتِ في أفكاركِ سيفوتكِ ما يجري أمام عينيكِ، وعلى الطرق السريعة يُقتَل الناسُ كل يوم».

# ١٦

**بذرةُ الأرض**
**متى ما تُلقَى على أرضٍ جديدة**
**لا بدّ أن تدركَ أولاً**
**أنها لا تعرفُ شيئًا.**

بذرةُ الأرض: كتابُ الأحياء

الإثنين، ٢ أغسطس ٢٠٢٧

(من اليوميات التي دونتها بالتفصيل في ٨ أغسطس)

إليك بعضٌ من الأشياء التي تعلمْتها اليوم:

المشيُ يؤلم. لم أكن مشيتُ في حياتي بما يكفي حتى أتعلم هذا، لكني أعرف الآن. لا أعني فقط تقرّحات القدم والبثر، والتي أصلًا نُعانيها، ما أعنيه، أنَّ بعد مضي الوقت كل شيء فيك سيؤلمكَ، ظهرُك وكتفاك سيتمنّيان هجرك إلى جسدٍ آخر، ولا شيء يخففُ

الألم سوى الراحة؛ ورغم انطلاقنا في وقتٍ متأخر، توقفْنا مرّتين حتى نرتاح، غادرنا الطريقَ السريع، واتجهنا صوب التلال حيث جلسنا بين الأجمات، شربنا الماء وتناولنا فواكه مجففةً ومكسرات، ثم عاودنا مسيرنا، فالنهار طويل في هذا الوقت من العام.

مصُّ نواة دراقٍ أو مشمش طوال اليوم يخففُ من إحساسك بالعطش، كذا أخبرتنا زهرا.

«حينما كنت طفلة» قالت لنا، «مرَّت عليّ أوقاتٌ كنت أضع حصىً صغيرة في فمي، أيّ شيء يهوّن عليَّ إحساسي بالسوء، لكن ما كانت سوى غشًّا، إن لم تشربْ ما يكفي من الماء، ستمتْ مهما حاولتَ التهوين على نفسك».

ثلاثتنا مشينا مع نوىً في أفواهنا بعد محطةِ توقفنا الأولى، وفعلا هوَّن علينا، صرنا نشرب فقط في محطاتِ توقفنا في التلال، فالوضع أكثر أمانًا هكذا.

وكذلك مع المخيّمات الباردة، فهي أكثر أمانًا من نار المخيم المبهجة. مع ذلك، أعددنا الليلة مُقامًا وتخندقْنا في جانب تل، وفي الحفرةِ أوقدنا نارًا. طهوتُ لنا خبز جوز البلوط مع المكسرات والفاكهة، وكم كانت شهية. عن قريب ستنفدُ منا وسنضطر إلى الاعتماد على الفاصولياء ودقيق الذرة والشوفان، أطعمة باهظة من المتاجر.

خبزُ جوز البلوط طعامٌ بيتوتيّ، والبيت راح.

إيقادُ النار مخالفٌ للقانون، ترى لهبها على كل التلال، لكنها

مخالفة للقانون. فكل شيء جاف والخطر دائمًا قائمٌ بأن تنسل نارٌ من مخيم وتلتهمُ في طريقها حيًّا أو حيَّين؛ سبق أن حدث. لكن من لا بيتَ له سيوقد النار، حتى مَن يعرفون مثلنا ما للنار أن تفعل سيوقدونها، فهي تمنحُ الطمأنينة، الطعام الساخن، والإحساس الكاذب بالأمان.

وبينما كنا نتناول الطعام -وحتى بعد انتهائنا- ما انفك أناسٌ ينزحون نحونا محاولين الانضمام إلينا، معظمهم غير مؤذ وسَهلٌ علينا التخلص منهم. ثلاثة ادَّعوا أنهم فقط يبغون الدفء؛ الشمس كانت ما تزال في السماء، حمراء في الأفق، والجو أبعد ما يكون عن البرودة.

ثلاثُ نسوة سألن إن كان فحلانِ مثلي وهاري بحاجةٍ إلى أكثر من امرأة واحدة، أحسبهن كنَّ يشعرْن بالبرد، فبالكاد تغطيهن ملابسهن، وكان غريبًا عليَّ التظاهر بأني رجل.

«هل لي أن أشوي هذه البطاطا في ناركم؟» سألَنا رجلٌ مسنٌّ، يرينا بطاطته الذاوية.

أعطيناه قبسًا من النار وصرفناه، ورحنا نراقبُ أين ذهب، فالشعلة لها أن تكون سلاحًا أو وسيلةَ إلهاءٍ إن كان له رفاقٌ مختبئون. من الجنون العيش هكذا، التشكيكُ حتى في العجَزة، محض جنون، لكننا في حاجة إلى البارانويا حتى نُبقي على حياتنا. اللعنة، هاري أراد دعوةَ المسن إلى الانضمام إلينا، تطلَّب الأمر اتحادي أنا وزهرا ضده حتى يدركَ أنَّ هذا لن يحدث؛ هاري وأنا عشنا حياتنا شبعيْن ومحميَّيْن في كنف أسرنا، نحن قويّا البنية ونتمتع بالصحة والعافية

ونلنا تعليمًا أعلى من معظم أقراننا، لكن هنا، نحن غبيّان، نتوق إلى وضع ثقتنا في الناس. أنا أحارب هذا التوق، لكن هاري لم يتعلّم ذلك بعد، ولاحقًا خضنا نقاشًا حول الأمر، بأصواتٍ خافتة، أقرب إلى الهمس.

«لا أحد مؤتمن» أخبرته زهرا، «مهما بدوا مثيرين للشفقة، في طرفة عين يسلبونكَ كل شيء ويتركونك عاريًا؛ الأطفالُ الصغار، هزيلون وجاحظو العيون، سيفرون بمالكَ ومائك وطعامك! أعرف ذلك! لأني اعتدتُ فعل ذلك بالناس، ولربما هؤلاء الناس ماتوا، لا أدري، لكن أنا نجوت».

هاري وأنا حدقنا فيها، فالقليلُ نعرفه عن حياتها، لكن بالنسبة لي، في تلك اللحظة، أخطر علامة استفهام كانت هاري.

«أنتَ قويٌّ وجريء» قلت له، «تظنُّ أنكَ قادرٌ على الاعتناء بنفسك هنا، ولربما تستطيع، لكن فكر بما سيصنعه بك جرحُ طعنةٍ أو عظمة مكسورة: إعاقة، موتٌ بطيء إما من الالتهاب أو الجوع، دون رعاية طبية، دون شيء».

نظر إليَّ وكأنه لم يعد يودُّ معرفتي «وماذا بعد؟» سألني، «هل الكل في نظركِ مذنب إلى أن تثبت براءته؟ ومذنب بماذا؟ وكيف لهم أن يثبتوا براءتهم لكِ؟».

«سحقًا لهم ولبراءتهم، لا يهمّونني في شيء» قالت زهرا، «دع كُلًّا يتدبر شؤونه بنفسه».

«هاري، عقلكَ ما زال في الحيّ» قلت له، «ما زلتَ تظن أن

وقوعك في الخطأ يماثل صراخَ أبيك في وجهكَ أو كسرك إصبعًا أو سنًّا، هنا وقوعك في الخطأ -خطأ واحد- يعني موتكَ، هل تذكر الرجلَ الذي رأيناه اليوم؟ ماذا لو كنا نحن من تعرضنا لما تعرض إليه؟».

كنا قد شاهدنا رجلًا يتعرّض للسرقة، رجلٌ سمين بعض الشيء، في الخامسة والثلاثين أو الأربعين، يتناول المكسّرات من كيسٍ ورقي أثناء سيره، تصرفٌ غير ذكي. صبيٌّ في الثانية أو الثالثة عشر انتشل كيس المكسرات وفرَّ بها، وبينما التهى الضحية بالصبي الصغير، ولدان أكبر منه عرقلاه، قطعوا أشرطةَ حقيبة ظهره، جرّوا الحقيبة عنه وفرّوا بها؛ الحادث بأسره وقع بمنتهى السرعة حدًّا استعصى على أحدٍ التدخل، هذا إن أردْنا، فلا أحد منا حاول. عدا الكدمات والكشوط -تلك الآلام البسيطة التي اعتدتُ تحملها كل يوم في الحيّ- فالضحية لم يتعرض لأذى جسدي، لكن مؤونته اختفت. إن كان له بيتٌ بالقرب من هنا ومؤونة إضافية، سيغدو على ما يرام، إن لم يكن، فلربما سبيله الوحيد إلى النجاة نهبُ شخصٍ آخر، إن كان بمقدوره السلب.

«هل نسيتَ؟» سألتُ هاري، «لا داع بنا إلى إيذاء أي شخص إلّا إن اضطرَّرنا إلى ذلك، لكن أبدًا لن نجرؤ على التخلي عن حرصنا، ليس باستطاعتنا الوثوق في الناس».

هزَّ هاري رأسه، «ماذا لو أني فكرتُ بعقليتكِ هذه وقت جررتُ ذاك الرجل عن زهرا؟».

أمسكتُ أعصابي، «أنت تعرفُ هاري أني لا أعني بكلامي ألّا نثق في بعضنا البعض أو نساعد بعضنا بعضًا، فنحن نعرفُ بعضنا، وقد أخذنا عهدًا على السفر معًا».

«لستُ واثقًا أننا نعرف بعضنا».

«أنا واثقة، ولا نطيقُ احتمال إنكارك، أنتَ لن تطيق احتماله».

حدَّق فيَّ.

«هنا، في العراء، إما تتأقلم مع محيطك أو تُقتَل»، قلت له، «واضحٌ وضوح الشمس!».

وها هو ينظر إليَّ الآن كما لو أني فعلًا غريبة، وبدوري نظرتُ إليه، آملة أني أعرفه كما ظننت. شابٌّ يملك عقلًا راجحًا وقلبًا شجاعًا، لكنه ببساطة رافضٌ للتغيير.

«هل تريدُ الانفصال عنَّا؟» سألته زهرا، «المضيّ في سبيلكَ بدوننا؟».

خفف من حدة تحديقه ونظر إليها، «لا، بالطبع لا، لكن، بحق الرب، لا أرى أنَّ علينا أيضًا التحولَ إلى حيوانات مفترسة».

«على نحوٍ ما علينا» أجبته، «نحن قطيع، ثلاثتنا معًا، وكل أولاء الناس ليسوا فيه، إن كنا قطيعًا جيدًا، وعملنا معًا، سنحظى بفرصة، وكن واثقًا أننا لسنا القطيعَ الوحيد هنا».

مال بظهره للوراء، على صخرةٍ، ومذهولًا قال، «ليس تنكركِ فقط بل حتى كلامكِ كلام فحل!».

كدتُ أضربه، ربما أنا وزهرا سنكونُ أفضل حالًا بدونه، لكن لا، تلك ليست الحقيقة، الأعدادُ مهمة، الصداقة مهمة، حقيقة وجودِ ذكوريّ بيننا مهمة.

«إياك أن تعيدَ فعلتك هذه» همستُ له، أميل أقرب نحوه «إياك أن تقول هذا مرةً أخرى، فهناك الكثير من الناس في التلال؛ ولا تعرفُ متى كان أحدهم يصغي إليك. افضح أمري وسيضعف موقفك».

كلامي أثَّر فيه، «آسف» قال معتذرًا.

«الوضعُ سيء هنا» قالت زهرا، «لكن معظم الناس ينجون إن التزموا الحذر، أناسٌ أضعف منَّا ينجون إن التزموا الحذر».

ابتسم هاري ابتسامةً شاحبة: «منذ الآن أمقت هذا العالم».

«ليس بهذا السوء إن تعاضدنا».

حوَّل نظره منها إليَّ ثم عاد إليها، ابتسمَ لها وأومأ، وخطر لي أنه معجبٌ بها، منجذبٌ لها، لاحقًا قد يخلقُ لها مشكلة، فهي امرأةٌ جميلة، وأبدًا لن أكون أنا امرأةً جميلة، واقعٌ لا يضايقني، إذ دومًا ما بدا أنَّ الفتيان يستلطفونني، لكنَّ جمال زهرا يأسرُ الاهتمام الذكوري، إن هي وهاري باتا معًا، فلربما سينتهي بها الحال تنوء بحِمْلين ثقيلين في طريقها شمالًا.

كنت مستغرقةً في أفكاري حول كليهما حين وكزتني زهرا بقدمها.

رجلان ضخمان، قذرا الهيئة، كانا واقفَين على مقربة منَّا، يراقبان ثلاثتنا، أعينهما على زهرا تحديدًا.

نهضتُ، وشعرت بكليهما ينهضان معي، يحيطان بي. الرجلان كانا على مقربةٍ شديدة منا، وقد تعمدا القرب منا، لدى نهوضي، وضعت يدي على المسدس.

«هيه؟ ما الذي تريدانه؟».

«لا شيء» أحدُهما قال، يبتسم لزهرا. كلا الرجلينِ يرتديان جرابًا يحمل سكينًا كبيرًا، وكلٌّ راح يتحسس سكينه بأصابعه.

سحبتُ المسدس، «انصرفا من هنا».

الابتسامة اختفت عن وجهيهما: «وإلا ماذا؟ ستطلقُ النار علينا فقط لوقوفنا هنا؟» الثرثارُ فيهما من أجابني.

وضعتُ إبهامي على زر الأمان. سأطلق النارَ على الثرثار، القائد، والآخر سيفرّ. هو أصلًا يريد الفرار، فعيناه محدّقتان، فاغر الفاه، في المسدس. لحظة أنهار، سيكون قد ولّى هاربًا.

«هيه، لا بأس!» رفعَ الثرثار يديه، يتراجع للوراء: «هوِّن عليك صاح».

تركتُهما يمضيان، ولكان خيرًا لو أني أطلقتُ النار عليهما، فأنا أخشى أولاء الرجال الباحثين عن المشاكل، عن الضحايا، لكن يبدو أنَّ ليس بيدي إطلاق النار على أحدهم فقط لأني خائفة منه. قتلتُ رجلًا ليلة الحريق، وبالكاد فكرتُ بالأمر، لكن هذا أمرٌ مختلف، شبيهٌ بما قاله هاري عن السرقة؛ قضيت حياتي كلها أسمع، «لا تقتل... لا تقتل»، لكن متى ما اضطررتَ، ستقتل؛ أتساءل ما الذي

كان سيقوله بابا، لكن من الناحية الأخرى، أليس هو من علَّمني إطلاق النار.

«علينا أن نبقى متيقظين الليلة» قلت لهما. نظرتُ إلى هاري وسعدتُ برؤية ملامحه التي على الأرجح كانت ملامحي قبل لحظة: غاضبة وقلقة: «سنتناوبُ ساعتك ومسدسي» أخبرته: «ثلاث ساعات لكل حارس».

«كنتِ ستطلقين النار، أليسَ كذلك؟» سألني، بدا سؤالًا حقيقيًا.

أومأت: «لفعلتها أنت، أليس كذلك؟».

«أجل، ما كنتُ لأرغب في ذلك، لكن هذين الشابّين كانا يبحثان عن المتعة، مفهومهما عن المتعة» ورمقَ زهرا. هو سبق أن جرَّ رجلًا عنها، وتلقّى الضرب على فعلته. لربما التهديدُ الواضح ضدها سيُبقيه يقظًا، أيّ شيء يبقيه يقظًا لن يكونَ أبدًا بالأمر السيء.

نظرتُ إلى زهرا، وأبقيت صوتي خافتًا: «لم يسبقْ لك قط أن ذهبتِ معنا في تمارين الرماية، لذا عليَّ أن أسألكِ، هل تعرفين استخدامه؟».

«أجل» قالت لي، «كان ريتشارد يدع أطفاله الكبار يذهبون معكم، وما كان ليدعني. لكن كنتُ راميةً ماهرة، قبل أن يشتريني».

وها ماضيها الغريب يطفو من جديد، يشتتُ انتباهي للحظة. كنتُ أنوي سؤالها عن تكلفة شراء إنسان اليوم، فهي بيعت على يد أمّها إلى شخص ما كان سوى رجلٍ غريب، ولربما كان مجنونًا

ومسعورًا، وحشًا؛ أبي اعتاد القلقَ حول عودة العبودية من جديد، أو عبودية الدَّيْن، أتراه كان يعرف بهذا الواقع؟ لا أظن.

«هل استخدمتِ مسدسًا كهذا من قبل؟» وأعدتُ زر الأمان مكانه قبل تسليمه لها.

«أوه، أجل» وراحت تتفحّصه، «يروق لي هذا النوع، ثقيل، لكن إن أطلقت النار به على أحدهم سيسقط صريعًا» سحبتْ المشطَ، تفحّصتْه، أدخلته بقوة، وأعادته إليَّ، «لطالما تمنيتُ التمرن معكم جميعًا» قالت لي، «كانت أمنيتي».

وبلا مقدمات، لوعةٌ من الوحدة قبضتْ عليّ، على حيِّنا المحترق، أشبه بألمٍ جسديّ. كنتُ أتشوّق يائسةً للخروج من الحيّ، لكني توقعته سيبقى، بالطبع ما كان سيبقى على حاله، لكن كان سينجو؛ الآن وبعد هلاكه، تمرُّ عليَّ لحظاتٌ لا يسعني فيها تخيُّل نجاتي لولاه.

«أخلدا إلى النوم» قلتُ لهما، «فأنا متوترةٌ جدًا على النوم الآن، سأتولى نوبة الحراسة الأولى».

«علينا أولًا جمع حطبٍ أكثر للنار» قال هاري، «فقد بدأتْ تخمد».

«دعها تخمد» قلتُ له، «فهي بقعةُ الضوء التي تكشفنا وتشوش رؤيتَنا الليلية، بإمكان الآخرين رؤيتنا قبل أن نراهم بوقت طويل».

«ونجلس في هذه الظلمة» أجابني. ما كان اعتراضًا، في أسوأ

صوره كان قبولًا على مضض، «سأتولى النوبة بعدكِ» قال لي بينما راح يستلقي في كيس النوم ويُغلق الزمام ويجمعُ متاعه وسادةً له؛ بعد تردد، خلع ساعة يده وأعطاني إياها «كانت هديةً من أمي».

«أنت تعرفُ أني سأحرص عليها».

أومأ، وقال لي، «كوني حذرة» وأغمضَ عينيه.

ارتديتُ الساعة، شددتُ طرف كمّي المطاطي أعلاها حتى لا يفضحنا توهّج شاشتها، وأسندتُ ظهري على الصخرة، مقابل التل، حتى أدونَ ملاحظاتٍ سريعةً. فما دام ثمة ضوء طبيعي، كنت سأستغله كي أراقبَ وأكتب.

كانت زهرا تراقبُني لبرهة، قبل أن تمدَّ يدها وتضعها على ذراعي.

«علميني كيف أفعل ذلك» قالت هامسةً.

نظرتُ إليها، إذ لم أفهم ما تعنيه.

«علميني القراءةَ والكتابة».

فوجئتُ، لكن علام تفاجئي، فأين ـ في حياةٍ كالتي عاشتها ـ سيكون هناك وقتٌ أو مال للمدرسة؟ وما إن اشتراها ريتشارد، ما كانت زوجتاه الغيورتان ستعلمانها.

«كان يجدر بكِ القدوم إلى مدرستنا آنذاك في الحيّ، لكُنّا أعددنا دروسًا خاصة لك».

«ريتشارد لم يسمح لي، أخبرني أني أعرف ما يكفيه».

تأوّهتُ مستنكرة: «سأعلمكِ، سنبدأ من صباح الغد إن أردتِ».

«حسنٌ» ابتسمتْ لي ابتسامةً غريبة، وراحت ترتب حقيبة نومها ومتاعها القليل الموجود في صرة غطاء وسادتي. استلقتْ في حقيبتها واضجعتْ على جانبها تجاهي: «لم أظن أني سأعجبُ بك يومًا» قالت لي، «ابنةُ الواعظ، تحوم في كل مكان، تدرِّس، تتفلسفُ على الجميع، تدسُّ أنفها اللعين في كل شيء، لكنك لستِ سيئة، لست سيئة أبدًا».

من جهتي استحال التفاجؤ استمتاعًا: «ولا أنتِ».

«لم أرقْ لكِ؟» كان دورها حتى تتفاجأ.

«كنتِ أجمل امرأةٍ في الحيّ. لا، لم أكن مولعةً بك، وأتذكر قبل عامين أو ثلاثة حين بذلتِ أقصى جهدكِ حتى تدفعيني إلى التقيؤ بينما كنت أتعلمُ سلخ وتنظيف الأرانب».

«ولم عساكِ تودّين تعلم شيء كهذا؟ الدماء، الأحشاء، الدود، حينها قلت في نفسي: ها هي تعيد الكرّة، تدسُّ أنفها فيما لا يعنيها، فلتنلْ جزاءها إذن!».

«أردتُ أن أعرفَ أنَّ بيدي فعل ذلك، التعامل مع حيوان ميت، سلخه، تقطيعه، دبغ جلده، أردتُ معرفةَ الطريقة، وأنَّ بيدي فعلها دون إحساسٍ بالغثيان».

«لماذا؟».

«لأني ظننت اليوم سيأتي حين أحتاجُ هذه المعرفة، ولربما سنحتاجُها

الآن ونحن هنا في العراء، السبب ذاته الذي لأجله أعددتُ حقيبة طوارئ واحتفظتُ بها حيث يسهل عليَّ التقاطها».

«تساءلتُ حول ذلك، حول امتلاكك كل تلك الأغراض من البيت، أعني، في البداية ظننتك أحضرتِها كلها معكِ حين عدتِ إلى الحيّ، لكن لا، كنتِ مستعدةً لهذا البلاء، رأيتِه قادمًا علينا».

«لا» هززتُ رأسي، أعود بذاكرتي: «لا أحد كان مستعدًا لما حلَّ علينا، لكن ظننت أنَّ شيئًا سيحدثُ يومًا ما، لم أعرفْ إلى أي حد سيكون سيئًا أو متى سيحل، لكن كل شيء كان ينحدر سوءًا، المناخ، الاقتصاد، الجريمة، المخدرات؛ لم أصدق أنَّه سيُسْمَح لنا بمواصلة حياتنا داخل الأسوار، في هيئتنا النظيفة الشبعانة الثرية في أعين الجياع والعطشَى والمشردين والعاطلين والأناس القذرين خارج السور».

عادت واستدارت، تستلقي على ظهرها تحدقُ إلى النجوم أعلاها: «كان يجدر بي أنا رؤيته قادمًا» قالت لي، «لكن لم أفعلْ، فتلك الأسوار كبيرةٌ وشاهقة والكل كان يمتلك مسدسًا وخفرٌ كلَّ ليلة، ظننتُ، ظننْتنا أقوياء».

وضعتُ دفتري وقلمي جانبًا، جلستُ على حقيبة نومي ووضعتُ صرة وسادتي خلفي. وسادتي كانت متكتّلة وغير مريحة، أردتُها غير مريحة، فقد كنتُ مرهقةً، كل عظْمة وعضلةٍ في جسدي تؤلمني، إن منحت نفسي شيئًا من الراحة، سأغفو فورًا.

الشمسُ آفلةٌ نحو المغيب، ونارنا خمدتْ عدا جمراتٍ قليلة مشتعلة.

سحبت المسدس ووضعته على حجْري، فإن احتجته، سأحتاجه سريعًا، لسنا أقوياء بعد للنجاة من البطء والأخطاء الغبية.

التزمتُ مكاني ثلاث ساعاتٍ شاقة ومرعبة، لا شيء حلَّ بي، لكني سمعتُ ورأيت أشياء أخرى تحدث. كان هناك أناسٌ يتحركونَ في التلال، أخيلتهم تجري أو تمشي على قممها، رأيتُ جماعات وأفرادًا، ومرتين رأيتُ كلابًا على بُعد، لكنها مُقلقة. سمعتُ إطلاق أعيرةٍ نارية كثيرة، طلقاتٍ مفردة أو رصاص منهمر من رشاشٍ آلي. طلقات الرشاش والكلاب كان أكثر ما أقلقني، أرعبني، فالمسدس لا قيمةَ له أمام مسدسٍ آلي أو رشاش، والكلابُ قد لا تعرف ما يكفي كي تخافَ المسدسات، هل سيواصلُ قطيعٌ منها الاقترابَ إن أطلقت النارَ على كلبين أو ثلاثة؟ جلستُ أتصبب عرقًا باردًا، أتوق إلى الأسوار، أو على الأقل إلى مشطٍ آخر أو مشطين من الذخيرة.

الوقت قاربَ منتصفَ الليل حين أيقظتُ هاري، ناولتُه المسدس والساعة، وحرصت على إقلاقه قدرَ المستطاع بتحذيره من الكلابِ والأعيرة النارية والناس الكُثر الذين ما انفكوا يحومون طوالَ الليل؛ بدا لي متيقظًا وحذرًا بما يكفي حين أخذتُ دوري في الاستلقاء.

فورًا نمتُ متألمةً ومرهقة، وجدتُ الأرض الصلبة فراشًا مرحّبًا كما كان فراشي في البيت.

صرخةٌ أيقظتْني، ثم سمعتُ إطلاق نار، أعيرة نارية منفردة، مدويّة وقريبة، هاري؟

شيءٌ ما وقع عليّ قبل أن أتمكّنَ من الخروج من حقيبة نومي،

شيءٌ كبيرٌ وثقيل قطع أنفاسي، صارعتُ حتى أبعده عني، مدركةً أنه إنسان ميتٌ أو مغمًى عليه. وبينما رحت أدفعهُ عني شعرت بلحيتهِ الخشنة وشعره الطويل، وأدركتُ أنه رجل غريب وليس هاري.

سمعتُ تدافعًا وتخبطًا قربي، نخيرًا وصوت لكمات، قتال. كان لي أن أراهما في الظلمة، رجلان يتصارعانِ على الأرض، الرجل في الأسفل كان هاري.

كان يعاركُ أحدهم حول المسدس، وكان يخسرُ، الفوهة كانت مصوبة نحوه.

ما كنتُ لأسمح بحدوث ذلك، ما كنت لأسمح بخسارتنا المسدسَ ولا هاري، قبضت على حجرٍ صلبٍ من حفرة نارنا، عضضتُ على نواجذي وهويتُ بها -بكل قوتي- على مؤخر رأس المعتدي.

لم يكن أسوأ ألمٍ ينتابني إثر التقمُّص، لكن كاد أن يكون. ما إن سددتُ تلك الضربة الواحدة بتُّ عاجزة، لا قيمة لي في العراك، وأظنني فقدتُ وعْيي لبرهة.

ثم ظهرت زهرا من مكانٍ ما، تتحسّسني، تحاولُ رؤيتي، كانت تبحث عن جرح، وبالطبع لم تجد.

جلستُ وأبعدتُها عني، ورأيت هاري.

«هل ماتا؟» سألته.

«لا تكترثي لهما» أجابني، «هل أنتِ على ما يرام؟».

نهضتُ، أترنَّح من بقايا قوة الصدمة، انتابني الغثيانُ والدوار ورأسي كان يؤلمني. قبل أيام عدة أشعرني هاري بذات الألم وكلانا تعافى، فهل هذا يعني أنَّ الرجل الذي ضربته سيتعافى؟

تفحّصته، كان ما يزال حيًّا، فاقدًا للوعي، لا يشعر بأي ألم، شعوري ما كان سوى ردة فعلٍ على الضربة التي سددتها.

«الآخر ميت» قال هاري، «أما هذا.. أعني ..تركتِ حفرةً في مؤخرِ رأسه، ولا أدري كيف هو حيٌّ حتى الآن».

«أوه، لا» قلتُ هامسة، «اللعنة» ثم قلت لهاري: «ناولني المسدس».

«لماذا؟» سألني.

كانت أصابعي قد عثرت على الدم والجمجمة المكسورة، ناعمةً ولبيّة في مؤخر رأس الرجل الغريب. هاري كان محقًّا، كان يفترضُ به أن يكون ميتًا.

«ناولني المسدس» كررتُ عليه، ومددت يدي الملطخة بالدم، «إلا إن كنتَ تريد إنهاء الأمر بنفسك».

«لا...لا يحق لكِ قتله، لا..».

«آملُ أنكَ ستجد الشجاعةَ لإطلاق النار عليّ إن انتهَى الحال بي هكذا، هنا في العراء بلا رعاية طبية. إما نطلقُ عليه النار، أو نتركُه هكذا، برأيك كم من الوقتِ سيمضي عليه حتى يلقى حتفه؟».

«لربما لن يموت».

توجهتُ نحو حقيبتي، أصارع حتى أتحركَ دون تقيؤ. سحبتها بعيدًا عن الرجل الميت، نقّبت فيها، وعثرتُ على سكّيني، كانت سكّينَ جيب مشحوذة، حادةً وقوية، نقرتها ونحرتُ عنق الرجل الغائب عن الوعي.

لم أشعر بالأمان إلّا مع توقف سيل الدم، قلبُ الرجل لفظ الحياة على الأرض مع آخر قطرة دم، ما كان ليستعيد وعيه ويورطني في أساه.

لكن، بالطبع، كنتُ أبعد ما يكون عن الإحساس بالأمان. لربما آخر شخصين من حياتي القديمة على وشك هجري، فقد صدمتُهما وروَّعتهما، وما كنتُ لألومهما إن تركاني.

«جرِّداهما من ملابسهما» قلت لهما، «خذا كل ما يملكان، ثم سنضعُهما عند شجيرات البلوط أسفل التل حيث جمعنا الحطب».

فتشتُ الرجل الذي قتلت، عثرتُ على مبلغٍ ضئيل من المال في جيب بنطاله ومبلغًا أكبرَ في جوربه الأيمن، أعواد ثقاب، علبة لوز، علبة لحم مجفف، علبة حبوب صغيرة دائرية وحمراء، لم أعثر على سكّين ولا على أيّ سلاح آخر، إذن لم يكن هذا أحد الرجلين اللذين اقتربا منّا أول الليل. لم أظن ذلك، فلا أحد منهما كان طويلَ الشعر، هذان كانا.

أعدتُ الحبوب إلى الجيب من حيث أخذتها، واحتفظتُ بكل شيء آخر. المال سيساعد على نجاتنا، ولربما الطعام صالحٌ للأكل أو لا، سأقررُ هذا متى ما تسنى لي رؤيته بوضوح.

التفتُّ لأرى ما الذي يفعلانه، وارتحتُ لرؤيتهما يجردان الجثة الأخرى؛ هاري قلَبها وراح يراقب زهرا تنقب في الملابس، فردَتي الحذاء، الجوارب والشعر، تنقيبها كان أكثر تمحيصًا مني، ومن دون أي إحساس بالغثيان، سحبتْ ملابسَ الرجل وتفحَّصتْ جيوبها المدهنة والدرز والحواشي، انتابني إحساسٌ أنها ليست مرَّتها الأولى.

«مال وطعام وسكّين» همست أخيرًا.

«الآخر لا سكّين لديه» قلتُ رابضةً جانبه، «هاري، ماذا...».

«كانت لديه سكين» همس هاري، «استلَّها وقت صرختُ عليهما بأن يكفَّا عن الاقتراب، أظنَّها على الأرض حوالينا، لكن أولًا فلننقل هذين الاثنين إلى شجيرات البلوط».

«أنت وأنا ننقلهما، لكن أولًا ناول زهرا المسدس، هي ستحرسنا».

كنت سعيدةً لرؤيته يسلّمها المسدس حالا بلا اعتراض، بينما لم يُبدِ أية حركة حين طلبته أنا منه، لكن ذاك كان ظرفًا مختلفًا.

نقلنا الجثتينِ للأسفلِ نحو الشجيرات ودحرجناهما حتى حجبناهما عن الأنظار، ثم أهلْنا الترابَ بأقدامنا على كل الدم الذي رأيناه والبول الذي انسربَ من أحد الرجلين.

ما كان ذلك كافيًا، قررْنا بالتراضي نقل مخيّمنا. لم يعْنِ أكثر من جمع صررنا وحقائب نومنا وحملها نحو أقرب حيدٍ خفيض بعيدًا عن مدى التل حيث كنا.

إن أقمتَ مخيمكَ على تلّ بين أي حيدَين من الحيود الكثيرة

الشبيهة بالأضلاع، فستحظَى -تقريبًا- بخصوصية غرفةٍ كبيرة بثلاثة جدران وبلا سقف، فقط قمة التل أو قمة الحيد ستكونُ غير محصنة، لكن إن أقمتَ مخيمك على الحيد فسيلاحظك عدد أكبر من الناس. اخترنا بقعةٍ بين حيدين، واستقررْنا؛ جلسنا صامتين لبعض الوقت، شعرتُ بالإقصاء، كنت مدركةً أنَّ عليَّ قول شيء، وكنت خائفةً أنَّ ما أقوله لن ينفع في شيء، على الأرجح سيتركانني، بداعي الاشمئزاز، عدم الثقة، الخوف، سيقرران أنهما لن يقدرا على مواصلة الرحلة معي، خيرٌ لي محاولة استباق خطوتهما.

«سأخبرُكُما شيئًا عن نفسي» قلت لهما، «لا أعرفُ إن كان سيساعدُكما على فهمي، لكن لا بد أن أخبرَكُما، من حقكما أن تعرفا».

وفي همسٍ خافت، أخبرتُهما عن أمي -أمي البيولوجية- ومتلازمة فرط التقمص.

ما إن انتهيت، حتى خيَّم صمتٌ طويلٌ آخر، ثم تكلمتْ زهرا، وجفلتُ على وقع صوتها العذب:

«إذن حين ضربتِ ذاك الرجل» قالت لي، «كنتِ كأنكِ تضربين نفسك؟».

«لا» أخبرتها، «لا أُصاب بأي ضرر، أشعر بالألم فقط».

«لكن، أعني أن الأمر بدا وكأنكِ ضربت نفسك».

أومأت: «تقريبًا، حين كنتُ طفلة، كنتُ أنزف تحت جلدي

متى ما آذيتُ أحدًا أو رأيتُ أحدًا يتعرض للأذى، لم تنتبْني تلك الحالة منذ أعوام».

«لكن إن كانوا غائبينَ عن الوعي أو موتى، فلن تشعري بأي شيء؟».

«صحيح».

«إذن لهذا قتلتِ الرجل؟».

«قتلته لأنه كان تهديدًا لنا، لي أنا بالذات، لكن لكما أيضًا، فما عسانا كنا سنفعلُ بشأنه؟ نهجره للذباب والنملِ والكلاب؟ لربما أنتِ قادرة على ذلك، لكن هاري؟ هل كان بيدنا البقاء معه؟ وحتّام؟ ولأيةِ غاية؟ أو هل كنا سنجرؤ على استدعاء شرطيّ والإبلاغ عن رؤية رجلٍ تعرّض للأذى من دونَ توريط أنفسنا؛ الشرطةُ لا تثق في الناس، ولحرص الشرطي على التحقيق معنا، ولربما توجيهِ التهمة إلينا بالتهجّم على الرجل وقتل صديقه»، استدرتُ لأنظرَ نحو هاري الذي لم يقلْ كلمة حتى الآن: «ما كنتَ ستفعلُ؟».

«لا أدري» قال لي في نبرةِ استهجان، «لكن أعرفُ أني ما كنتُ لأفعل ما فعلتهِ أنتِ».

«وما كنتُ لأطلبَ منكَ فعلَ ذلك» قلت له، «لم أطلبْ منكَ، لكن، هاري، ثق أني كنت سأفعلُها مرةً أخرى، وعلى الأرجح سأضطرُّ إلى فعلها مرةً أخرى، لهذا أخبرتكما بما أعانيه» رمقتُ زهرا، «آسفة أني لم أخبركما من قبل، أعرفُ أنه كان يجدر بي، لكن

الحديث عن هذا صعب، صعبٌ جدًّا، لم يسبقْ أن أخبرتُ أحدًا به من قبل، والآن..» أخذتُ نفسًا عميقًا، «والآن يعودُ الأمر لكما».

«ما الذي تعنينه؟» سألني بنبرةٍ ملحّة.

نظرتُ إليه، متمنيةً لو كانت بيدي رؤية ملامحه بما يكفي حتى أدركَ إن كان حقًّا يريد جوابًا على سؤاله. لم أظن ذلك، لذا قررتُ تجاهله.

«ما رأيكُما؟» عيني الآن على زهرا.

لدقيقةٍ لا أحد منهما قال شيئًا، ثم بدأتْ زهرا الكلام بصوتها الناعم عن أشياء فظيعة، بعد لحظةٍ شعرتُ وكأنها لم تكن فعلًا تحادثنا.

«ماما كانت مدمنةَ مخدرات أيضًا، اللعنة، حيث وُلدْتُ كلّ الأمهات مدمنات، يبعن أجسادهنَّ مقابل مخدّر، وطوال الوقت يُنجبن ويُنجبن، ويرمينَ بأطفالهنّ في القمامة متى ماتوا؛ معظم الرضّع يموتون إما بسبب المخدرات أو الحوادث أو الجوع أو الهجْر لساعات طويلة، أو من المرض، فهم مرضى على الدوام، بعضهم يولد مريضًا؛ التقرّحاتُ على سائر أجسادهم أو أشياء كبيرة في أعينهم، أورام، أو مبتوري الساقين أو تنتابهم نوباتُ صرعٍ أو يعانون صعوبةً في التنفس؛ كلُّ ما تتخيلين من أمراضٍ وعاهات. أما الناجي من الأمراض سيعيشُ غبيًّا بلا عقل، عاجزًا عن التفكير، عاجزًا عن التعلم؛ في التاسعة أو العاشرة من عمره جالسٌ في زاويةٍ لساعات ويتبوّل على نفسه، يهزُّ جسده أمامًا وخلفًا، اللعابُ يسيلُ منه على ذقنه؛ والكثير من الأطفال على شاكلة هذا الطفل».

تناولتْ يدي وأمسكتْ بها: «لا خطبَ بك لورن، لا داعيَ للقلق على الإطلاق، فذاك الباراسيتو ليس سوى مخدّر تافه، حليب أطفال».

كيف لم أفكر يومًا بالتعرف عليها حينما كنا في الحيّ؟ عانقتها، بدت متفاجئة، ثم بادلتني العناق.

كلتانا نظرْنا نحو هاري.

ظلَّ جالسًا في مكانه، قربنا، لكن بعيدًا عنا، بعيدًا عني، «وما كنتِ ستفعلين؟» سألني. «إن كان ذاك الرجل مصابًا فقط بكسْرٍ في ذراعه أو ساقه؟».

تأوّهتُ، إذ تذكّرتُ ذاك الإحساس بالألم، فأنا أعرفُ أكثر مما أتمنى عن آلام الكسر، «أحسبُني كنتُ سأتركه وشأنه» أجبته، «لكني موقنةٌ أني سأفعلها نادمةً، وسيمر وقت طويل قبل الكف عن الالتفات خلفي».

«إذن لن تقتليه حتى تتخلصي من الألم؟».

«لم أقتلْ أحدًا في الحيّ حتى أتخلصَ من ألمي».

«لكن مع الغريب..».

«أخبرتكَ ما الذي سأفعله».

«وماذا إن كُسرتْ ذراعي؟».

«إذن لن أنفعكَ في شيء، لأني أنا أيضًا سأعاني من ذراعي،

لكن إن تعاونَّا، سيكون لكلّ منا ذراعان صالحتان» تنهدتُ وقلت له، «أنا وأنتَ هاري، نشأنا معًا، وتعرفني جيدًا، تعرفُ أي نوعٍ من الأشخاص أنا. قد أخذلك، لكن ما دام الأمر باستطاعتي، فلن أخونك».

«ظننتُني أعرفكِ».

تناولتُ يديه، ونظرتُ إلى أصابعه الشاحبة، الجلفة، تلك الأصابع تتمتع بالقوة، أعرف، لكني ما رأيته قط يمارس قوّتها في التنمّر على الآخرين. الأمر يستحق المحاولة، هاري يستحق.

«لا أحد هو حقًّا من نظنه، هذه عاقبةُ افتقارنا إلى قوة التخاطر، لكنك حتى الآن وضعتَ ثقتكَ بي، وأنا وضعتُ ثقتي بك، حياتي وضعتُها بين يديك، فما أنت فاعلٌ الآن؟».

هل كان سيهجرُني الآن بداعي «عاهتي» بدلًا من هجري إياه مستقبلًا بداعي ذراعٍ مكسورة محتملة. وفي دواخلي، من ابنٍ بكر إلى آخر، قلت لهاري: هل تراه تصرفًا مسؤولا منك؟

سحب يديه قائلاً: «حسنٌ، كنتُ أعرف مذ كنا في الحيّ أنكِ عاهرة متلاعبة».

زهرا كبتتْ ضحكتها وأنا فوجئتُ، لم يسبق لي قط أن سمعته ينطق تلك الكلمة. أسمعها الآن دلالةً على إحباطه، فهو لم ينوِ الرحيل، إنه آخر قطعة من موطني لستُ مضطرة حتى الآن للتخلي عنها، وما شعوره حول ذلك؟ هل هو غاضبٌ مني لأني أوشكت على تفريق مجموعتنا؟ إن كان فهو محقٌّ في غضبه.

«لا أفهم كيف استطعتِ الادعاء كل ذاك الوقت، كيف أخفيتِ تقمّصكِ عن الجميع؟».

«أبي مَن علّمني كيف أخفيه» أجبته، «وكان محقًّا، ففي هذا العالم لا مكان للمنغلقين في بيوتهم، المذعورين، الحساسين، وهذا ما كنتُ سأغدو عليه إن عرف الجميع بحالتي، كل هؤلاء الأطفال مثلًا، فالأطفال الصغارُ لا يرحمون، أم تُراكَ لم تلاحظ ذلك؟».

«لكن لا بد أنَّ إخوتك كانوا على علم».

«أبي غرس فيهم مخافةَ الرب إن زلَّ أحدهم وتكلم، كان قادرًا على إخافتنا جميعًا. على حد علمي، لم يقل أيٌّ من إخوتي شيئًا لأحد، لكن كيث اعتاد أن يمازحني بحيله».

«إذن زيفت مشاعركِ أمامنا جميعًا، يا لك من ممثلةٍ مذهلة».

«كنت مجبرةً على التصرف وكأني طبيعية، فأبي حاول إقناعي أني طبيعية، كان مخطئًا بشأن ذلك، لكني سعيدة أنه علمني».

«ولربما أنتِ طبيعية، أعني ما دام الألم ليس حقيقيًّا، فلربما..».

«لربما هذا التقمص ليس سوى خيالٍ في عقلي؟ بالطبع هو كذلك! لكن ليس باستطاعتي طردُه مني، صدقني، لا شيء أحبُّ إلى قلبي من طرده».

صمتٌ طويلٌ خيَّم علينا، ثم سألني: «وما الذي تكتبينه في دفتركِ كل ليلة؟» استطرادٌ مثيرٌ للاهتمام.

«خواطري» أجبته، «أحداثُ يومي، مشاعري».

«أمور لا يسعكِ الحديث عنها؟» سألني، «أمورٌ مهمة لكِ؟».

«أجل».

«إذن دعيني أقرأ شيئًا، دعيني أعرفُ شيئًا عن نفسك التي تُخفين، أشعر وكأنكِ... وكأنكِ كذبة، لا أعرفكِ، أريني شيئًا حقيقيًّا عنك».

يا له من طلب! أو هل تُراها مطالبة؟ لدفعتُ له مالًا مقابل قراءته واستيعابه مقاطع **بذرة الأرض** في يومياتي، لكن لا بد من التمهيد، إن قرأ المقطع الخطأ فقد تزيد المسافة بيننا.

«ما تطلبه مني مخاطرة، لكن حسنٌ، سأريك شيئًا مما كتبتُ، فأنا أرغب بذلك. هذه أيضًا مرةٌ أولى في حياتي. كل ما أطلبه منك قراءةُ المقطع بصوتٍ عال حتى تسمعه زهرا. سأريك مع أول بزوغ الضوء».

ومع أول بزوغ الضوء، أريته هذا:

**كلُّ شيءٍ تلمسه**

**تغيّره.**

**كل شيءٍ تغيّره**

**يغيّرك.**

**الحقيقةُ الوحيدةُ الثابتة**

**التغير.**

**الربُّ إلهُنا**

**هو التغير.**

العام الماضي اخترتُ هذه الآيات حتى أستهلَّ بها الصفحة الأولى من السفْر الأول لـ **بذرة الأرض: كتاب الأحياء**، هذه الأسطر تقولُ كل شيء، الحقيقة بأكملها!

لما تخيلته يومًا يطلبها مني.

ينبغي بي التزام الحذر.

# ١٧

**اعتنقوا الاختلافَ.**

**اتحدوا –**

**وإلاّ تفرَّقتم،**

**نُهِبْتم،**

**استُعبِدْتم،**

**قُتِلتم،**

**على يد من يرونكم فريستَهم.**

**اعتنقوا الاختلاف**

**وإلا هلكتم.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

الثلاثاء، ٣ أغسطس ٢٠٢٧

(من اليوميات التي دوّنتها بالتفصيل في ٨ أغسطس)

ثمة حريقٌ كبيرٌ يندلع في التلالِ على شرقنا، في البدء لم نر منه سوى عمودِ دخان داكن وهزيل يتصاعد نحو السماء الصافية،

والآن استحال هائلًا. تلٌّ أو تلاَّن؟ مبانٍ عدة؟ بيوتٌ كثيرة؟ أو حيًّنا من جديد؟

أبقينا أنظارنا عليه، ثم أشحْنا بوجوهنا. أناسٌ آخرون يموتون، يفقدون عوائلهم، بيوتهم. حتى حين تجاوزناه لدى سيرنا، التفتْنا خلفًا كي نراه.

هل هذه أيضًا فعلة الوجوه المصبوغة؟ زهرا كانت تبكي لدى سيرها، تلعنُ في صوتٍ رهيفٍ ناعم حدّ أنني بالكاد سمعتُ القليل من كلماتها المريرة.

في وقتٍ أبكر اليوم غادرْنا الطريق السريع ١١٨ كي نبحث عن الطريق السريع ٢٣، وأخيرًا وجدناه. على أحد جانبينا برِّيةٌ معشوشبة وعلى الجانب الآخر أحياء سكنية. لا يسعنا رؤية الحريق ذاته الآن، فقد تجاوزناه، وقطعنا طريقًا بعيدًا عنه، تفصلنا عنه التلال مع مضيّنا جنوبًا نحو الساحل، لكن كان بيدنا رؤية الدخان. لم نتوقف عن المسير إلا حين استحالت الأجواءُ شبه حالكة ونال منا الجوع والإرهاق. خيّمنا بعيدًا عن الطريق السريع، على جانب البرِّية، بعيدًا عن الأنظار، لكن ليس بعيدًا عن أصوات قطعان الناس المرتحلة. أظننا سنسمعُ هذا الصوت على مدار رحلتنا سواء كنا سنقفُ في شمال كاليفورنيا أو نواصل المسير حتى كندا. أناسٌ كثر يحدوهم الأمل للعيش حيث لا تزالُ السماء تمطر كل عام، والأميُّ قد يحظَى بوظيفة مقابل مال بدلًا عن الفاصولياء والماء والبطاطس، ولربما رقعةُ أرضية في غرفة ينام عليها.

لكن الحريق يأسر انتباهنا، لربما كان حادثًا، ولربما لا، أيًّا يكن فالناسُ الآن يخسرون ما هم عاجزون عن تعويضه، وحتى إن نجوا، فالتأمينُ لا يساوي الكثير هذه الأيام.

الناس على الطريق السريع أخيلةٌ في الظلمة، شرعوا يسيرونَ عكس التيار في طريقهم نحو الحريق، فالأجدَى لك اللحاق بدورك مبكرًا في تنقيب القمامة.

«هل نذهب معهم؟» سألت زهرا، فمُها مليء باللحم الجاف. لم نوقدْ نارًا هذه الليلة، فالأجدر بنا الاختفاء في الظلمة وتفادي الضيوف، خيّمنا خلف صفٍ من الشجيرات المتشابكة، وأمِلْنا خيرًا.

«تعنين العودةَ ونهب الأموات؟» سألها هاري مستنكرًا.

«بل تنقيب القمامة» أجابته زهرا، «جمع ما لا يحتاج إليه الناس، فإن كنتَ ميتًا، لن تحتاج الكثير».

«علينا البقاء هنا ونيلَ قسط من الراحة» قلت لهما، «نحنُ منهكون، وسيمضي وقتٌ طويل قبل أن تهدأ الأمور هناك بما يسمحُ في التنقيب. وعلى أيةِ حال، الموقع بعيدٌ عن طريقنا».

زهرا تنهدت: «حسنٌ».

«لسنا مجبرين على ارتكاب أفعال كهذه» قال هاري.

هزَّت زهرا كتفيها وقالت، «كل حصى تنفع».

«قبل قليل كنتِ تبكين على الحريق».

«آه» وضمَّت زهرا ركبتَيها نحو صدرها: «لم أكن أبكي على ذاك الحريق، بل على حريقنا وطفلتي بيبي وإلى أي حدٍّ أمقت مَن يُشعلون النيران، أتمنى أن يحترقوا بها، لو بيدي حرقهم جميعًا، لو بيدي التقاطهم الواحد تلو الآخر وقذفهم في النار مثلما فعلوا بطفلتي بيبي» وراحت تبكي من جديد. حضنها هاري معتذرًا، أظنه هو الآخر كان يذرف الدمع.

هكذا يصيبنا الحزن، شيءٌ ما يذكرنا بالماضي، بالبيت، بعزيزٍ علينا، ثم نعود ونتذكر رحيلهم عنا. العزيز ميت، أو على الأرجح ميت، كلّ شيء كنا نعرفه ونعزّه راح، كل شيء عدانا نحن الثلاثة، ويا ترى كيف حال وجودنا معًا حتى الآن؟

«أرى أن علينا الانتقالَ إلى مكانٍ أعلى» قال هاري بعد برهة، كان لا يزال جالسًا مع زهرا، يطوّقها بذراع، وبدت مرحبةً بهذا التماس الجسدي.

«لماذا؟» سألته زهرا.

«أريد أن أكونَ في مكان أعلى، قريبًا من مستوى الطريق السريع أو أعلى، أريد أن أكونَ قادرًا على رؤية النار إن قطعتِ الطريق السريع وامتدتْ نحونا، أريد أن أراها قبل أن تغدو قريبة، فالنار تتنقل بسرعة».

تأوّهتُ وأجبته: «معك حق، لكن انتقالنا الآن في الظلمة محفوفٌ بالمخاطر، قد نخسر هذا المكان ولا نجد أفضل منه».

«انتظرا هنا» نهضَ وسار بعيدًا نحو الظلمة، المسدسُ كان في

حوزتي، لذا أملت أنه أبقى على سكّينه جاهزة، وأملتُ ألا يحتاج إليها؛ كان لا يزال منزعجًا مما حدث ليلة البارحة، فقد قتل رجلًا، وهذا الأمر أزعجه؛ أنا بدوري قتلتُ رجلًا لكن بدمٍ بارد، كما يرى هو، ولم يزعجْني الأمر على الإطلاق. دمي البارد هو ما يزعجه، فهو ليس متقمّص، لا يفهم أنَّ الألم في ذاته هو عدوّي، والموت يضع حدًّا للألم، ولا آية في الإنجيل ستغيّر شيئًا من هذه الحقيقة التي أعيشها. هو لا يفهم التقمّص، ولمَ عساه يفعل؟ فمعظم الناس إما بالكاد يعرفون شيئًا عنه أو يجهلونه.

من جهة أخرى، آياتُ **بذرة الأرض** فاجأته، وعلى ما أظن راقت له قليلًا. لم أكن واثقة إن كان أعجب بالكتابة أو المنطق، لكن راقت له قراءة نصّ والتحدث حوله.

«شِعْر؟» قال لي هذا الصباح بينما راح يتصفَّح الدفتر الذي شاركته إياه، صفحات من دفتر **بذرة الأرض** «لم أكن أعرفُ أنك تهوين الشعْر؟».

«أغلبه ليس نظمًا شعريًّا بمعنى الكلمة» أجبته، «لكنه ما أؤمن به، وكتبته على خير ما أستطيع» أريته أربعَ آيات، في المجمل آيات قصيرة، رقيقة، مختصرة، تأسره دون وعي منه وتستقرُّ في ذاكرته دون قصد؛ ثمة آياتٌ من الإنجيل فعلت بي ذلك، ظلت معي حتى بعد فقداني الإيمان بها.

منحتُ هاري -ومن خلاله زهرا- أفكارًا أردت لهما أن يحتفظا بها، لكني عجزتُ عن منع هاري من الاحتفاظ بأشياء أخرى، عدم

ثقته بي مثلًا، وشبه كرهه لي، فما عدت في نظره لورن أو لامينا. قرأتُ ذلك في ملامحه، تظهر وتتوارى على مدار اليوم. غريب، حتى جوان لم تعجبْ باللمحة التي شاركتها إياها عن نفسي الحقيقية، لكن في المقابل، لم يبدُ على زهرا أنها تمانع حقيقتي، لكنها لم تعرفْني جيدًا أيام كنا في الحي، كل ما عرفتْه عني الآن بيدها تقبّله دون شعورٍ بالخذلان إثْر كذبي عليها. هاري ينتابه الخذلان لأني كذبتُ عليه، ولربما يتساءل في نفسه أية أكاذيب أخرى لا أزال أقولها وأمارسها. الوقت كفيلٌ بمداواة الجرح، هذا إن سمح له هاري.

ما إن عاد هاري حتى انتقلْنا، فقد عثر لنا على موقعٍ جديد للتخييم، قرب الطريق السريع ويتمتع في الآن ذاته بالخصوصية. فإحدى لوحات الإعلان الضخمة هوت أو أُطيح بها، وها هي ملقاة الآن على الأرض مرفوعة الزاوية فوق شجرتي جميز ميتتين. مع اللوحة والشجرتين أسفلها، وجدنا في المكان متكأً هائلًا. ثمة بقايا صخْر ورماد تدل على نار مخيم خامدة، أحدهم كان هنا قبلنا، ولربما كانوا هنا الليلة، لكنهم شدّوا الرحال نحو الحريق كي يروا ما بيدهم اغتنامه من التنقيب في القمامة؛ نحن هنا الآن، سعداء بالحصول على شيءٍ من الخصوصية، وإطلالة على التلال خلفنا حيث الحريق، والشعور بالأمان، إذ مهما يكن، بات لدينا على الأقل حائطٌ واحد.

«موقعٌ رائع!» قالت زهرا، تبسط كيس نومها وتستقر أعلاه، «سأتولى المناوبة الأولى، تمام؟».

تمام، لا بأس لديّ، منحتها المسدسَ واستلقيتُ توّاقة إلى النوم. ومرةً أخرى ذهلت على الراحة العميقة التي أجدها في النوم على الأرض بكامل ملابسي. لا مخدّر أنفع من الإرهاق.

في الليل استيقظتُ على أنفاسٍ وأصوات خفيضة، زهرا وهاري كانا يمارسان الحب، استدرتُ ورأيتهما، وكانا مستغرقين في بعضهما حدَّ أنهما لم يلحظاني.

وبالطبع، لا أحد كان يتولى مهمة الحراسة.

وجدتُني عالقةً في ممارستهما، وكل ما كان بيدي فعله الاستلقاءُ جامدةً وفي صمت. عجزت عن الهرب من عواطِفِهما الجياشة، وعجزتُ عن التركيز على الحراسة، إذ إما كنتُ سأتلوّى معهما أو أتيبَّس. تيبَّستُ إلى أن فرغا، إلى أن قبَّل هاري زهرا، ونهض حتى يرتدي بنطاله ويتولى نوبة الحراسة.

بقيت مستيقظةً بعدها، غاضبةً وقلقة، فكيف لي التحدثُ مع أيهما بشأن ذلك؟ ليس من شأني، لكن الوقت الذي يختارانه لممارسته يعنيني، وأيّ وقتٍ اختاراه! لتسبَّبا بقتلنا نحن الثلاثة.

كنت لا أزال مستيقظةً حين سمعت شخيرَ هاري.

أصغيت لدقيقتين، ثم نهضتُ، تجاوزت زهرا وهززته.

جفل وراح يحدقُ حوله، ثم استدار نحوي، لم أر منه أكثر من ظلٍّ متحرك.

«أعطني المسدسَ وعد إلى نومك» قلت له.

ظلَّ جالسًا في مكانه دونَ رد.

«هاري، ستتسببُ بقتلنا، أعطني المسدسَ والساعةَ واستلق، سأوقظك لاحقًا».

نظر إلى ساعته: «آسف» قال لي، «أظنني كنتُ مرهقًا أكثر مما ظننت». غشاوةُ النوم بدأت تغادر صوته، «لا بأس، أنا مستيقظٌ الآن، عودي إلى النوم».

كبرياؤه مجروح، ولكان من المستحيل عليّ انتزاع المسدس والساعة منه.

استلقيت، «تذكَّرْ ليلة البارحة» قلت له، «إن كنتَ تكترثُ لها، إن كنتَ تريدها حيَّة، تذكّر ليلة البارحة».

لم يرد عليّ. أملتُ أني فاجأته، وأحسبني أحرجته أيضًا، ولربما جعلته غاضبًا ودفاعيًّا، أيًّا يكن ما فعلتُه، لم أسمع منه بعدها أي شخير.




الأربعاء، ٤ أغسطس ٢٠٢٧

اليوم توقفْنا عند محطة ماء تجارية وعبَّأنا أجسادَنا وكل مطارات المياه لدينا بماء نظيفٍ وآمن. أيُّ ماء تشتريه من بائعٍ جوال على الطريق السريع لا بد أن يُغلى أولًا، وحتى بعد الغلْي قد لا يكون آمنًا، فالغلي يقتل الجراثيم، لكن لا يفعل شيئًا في التخلص من البقايا الكيماوية، البنزين، مبيد الحشرات، مبيد الأعشاب، أي شيء كان في تلك القنينة قبل استخدامها من الباعة الجوالين؛ وحقيقة أن

معظم الباعة الجوالين عاجزون عن القراءة يزيد من خطورة الأمر، وكثيرٌ منهم سمم نفسه.

تسمحُ المحطات التجارية لك بسحب ما تشاء من الحنفيةِ مقابل ما تدفعه من مال، ولا قطرة زيادة. تشربُ ما يشربه أصحاب البيت، لربما مذاقه ورائحته وحتى لونه سيء، لكن على الأقل لك أن تطمئن أنه لن يقتلك. لا يوجد ما يكفي من محطات الماء، لهذا يوجد الكثير من الباعة الجوالين. محطات الماء أماكن خطرة أيضًا، يدخلها أناسٌ لديهم مال، ويخرجون منها لديهم ماء قيمته من قيمة المال. المتسوّلون واللصوص يحومون حول أماكن كهذه برفقة العاهرات وتجار المخدرات. بابا كان حذرنا جميعًا من محطات الماء، في محاولته تهيئتنا في حال خرجنا ووجدْنا أنفسنا بعيدًا عن البيت حدَّ ينال منا العطش فنرتوي من إحداها، نصيحته كانت: «إياكَ أن تفعلها، عانِ، وأعد مؤخرتك إلى البيت».

بلى..

**ثلاثة** أصغرُ عددٍ مريح في محطة ماء، اثنان يحرسان، وثالثٌ يُعبئ، ومن الجيد أن تحظى بثلاثةٍ مستعدين لمواجهة المشاكل في الدخول والخروج. **ثلاثة** لا يوقف قطاع الطرق لكن يصد الانتهازيين، ومعظم المفترسين انتهازيون، يفترسون كبار السن، النساء الوحيدات أو النساء برفقة أطفال صغار، المعاقون، إذ لا يريدون تعريض أنفسهم لأي أذى؛ اعتاد أبي تسميتهم بذئاب القيّوط. حينما يتحدث بتهذيب، كان يسميهم ذئاب القيوط.

كنا خارجين من المحطة مع مؤونتنا من الماء حينما رأينا ذئبَي قيوط بساقين ينتزعان قنينة ماء من امرأةٍ تحمل حقيبة كبيرة ورضيعًا؛ الرجل برفقتها أمسكَ بالقيوط الذي انتزع قنينة الماء، والقيوط مرَّر الماء إلى شريكه، وشريكه جرى مباشرة نحونا.

عرقلته، أظن الرضيعَ أسر عاطفتي، شفقتي؛ قنينة البلاستيك القاسية المعبأة بالماء لم تنكسر، وكذلك القيوط، عضضتُ على أسناني، أشاركه خضّة سقوطه وألم كشْط ذراعه. في الحيّ كان الأطفال الصغار يصدموني بهذا النوع من الألم كل يوم.

تراجعتُ خطوة عن القيوط ووضعتُ يدي على المسدس، هاري أتى ووقف جانبي، كنت سعيدةً بوجوده، فمعًا أرهبناه.

رفع زوج المرأة يديه عن مهاجمه؛ القيّوطان -وقد وجدا نفسيهما مغلوبين أمام كثرتنا- فرَّا بجلدهما، حقيرانِ هزيلان مرعوبان صغيران يواصلان سرقتهما اليومية.

التقطت قنينة الماء البلاستيكية عن الأرض وناولتها الرجل، أخذها مني قائلاً: «شكرًا صاح، شكرًا جزيلا».

أومأتُ ومضينا في طريقنا. لا أزال أجده غريبًا مناداة أحدهم إياي: «صاح». لم يرق لي كثيرًا، لكن لا يهم.

«وفجأة أصبحتِ السامريّ الصالح» قال هاري؛ لم يكن ممتعضًا، ولم أجد في صوته نبرة استنكار.

«كان الرضيع، أليس كذلك؟» سألتني زهرا.

«أجل» اعترفتُ لهما، «في الواقع كانت العائلة، العائلة بأسرها».
العائلة بأسرها كانوا رجلًا أسودَ وامرأةً بملامح لاتينية، ورضيعًا يشبه قليلًا الاثنين. لو كُتب للحيّ عمرٌ أطول لبدت غالبية العوائل فيه على هذا الشكل؛ اللعنة، هاري وزهرا يعملان على تأسيس عائلة كهذه، وكما سبق أن أشارت زهرا، العوائل المختلطة تجلبُ على نفسها الكثير من المشاكل.

ومع ذلك ها هما هاري وزهرا، يسيران متقاربين حدًّا لا يسعهما منع نفسيهما من ملامسة بعضهما بعضًا بين فينةٍ وأخرى، لكن ظلا ملتزمَين حذرهما، يتلفتان حواليهما. كنا على طريق الولايات ١٠١، وجموع المشاة هناك كانت أكثر، حتى اللصوص الحمقَى لن يجدوا صعوبة في الاندماج مع حشد كهذا.

حظيتُ وزهرا بحديثٍ صباحي خلال درس القراءة. كان يُفترض بنا العمل على أصوات الحروف وتهجئة كلماتٍ بسيطة، لكن حين نهض هاري ومضى نحو الشجيرات حيث نقضي حاجتنا، أوقفتُ الدرس.

«هل تذكرين ما قلتِه لي قبل أيام عدة؟» سألتها، «عقلي كان سارحًا وأنت حذرتِني: تُقتَل الناس في الطرق السريعة كلَّ يوم».

فوجئتُ بإدراكها فورًا المغزَى من كلامي.. «اللعنة» قالت بينما ترفعُ عينيها عن الورقة التي أعطيتها إياها «نومك ليس عميقًا بما فيه الكفاية، هذا كلُّ ما في الأمر». كانت تبتسم.

«تريدين خصوصيةً؟ سأمنحك إياها» قلت لها، «فقط أخبريني

مسبقًا وسأحرس المخيم من على بعد، افعلا ما تشاءان، لكن لا مزيدَ من هذا الخراء وقت المناوبة!».

بدت متفاجئة، «لمْ أظنكِ تنطقين كلماتٍ كهذه».

«ولم أظنكِ تفعلين ما فعلتِه ليلة البارحة، غبية!».

«أدري، لكني استمتعتُ، فهو ولدٌ كبيرٌ وقويّ» تريثتْ، «هل تغارين؟».

«زهرا!».

«لا تقلقي» قالت لي، «فوجئتُ بما حدث ليلة البارحة، احتجت، احتجت إلى شيء، شخص، لن يتكرر».

«حسنٌ».

«هل تغارين؟» كررتْ سؤالها عليّ.

أجبرتُ نفسي على الابتسام: «أنا إنسانة مثلك» قلت لها، «لكن لا أحسبني سأستسلمُ للإغواء هنا دون تصورٍ واضح للمستقبل، دون فكرةٍ عمّا سيجري، مجرد احتمال حملي يجمّد أوصالي».

«الناس تحبل هنا طوال الوقت» قالت تكشّر في وجهي، «وماذا عن صديقك ذاك؟».

«كنا حذرين، استخدمنا الواقيات».

هزت كتفيها، «أنا وهاري لم نستخدمْها، إن كنت سأحبل، سأحبل».

على ما يبدو هذا ما حصل مع العائلة التي أنقذنا ماءها، وها هما يجران رضيعًا معهما شمالًا.

اليوم ظلَّا على قربٍ منا، ذاك الرجلُ والمرأة، ما فتأتُ ألمحهما بين الحين والآخر. الرجلُ الأسود غامق، طويلُ القامة، قوي الجسد، مخملي البشرة، يحملُ حقيبة ضخمة، المرأة اللاتينية جميلة، قصيرة، ريانة، فاتحة البشرة، تحمل رضيعًا وحقيبة؛ الرضيع بنيّ البشرة يبلغ شهورًا، واسع العينين، مع شعرٍ أسود معقوص.

ظلَّا يرتاحان كلما ارتحنا، وخيَّما خلفنا في بقعة ليست بعيدة عنا. كانا أقربَ إلى حلفاء محتملين من خطر محتمل، مع ذلك سأبقي عيني عليهما.

الخميس، ٥ أغسطس ٢٠٢٧

في وقتٍ متأخر من اليوم لاح لنا المحيط، لا أحد منا سبق أن رآه، وكان علينا الاقتراب منه، النظر إليه، والتخييم في مرمى صورته وصوته ورائحته؛ ما إن قررنا فعل ذلك، مشينا حفاة الأقدام في الأمواج، مع بناطيلنا مرفوعة. ثمة لحظات اكتفينا خلالها بالوقوف والتحديق إليه: المحيط الهادي، أكبر وأعمق جسمٍ مائي على كوكب الأرض، وتقريبًا نصف ماء العالم، مع ذلك، بطبيعة الحال، ما كان بيدنا شرب قطرة منه.

خلع هاري ملابسه خلا سرواله الداخلي وخوَّض في البحر إلى أن بلغ الماء صدره. بالطبع لا يعرفُ السباحة، لا أحد فينا يعرف،

فما سبق أن رأينا ماءً يكفي للسباحة فيه. زهرا وأنا راقبنا هاري بقلقٍ شديد، لكن لم تشعر إحدانا بحرية اللحاق به، فأنا يفترض بي أن أكون رجلًا وزهرا تجذب ما يكفي من الانتباه الخاطئ من دون حاجة أصلًا إلى التعري؛ قررنا الانتظار حتى بعد المغيب والخوض في البحر بملابسنا، فقط حتى نشطف عن نفسينا كلَّ السخام والنتانة، ثم نبدِّل لملابس غيرها. كلتانا لديها صابون وكم تقنا إلى استخدامه.

كان هناك أناسٌ آخرون على الشاطئ. الشريط الضيق من الرمال كان محتشدًا بالناس، مع ذلك الكلُّ أراد البقاء بعيدًا عن طريق الآخر، وزَّعوا أنفسَهم وبدوا أكثر تسامحًا مع بعضهم البعض مما كانوا عليه ليلًا في التلال. لم أسمع أعيرةً نارية أو عراكًا، لم تكن هناك كلاب ولا سرقات واضحة ولا اغتصاب، لربما البحر والنسيم العليل يُهدئ من روعهم. هاري لم يكن الوحيد الذي تجرد من ملابسه وخوَّض في الماء، نساء عدة خوَّضن أيضًا، بالكاد يرتدين شيئًا؛ لربما كان هذا المكان الأكثر أمانًا حتى الآن.

بعض الناس لديهم خيام وآخرون أوقدوا النار، نحن استقررْنا إزاء أطلالِ مبنى صغير. كنا دائمًا -على ما يبدو- نبحثُ عن جدرانٍ تأوينا. هل خيرٌ لنا التخييم فيها فنحاصَرُ بينها، أم التخييم في العراء حيث نصير عرضةً لأي هجوم من أي اتجاه؟ ما كنا نعرف، أحسسنا بأمان أكثر بوجود حائطٍ واحد على الأقل.

انتشلتُ قطعةَ خشب مسطحةٍ من المبنى، مضيتُ ياردات عدة

أقرب إلى المحيط، وبدأتُ أحفر في الرمل، حفرتُ إلى أن عثرتُ على رطوبةٍ ثم انتظرت.

«ما الذي يُفترض حدوثه الآن؟» سألتني زهرا. كانت حتى اللحظة تراقبُني بصمت.

«ماء صالحٌ للشرب» أجبتها، «وفقًا لكتابَين قرأتهما، يُفترض بالماء أن ينزَّ عبر الرمال وقد تصفَّى من معظم ملحه».

نظرتْ إلى الأسفل نحو الحفرة الرطبة: «متى؟».

حفرتُ أعمق، «فلننتظر قليلًا» قلتُ لها، «إن نجحت الحيلةُ سنتأكد من صحة المعلومة، ولربما ستنقذُ حياتنا يومًا ما».

«أو تصيبُنا بالتسمم أو المرض»، ونظرتْ إلى هاري قادمًا نحونا، جسده يتقطر ماءً، حتى شعره كان رطبًا.

«لا يبدو سيئًا وهو عارٍ».

بالطبع كان لا يزال مرتديًا سرواله الداخلي، لكني رأيتُ ما تعنيه، فجسدُه جميل وقويّ البنية، ولا أظنه مانعَ تحديقنا إليه، كذلك كان جسدُه نظيفًا ولم ينضح نتانةً.

كم تشوقتُ إلى نزولي الماء.

«اذهبا» قال لنا، فالشمسُ تغيب، سأراقبُ متاعنا».

كلٌّ منا تناولت صابونها، أعطيته المسدسَ وخلعْنا حذاءينا وجواربنا وانطلقنا؛ كان الأمر مذهلًا، المياهُ باردةٌ وكان صعبًا علينا

الوقوف في الأمواج، والرمال ما انفكَّت تنجرفُ عن أقدامنا، بل تنجرف حتى من أسفل أقدامنا، رمَينا بعضنا البعض بالماء وغسلنا كلَّ شيء، ملابسنا وأجسادنا وشعورنا، تركنا الأمواجَ تُطيح بنا في كل اتجاه، وضحكْنا مثل المجانين؛ أروع وقت قضيته مذ تركنا البيت.

مع عودتنا إلى هاري وجدتُ الكثير من الماء ينزُّ في الحفرةِ التي حفرتها، تذوقتُه، تناولت ملء كفّي، وراح هاري ينتقدني.

«انظري إلى كل أولاء الناس هنا! هل ترين حمّامات؟ كيف تحسبينهم يقضون حاجتهم؟ على الأقل اعقلي واستخدمي حبّة تطهير الماء!».

تلك الفكرةُ وحدها كانت كفيلة بدفعي إلى بصق الماء عن فمي. بالطبع كان محقًّا، لكن تلك الشربة الصغيرة من الماء أخبرتْني ما أريد معرفته، الماء كان مالحًا قليلا، لكن لا بأس به -صالحٌ للشرب، ينبغي غليه أو إضافة حبة تطهير الماء إليه -كما قال هاري- وقبل ذلك، وفقًا لكتابي، يمكن ترشيحه عبر الرمال للتخلصِ أكثر من ملوحته. هذا يعني أننا إن بقينا قرب المحيط سننْجُ حتى إن نقصتْ مؤونتنا من الماء، أسعدني معرفة ذلك.

الظلُّ كان لا يزال يلحقُ بنا، الرجل والمرأة مع رضيعهما خيَّما بالقرب منا، والمرأة الآن جالسةٌ على الرمال ترضعُ صغيرها بينما الرجل جاثٍ بجانب حقيبته ينقّب فيها.

«يا ترى هل يريدانِ الاغتسال؟» سألتهما، وأجابتني زهرا، «وما الذي تنوين فعله؟ تعرضينَ عليهما مجالسةَ طفلهما؟».

هززت رأسي: «لا، سيكون تصرفًا مبالغًا فيه، هل يمانعُ أيكما إن دعوتهما للانضمام إلينا؟».

«ألا تخشينَ أنهما سيسرقاننا؟» سأل هاري ممتعضًا، «فأنتِ تخافين من أي شخصٍ آخر».

«يملكان أدواتٍ أفضل مما لدينا» قلتُ لهما، «ولا حلفاء طبيعيين في الجوار عدانا، فمن النادر وجودُ جماعاتٍ مختلطة عرقيًّا في هذه الأرجاء، بلا شك هذا ما يبقيهما بالقرب منا».

«وأنتِ ساعدتهما» قالت زهرا، «هنا لا يساعدُ الناس الغرباء. وأيضًا أعدتِ لهما الماء، هذا يعني أنَّ لديكِ ما يكفيك ولن تسرقيهما».

«هل تمانعان إذن؟» كررتُ سؤالي.

كلٌّ نظر إلى الآخر.

«لا أمانع» قالت زهرا، «ما دمنا سنُبقي أعيننا عليهما».

«ولماذا تريدين دعوتَهما؟» سألني هاري، ممعنًا نظره فيَّ.

«لأنهما بحاجةٍ إلينا أكثرَ من احتياجنا إليهما».

«هذا ليس سببًا».

«هما حليفان محتملان».

«لسنا بحاجةٍ إلى حلفاء».

«في الوقت الحالي لا، لكن سنكونُ حمقَى إن انتظرنا وحاولنا

الحصولَ على حلفاء وقت الاحتياج، آنذاك قد لا نجدُ أحدًا في الجوار».

هزَّ كتفيه وتنهد: «حسنٌ، كما قالت زهرا، ما دمنا سنراقبُهما».

نهضتُ ومضيتُ نحوهما، رأيتُ انتصابَ جسدَيهما وتوتّرهما ما إن اقتربتُ، كنت حذرةً ألّا أقترب كثيرًا منهما وألا أسرع في خطاي.

«مرحبًا» بادرتُ بالقول، «إن كنتُما ترغبان في التناوبِ على الاستحمام، فبإمكانكما القدوم والانضمامَ إلينا، سيكون أكثر أمانًا لطفلكما».

«ننضمُّ إليكم؟» قال الرجل، «تطلبُ منا الانضمامَ إليكم؟».

«بل ندعوكما».

«لماذا؟».

«ولم لا؟ نحن حلفاءُ طبيعيون، نحن عائلةٌ مختلطةُ الأعراق وأنتما زوجانِ من عرقين مختلفين».

«حلفاء؟» قال الرجلُ وضحك.

نظرتُ إليه، أتساءلُ علام يضحك.

«ما الذي تريده حقًّا؟» سألني باستهجان.

تنهدتُ: «تعالا وانضمَّا إلينا إن أردتما، فأنتما موضع ترحيب، وباختصار، خمسةٌ خيرٌ من اثنين» واستدرتُ عائدة، لأدعهما يتحادثانِ في الأمر ويقرران.

«هل سيأتيان؟» سألتْني زهرا ما إن وصلت.

«على الأرجح» أجبتُها، «لكن ليس الليلة».

الجمعة، ٦ أغسطس ٢٠٢٧

أوقدنا نارًا ليلَ البارحة وتناولنا عشاءً ساخنًا، لكن العائلة المختلطة لم تنضم إلينا. لا ألومُهما، فالناسُ تنجو من الموت هنا بالتزامِها الشك، بيدَ أنهما أيضًا لم يبتعدا، وليس من قُبيل الصدفة اختيارهما البقاءَ في جوارنا، وخيرٌ لهما أن بقيا، فالمشهد المسالم على الشاطئ تبدّل في الساعات الأخيرة من الليل، أقبلت علينا الكلاب.

أقبلت أثناء مناوبتي. كنت لمحتُ حركة من بعيدٍ أسفل الشاطئ، ركَّزتُ نظري عليها، كان ثمة صراخٌ وزعيق، ظننتُ أنَّ عراكًا وقع أو سرقة، لم أرَ الكلاب إلا حين انفصلتْ عن مجموعةٍ من الأشخاص وعَدَتْ تجاه البر؛ كلبٌ منها كان يحملُ غرضًا، لكن لم يتبين لي ما هو، رحتُ أراقبها إلى أن تلاشت كلها في البر، أناسٌ طاردوها لمسافة قصيرة لكن الكلابَ كانت أسرع، غرضٌ يعود لأحدهم قد فُقِد، طعام أحدهم بلا شك.

مشدودة الأعصاب، نهضتُ وتحركتُ ناحيةَ البر من حائطنا، جلستُ حيث يتسنَّى لي رؤية الشاطئ على مساحةٍ أوسع. كنتُ هناك، جالسةً ومسدسي على حجْري، حين لمحتُ تحركًا على بعد قطعةٍ سكنية من المدينة أعلى الشاطئ، أخيلة داكنة إزاء الرمل، كلابٌ أكثر، ثلاثة، راحت تتشممُ الرملَ لدقيقة، ثم انطلقتْ تجاهنا؛

جلستُ جامدة في مكاني أراقبُ الوضع، أناسٌ كثر ناموا من دون حراسة؛ الكلابُ الثلاثة تحوم بين الخيَم، تنقّب عمَّا تريد، ولا أحد حاولَ إبعادها، فمؤونة الناس من البرتقال والبطاطس والوجبات البقولية لا تُغري الكلاب، أما مؤونتُنا الصغيرة من اللحم المجفف فأمرٌ آخر، لكن لا كلب سيضع أنيابه عليها.

توقفت الكلابُ عند مخيم الزوج المختلط، تذكرتُ الرضيع وقفزتُ من مكاني، في الآن ذاته سمعتُ الرضيع يصيح، وكزت زهرا بقدمي وفورًا استيقظتْ، فنومها خفيف،

«كلاب» قلت لها، «أيقظي هاري» ثم هرعتُ صوب الزوج المختلط، كانت المرأة تصيح وتضربُ كلبًا بيديها، والكلب الثاني يتفادَى ركلات الرجل ويحاولُ الانقضاض على الرضيع، الكلبُ الثالث وحده كان بعيدًا عن متناول العائلة.

توقفتُ، سحبت زر الأمان، ولحظة انقضَّ الكلبُ الثالث صوب الرضيع، أطلقتُ عليه النار، سقط الكلب صريعًا دونَ صوت، وأنا أيضًا سقطتُ لاهثةً كأنما أحدهم سددَ ركلة إلى صدري، فاجأتني صلابةُ الرمال المتفككة لدى وقوعي عليها.

مع فرقعة الطلقة فرَّ الكلبانِ الآخرانِ نحو البر، من وضعيةِ انبطاحي شاهدتُهما يفرّان. كان بمقدوري إطلاق النار على كلبٍ آخر، لكني تركتُهما يفلتان، فأنا متألمةٌ بما فيه الكفاية، ألهث منقطعةَ الأنفاس، وفي لهاثي خطر لي أنَّ وضعية الانبطاح وضعيةُ إطلاق نارٍ ملائمة لي، لن يشلّني التقمص فورًا إن أطلقتُ النار منبطحة وبيديّ

الاثنتين؛ أودعتُ هذه المعرفةَ في عقلي للاستخدام المستقبليّ، كذلك أثار اهتمامي أنَّ الكلبَينِ ذُعرا على وقع العيار الناري، فهل أرعبهما الصوت أم إصابة ثالثهما بالرصاص؟ ليتني كنتُ أعرف المزيد عن الكلاب، فقد قرأتُ كتبًا حولها وكيف أنها حيواناتٌ أليفة وذكية ووفيّة، لكن كل هذا باتَ من الماضي، فكلابُ اليوم حيواناتٌ مفترسة تلتهمُ الرضع إن وجدت واحدًا.

شعرتُ بأنَّ الكلب الذي أطلقت عليه النار ميت، فقد ظلَّ جامدًا، لكن كثيرًا من الناس الآن استيقظوا وراحوا يحومونَ في المكان. لو كان الكلب حيًّا -حتى لو جريحًا- لاهتاج محاولًا الفرار.

بدأ الألمُ في صدري ينحسر، وحين عدتُ إلى التنفس دون لهاث، وقفتُ ورجعتُ إلى مخيمنا. كان الارتباكُ قد عمَّ المكان إلى حدٍّ لم يلحظني فيه أحد سوى هاري وزهرا.

سار هاري نحوي، أخذ مني المسدس وتناولَ ذراعي وقادني نحو كيس نومي.

«إذن أطلقتِ النار على شيء» قال لي ما إن جلستُ ألهثُ مرةً أخرى بعد جهد المشي البسيط الذي بذلته.

أومأت: «قتلت كلبًا، برهةً وأعود على ما يرام».

«أنتِ بحاجةٍ إلى من يوقف اندفاعكِ» قال لي.

«لكن الكلاب كانت ستلتهمُ الرضيع!».

«قررتِ تبنّي أولاء الملاعين، أليس كذلك؟».

رغمًا عني ابتسمتُ، أستظرفه، إذ خطر لي أني أيضًا تبنّيته هو وزهرا: «وما الخطب في ذلك؟».

تنهّد: «عودي إلى كيس نومكِ ونامي، هلّا فعلتِ؟ سأتولى أنا المناوبة القادمة».

«بعض الناس أتوا وحملوا الكلبَ الذي قتلتِه» قالت زهرا، «كنا الأحقّ به».

«لستُ مستعدًا بعد لالتهام الكلاب» أجابها هاري، «عودا للنوم».

أسماءُ أفراد العائلة المختلطة كانت ترافيس تشارلز دوغلاس، غلوريا ناتيفيداد دوغلاس، والرضيعُ ذو الستة أشهر دومينيك دوغلاس، ويكنَّى دومينغو. فأخيرًا استسلم الأبوان وانضمّا إلينا الليلة بعد إقامةِ مخيمنا. كنا انعطفنا بعيدًا عن الطريق السريع حتى نقيم مخيّمنا على شاطئ آخر، ولحقا بنا. ما إن استقررنا أقبلا علينا، غير واثقَين ومتشككَين، عارضينِ علينا شيئًا من خزينتِهما، حليب لوز بالشوكولا حقيقي وليس الخرُّوب المُحلَّى. كان ألذَّ شيء ذقته قبل رحيلنا من روبليدو بوقتٍ طويل.

«كان أنتَ ليل البارحة؟» سألت ناتيفيداد هاري، كانت استهلت حديثها معنا بطلب مناداتها ناتيفيداد.

«بل لورن» أجابها هاري، يشير إليّ.

نظرتْ إليّ قائلة: «شكرًا».

«هل طفلُكِ بخير؟» سألتها.

«خدوش، ورملٌ في عينيه إثْر جرّه» كانت تمّسد الشعر الأسودَ لرضيعها النائم، «عالجتُ الخدوش بالمرهم وغسلتُ عينيه، هو على ما يرام الآن، هو ولدٌ طيب، بكى قليلًا فحسب».

«بالكاد يبكي» قال ترافيس بفخرٍ عارم. بشرةُ ترافيس سوداء غامقة غير اعتيادية، جلده ناعمٌ ومصقول بشكلٍ لا أصدّق فيه أنه عانى يومًا من بثرةٍ في حياته؛ النظر إليه يغويني إلى لمسه ومعرفةِ كنه الإحساس بذلك الجلد المثالي على أطراف أناملي. هو يافعٌ ووسيم وقوي، ممتلئ الجسم ومفتول العضلات، طويل القامة، لكن أقصر وأكثر امتلاءً من هاري؛ ناتيفيداد ممتلئة أيضًا، امرأةٌ سمراء فاتحة بوجهٍ دائري وجميل، شعرٌ أسودُ طويل مرفوعٌ في لفَّة أعلى رأسها، قصيرةٌ لكن لا تفاجئني قدرتُها على حمل حقيبتها والرضيع والحفاظ على ثبات سرعة سيرها طوال اليوم، تروق لي وأميل إلى الثقة بها؛ عليّ أن أكون حذرة، لكن لا أصدقُ أنها ستسرقُ منا؛ ترافيس لم يتقبلنا بعدُ، لكنها تقبّلتنا، فقد ساعدنا طفلَها، نحن أصدقاؤها.

«نحن ذاهبانِ إلى سياتل» أخبرتْنا، «ترافيس له عمةٌ هناك أكدت أنه يمكننا البقاء معها إلى أن نجدَ عملًا، نريدُ العثور على عمل مقابل مال».

«أليس هذا حالنا جميعًا؟» زهرا وافقتها، كانت جالسةً على كيس نوم هاري، يطوقها بذراعه، الليلة ستكون مجهدةً لي.

ترافيس وناتيفيداد جلسا على أكياس نومٍ ثلاث، بسطا الأكياس لتوفيرِ فسحةٍ لطفلهما يحبو عليها ما إن يستيقظ، كانت ناتيفيداد قد ربطته إلى رسغِها بحبل غسيل.

اعترتني الوحدةُ بين الزوجين، تركتهم يتحادثونَ عن آمالهم ويتبادلون الشائعات عن جنات عدن الشمالية؛ تناولتُ دفتري وبدأت أكتبُ أحداث اليوم، مستمتعةً بآخر ما تبقى من طعم الشوكولا.

استيقظ الرضيعُ جائعًا ويبكي، فكَّت ناتيفيداد أزرار قميصِها الفضفاض، أدنته إلى ثديها، وانتقلت نحوي كي ترى ما الذي أفعله.

«تقرأ وتكتب؟» قالتْ متفاجئة، «ظننتكَ ترسمُ، عمَّ تكتب؟».

«هي تكتبُ على الدوام» قال هاري، «أطلبي منها قراءة شيء من شعرِها، بعضه ليس سيئًا».

جفلتُ، فاسمي لاجنسانيّ، لفظًا على الأقل، وبذا قد يبدو نطقه ذكوريًّا. لكن الضمائر فاضحة، وبها فضحني هاري.

«هي؟» ترافيس تساءل فورًا «شعرها؟».

«تبًّا لك هاري» قلت له، «نسيتُ شراء الشريط حتى ألصق فمك».

هزَّ رأسه، ثم محرجًا ابتسم لي: «عرفتك طوال حياتي، ولا يسهلُ عليَّ تذكر استبدال ضمائرك، لكن أظن ألا بأس هذه المرة».

«ألم أقل لك!» قالت ناتيفيداد لزوجها، ثم اعتراها الإحراج:

«أخبرته أنك لا تبدين رجلًا» قالت لي، «أجل أنتِ طويلة وقوية البنية، لكن لا أدري، وجهكِ ليس وجه رجل».

أجل، أتمتّع بجسدٍ أقرب إلى الرجولي، لا سيما عند الصدْر والحوض، لذا ينبغي بي أن أكون سعيدةً أنَّي لا أتمتع بوجهِ رجل، لكن لن تساعدَني هذه الحقيقة كثيرًا في ترحالنا، «ارتأينا أن فرص نجاتنا كرجلينِ وامرأة تفوقُ فرص نجاتنا كامرأتين ورجل» أجبتها، «الحيلةُ هنا، تفادي الاصطدام بظهوركَ قويًّا».

«وجودُنا نحن الثلاثة لن يساعدكم في الظهور بشكلٍ أقوى» قال ترافيس في مرارة. هل ينتابه امتعاضٌ من وجود الرضيع وناتيفيداد؟

«أنتم حلفاؤنا الطبيعيون» أجبته، «هزئتَ من وصفي هذا في لقائنا السابق، لكنها الحقيقة، الرضيعُ لن يضعفنا كثيرًا، آمل ذلك، وفرصهُ في النجاة أعلى بوجوده بين خمسة بالغين».

«بيدي رعاية زوجتي وابني» قال ترافيس بدافع الكبرياء لا المنطق، قررتُ التصرف وكأني لم أسمعه.

«أظنكَ وناتيفيداد ستقويّان مجموعتنا» قلت له، «زوجانِ إضافيان من الأعين، زوجان إضافيّان من الأيدي، هل تملكانِ سكاكين؟».

«أجل» قال يربّت على جيبِ بنطاله، «وليت كان بيدي مسدساتٌ مثلكم».

ليت كان بيدنا مسدسات، قلتُ في نفسي، ولم أصرح بتمنيَّ علنًا، «أنت وناتيفيداد تتمتعانِ بجسدٍ قويّ ومعافى» قلت له، «وإن وقعتْ عينُ زمرة مفترسة على مجموعة مثل مجموعتنا الخماسية ستتركنا فورًا وتمضي إلى فريسة أسهل».

نخر ترافيس وظلَّ على موقفهِ الملتبس منا. فقد ساعدتُه مرتين، والآن اكتشفَ أني امرأة، سيلزمُه وقتٌ حتى يسامحَني على ذلك، مهما يكن في الحقيقة ممتنًا.

«أريد سماعَ شيء من شِعْرك» قالت ناتيفيداد، «الرجلُ الذي كنا نعمل في بيته، اعتادت زوجته قراءةَ الشِّعر لي متى ما انتابتْها الوحدة، وأحببتُ سماعه، اقرئي لي شيئًا من شِعرك قبل حلول الظلام».

من الغريب تصوُّر امرأةٍ غنية تقرأ شعرًا لخادمتها، فهذا ما كانت عليه ناتيفيداد. لربما كان لديّ تصورٌ خاطئ عن النساء الغنيّات، لكن -في النهاية- كلنا تنتابنا الوحدة. وضعت دفتر التدوين جانبًا وتناولتُ كتاب آياتِ **بذرة الأرض**، اخترتُ آياتٍ رقيقة، لا وعظيّة، تُطيّبُ عقول سالكي الطريق وأجسادهم المرهقة.

# ١٨

**تجمُّع بذرةِ الأرض**
**مرةً أو مرتين**
**كلَّ أسبوع**
**فعلٌ صالحٌ وضروريّ.**
**يفرّغُ العواطف،**
**ويهدّئُ العقل.**
**يصوّبُ التركيز،**
**ويقوّي العزيمة،**
**ويوحّدُ الناس.**

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

الأحد، ٨ أغسطس ٢٠٢٧

«أنتِ تؤمنين بكلام بذرة الأرض هذا، أليس كذلك؟» سألني ترافيس.

كان يوم راحتنا، تركنا الطريقَ السريع للعثور على شاطئ نخيّمُ فيه ليومٍ وليلة ونرتاح فيه؛ شاطئ سانتا باربرا الذي عثرْنا عليه تضمَّن منتزهًا شبهَ محترق حيث وجدنا أشجارًا وطاولات. لم يكن محتشدًا بالناس فتسنَّى لنا التمتعُ بشيء من الخصوصية نهارًا، والماءُ كانَ على مقربةٍ منا. الرجلُ وزوجتُه تبادلا الدور في الاختفاء بعد أن عهدا إليّ مهمةَ مراقبةِ طفلهما ومتاعهما. مثيرٌ للاهتمام ارتياحُ عائلة دوغلاس إلى ائتماني على كلِّ نفيسٍ وغالٍ يملكانه. نحن لم نأتمنْهما على تولي نوبة الحراسة بمفردَيهما، لا ليلة البارحة ولا التي سبقتْها، لكن أولَينا إليهما مهمةَ المشاركة في الحراسة. لم يكن ثمة جدران نسند عليها متاعنا ليلةَ البارحة لذا كان من المفيد وجودُ حارسَين في كلّ نوبة، ناتيفيداد حرستْ برفقتي وترافيس برفقة هاري، النوبة الأخيرة تولتها زهرا بمفردها.

حرصتُ على جدولتها بهذا الشكل، كان الوضع الأمثل راحةً لكلا الزوجين، حيث لا زوج منهما مضطرٌّ إلى وضع ثقته الكاملة في الآخر.

الآن، بين طاولاتِ المنتزه الخارجية وبين حُفرِ النار وأشجار الصنوبر والنخيل والجمّيز، فالثقة ليست مشكلة. إن أدرت ظهركَ للجزء المحترق، القاحل والقبيح، ستجد المكان جميلًا، وبعيدًا بما يكفي عن الطريق السريع ومرمَى أنظار نهر حشود الناس المندفق نحو الشمال. عثرتُ عليه لأني أملك خرائطَ، خصوصًا خريطة شوارع مقاطعة سانتا باربرا؛ خرائطُ جَديَّ ساعدتنا على استكشافِ المكان بعيدًا عن الطريق السريع حتى مع وقوع لافتاتِ أسماء

الشوارع وأرقامها أو اختفائها، فقد ظلَّ منها ما يكفي لمساعدتنا في العثور على الشواطئ متى ما كنَّا على مقربة منها.

كان هناك أناسٌ من أهل المنطقة، أشخاصٌ تركوا بيوتَهم الحقيقية لقضاء يومٍ صيفي في الشاطئ، عرفتُ هذا بعد إرهافي السمع إلى الشذرات القليلة من محادثاتهم. حاولتُ تبادلَ الحديث مع بعضهم، وفوجئت بترحيب معظمهم. أجل، المنتزه كان جميلًا عدا أماكن اندلعت فيها النيران على يد الوجوه المصبوغة، الإشاعات تقول إنهم يفعلون ذلك نصرةً للفقير، لفضْح الأثرياء وتدمير الممتلكات التي يكْنزونها، لكنّ منتزهًا شاطئيًّا ليس ملكية من ملكيات الأثرياء، بل مكانٌ مفتوحٌ للجميع، فلماذا إذن حرقوه؟ لا أحد يعرف.

ولا أحد أيضًا يعرفُ من أين ظهرت هذه البدعة، صبغُ وجهكَ وانتشاؤك على المخدرات وإشعالك النيران، لكن معظم الناس ترى لوس أنجلوس مصدر كل الشرور. تحاملٌ محليّ ضدنا. لم أخبرْهم أني من لوس أنجلوس، اكتفيتُ بالابتسام وسؤالهم عن وضع الوظائف في المنطقة، بعضهم أخبرَني بأنهم يعرفون أين يمكن العمل مقابل وجبة طعام أو مكان «آمن» للنوم، لكن لا أحد دلّني على وظيفةٍ تدر مالًا. هذا لا يعني أنَّ وظائف كهذه ليست موجودة، لكن يصعبُ الحصول عليها ويصعب أكثر التأهل لها؛ تلك ستكون مشكلتنا أينما ذهبنا، مع ذلك فنحن نعرف الكثير، ثلاثتنا، خمستنا، نعرفُ كيف نقوم بأشياءَ كثيرةٍ وعظيمة، فلا بد من طريقةٍ نجمع بها كلَّ معرفتنا هذه واستغلالها لصالحنا، أي شيء عدا عملنا خدمًا في البيوت.

الماء باهظٌ هنا، أسوأ مما عليه في لوس أنجلوس أو مقاطعات فينتورا. هذا الصباح ذهبنا كلنا إلى محطة الماء، ما زالَ خَيار باعة الماء الجوالين غيرَ مقبول لدينا.

البارحة على الطريق، رأينا ثلاثة رجالٍ أموات، كانوا مجموعةً واحدة شابة، لا أثر لاعتداء، لكن كلٌّ مغطى بدمائه التي تقيأها؛ أجسامُهم منتفخة وبدأت تتعفّن، مررْنا على الجثث، نظرنا إليها، لم نأخذ شيئًا منها، حقائبهم -إن كان لديهم حقائب- ما عادت موجودة، ملابسهم ما أردناها. مطارات الماء الثلاث لا تزال في أيديهم، ولم يرغب بها أحد.

كلنا أعدْنا تزويد مؤونتنا في الفرع المحلي من **هانيغ جوس**، كم ارتحْنا وفوجئنا برؤيته. مكانٌ موثوق وجيد حيث تسنّى لنا شراء ما نريد من الطعام الصلب للرضيع، والصابون والمراهم لجلودنا المتقرحةِ من ملوحة البحر والشمسِ والمشي؛ ناتيفيداد اشترت بطانيات جديدةً لعربة رضيعها وغسلتْ وجففت محتوى كيسٍ بلاستيكي من البطانيات القذرة القديمة؛ زهرا رافقتها إلى قسم المصبغةِ المنفصل حتى تغسلَ وتجفف بعضًا من ملابسنا القذرة، كنا نرتدي ملابسنا المغسولةَ بماء البحر، كانت مالحة، لكن على الأقل لم تكنْ نتنةً. غسيلُ الملابس رفاهيةٌ لا نطيق تكلفتها، مع ذلك ليس سهلاً على أحدٍ منا أن يكونَ قذرًا، فنحن لم نعتدْ على القذارة، وجميعنا كنا نأملُ بالحصول على ماء أرخصَ كلما اتجهنا شمالًا. اشتريتُ مشطًا ثانيًا للمسدس، بالإضافة إلى مُذيب وزيت وفرشاةٍ

لتنظيف المسدس، إذ ظلَّ يُضايقني كوني لم أنظفه حتى الآن. فإن خذلَنا المسدس وقت حاجتنا إليه، سنُقتل جميعًا، كما أن وجودَ المشط الثاني أراحني، أصبحت لدينا الفرصة لتلقيم المسدسِ سريعًا ومواصلة إطلاق النار.

ها نحن الآن، نجلس مرتخين، في ظل أشجار الصنوبر والخبّيز، نستمتع بنسيم البحر العليل، مرتاحين ونتحادثُ؛ تناولتُ دفتري وشرعتُ في الكتابة، أُثري تدويناتي لأحداث هذا الأسبوع، كنتُ على وشك الانتهاء حين جلس ترافيس جانبي وسألني سؤاله:

«أنت تؤمنينَ بكلام **بذرة الأرض** هذا، أليس كذلك؟».

«كل كلمة».

«لكن..أنتِ من ابتدعه؟».

انحنيتُ وتناولتُ حجرًا صغيرًا ووضعته على الطاولة بيننا، «إن كان بيدي تحليلُ هذا الحجر وإخباركَ بكل ما يتعلّق بطبيعته وعناصرِ تكوينه، فهل يعني هذا أني من ابتدعه؟».

رمقَ الحجر فحسب، وأبقى عينيه عليّ، «فما الذي حللتهِ إذن حتى تخرجي **ببذرة الأرض**؟».

«الناس» أجبته، «أنا، الآخرون، كل كتابٍ قرأته، كلّ ما سمعته، كل التاريخ الذي تعلمته، فأبي كان واعظًا ومعلمًا، زوجة أبي كانت تديرُ مدرسةَ الحي، وبذا تسنَّى لي رؤية الكثير».

«وما الذي ظنه أبوك في فكرتكِ عن الرب؟».

«أبدًا لم يعرف».

«لم تتمتعي أبدًا بالشجاعة لإخباره؟».

هززتُ كتفيّ، «هو الشخصُ الوحيد في العالم من بذلتُ قصارى جهدي حتى لا أؤذيه».

«ميت؟».

«أجل».

«ووالديَّ أيضًا» هزَّ رأسه قائلاً: «لا يعيش الناسُ طويلًا هذه الأيام».

برهة صمتٍ خيَّمت علينا، وبعدها قال: «وكيف حصلتِ على أفكاركِ هذه عن الرب؟».

«ببحثي عنه» أجبته، «لم أكنْ أسعى نحو ربٍّ أسطوري أو صوفي أو سحريّ، حتى أني لم أعرفْ إن كان ثمة ربٌّ أصلًا أعثر عليه، لكني أردتُ أن أعرف، وعرفت، الربُّ لا بد أنَّ يكونَ قوةً لا تُقهر أمام أي شيء أو أحد».

«التغيير».

«أجل، التغيير».

«لكن هذا ليس برب، ليس بشخصٍ ولا كينونةٍ عاقلة ولا حتى شيء، هذا فقط، لا أدري، مجرد فكرة».

ابتسمتُ: «وهل هذا انتقادٌ قاسٍ؟ هي الحقيقة» أجبته، «التغيير

جارٍ، كلُّ شيء يتغيّر بطريقةٍ ما، الحجمُ، الموضعُ، التركيبُ، التواتر، السرعة، التفكير، وبكلِّ طريقة تتصورها، كلُّ شيءٍ حيّ، كل ذرةٍ من مادة، كلُّ الطاقة في الكون تتغير بشكلٍ أو آخر، لا أدَّعي أن كلَّ شيء يتغير بكلّ الطرق، لكن كلَّ شيء يتغير بطريقة أو بأخرى».

هاري، قادمٌ من البحر يتقطَّر ماءً، سمع الجملةَ الأخيرة وقال مكشرًا، «أشبه بالقول إنَّ الرب هو القانون الثاني للديناميكا الحرارية». كنت خضت معه هذا النقاش من قبل.

«هذا وجهٌ من وجوه الرب» قلت لترافيس، «هل لديكَ فكرةٌ عن القانون الثاني؟».

أومأ: «الأنطروب، فكرةُ أنَّ الدفق الطبيعي للطاقة ينبع من شيء دافئ إلى شيء بارد لا العكس، وبذا فالكونُ على الدوام يخففُ من حرارته ومن سرعته، يبدد طاقته».

تركت وجهي يفضحُ تفاجئي.

«كانت أمّي تكتبُ في الصحف والمجلات وعلمتني في البيت، ثم توفي أبي وباتت عاجزةً عن كسب ما يكفي للحفاظ على بيتنا، ولم تعثرْ على وظيفة أخرى تدرّ مالًا، لذا اضطرَّتْ للقبول بوظيفة طباخةٍ منزلية، لكنها واصلت تعليمي».

«علمتْكَ عن الأنطروب؟» سأله هاري.

«علمتْني القراءة والكتابة» أجابه ترافيس، «ثم علمتني كيف أعلم نفسي، كانت هناك مكتبة لدى الرجل الذي تعمل لديه».

«وتركك تقرؤها؟» سألته.

«لم يسمحْ لي بالاقتراب منها» وابتسم ابتسامةً باردة: «مع ذلك قرأتُها، أمي كانت تهربها إليّ».

بالطبع، العبيدُ فعلوا ذلك قبل مئتَي عام، يتسللونَ في أرجاء البيت ويعلمون أنفسهم قدر استطاعتهم، مجازفينَ بتعرّضهم للجلد والبيع والتشويه الجسدي.

«وهل وقع عليكَ أو عليها؟».

«كلا» أجاب وحوَّل بصرَه نحو البحر، «كنّا حذرَين، إذ كان من المهم ألا ننكشف، حرصتْ أمي ألّا تستعيرَ أكثر من كتابٍ واحد كلّ مرة. أظنّ زوجته عرفت، لكنها كانت امرأةً طيبة، لم تقل شيئًا، أصلًا هي من أقنعتْه بتزويجي من ناتيفيداد».

تدبيرُ زواج ابن الطباخة من إحدَى خادمات البيت أمرٌ آخر يعودُ إلى عصرٍ ظنناه راح وولَّى.

«بعدها ماتت أمي وأصبحتْ ناتيفيداد كلَّ عائلتي وأنا كل عائلتِها، ثم جاءنا الطفل. كنت أقيمُ في البيت كبستاني ومصلّح، لكنَّ الحقيرَ الهرمَ الذي كنا نعمل لديه كان يرغبُ في ناتيفيداد، يتحيّنُ أيَّ فرصة حتى يراقبَها ترضع طفلَنا، ما كان يدعُها وشأنها، لهذا غادرْنا، لهذا ساعدتنا زوجتُه على الرحيل وأعطتْنا المال، فهي كانت تعرفُ أنَّ الخطأ ليس خطأ ناتيفيداد، ولم أردْ أنا الاضطرار إلى قتله، لذا غادرنا».

في زمن العبودية، متى ما حصلَ شيء كهذا، فلا شيء كان بيد العبدِ فعله، وإن فعل يعرّض نفسه للقتل أو البيع أو الضرب المبرح.

نظرت إلى ناتيفيداد الجالسةِ على مسافةٍ قصيرة منا على أكياس النوم المفرودة، تلهو مع طفلها وتتحدثُ مع زهرا، كانت محظوظةً، هل تدركُ كم هي محظوظة؟ كم من نساء غيرها أقل حظًّا، عاجزات عن الفرار من رغبات سيدهنَّ أو كسب تعاطف سيدة البيت، هل تعرف إلى أي حدّ يصلُ سادة البيت وسيداته في إخضاع الخدم وكسر إرادتهم؟

«ما زلتُ عاجزًا عن رؤية الأنطروب والتغيير ربًّا» قال ترافيس، يعيدُ النقاش من جديد إلى بذرة الأرض.

«إذن أرني قوةً أسرعَ تمددًا وأشدَّ سطوةً على حياتنا من التغيير» أجبته، «ليست مسألة الأنطروب فقط، الربُّ أشدّ تعقيدًا من هذا؛ السلوكُ الإنساني وحده كافٍ حتى تدركَ ذلك. وثمة تعقيدٌ أعمق متى ما تعاملت مع أكثر من تغييرٍ في الوقت ذاته، كما هو حالنا على الدوام، صورُ التغيير في الكون لا حصر لها».

هزَّ رأسه: «ربما، لكن لا أحد سيعبدها».

«وأرجو ألا يفعلوا» قلتُ له، «فبذرةُ الأرض تتعاملُ مع الواقع الفعلي، لا مع شخوصٍ سلطويةٍ خارقة للقوى، فالعبادةُ لا نفعَ منها إن لم تقترنْ بالعمل، وإن اقترنت عبادتك بالعمل نفعتْكَ في تثبيتِ اتزانك وتركيزِ جهودك وتطمينِ عقلك».

ابتسم ابتسامةً مريرة قائلاً: «الصلاةُ تُشعر الناسَ بالتحسن

متى ما عجزوا عن فعل أي شيء، اعتدتُ التفكير بأنَّ هذا الشيء الوحيد القادر عليه الرب، مساعدة الناس من أمثال أمي على تحمّل ما هم مجبرون على تحمله».

«ليست هذه مهمة الرب، لكن في أحيانٍ كثيرة هو ذا الغرض من الصلاة، والغرض أيضًا من بعض آيات **بذرةِ الأرض**. فالربُّ إلهنا هو التغيير، وفي النهاية، الرب سينتصر، لكن لدينا أملٌ في فهم طبيعة الرب، لا الطبيعة المنتقمة المعاقبة الغيورة، بل المطواعة المُطْلقة؛ ثمة طمأنينةٌ في إدراك أنَّ كل إنسانٍ وكل شيء مآله إلى الرب، ثمة قوةٌ في إدراكنا أن للربّ أن يتركَّز ويتحوَّل ويتشكَّل على يد أيّ إنسان، لكن لا قوة في تمتعكَ بالقدرة والعقل ومع ذلك تنتظر من ربك إصلاحَ شؤونك والأخذ بثأرك. أنت مدركٌ لذلك، وأدركتَه لحظة غادرتَ بعائلتك خارجَ بيت رئيسكَ؛ الربُّ يغيرنا كل يوم من أيام حياتنا، فخيرٌ لنا فهْم ذلك وردُّ المعروف: تصوير الرب».

«آمين!» قال هاري، مبتسمًا.

نظرتُ إليه، مترددةً بين الامتعاض والضحك، وتركتُ الضحكة تفوز: «ارتدْ شيئًا قبل أن تحرقك الشمس، هاري».

«بدا لي أنكِ بحاجةٍ إلى آمين»، قال بينما يرتدي بلوزةً زرقاء فضفاضة، «هل تريدين مواصلة عِظتكِ أم نتناول طعامنا؟».

كنا قد طهونا فاصولياء مع قطعٍ صغيرة من اللحم الجاف والطماطم والفلفل والبصل. كان يومَ أحد، وحولنا نيران عدة موقدة في المنتزه، ولدينا الكثيرُ من الوقت، حتى أننا تناولنا القليلَ

من الخبز من دقيق القمح، والرضيعُ تناول طعامَ رضّع حقيقي مع حليبه بدل اللقيمات المهروسة أو تلك التي تمضغها أمه من طعامنا.

كان يومًا جيدًا، وبين آونةٍ وأخرى، يطرحُ عليَّ ترافيس سؤالًا آخر أو يتحدّى مفهوم **بذرة الأرض**، وكنتُ سأحاول الإجابة عليه دون الاستغراق في إلقاء عظة وهو أمرٌ صعبٌ عليّ، لكني تدبّرتُ أمري معظم الوقت. زهرا وناتيفيداد دخلتا في نقاش حول إن كنت أتكلمُ عن ربٍّ ذكَرٍ أم أنثى، وحين أشرتُ إلى أنَّ التغيير لا جنساني وليس أصلًا بشخص ارتبكتا، لكن لم ترفضا الفكرة؛ هاري وحده من رفض التعاملَ بجدية مع النقاش، لكن أعجبتْهُ فكرة التدوين، والبارحة اشترى دفترَ تدوين صغير، وصار الآن يكتب هو الآخر، ويساعد زهرا على تمارين القراءة والكتابة.

أودُّ استمالته إلى **بذرة الأرض**، أريدُ استمالتهم جميعًا، أرى فيهم نواةَ مجتمع **بذرة الأرض**، وكم سأحبُّ تعليم دومينيك **بذرة الأرض** بينما يكبر، سأعلمه وهو سيعلمني، فالأسئلةُ التي يطرحها الأطفال تدفعكَ للجنون لأنها لا تنقطع، كما تدفعكَ إلى التفكير، لكني حاليًا أتعامل مع أسئلة ترافيس.

خاطرتُ، وكلّمتُ ترافيس عن **المصير**.

كان قد سألني وما انفكّ يعيد السؤال عن المغزَى من **بذرة الأرض**، لمَ شخصنة التغيير بتسميته ربًّا؟ وبما أنَّ التغيير ليس سوَى فكرة، لم لا ندعوه فكرةً؟ فلنقلْ فقط إنَّ التغيير ضروري.

«لأنه مع مرور الوقت لن يعودَ ضروريًّا!» أجبته، «فسرعانَ ما

تنسَى الناس الأفكار، لكنْ عصيٌّ عليها نسيانُ الرب، خصوصًا إذا تملكهم الخوف واليأس».

«إذن ما الذي يُفترض بهم فعله؟» سألني مستهجنًا: «قراءة قصيدة؟».

«بل استعادةُ حقيقة أو إحساسُ طمأنينة أو تذكيرٌ بضرورة العمل، فالناسُ تفعل ذلك على الدوام، يلجؤون إلى الإنجيل، التوراة، القرآن، أو أيّ كتابٍ ديني آخر يساعدهم على التعامل مع التغييرات المفزعة التي تنتابُ حياتهم».

«التغيير يفزع معظم الناس».

«أدري، فالرب مخيف، لذا خيرٌ لنا التأقلم معه».

«لا أجد الكثيرَ من الطمأنينة في بذرة أرضك».

«سيكون فيها طمأنينة، ما زلتُ في خطواتي الأولى نحو فهمها، فالربُّ ليس طيبًا ولا شريرًا، لا يعزُّك ولا يكرهك، ومع ذلك خيرٌ لك التحالفُ مع الرب من معاداتك إياه».

«ربك لا يكترثُ بكِ على الإطلاق» قال ترافيس.

«سببٌ أجدى حتى أكترثَ أنا بنفسي والآخرين، سببٌ أجدى لإقامة مجتمعات **بذرة الأرض** وتصوير الربِّ معًا (الرب مخادع، معلم، فوضى، صلصال) نحن من يقرر أياً من صور الرب هذه نعتنقُها، وكيف نتعاملُ مع بقيتها».

«هل هذا ما تريدينَ فعله؟ إقامة مجتمعات **بذرة الأرض**؟».

«أجل».

«وماذا بعد؟».

وها هي الثغرة، بلعتُ ريقي والتفتُّ قليلًا لأتمكن من رؤية المساحة المحروقة، كانت قبيحةً لا تطاق، صعبٌ عليّ تخيّل أحدِهم يرتكبُ فعلًا كهذا عن قصد.

«وماذا بعد؟» ألحَّ في سؤاله: «فما المغزَى مع ربٍّ كربّكِ بلا جنة يأملُ الناس في دخولها؟».

«الجنة» قلت له وقد أدرت وجهي إليه: «أوه، أجل، الجنة».

لم يقل شيئًا، بل رمقني بنظرةٍ من نظراته الشكاكة وانتظر.

«مصير **بذرة الأرض** أن تغرسَ جذورك بين النجوم» قلت له، «وهذا **المصير** هو المغزَى النهائي من **بذرة الأرض**، التغييرُ الإنسانيُّ المطلق من بعد الموت، وخيرٌ لنا ملاحقةُ هذا المصير إن أردنا النجاةَ وألا يؤولَ مآلنا إلى ديناصوراتٍ رقيقة الجلد، اليوم موجودون وغدًا هالكون، عظامُنا مختلطةٌ مع عظام مدننا ورمادها، وماذا بعد؟».

«الفضاء؟» سألني، «المريخ؟».

«أبعدُ من المريخ، نظامٌ شمسيّ آخر، عوالم حيَّة أخرى».

«مجنونة» أعجبني كيف قالَها في نبرةٍ ناعمة وهادئة، بذهول لا سخرية.

كشَّرتُ: «أعرفُ أن تحقيقَ هذا المصير ليس في استطاعتنا اليوم،

وسيمرّ وقتٌ طويل حتى يغدو ممكنًا، لكن الآن وقت التأسيس، تركيزُ مجتمعات **بذرة الأرض** منصبٌّ نحو تحقيق **المصير**. على الأقل جنّتي لها وجودٌ حقيقيّ، ولا داعيَ لموتك حتى تبلغها. **مصير بذرة الأرض** أن تغرس جذورك بين النجوم أو في الرماد» وأومأت تجاه الساحة المحروقة.

ترافيس أصغَى إليّ، لم يشرْ إلى أنَّ فتاةً ترتحلُ شمالًا من لوس أنجلوس إلى المجهول مع كل متاعها على ظهرها بالكاد تملك أيّ سلطةٍ في تحديد الطريق إلى **رجل القنطور**. بل أصغى، ضحك قليلًا كأنما يخشَى أن يبدو جديًّا بشأن أفكاري، لكن لم ينسحب من الحديث معي، مال نحوي، ناقشني، صاح بي، طرحَ المزيد من الأسئلة، طلبتْ منه ناتيفيداد الكف عن مضايقتي، لكنه أبقَى على حواره معي، ولم أمانع، فأنا أفهم كنْه المثابرة، ويعجبني المثابر.

الأحد، ١٥ أغسطس ٢٠٢٧

تشارلز ترافيس دوغلاس هو المهتدي الأول وزهرا موس هي الثانية. فقد أصغت إلى نقاشاتنا أنا وترافيس على مر الأيام الماضية، أحيانًا كانت ستسأل أو تعترضُ على نقطةٍ تراها متضاربة، بعد فترة قالت: «لا أكترثُ للفضاء الخارجي، احتفظي بهذه الجزئية لكِ، لكن إن كنتِ ستقيمين مجتمعًا حيث يعتني الناس بعضهم ببعض ولا يضطرّون لاحتمال الأذى فأنا معك، أنا وناتيفيداد تحادثنا، ولا أريدُ العيش كما اضطرتْ هي، ولا كما اضطرتْ ماما».

أتساءلُ إلى أي حد هناك فرق بين رئيس ناتيفيداد الذي عاملَها وكأنها عبدة يملكها وبين ريتشارد موس الذي اشترى الفتيات الصغيرات حتى يضمّهن إلى حريمه، الفرق يكمن بلا شك في عواطفهما الشخصية، فناتيفيداد كرهتْ رئيسَها وازدرته، زهرا تقبّلتْ ريتشارد موس، ولربما أحبته.

ها **بذرة الأرض** تولدُ هنا على الطريق السريع ١٠١، على القسم من هذا الطريق الذي كان يدعى *إل كامينو ريل*(١) من ماضي كاليفورنيا الإسبانيّ، والآن هو طريقٌ سريع، نهرٌ من الفقراء، نهرٌ يندفق شمالًا.

يخطر لي الآن صيدُ السمك من هذا النهر حتى وأنا أنجرف في تياره. سأراقب الناس لا لألتقط الخطيرَ منهم، بل لالتقاط القلة الصالحة مثل ترافيس وناتيفيداد من سيودون الانضمام إلينا ويجدون لدينا الترحيب.

وماذا بعد؟ العثورُ على أرضٍ نحتلها؟ التصرفُ وكأننا عصابة؟ لا -إلى حدٍّ ما- ليس كعصابة، فالعصابة ليست من طبيعتنا، لا أريد طبيعة العصابة المتعطشة للسيطرة والسرقة والترهيب، ومع ذلك سنضطرّ إلى بسط السيطرة، وعلى الأرجح سنحتاجُ إلى السطو حتى نعيش، وسنحتاج إلى الترهيب حتى نرهبَ أعداءنا ونقتلهم. سيكون علينا التزامُ الحذر الشديد في تحديد المدَى الذي نسمح فيه لاحتياجاتنا بتشكيلنا، لكن لا بدّ لنا من أرضٍ صالحة للزراعة،

---

(١) الطريق الملكي.

ومصدرِ ماء مستدام، وما يكفي من الحريةِ والأمان حتى نؤسسَ أنفسنا وننمو.

ربما هناك احتمالٌ بعثورنا على مكانٍ معزول على طريق الساحل، وعقد صفقةٍ مع سكانه المحليين. إن كبرتْ مجموعتنا قليلًا وصرنا أفضلَ عتادًا وتسلحًا، لربما سنقايضُ خدماتنا الأمنية مقابلَ منحنا أرضًا، ولربما سنؤمّن التعليم أيضًا، ونوفر خدمة القراءة والكتابة لمن يحتاجها من البالغين الأميين. لربما هناك سوق لهذا النوع من الخدمات، فهذه الأيام الكثير من البالغين والأطفال أميّون. لربما بيدنا تحقيق ذلك، زراعة غذائنا، النمو نحن وجيراننا إلى كينونة جديدة، إلى **بذرة الأرض**.

# ١٩

التغييراتُ.
المجراتُ في أفلاكِ الفضاء تحوم.
النجومُ مشتعلةٌ،
تحترقُ،
تهرمُ،
تبردُ،
تتطورُ.
الربُّ إلهُنا هو التغيير،
والربُّ سينتصر.

بذرةُ الأرض: كتبُ الأحياء

الجمعة، ٢٧ أغسطس ٢٠٢٧

(من اليوميات التي دونتُها بالتفصيل يوم الأحد ٢٩ أغسطس)

اليوم وقعَ زلزال.

ضرب باكرًا هذا الصباح مع انطلاقنا نحو مسير اليوم، وكان قويًّا. الأرضُ نفسها قعقعت، صريرُها خفيض وكأنما صواعق مدفونةٌ فيها، اهتزتْ وارتجفتْ ثم بدا كأنها هبطتْ، أنا موقنةٌ أنها هبطت، لكن إلى أيّ عمق، لا أدري. ما إن توقّف الارتجاف، حتى بدا كلُّ شيء كما كان، خلا بقع الغبارِ المفاجئة المنبعثة هنا وهناك في التلال البنّية حولنا.

أشخاص عديدون زعقوا أو صاحوا وقتَ الزلزال، البعض ممن ينوءُ بمتاعه الثقيل خسر توازنه ووقعَ في التراب أو على الأسفلت المتكسر؛ ترافيس، من كان يحمل دومينيك على صدره وحقيبةً ثقيلةً على ظهره كاد يكون أحد هؤلاء، تعثَّر وترنَّح، واستعادَ توازنه في اللحظة الأخيرة؛ الرضيع لم يُصبْ بأذى لكنه اختضَّ إثر الهزة المفاجئة وراح يبكي، فزاد على ضجّة ولدَينِ كانا يسيران قربنا مع انخراط الجميع المفاجئ في الحديث، ولهاث رجلٍ مسنّ وقع أثناء الزلزال.

وضعتُ شكوكي المعتادة جانبًا، وذهبتُ لأرى إن كان الرجلُ المسن على ما يرام. ليس بيدي فعل الكثير لكنني استعدتُ عصاه التي وقعت بعيدًا عن متناول يده، وساعدته على النهوض. كان خفيفًا كما الطفل، هزيلا وأدردَ ومرعوبًا مني.

ربتُّ على كتفه وأرسلتُه في طريقه، وما إن أدار ظهره تفحّصتُ جيوبي لأرى إن نقص منها شيء، فالعالم مليء بالنشّالين، وغالبًا ما يكونون من المسنّين أو الأطفال.

لا شيء مفقود.

رجلٌ آخر على مقربةٍ مني ابتسم، رجلٌ أسودُ كهل، لكن ليس مسنًا بعد وما زال يتمتع بكل أسنانه، كان يدفع بمتاعه المجموع في خرْجين متدلّيين من عربةٍ معدنية صلبة وصغيرة. لم يقل شيئًا، لكن ابتسامته راقتْ لي فابتسمتُ له، ثم تذكرتُ أنه يفترض بي أن أكونَ رجلًا وتساءلتُ إن كان قد فضح تنكّري، لكن ما همَّني.

عدتُ إلى جماعتي ووجدتُ زهرا وناتيفيداد تهدّئان من روع الطفل، وهاري يلتقط شيئًا من على جانب الطريق؛ مضيتُ نحوه، ورأيتُ أنه وجد خرقةً قذرة معقودة دائريًّا وبشدة حول غرض، مزَّق هاري الخرقة فسقطت منها رزمة نقودٍ على يديه، مئات الدولارات، دزينتان أو ثلاث منها.

«خبئها!» همستُ له.

دسَّ المال عميقًا في جيب بنطاله، «حذاءٌ جديد» قال هامسًا، «حذاءٌ جيد، وأغراض أخرى، هل تحتاجين شيئًا؟».

كنتُ وعدته بشراء زوج أحذيةٍ جديد ما إن نصل إلى متجرٍ موثوق، فحذاؤه كان مهترئًا، والآن فكرةٌ أخرى خطرت إليّ، «إن كان المبلغ كافيًا» همست له، «اشتر به مسدسًا، وأنا سأشتري لك الحذاء، احصل أنتَ على المسدس!» ثم توجهتُ بحديثي إلى الآخرين، متجاهلةً دهشته: «هل الجميع بخير؟».

الكلُّ كان بخير، دومينيك عاد سعيدًا من جديد، يعتلي ظهر

أمّه ويلهو بشعرها؛ زهرا كانت تعيدُ ترتيب حقيبتها، وترافيس مضى ليلقي نظرةً على مجتمعٍ صغيرٍ أمامنا. كانت مزرعةً ريفية، لأيام لم نصادف سوى بلداتٍ صغيرة ميتة، وأحياء ذاوية على جانب الطريق، ومزارع بعضها منتجة، وأخرى مهجورة تغزوها الأعشابُ الضارة.

سرنا جميعًا نحو ترافيس.

«حريق» قال ما إن اقتربنا.

بيتٌ أسفل التلّ من الطريق تصاعدتْ من نوافذه الأدخنة، وحالًا بدأ الناسُ يتوافدون عليه من الطريق السريع، مصيبة. قد يتدبَّرُ مالكو البيت إطفاء الحريق، لكن سيجزعون على مرأى جموع منقّبي القمامة.

«دعنا نبتعد من هنا» قلتُ له، «فالناس هناك ما زالوا أقوياء، وقريبًا سيشعرونَ بأنهم محاصرون وسيقاومون بالسلاح».

«لعلنا نعثرُ على غرضٍ نستفيد منه» عارضتْني زهرا.

«لا شيء هناك يستحقُّ تعرّضنا لإطلاق النار» قلت لها، «هيّا فلنرحلْ من هنا!» سلكْنا الطريق متجاوزين المجتمع الصغير، وما إن ابتعدنا حتى اندلعَ إطلاق النار.

كان لا يزال أناسٌ معنا على الطريق، لكن الأغلب اندفقَ نحو المجتمع الصغير كي ينهب. الجموعُ ما كانت لتنصبّ فقط نحو البيت الواحد المحترق، وكل البيوت الأخرى يقينًا كانت ستقاوم.

ازداد إطلاقُ النار من خلفنا. في البداية أعيرةٌ مفردة، تلتها فرقعةُ تبادل إطلاق النار غير المتساوية من الطرفين، ثم الاصطكاك الذي لا تخطئه الأذنُ لأعيرةِ رشاش آلي؛ أسرعنا، آملين الابتعادَ عن مدى إطلاق النار صوبنا.

«سحقًا» همستْ زهرا تلحق خطاي، «كان يجدرُ بي أن أعرفَ، فالناس هنا في هذه المناطق النائية صعْبو المراس».

«لا أظن صعوبةَ مراسِهم ستنجو بهم اليوم» قلتُ لها وأنا أنظر خلفي؛ أعمدةُ الأدخنة تضاعفت، تتصاعد من أكثر من مكان، تناهى إليَّ خليطٌ من الصياح والزعيق وإطلاق الأعيرة. مكانٌ غبي تُقيمُ فيه مجتمعًا صغيرًا أجردَ، كان يجدرُ بهم التحصّن بالجبال وإخفاء بيوتهم هناك لئلا يراها أحد سوى قلةٌ من الأغراب، معلومةٌ أودعْتها عقلي. كلُّ ما بيد أهل المجتمع فعْله الآن إسقاط ثلةٍ من مهاجميهم صرعَى معهم. في الغد، سينضم الناجون من أحداث اليوم إلى الطريق، حاملين على ظهورهِم الفتات المتبقّي من ممتلكاتهم.

غريب، لكن لا أظن أحدًا على الطريق كان سيفكّر أصلًا في الهجوم على هذا المجتمع بهذا الحشد لو لم يُطلق الزلزالُ -أو أيّ حدثٍ آخر- الحريقَ الأول. حريقٌ صغير كان نقطةَ الضعف التي منحتْ منقّبي القمامة الإذنَ لتدمير هذا المجتمع - وبلا شك هذا ما يفعلونه الآن. فإطلاق النار قد يخيفُ البعض، يقتلُ أو يجرح البعض، ويدفع بالبقية إلى غضبٍ شديد. ما دام اختار هؤلاء الناس

تأسيسَ مجتمعهم في مكانٍ مكشوف وخطير كهذا، كان يجدرُ بهم تحصينه بدفاعاتٍ جبارة، خطٌّ دفاعي من المتفجرات والقنابل الحارقة، شيء من هذا القبيل. قوةٌ كهذه مدمرةٌ ومفاجئة تثير الذعر في جموع المهاجمين وتدفع بهم إلى الفرار بأعمارهم، يغلبهم فزعٌ يفوق دوافعَ الطمع والحاجة التي حادت بهم أصلًا إلى الهجوم. وما دام أهلُ المجتمع لا يملكون تلك الدفاعات المتفجرة، كان يجدرُ بهم القبضُ على أموالهم وأبنائهم والفرار بهم كالمجانين لحظة رأوا الحشد مقبلًا عليهم، فهم أخبر بالتلال من منقّبي القمامة المهاجرين، كان يجدر بهم تأمين مواقع اختباءٍ مجهزة في التلال، أو على الأقل الاختفاء في التلال بينما يفرغ منقّبو القمامة من نهب بيوتهم. لكنهم لم يفعلوا أي شيء من هذا، والآن سحبٌ ثخينة من الدخان تتصاعد خلفنا، تجذبُ حشودًا أكبر من منقّبي القمامة.

«العالم بأسره فقد عقله» قال صوتٌ على مقربةٍ مني، وعرفتُ قبل الالتفات إليه أنه ذاك الرجل مع العربة والخرجَين. كنا أبطأنا سيرَنا قليلا، فتسنّى له اللحاق بنا. هو الآخر تمتّع بما يكفي من المنطق كي لا ينجرَّ مع حشدِ منقبي القمامة ونهب ذاك المجتمع الصغير. لمْ يبدُ لي رجلًا قد ينقّبُ في قمامة، ملابسُه كانت قذرةً وعادية، لكنها تلائمه جيدًا وتبدو شبه جديدة، بنطالُه الجينز كان أزرقَ غامقًا وما زال يحتفظ بتجعيده على مد الساقين، قميصه الأحمر -بنصف كمّين- ما زال محتفظًا بكل أزراره؛ كان يرتدي حذاءَ مشْيٍ باهظ، وقبل وقتٍ ليس بطويل حظي بقصة شعرٍ محترفة وباهظة، فما الذي يفعلُه هنا على الطريق، يدفع بعربة؟ مسكينٌ ثريّ، أو على الأقل كان

مسكينًا ثريًّا. لديه لحيةٌ مكتملة، قصيرة شيباء؛ أُعجبتُ بمظهره مذ وقعت عليه عيناي. يا له من رجلٍ كهلٍ وسيم.

هل فقد العالمُ عقله؟

«مما قرأتُ» رحت أقولُ له، «فالعالمُ يفقدُ عقله كل ثلاثة أو أربعة عقود، الحيلةُ أن تنجو بنفسك إلى أن يستعيدَ العالم رشدَه من جديد». أقرُّ أني كنتُ أتباهى بتعليمي وخلفيتي، لكن لم يبدُ على الكهل الانبهار.

«التسعينيات كانت مجنونة» قال لي، «لكن كانت سنوات رخاء، لا شيء بالسوء الذي نراه اليوم، ولا أظنّه أبدًا كان على هذا السوء، هؤلاء الناس، هؤلاء الحيوانات..».

«لا أدري كيف يطيقونَ التصرفَ هكذا» قالت ناتيفيداد، «أتمنى لو كان بيدنا الاتصال بالشرطة، أيًّا تكن نوعية الشرطة في هذه الأرجاء، لا بد لأربابِ البيوت أن يتصلوا».

«لن ينفعهم في شيء» قلتُ لها، «حتى إن وصلَ رجالُ الشرطة اليوم بدلَ الغد، لن يفرق وجودهم إلا في زيادة عدد الضحايا».

مضَينا قدمًا في سيرنا، والغريبُ يسيرُ معنا. بدا راضيًا بمرافقتِنا، فقد كان بيده التأخرُ عنا أو الإسراع أمامنا فلا حمْل ثقيل يعوقه، وما دام على الطريق، فله أن يسرعَ متى شاء، لكنه التصقَ بنا؛ تحدثتُ إليه، عرَّفته بنفسي وعرفتُ أنَّ اسمه بانكول، تايلور فرانكلين بانكول، اسما عائلتَينا شكَّلا رابطًا فوريًّا بيننا، فكلانا ننحدرُ من

رجالٍ اختاروا التكنّي بأسماء إفريقيةٍ في الستينيات، أبوه وجدّي غيّرا اسمَيهما قانونيًّا، وكلاهما اختار أسماء ذات أصلٍ يَوْروبيّ.

«معظمُ الناس اختاروا أسماء سواحليّة في الستينيات» أخبرني بانكول، أراد أن يُدعى بانكول، «لكن أبي اختار أن يكونَ مختلفًا، طوال حياته سعَى إلى أن يكون مختلفًا».

«لا فكرة لديّ عن دوافع جدي» قلت له، «اسمهُ العائليُّ كان بروم قبل أن يغيّره، وما كان خسارة، لكن لماذا اختار أولامينا؟ حتى أبي لا فكرة لديه، فقد بدّل جدي الاسم قبل مولد أبي، ولطالما حمل أبي اسم أولامينا، ونحن معه».

بانكول كان أكبرَ من أبي بعام، من مواليد السبعينيات، وكان -وفقًا له- مسنًّا جدًّا على السير في الطريق السريع يجرّ كلَّ متاعهِ المخبوء في الخرجَينِ؛ كان في السابعة والخمسين، ووجدتني أتمنى لو كان أصغر سنًّا حتى يعيش عمرًا أطول.

مسنٌّ أو لا، هو من سمع الفتاتَين تستنجدانِ قبل أن نسمعهما.

كان هناك طريق ترابيٌّ أكثر منه أسفلتيّ، ينحدر على جانب الطريق السريع قبل انحرافه عنه صوبَ التلال، وأعلى ذاك الطريق بيتٌ شبه منهار، غبارُ انهياره لا يزال عالقًا أعلاه. لا أظنه كان أصلًا بيتًا متماسكًا قبل انهياره، والآن هو ركام، وما إن نبّهنا بانكول، حتى سمعنا بدورنا الأصواتَ الخافتة المنبعثة منه.

«تبدو لي أصواتَ نساء» قال هاري.

تنهدتُ، «فلنذهبْ ونرى، لربما لن يستلزم الأمر أكثرَ من رفع ألواح عدة من الخشب».

أمسك بي هاري من كتفي، «هل أنتِ متأكدة؟».

«أجل» سحبتُ المسدسَ وأعطيته إياه في حال شلَّني ألمُ أحدهم «راقبْ ظهورنا» قلتُ له.

مضَينا مُرهقين ومتردّدين، مدركينَ أنَّ أصواتَ النجدة قد لا تكون سوى حيلةٍ لجذب الناس إلى شَرَكِ عصابة؛ زمرةٌ من الناس لحقوا بنا خارجَ الطريق، وظلَّ هاري متباطئًا خلفنا، يقفُ بيننا وبينهم؛ بانكول دفع بعربته قدمًا يواكبُ خطاي.

كان ثمة صوتانِ يُناديان من تحت الركام، وكلا الصوتين بدا أنثويًّا، إحداهما تستنجدُ والأخرى تلعنُ، كنا حددْنا مكانهما من صوتَيهما، ثم بدأنا زهرا وترافيس وأنا برفع الأنقاض، ركامٌ جاف ومتكسّر من الخشب والجصّ والبلاستيك، وطوبٌ من مدخنة عتيقة؛ بانكول وقف يراقبُ مع هاري، ملامحه تثيرُ الرهبة، هل يحملُ مسدسًا؟ أملتُ ذلك، فقد جذبْنا نحونا حشدًا صغيرًا من منقّبي القمامة، وأعينُهم المفترسة كانت جائعة؛ معظم الناس تفقَّدوا ما كنا نفعل، ثم مضوا في طريقهم، قلةٌ ظلت في مكانها تحدّق. إن كانت المرأتان عالقتيَن منذ الزلزال، فأنا متفاجئة أنَّ لا أحد سبقَنا إليهما كي ينهبَهما ويشعلَ النار في الركام وهما فيه، أملتُ أن نسرع في انتشال المرأتين والعودةِ إلى الطريق بسرعةٍ قبل أن يقررَ أحدهم استعجالنا، لا شك كانوا سينقضّون علينا لو رأوا شيئًا ذا قيمة.

ناتيفيداد تكلمت مع بانكول، ثم وضعتْ دومينيك في أحد الخرجَين وتحسستْ جيبها للتأكد من وجود سكّينها، لم يعجبْني ما فعلته، فخيرٌ لها الاحتفاظ بطفْلها على صدرها في حال اضطررنا للفرار بجلدنا.

عثرنا على ساقٍ شاحبة، مرضوضةٍ ونازفة لكن ليستْ مكسورةً، عالقة أسفل عارضة؛ قسمٌ كامل من الحائط والسقفِ وجزءٌ من المدخنة انهار على المرأتين، حرّكنا الركام أولًا ثم عملْنا معًا على رفْع القطع الأثقل، أخيرًا جررْنا المرأتين من أطرافهما الظاهرة، ذراع إحداهما وساقها، وساقيِّ الأخرى، ومثلهما لم أجد أيَّ متعة في الأمر، لكن -من جهة أخرى- لم يكن الأمرُ بذاك السوء، فالمرأتان كُشط جلدُهما هنا وهناك، إحداهما كانت تنزفُ من أنفها وفمها، بصقتْ دمها مع سنّين ولعنتْ وراحت تحاول النهوض. تركتُ زهرا تساعدَها، فكلّ ما أردته الابتعاد فورًا عنهما.

المرأة الأخرى كانت دامعة الوجه واكتفتْ بالجلوس والتحديق بنا. أصبحتْ هادئةً بشكلٍ غريب وخالٍ من التعبير، هادئة جدًا. حين حاول ترافيس مساعدتَها على النهوض انكمشتْ ذعرًا وراحتْ تصيح فتركها وشأنها، لم يبدُ عليها أنها تعرضتْ لأذى بالغ، كُشوطٌ فقط، لكن ربما تعرضتْ لضربةٍ في رأسها، أو كانت مصدومةً.

«أين أغراضك؟» سألتْ زهرا المرأة الدامية، «علينا مغادرةُ المكان بسرعة».

عركتُ فمي، أحاولُ تجاوز يقينٍ غير منطقي أني فقدتُ سنّين

من أسناني. شعورٌ فظيعٌ راودني، كشوطٌ وبروزٌ على جسدي وقلبي يخفق، مع ذلك أنا مكتملةٌ ولا شيء بي مكسور، لا أذى أصابني، وكل ما أردتُه أن أجثم في مكانٍ ما إلى أن يخف إحساسي بالتعاسة. سحبتُ نفسًا عميقًا ومضيتُ نحو المرأة المذعورة المنكمشة.

«هل تفهمينَ ما أقول؟» سألتُها.

نظرت إليّ، ثم راحت تتلفتُ حواليها، ورأت رفيقتَها تمسح الدم عنها بيدٍ سخياء، حاولتْ النهوضَ والجري نحوها، تعثرتْ وكادتْ تقع. التقطتُها ممتنةً أنها ليست ضخمة الحجم.

«ساقاكِ على ما يرام» قلت لها، «لكن هوّني على نفسك، علينا مغادرةُ المكان بسرعة، لذا حاولي المشي».



«من أنت؟».

«مجردُ غريب» أجبتها، «حاولي الوقوف».

«وقع زلزال».

«أجل، أعرف، هيَّا امشِ!».

أخذتْ خطوةً مهتزة بعيدًا عني، تلتْها بأخرى، ترنَّحت نحو صديقتها: «آلي؟».

صديقتها رأتها، تعثرتْ في اندفاعها نحوها، عانقتْها ولطّختها بدمها، «جل! الحمد لله!».

«ها متاعهما» قال ترافيس، «فلنأخذْهما بعيدًا عن هنا ما دُمنا قادرين».

تركناهما تمشيانِ قليلا، وحاولنا إقناعَهما برؤية الخطر المحدقِ ببقائنا حيث نحن، فليس بمقدورنا جرّهما معنا رغمًا عنهما، لكن ما المغزَى من انتشالهما إذن إن كنا سنتركُهما تحت رحمة منقّبي القمامة.

هما مضطرتانِ للسير معنا إلى أن تصبحا أقوَى وأقدرَ على الاعتناء بنفسيهما.

«حسنٌ» قالت المرأةُ النازفة، كانت الأصغر حجمًا والأقوى شكيمة بين الاثنتَين، ليس هناك فارقٌ جسدي بينهما، كلتاهما امرأتان بيضاوانِ متوسطتا الحجم وشعرهُما بنّي وفي العشرينيات من العمر، على الأرجح أختان.

«حسنٌ» كررتْ المرأةُ النازفة جوابها، «فلنغادر المكان» كانت تمشي دونَ عرج أو ترنّح على خلاف رفيقتها.

«أعطِني أغراضي».

أشار ترافيس نحو حقيبتَي نومٍ مغبرّتيْن، حملتْ واحدةً على ظهرها، ثم نظرت نحو الأخرى وإلى رفيقتها.

«باستطاعتي حملها» قالت المرأةُ الأخرى، «فأنا بخير».

لم تكن كذلك، لكن كان عليها حملُ أغراضها بنفسها، فلا أحد يقوى على حمل حقيبتَيْ ظهر فترةً طويلة، لا أحد يقوى على القتال حاملًا حقيبتي ظهر.

ثلةٌ من الناس وقفوا حولنا يحدّقون فينا لدَى إخراجنا المرأتين. هاري تقدَّمنا، المسدسُ في يده، شيءٌ ما في ملامحه جليٌّ كما الشمس

أوحَى للجميع أنه مستعد للقتل، إن استفزَّه أحدهم فورًا سيقتل. لم يسبقْ لي أبدًا أن رأيته هكذا، كان منظرًا مبهرًا ومخيفًا وخاطئًا. أجل كانت الملامحُ المناسبة للموقفِ واللحظة، لكن لا تليق بهاري، فهو ليس الرجل الذي يُفترَضُ به أن يبدو يومًا هكذا.

متى بدأتُ أتصوره رجلًا لا ولدًا؟ سحقًا، كلنا الآن رجال ونساء، لم يعدْ أحدنا طفلًا، سحقًا.

بانكول سار خلفنا، ملامحه أكثرَ رهبةً من هاري رغم شَعره الأشيب ولحيته. كان يحمل مسدسًا في يده، استرقتُ نظرةً لدى تجاوزي إياه ورأيته، مسدس أتوماتيك آخر، ربما عيار تسعة ملم، أملتُ أنه يُحسن استخدامه.

ناتيفيداد دفعتْ بعربته وتقدمته، دومينيك لا يزال موجودًا في أحد الخرجين. ترافيس سار إلى جانبها، يحرسها والطفل.

مشيتُ مع المرأتينِ خشيةَ وقوع إحداهما أو محاولة أحمق جرِّ إحداهما؛ المرأة المدعوةُ آلي لا تزال تنزف، تبصقُ الدم وتمسح أنفَها الدامي بذراعها الدامية، أما المدعوةُ جل فلا تزالُ مصدومةً ومضطربة، أنا وآلي أبقينا جل بيننا.

قبل أن يبدأ الهجوم توقعتُه، فمساعدةُ امرأتين عالقتَين صيَّرنا أهدافًا سهلة، ولكُنَّا تعرضنا للهجوم فورًا لولا أنَّ المجتمع خلفنا جذبَ أشرس الناس وأعنفها وأشدها بؤسًا. اليوم دمُ الضعيف مباح، فالزلزالُ هيَّأ المزاج، وكل هجومٍ يحفِّز آخر؛ كل ما بيدنا فعله إعداد أنفسنا للقتال.

وعلى حين غرة، أمسكَ أحدهم بزهرا، فهي ضئيلةُ الحجم، ولا بد بدتْ ضعيفة مثلما بدت جميلة.

وفورًا بعدها أمسكَ أحدهم بي، جسدي التفَّ فتعثرتُ ووقعت. لهذا الحد كنتُ غبية، حتى قبل أن يتسنّى لأحدهم مهاجمتي، تعثرتُ وسقطت، لكن لأن المعتدي سحَبني نحوه، سقطتُ عليه وأوقعته معي أرضًا، وبطريقةٍ ما استطعتُ سحبَ سكّيني وسددتُ الطعنة نحو جسده، نصلُ السكين ذو الستّ بوصات اخترقَ بأكمله الجسد، ثم -في تقمص عاطفيّ مبرح- نخعْتُه عنه.

لا يسعُني وصف الألم.

أخبرني الآخرون لاحقًا أني صرختُ صرخةً لم يسبق لأحد منهم أن سمعَها، لست متفاجئة، فلا شيء آلمني إلى هذا الحد من قبل.

بعد برهةٍ، انحسر الألمُ المبرح في صدري ومات، الرجلُ أعلاي نزف حتى الموت، فقط بعدها بدأتُ أدرك إحساسًا آخر عدا الألم.

أول شيء سمعتُه كان صوت دومينيك يبكي، حينها استوعبتُ أني قد سمعت أعيرةً نارية عدة، أين الجميع؟ هل أصيبوا؟ ماتوا؟ أُسروا؟

أبقيتُ جسدي ثابتًا أسفل الرجل الميت، كان ثقيلًا إلى حدٍّ مؤلم، ورائحة جسده تثير الغثيان، نزفَ على كل صدري، وإن كان أنفي محقًّا في حكمه، ففي موته، تبوّلَ عليّ، مع ذلك لم أجرؤ على التحركِ إلى أن أفهم الموقف حولي؛ فتحت عينيّ قليلًا.

قبل أن يتسنى لي استيعاب ما أرى، أحدهم رفعَ الرجل الميت النتن عني، ووجدتني أنظر إلى وجهَين قلقين: هاري وبانكول.

سعلتُ وحاولتُ النهوض، لكن بانكول ثبّتني أرضًا، «هل تعرضت للأذى؟» سألني بقلق.

«كلا، أنا بخير» رأيتُ هاري يحدّق إلى كل الدماء عليّ، فأردفت: «لا تقلق، الرجلُ الآخر نزفَ كل هذا الدم».

ساعداني على النهوض، واكتشفتُ أني محقة، الرجل الميت تبولَ عليّ، كنتُ شبه مهتاجة، يعتريني احتياجٌ إلى خلع ملابسي القذرةِ والاغتسال حالًا، لكن كان لا بد لهذا الاحتياج أن ينتظر، فمهْما كنتُ مثيرة للاشمئزاز، ما كنتُ لأخلع ملابسي في ضوء النهار لئلا يراني الآخرون، تكفيني المتاعبُ التي عشتها اليوم.

نظرتُ حواليّ، ورأيتُ ترافيس وناتيفيداد يهدئانِ من روع دومينيك إذ لا يزالُ يصيح، زهرا كانت برفقةِ المرأتين الجديدتين، تقفُ حارسة عليهما بينما هما جالستانِ على الأرض، «هل هما بخير؟».

أومأ هاري: «خائفتانِ ومضطربتان، لكنهما بخير، الكلُّ بخير، عداه وأصدقاءه» وأشار نحو الرجل الميت، من حوله ثلاثُ جثث أخرى مرمية.

«بعضهم أصيب» قال هاري، «تركناهم يفرّون».

أومأت: «الأجدى بنا تفتيش الجثث الآن والفرار بدورنا، فنحن على مرأى واضحٍ من الطريق السريع».

انطلقنا بسرعة نحو المهمة، تفحّصنا الجثث بدقة وما كان ينقصنا سوى التفتيش في تجاويف الجسد. لم تبلغ بنا الحاجةُ هذا الحد، ليس بعد. ثم -مع إصرار زهرا- ذهبت خلف البيت المتهدمِ لأغير ملابسي سريعًا، أخذتْ المسدسَ من هاري ووقفت تحرسني.

«أنت ملطخة بالدم» قالت لي، «إن ظنّ الناس أنكِ مصابة قد ينقضّوا عليك، واليوم ليس بيومٍ جيد كي تبدي وكأنكِ تعانين من خطبٍ غريب».

رأيتُ أنَّ معها حق، على كلٍّ كنتُ سعيدة بتركها تقنعُني بفعل شيءٍ أتحرّقُ إلى فعله.

وضعتُ ملابسي القذرة والرطبة في كيسٍ بلاستيكي، أغلقتُه جيدًا، ودسستُه في حقيبتي؛ لو أنَّ رجلاً من أولاء لديه ملابسُ تناسب مقاسي وفي حالٍ جيدة، لرميت بملابسي هذه، لكن بما أنَّ هذا هو الحال، سأضطرُّ للاحتفاظ بها وغسلِها المرة القادمة التي نبلغ فيها محطةَ ماءٍ أو متجرٍ يسمح بالغسيل. كنا جمعْنا مالًا من الجثث، لكن من الأفضل تركه للضروريات.

أخذنا نحو ألفَين وخمسمائة دولار من الجثثِ الأربع، مع سكّينينِ لنا أن نبيعهما أو نعطيهما للشابتين، ومسدسٍ انتزعه هاري من رجلٍ أطلق النار عليه، تبيّن أن المسدس فارغ، مسدس بيريتا قذرٍ عيار تسع ملم. لم يملك صاحبه ذخيرة، لكن يمكننا شراؤها، لربما من بانكول، فعلى هذا سننفق المال. من جهتي عثرتُ على قطع قليلة من المجوهرات في جيب الرجل الذي هاجمني، خاتمين

ذهبيين، عقد من الحجارة الزرقاء المصقولة، أظنّها لازورد، وسماعة أذن واحدة تبيّن أنها مذياع وسنبقي عليه ليطلعنا على ما يجري في العالم خارج الطريق السريع، فخيرٌ لنا ألا نبقَى مقطوعين عن العالم أمدًا أطول. تساءلتُ بيني وبين نفسي عن هوية الشخص الذي نهبه المُعتدي عليّ حتى يحصل على السماعة.

مع الجثث الأربع كلها، عثرْنا على علب أدويةٍ بلاستيكية صغيرة ومخبأة، علبتان تحتويان حبتين، كلٌّ من نوع، والعلبتان الأخريان خاويتان. إذن فهؤلاء أناس لا يحملون الطعامَ ولا الماء ولا أسلحةً جيدة لكن يحملون مخدراتٍ متى ما تمكنوا من سرقتها أو سرقة ما يكفي لشرائها، مدمنو مخدرات. تساءلتُ: ما هو مخدرهم المفضل، بريو؟ وللمرة الأولى في أيام، أجدُني أفكّر في أخي كيث، هل كان يتعاملُ مع تلك الحبوب البنفسجية التي لا نفتأ نجدها مع مَن يعتدون علينا؟ هل لهذا السبب مات؟

لاحقًا، على بُعد أميالٍ من الطريق السريع، رأينا رجالَ شرطة في سياراتهم يتّجهون جنوبًا نحو ما أصبح الآن مجتمعًا محروقًا مليئًا بالجثث، لربما الشرطةُ ستلقي القبض على قلةٍ من منقّبي القمامة المتأخرين، وربما هم أنفسهم سينقّبون، أو ربما سيلقون نظرةً من بعيد ويواصلون القيادة، فما الذي فعلته الشرطةُ لأجل مجتمعي حين احترق؟ لا شيء. المرأتانِ اللتان انتشلناهما من الركام تريدانِ البقاء معنا، أليسون وجيليان غلكرست، شقيقتان، إحداهُما في الرابعة والعشرين والأخرى أكبر منها بعام، فقيرتان، هاربتانِ من حياة

الدعارة، أبوهما كان قوّادهما؛ البيتُ الذي انهار عليهما كان خاويًا حين أوتا إليه قبل ليلَتين، بدا مهجورًا منذ زمنٍ طويل.

«المباني المهجورةُ فخاخ» قالت زهرا لهما ونحن نسير، «هنا في الخلاء، ليست سوى أهدافٍ لكل أنواع الناس».

«لا أحد أزعجنا» قالت جل، «لكن البيتَ انهار علينا ولا أحد ساعدَنا إلى أن جئتم».

«أنتما محظوظتان» قال بانكول لهما حيث كان يسير جانبي، «فليس من عادة الناس هنا مساعدةُ بعضهم البعض».

«ندري» وافقته جل، «نحن ممتنتانِ، وعلى أي حال من أنتم؟».

ابتسم هاري لها ابتسامةً صغيرة وغريبة، «**بذرةُ الأرض**» أجابها ورمقني. اِحذَرْ من هاري متى ما ابتسم ابتسامته هذه.

«وما **بذرةُ الأرض**؟» فورًا وجهتْ جل سؤالها إليّ، بعد أن رمقَني هاري.

«نتشاركُ بعض الأفكار» أجبتُها، «ننوي الاستقرارَ شمالًا، وإقامة مجتمع».

«أين شمالًا؟» سألتْ آلي بجدية، فمُها كان لا يزال يؤلمها، وكنت أشعر بألِمها كلما ركزتُ عليها، على الأقل نزيفها كاد يتوقف.

«نحن نبحثُ عن وظائفَ مقابل رواتبَ ماليةٍ وفي طريقنا نراقب أسعار الماء» أجبتها، «فنحن نريد الاستقرارَ حيث لا يكون الماء مشكلةً كبيرة».

«الماء مشكلةٌ في كل مكان» قالت لنا، «وما أنتم؟ طائفة؟».

«جماعةٌ تؤمن في الأفكار ذاتها» أجبتها.

استدارتْ حتى تحدقُ فيَّ بنظرة بدتْ عدائيةً: «أؤمن أن الدّينَ ليس سوى خراء كلب!» قالت في نبرتها التصريحية، «إما زائفٌ أو جنونيّ».

هززت كتفيّ: «رافقينا أو امضي في طريقك، الخيارُ خيارُكِ».

«وما الذي تمثله طائفتُكم اللعينة؟» سألت بإلحاح، «وأي ربّ تعبدون؟».

«أنفسنا» أجبتُها، «فمن هناك غيرَ أنفسِنا؟».

أشاحت بوجهها عني في اشمئزاز، ثم عادتْ واستدارت نحوي: «هل نحن مجبرتان على الانضمام إلى طائفتكم إن أردْنا مرافقتكم؟».

«كلا».

«حسنٌ إذن!» أدارتْ ظهرها لي وتقدمتْني كأنها لتوّها انتصرت عليّ.

رفعتُ صوتي عاليًا بما يكفي لأروّعها، وكالصاعقةِ أسقطتُه على مؤخرةِ رأسها قائلة: «خاطرنا بحياتنا اليوم لأجلكما».

اختضّتْ، ومع ذلك رفضت النظر إليّ.

واصلتُ: «لا تدينانِ لنا بشيء، فما فعلناه اليوم ليس غرضًا

تشتريانه منَّا، لكن إن كنتما سترافقانِنا ووقعتْ مشكلة في الطريق، ستقفانِ إلى جانبنا، ستقفانِ معنا، هل ستفعلان ذلك أم لا؟».

تأرجحتْ آلي نحوي، متيبسة غضبًا. وقفتْ أمامي تمامًا وما تزحزحتْ.

بدوري ما وقفتُ ولا استدرت نحوها، فلم يكن الوقت المناسب لأريها أيَّ انكسارٍ مني، احتجتُ أن أعرفَ إلى أين قد يصلُ بها كبرياؤها وغضبُها، إن كانت عدائيتُها الظاهرة حقيقيةً، أم متأتية عن ألمها؟ هل ستكون مشكلة لا تستحق عناء تحملها؟

حين أدركتْ أني تقصدتُ تجاوزها وسأهجرُها وراء ظهري متى ما أردتُ، انزاحت ومشت جانبي وكأنها أصلًا كانت تنوي فعل ذلك.

«لو لا أنكم أنتم من انتشلتمونا من الركام» قالت لي، «لما اكترثْنا لكم». وسحبتْ نفسًا عميقًا مرهقًا، «لسنا عاجزتين عن رعاية نفسينا، ونعرفُ كيف نساعد أصدقاءنا ونقاتل أعداءنا، فهذا ما نفعله مذ كنا أطفالًا».

نظرتُ إليها، أفكِّر بالقليل الذي أخبرتنا به هي وشقيقتها عن حياتهما: الدعارة، والدهما القواد. حكايةٌ مذهلة إن صدقتْ، ولا شك بأن التفاصيل أكثر إثارةً، فمثلًا، كيف تمكنتا من الفرار من أبيهما؟ لا بد من إبقاء العينِ عليهما طوال الوقت، لكن لعلّهما تستحقان العناء.

«أهلًا بكما» قلت لها.

حدَّقتْ فيَّ، أومأتْ، ثم تقدمتْني في خطىً واسعة. أختُها كانت قد تخلفتْ في سيرها حتى تسيرَ جانبنا بينما كنا نتكلم، ثم أسرعتْ في مشيها حتى تلحقَ بها. زهرا، من بدورها تخلفتْ في سيرها أيضًا كي تبقي عينيها على الأخت، كشّرتْ في وجهي وهزّتْ رأسها، ثم مضت قدمًا حتى تنضم إلى هاري الذي كان يقودُ المجموعة.

بانكول عاد يسيرُ إلى جانبي، وأدركتُ أنه ابتعد ما إن لاحظ التوترَ بيني وبين آلي.

«عراكٌ واحدٌ في اليوم يكفيني» قال حين رآني أنظر إليه.

ابتسمتُ: «شكرًا لوقوفكَ إلى جانبنا».

هزَّ كتفيه: «فوجئتُ برؤية شخصٍ آخرَ يكترث بما أصاب غريبتَين».

«أنتَ اكترثتَ».

«أجل، ويومًا ما سيقتلُني اكتراثي؛ إن لم يكنْ من مانع لديك، أودُّ أيضًا الانضمامَ إلى جماعتكم».

«أنت أصلًا منَّا، أهلًا بك».

«شكرًا لك» قال لي وابتسم، عيناه صافيتانِ بقزحيتَين بنّيتين غامقتين، عينان فاتنتان. وجدتني معجبةً به كثيرًا، خيرٌ لي أن ألزم حذري.

في وقتٍ متأخر من اليوم وصلْنا سالِيناس، مدينةٌ صغيرة بدت وكأنَّما لا شيء من الزلزال وتوابعه مسّها، الأرضُ من أسفلنا

تسري الرجفة فيها بين آن وآن. كذلك بدت ساليناس وكأنها لم تُمس بقطعان منقبي القمامة الجائعين التي ما فتأنا نراها مذ حريق المجتمع الأول هذا الصباح. فوجئنا كثيرًا بما يحدث، فتقريبًا كلّ المجتمعات الصغيرة التي مرزْنا بها اندلعت فيها النيران وعاث فيها منقّبو القمامة سلبًا ونهبًا، كأنما وقوعُ الزلزال منحَ مساكينَ البارحة الخانعينَ متثاقلي الخطى الحقَّ بالتحوّل اليوم إلى حيواناتٍ مفترسة تنقضُّ على كل إنسانٍ ما زال يعيشُ في بيته.

خامرني الشكُّ باقتراب أغلبية المنقّبين المتوحّشين خلفنا، يقتلونَ ويموتون ويتعاركون على الغنائم؛ ما سبق أن بذلتُ جهدًا في تفادي رؤية ما حولي مثلَ الجهد الذي بذلته اليوم. الدخانُ والضجيج ساعدا في حجبِ الكثير عني، إذ يكفيني ما كنتُ أعانيه مع الألم المبْرح في وجه آلي وفمِها، ومع البؤس الذي يكتنفُ الطريقَ السريع.

كنا مُنهكين لدَى وصولنا إلى ساليناس، لكن قررْنا المضيَّ في مسيرنا ما إن نتزود بالمؤونة ونغتسل، لم نُرد التواجدَ في البلدة متى ما وصل أسوأ المنقّبين. لربما سيغلبهم الخمولُ والإرهاق بعد يومهم الطويل من الحرْق والنهب، لكنني شككتُ في ذلك، ستتملكُهم نشوةُ القوة والجوع للمزيد. كما قال بانكول: «ما إن يقتنع الإنسان بشرعية الحصول على ما يريد وتدمير البقية، فمن يدري إلى أي دركٍ سينحدر».

لكن ساليناس بدتْ محصنة، سياراتُ الشرطة مصفوفةٌ على جانبي الطريق السريع، رجالُها يحدقون فينا، بعضهم يمسكُ بسلاحه

أو رشاشه وكأنه تواقٌ إلى أوهَى حركة تبرر إطلاقه النار علينا، لربما لديهم فكرةٌ عن الآتي إليهم في القريب.

احتجنا إلى التزود بالمؤونة، لكن لم ندْرِ إن كان سيُسمح لنا، إذ يبدو على ساليناس أنها من نوعية «الزم الطريق». تلك النوعيةُ من البلدات التي تريدُك خارج أراضيها مع مغيب الشمس إلا إن كنتَ من قاطنيها؛ هذا الأسبوع والأسبوع الماضي مررْنا على بلدات قليلة كهذه.

لم يوقفنا أحد حين حِدْنا عن الطريق باتجاه المتْجر. كنا قلة من الناس على الطريق، وكان بمقدور الشرطة مراقبتُنا جميعًا، رأيتهم يراقبون مجموعتنا بالذات، لكن لا أحد منهم أوقفنا، فقد كنا مجموعةً هادئة، كنا نساءً ورضيعًا وبرفقتنا رجال، وثلاثةٌ من مجموعتنا بيض، كلها صفاتٌ خدمتنا.

حراسُ الأمن في المتاجر كانوا مسلّحين أيضًا كما الشرطة، مسدساتٌ آلية وبنادقُ، رشاشاتٌ منتصبة على الحوامل في الحجيرات أعلانا؛ بانكول قال إنه لا يزال يذكر الأيام الخوالي وقتَ كان حارسُ الأمن يملك إما مسدسَ يد أو هراوة، أبي أيضًا اعتاد قول هذا.

بعضُ الحراس إما لم يتلقُّوا التدريب الكافي، أو منتشون بالقوة أيضًا كما أقرانهم من منقّبي القمامة، إذ فورًا صوّبوا كلَّ أسلحتهم علينا. كان جنونيًّا، اثنان أو ثلاثة منا دخلوا متجرًا وفورًا سدّد الحراسُ سلاحين أو ثلاثة نحونا؛ في البدء لم نعرف ما يجري، جمدْنا في مكاننا، نحدّق، ننتظر ما سيحدثُ.

الشبابُ خلف الأسلحة ضحكوا، أحدهم قال: «إما تشتروا شيئًا أو انقلعوا من هنا!».

وانقلعنا؛ فهذه متاجرُ صغيرة، وهناك الكثير في البلدة نختار منها، وتبيّن أنَّ الحراس في بعضها عاقلون. يا تُرى كم حادثة ارتكبها هؤلاء الحراسُ المجانين بأسلحتهم، أظن كل حادثة وقعت جُيِّرت عمليةَ سطوٍ مع ميولٍ إجرامية واضحة تتجاوز الشبهة.

الحراسُ في محطة الماء كانوا هادئين ومحترفين، أبقوا على أسلحتِهم منخفضة وأقصى ما فعلوه شتْم الناس حتى يُسرعوا، شعرْنا بالأمان، لم نشترِ الماء ونغسل ملابسنا ونجففها سريعًا فحسب، بل استأجرنا حُجَيرتينِ -للرجال والنساء- حيث تحمَّمنا في حوض الماء في كلّ حجيرة، وطبعًا وقتها حُسمتْ مسألة انتمائي الجندري بالنسبة للناس الجدد، هذا إن لم يدركوا أصلًا حقيقتي.

أخيرًا نحنُ شبه نظاف، محمّلين بمؤونتنا من الطعام والماء والذخيرة لمسدساتِنا الثلاثة، وبالمرَّة ذخيرةٌ من الواقياتِ الذكرية لاستخدامي المستقبليّ. مضينا خارج البلدة، وفي طريقنا مررْنا على سوق بالة في شارعٍ صغير على حدود البلدة، كان هناك عدد قليل من الناس يعرضونَ بضائعهم، معظمها خردة منتشرة على الطاولات أو على الأبسطة القذرة المفرودة على الأسفلت؛ بانكول لمح بندقية على طاولة من الطاولات.

كانت بندقيةً عتيقةً، بندقية قنّاصة ونشستر، فارغة بالطبع، مع سعةِ خمس رصاصات، والبندقية -كما أقر بانكول- ستكون بطيئة

لكنها راقت له، تفحَّصها بعينَيه وأصابعه وراح يساومُ صاحبَيها الرجل والمرأة المسنّيْن والمسلّحيْن. كانت طاولتهما من الطاولات النظيفة حيث البضاعةُ مصفوفة بشكلٍ مرتب، آلة كاتبة يدوية وصغيرة، رزمة كتب، أدوات يدوية عدةٌ مستهلكة لكن نظيفة، سكّينان في غمدَين جلديينِ هرئين، قدور عدة، والبندقية ذات المعلاق والمنظار.

وبينما كان بانكول يماحكُ الرجلَ حول البندقية، اشتريتُ أنا القدور من المرأة. سأضعها في عربة بانكول، فالقدورُ كبيرة كفاية لاحتواء ما يكفينا من الحساء أو اليخنة أو حبوب الإفطار، فنحنُ تسعة الآن وحصولنا على قدور أكبر قرارٌ منطقي، ثم انضممتُ إلى هاري عند حزمة الكتب.

عدا الكتب الأدبية لم نجدْ شيئًا، اشتريتُ كتاب مختاراتٍ شعريةٍ ضخمًا وهاري اشترى روايةً غربية. الآخرون، إما من قلة المال أو قلة الاهتمام تجاهلوا الكتب. لو كان بيدي حملها لاشتريت كتبًا أكثر، لكن حقيبتي بلغتْ حدَّ الثقل الذي أطيقه أثناء سيري طوال النهار.

مساوماتنا انتهت، ووقفنا بعيدًا عن الطاولة في انتظار بانكول الذي فاجأنا، فقد أقنع الرجل المسنَّ بتخفيض السعر إلى المبلغ الذي ظنّه مناسبًا، ثم نادَى علينا جميعًا، «هل يعرف أيكم كيف يستخدمُ بندقيةً كهذه؟».

أنا وهاري نعرفُ، ودعانا إلى إلقاء نظرةٍ على البندقية. الكل ألقَى نظرة عليها، البعض بنظرة استغراب وآخرون بنظرة اعتياد. حينما عشنا في الحيّ، هاري وأنا تدربنا على أسلحةِ أرباب البيوت

الآخرين، بنادق وبنادق رش ومسدسات، أيًا يكن السلاحُ القانوني حينها شاركناه، على الأقل في تمارين الرماية، فأبي أرادنا أن نعتادَ على أيّ سلاح متوفر؛ هاري وأنا راميان جيدان، مؤهلانِ لإطلاق النار، لكن لا خبرة لدينا في شراء الأسلحة المستعملة. أعجبتْني البندقية، أعجبني منظرها وإحساسي بها، لكن لا قيمة كبيرة في إحساسي هذا. بدا على هاري أنها أعجبتْه أيضًا، لكن المشكلة هي ذاتها.

«تعالوا هنا» قال بانكول، يبعدنا عن سمْع العجوزين: «يجدر بكم شراء البندقية» قال لنا، «فقد سلبْتم ما يكفي من المدمنينَ الأربعة لشرائها بالسعر الذي أقنعتُ الرجل بالموافقة عليه، فأنتم بحاجةٍ -على الأقل- إلى بندقيةٍ واحدة ذات مدى إطلاق بعيد، وهذه مناسبة».

«بهذا المال نشتري الكثير من الطعام» قال ترافيس.

بانكول أومأ: «أجل، لكن الأحياءَ فقط من يحتاجون إلى الطعام، اشترْها، وسترد لك قيمتَها مع أول مرةٍ تحتاج إليها. أيُّ شخصٍ آخر يجهل استخدامها سأعلمه، فأبي وأنا اعتدنا صيد الغزلان ببنادق كهذه».

«البندقية عتيقة» قال هاري، «لو كانت آلية».

«لو كانت آلية لما طقتَ تكلفتَها» هزَّ بانكول كتفيه، «فهي رخيصةٌ لأنها قديمة وقانونية».

«وبطيئة» قالت زهرا، «وإن كنتَ تظن أنَّ تسعيرةَ ذاك الرجل رخيصةٌ فأنت مجنون».

«أعرفُ أني جديدة هنا» قالت آلي، «لكني أتفقُ مع بانكول، فأنتم ماهرون مع المسدسات اليدوية، لكن عاجلًا أم آجلًا، ستواجهون شخصًا خارج مدى مسدساتكم وسيقطفكم واحدًا واحدًا، سيقطفُنا واحدًا واحدًا».

«ويومها هذه البندقية ستنقذُنا؟» سألت زهرا باستهجان.

«أشكُّ أنها ستنقذنا» أجبتها، «لكن مع رامٍ محترفٍ خلفها، لربما سنحظَى بفرصة» ونظرت نحو بانكول: «هلْ أصبتَ أيًّا من تلك الغزلان؟».

ابتسم: «غزالًا أو غزالين».

لم أرد له الابتسامة: «لمَ لا تشتري البندقيةَ بنفسك؟».

«لا أطيق تكلفتها» أجابني، «لديّ ما يكفيني للنجاة وتأمين احتياجاتي الضرورية لفترة، كلُّ شيء آخرَ إما سرق مني أو احترق».

لم أصدقه تمامًا، لكن، أيضًا، لا أحد يعرفُ كم معي من مال، وأظنه -بطريقة ما- يستكشفُ قوتنا الشرائية، هل نملكُ ما يكفي من مالٍ للصرف المفاجئ وبمبلغٍ كبير على بندقية عتيقة؟ وما الذي ينوي عليه إن فعلًا اشتريناها؟ أملتُ -وليس للمرة الأولى- ألا يكون مجردَ لصٍّ وسيم، مع ذلك أعجبتني البندقية، ونحن صدقًا بحاجةٍ إليها.

«هاري وأنا راميان جيدان أيضًا» قلت للمجموعة، «ومن ملْمسها تعجبني، وهي أفضلُ ما نطيق شراءه الآن، هل لاحظ

أحدكُم أيَّ عيبٍ حقيقيّ فيها؟».

كلٌّ راح ينظر للآخر، لا جواب.

«تحتاج فقط إلى التنظيفِ وذخيرة من عيار ٣٠-٠٦» قال بانكول، «فقد ظلتْ فترةً طويلة بلا استخدام، لكن من الواضح أنها تلقَّتْ عناية جيدة، إن اشتريتموها، أظنني سأتدبّر شراء عدّة التنظيف والذخيرة».

وهنا قلتُ قبل أن يتسنّى لأحد الكلام: «إن اشتريناها فعرضُك مقبول، من منكم يعرف كيف يتعاملُ مع بندقية؟».

«أنا أعرفُ» قالت ناتيفيداد، وحين فوجئنا، ابتسمتْ: «لا أشقاء لي، وكان لا بدَّ لأبي أن يعلم أحدًا».

«لم يتسنَّ لنا إطلاق النار، ولا مرة واحدة» قالت آلي، «لكن سنتعلم».

جل أومأت: «لطالما أردتُ التعلم».

«أنا أيضًا سأحتاجُ إلى التعلم» أقرَّ ترافيس، «فحيث نشأتُ كانت الأسلحةُ إما مقفلٌ عليها أو يحملها الحراسُ المأجورون».

«فلنشترِها إذن» قلت لهم، «ولنغادرْ هذا المكان، فالشمسُ ستغرب عن قريب».

أوفَى بانكول بكلمته، واشترى عدّة التنظيف والكثيرَ من الذخيرة، أصرَّ على شرائها قبل مغادرتنا البلدة، فكما قال: «من يدري متى سنحتاجُ إليها، أو متى سنجدُ أناسًا يقبلون ببيعها علينا».

ما إن اشترى ما يُريد غادرنا البلدة.

لدى مغادرتنا حملَ هاري البندقيةَ الجديدة وحملت زهرا مسدسَ البيريتا، كلاهما فارغان وفي حاجةٍ إلى عناية قبل تلقيمهما، فقط بانكول وأنا من كنا نحملُ أسلحةً ملقمة بالكامل. تقدمتُ الركْبَ وتولّى هو حراسة المؤخرة، فالظلامُ بدأ يحلّ، وخلفنا من بعيد، تناهت إلينا أعيرةُ النار ورعدُ الانفجارات الصغيرة المكتوم.

# ٢٠

**الربُّ ليس بالصالح،**

**ولا الشرير،**

**ليس بالمحب،**

**ولا الكاره.**

**الرب جبروت.**

**الرب إلهنا هو التغيير.**

**وكل ما عدا صفتيه هاتين،**

**يتحتم علينا البحث عنه في أنفسنا،**

**في بعضنا البعض،**

**في المصير الذي يجمعنا.**

بذرة الأرض: كتب الأحياء

السبت، ٢٨ أغسطس ٢٠٢٧

(من اليوميات التي دونتها بالتفصيل يوم الثلاثاء ٣١ أغسطس)

كان يفترضُ باليوم أو الغد أن يكونَ يوم راحة، لكننا اتفقنا

ألّا نستريح. فليلُ البارحة ضجَّ بإطلاق نارٍ من بعيد، بالمتفجرات والنيران. كان لنا أن نرى الحرائق خلفنا، لكن ما كان من حرائق أمامنا، لذا بدا منطقيًّا المضيّ قدمًا رغم إنهاكنا.

ثم، هذا الصباح، نظفتُ سماعة الأذن السوداء الصغيرة الإذاعية بكحول من حقيبتي، أدرْتها ووضعتها في أذني، ورحت أسردُ ما أسمع بما أنَّ صوتها لا يصلُ إلى البقية.

ما أخبرنا به المذياع لم يحثنا فقط على نسيان الراحة، بل على تغيير خططنا.

كنا عازمينَ على متابعة السير على الطريق السريع ١٠١ حتى سان فرانسيسكو وعبور جسر البوابة الذهبية، لكن المذياع حذّرنا من الاقتراب من الساحل الغربي. فمن سان خوسيه وحتى سان فرانسيسكو وأوكلاند وبيركلي لا شيء سوى الفوضى، الزلزالُ ضرب تلك المنطقة بقوة، ومنقبو القمامة والمفترسون والشرطة وجيوش شركات الأمن الخاصة، كلهم عازمون على تدمير ما تبقَّى؛ معهم، بالطبع، مخدر بريو يلعب لعبته. بعيدًا في الشمال، يختصر مراسلو الراديو الاسم إلى «برو» أو «رو» ويقولون إن ثمة الكثيرَ من المدمنين.

يتراكضُ المدمنون مسعورين في كل مكان، يشعلون النيران في المناطق التي لم يصبْها الزلزالُ بأضرار، تسبقهم حشودُ فقراء الشارع أو تلحق بهم، تسلب كل ما تقع عليه أياديها في المتاجر ومقاطعات الأغنياء المسوَّرة وما تبقّى من الطبقة الوسطى.

في بعض المناطق يفر الأغنياءُ بطائرات الهليكوبتر، الجسورُ التي لم يصبها الزلزال بضرر -ومعظمها لم تصب- محروسة إما بقبضة الشرطة أو العصابات، وكلا الفريقين متواجدانِ هناك كي ينهبا الهاربين اليائسين من أسلحتهم وأموالهم وطعامهم ومائهم، وهذا الضرر الأصغر. فعقوبة فقركَ الشديد الضرب والاغتصاب أو الموت. فعَّلت الحكومةُ قوات الحرس الوطني حتى تستعيد النظام، وفي النهاية ستستعيده، لكن على المدى القصير ستتفاقم الفوضى. فما الذي بيد مجموعةٍ أخرى مدججةٍ بالسلاح أن تفعله في أوقات مجنونة كهذه؟ قد يأخذ العاقلون أسلحتهم وعتادهم ويختفون لمساعدة عوائلهم، آخرون سيجدون أنفسهم في حربٍ مع أهاليهم ومعارفهم، سيتملكهم الرعبُ والارتباك ويغدون خطرين. وبالطبع، منهم من سيكتشف لذةَ تمتعه بالجبروت، القوة على إخضاع الآخرين وإذلالهم، القوة على سلب ما يريد، ملكية، جنس، روح...

وضعٌ سيء، ينبغي بنا تفادي الساحل الغربي لأمدٍ طويل.

بسطنا الخرائط على الأرض، درسناها بينما كنا نتناول الإفطار وقررنا أن نحيد عن الطريق السريع ١٠١. سنسلك طريقًا داخليًّا أصغر، وأكثر خواءً بلا شك، نحو بلدة سان خوان بوتيستا الصغيرة، ثم نمضي شرقًا على مدِّ طريق الولايات ١٥٦، ومن ١٥٦ حتى ١٥٢ نحو التقاطع ٥، ثم سنسلك الطريق من ١ – ٥ للالتفاف حول الساحل الغربي، ولأيام سنقطع مركز الولاية بدلًا من السير على طول الساحل، قد نضطر إلى التحول عن طريق ١–٥ والمضي شرقًا نحو طريق الولاية ٣٣ أو ٩٩.

يريحني الخلاء حول معظم الطريق ١-٥، فالمدن خطرة، حتى البلدات الصغيرة قد تصبح مميتة. مع ذلك، لا بد لنا من التزود بالمؤونة، على الأخص لا بد لنا من التزود بالماء؛ حتى إن تطلب الحصول عليه الذهاب إلى المناطق الآهلة حول طريق من الطرق السريعة، سنفعلها. في الوقت الحالي سنلتزم الحذر، نتزود بالمؤونة كلما تسنت لنا الفرصة، لا نفوت أبدًا فرصة التزود بالماء والطعام، ولن نهدر قطرة ماء ولا لقمة طعام، لكن، اللعنة، الخرائط قديمة، ولربما المنطقة حول الطريق ١-٥ مأهولة أكثر مما كانت عليه.

حتى نصل ١-٥، سنمر على بحيرة كبيرة من الماء العذب - خزَّان سان لوي، جافٌّ على الأرجح. فعلى مر الأعوام القليلة الماضية جفَّت أغلبية المسطحات المائية، لكن سيكون هناك أشجار، مواقع ظليلة، مكان ننال فيه قسطًا من الراحة، ولربما سنجد على الأقل محطة ماء واحدة. إن كنت محقة، سنخيم هناك ونرتاح يومًا أو اثنين، فالراحة مستحقة بعد كل السير على الأقدام عبر التلال.

أتوقع أننا سنشهد في الأيام المقبلة نزوح منقبي القمامة شمالًا نحونا، من ساليناس، ونزوح اللاجئين جنوبًا نحونا، من الساحل الغربي. الخيار الأمثل أمامنا عدم اعتراض طريق أيٍّ منهما.

انطلقنا باكرًا، معزَّزين بالطعام الجيد الذي اشتريناه في ساليناس، مع أطعمة إضافية كان يجرها بانكول في عربته وشاركنا جميعنا في شرائها. أعددنا شطائر -لحم مجفف، جبنة، شرائح طماطم- في خبز من دقيق القمح وتناولنا العنب. لكن للأسف الشديد اضطررنا إلى

التعجل، ولولا ذلك لتمتعنا بالطعام الشهي، إذ مرَّ زمنٌ طويلٌ منذ أن تناولنا شيئًا مثله.

الطريق السريع شمالًا كان خاويًا اليوم أكثر من أي يوم مضى. كنا الحشد الأكبر فيه -ثمانية بالغين وطفل- وبقية الناس نأوا بأنفسهم عنا. عدد من السابلة الآخرين كانوا أفرادًا أو أزواجًا مع أطفال، كلهم بدوا على عجلة من أمرهم -كأنما هم، أيضًا، يعرفون ما القادم خلفهم- لكن هل هم مدركون علام سيقبلون، ما الذي ينتظرهم إن استمروا في السير على الطريق ١٠١؟ قبل مغادرتنا ١٠١ حاولت تحذير امرأتين ترتحلان وحدهما مع أطفال من الاقتراب من منطقة الساحل الغربي، أخبرتهما أني سمعت بوقوع مشاكل كثيرة هناك، حرائق وشغب وأضرار فادحة جراء الزلزال، لكن كلٌّ تشبثت بأطفالها وابتعدت عني.

ثم غادرنا الطريق ١٠١ وسلكنا طريق التلال الصغير، طريقنا المختصر إلى سان خوان بوتيستا. كان ممهدًا ولم يتعرض إلى ضرر بالغ، وموحشًا، إذ لأميال لم نرَ أحدًا على الإطلاق. لا أحد لحق بنا من الطريق ١٠١، مررنا على مزارع ومجتمعات صغيرة وأكواخ، وأهلها القاطنون فيها خرجوا إلينا بمسدساتهم وحدقوا فينا، لكن سرعان ما تركونا وشأننا. الطريق المختصر نجح، وتدبرنا الوصول إلى سان خوان بوتيستا وقطعها قبل حلول الظلام. خيَّمنا على حدود شرق البلدة، كنا جميعًا منهكين، أجسادنا تؤلمنا وأقدامنا متقرحة ومتبثرة. كم تقت إلى يوم راحة، لكن ليس بعد، ليس بعد.

فردت كيس نومي جانب بانكول واستلقيت، النعاس أصلًا يتملكني. كنا سحبنا القرعة على جدول الحراسة ونوبتي لن تحين حتى الصباح الباكر، تناولت المكسرات والزبيب، الخبز والجبنة، ونمت فورًا كجثة.

الأحد، ٢٩ أغسطس ٢٠٢٧

(من اليوميات المدونة بالتفصيل الثلاثاء ٣١ أغسطس)

باكرًا، هذا الصباح، استيقظت على صوت إطلاق نارٍ، كان قريبًا ومدويًا. دويٌّ متتابع لأعيرة رشاشات آلية، وضوءٌ من مكانٍ ما.

«اثبتي في مكانك» أحدهم قال لي، «اثبتي والتزمي الصمت». كان صوت زهرا، فهي من تتولى النوبة قبلي.

«ما الذي حدث؟» سألتْ إحدى الأختين مذعورة، «علينا الفرار من هنا!».

«الزمي مكانك!» همستُ لها، «اثبتي وسنتجاوز الأمر».

كان بوسعي رؤية مجموعتين تتراكضان من الطريق السريع -١٥٦- مجموعة تلاحق أخرى، وكل مجموعة تطلق النار كأنها وعدوتها آخر البشر المتبقين على الأرض. فرصتنا الوحيدة كانت في بقائنا منخفضين على أمل ألا يطلق أحدهم النار خطأً علينا، إن لم نتحرك، قلَّ احتمال وقوع خطأ.

الضوء كان صادرًا عن حريقٍ على مسافةٍ منا، ما كان حريق مبانٍ، فنحن لم نخيم قرب مبانٍ، مع ذلك شيءٌ ما كان يحترق، واستنبطت أن ذاك الشيء شاحنة كبيرة، ولربما هي السبب وراء إطلاق النار. أحدهم، مجموعة، حاولت اختطاف شاحنة على الطريق السريع وتدهورت الأمور، والآن -أيًّا كانت حمولة الشاحنة- وعلى الأرجح كانت تحمل طعامًا، فالنار التهمتها، لا الخاطفون ولا المدافعون انتصروا في معركتهم هذه.

نحن سننتصر إن استطعنا النأي بأنفسنا عن مدى القتال.

مددتُ يدي كي أتحسس بانكول، وأطمئنَّ بأنه على ما يرام.

لم يكن هناك، كيس نومه ومتاعه موجودان، هو لا!

تحركتُ بأقل قدر ممكن، ونظرت نحو منطقة قضاء الحاجة، لا بد أنه هناك، عجزت عن رؤيته، لكن أين عساه يكون؟ توقيتٌ خاطئ. خزَّرتُ عينيَّ، أحاول لمحه، محتارةً إن كان يجدر بي الشعور بالارتياح أو الخوف، إذ إن استطعت رؤيته، فكذلك الآخرون.

استمر إطلاق النار، استمر، وبقينا منبطحين في ذعرٍ وسكون، بينما تعرضت شجرة من الأشجار -التي نخيم أسفلها- لإطلاق النار مرتين، فوق رؤوسنا.

ثم انفجرت الشاحنة، لا أدري ما الذي انفجر فيها، لم تبد لي شاحنة قديمة -إحدى الشاحنات التي تسير على الديزل- لكن لعلها كانت كذلك، وهل ينفجر الديزل؟ لا أدري.

أنهى الانفجار -على ما يبدو- إطلاق النار. طلقات قليلة تبادلها الطرفان، ثم لا شيء. رأيت أناسًا، على ضوء الحريق، يعودون نحو الشاحنة، ورأيت آخرين -مجتمعين في زُمر- يتحركون بعيدًا تجاه البلدة. الجماعتان راحتا تبتعدان عنا، وتنفسنا الصعداء.

والآن، أين بانكول؟ وبأخفت صوت تدبرته سألتُ الآخرين، «هل رأى أحدكم بانكول؟».

لا إجابة.

«زهرا، هل رأيته حين غادر؟».

«أجل، قبل دقائق من إطلاق النار».

حسنٌ، إن لم يعد عن قريب، سنضطر للبحث عنه. بلعت ريقي، أحاول ألا أتصور عثوري عليه جريحًا أو ميتًا، «هل الجميع على ما يرام؟» سألتهم، «زهرا؟».

«أنا بخير».

«هاري؟».

«أنا بخير».

«ترافيس، ناتيفيداد؟».

«نحن بخير»، أجاب ترافيس.

«وماذا عن دومينيك؟».

«أصلًا لم يستيقظ من نومه».

لحسن الحظ، لو استيقظ لتسبب بكاؤه بقتلنا جميعًا، «آلي، جل؟».

«نحن بخير»، أجابت آلي.

جلستُ حذرةً، أتمهل في حركتي، لم أرَ شخصًا أو أسمع أي شيء عدا الحشرات والحريق البعيد. بعد مرور وهلة لم أتعرض فيها لإطلاق النار، جلس الآخرون مثلي، وبينما لم يوقظ الضوء والضجيج دومينيك، حركة أمه تكفلتْ بذلك، استيقظ وراح يئن، لكنَّ ناتيفيداد احتضنته حالًا، وهدأ.

ظل بانكول مفقودًا، أردتُ النهوض والبحث عنه، وفي ذهني صورتان: إحداهما أن يكون ملقىً على الأرض جريحًا أو ميتًا، والأخرى أن يكون رابضًا خلف شجرة قابضًا على مسدس البيريتا عيار تسعة ملم. إن كانت الثانية هي الحقيقية، سأخيفه ويطلق النار عليّ. ولربما أصلا هناك أناسٌ حولنا أعصابهم تالفة مع مسدسات في أيديهم.

«كم الساعة الآن؟» سألت زهرا إذ كانت تحمل ساعة هاري.

«الثالثة والأربعين».

«أعطني المسدس!»، قلت لها، «فنوبتك على وشك الانتهاء».

«وماذا عن بانكول؟» سألتني وهي تمرِّر الساعة والمسدس لي.

«إن لم يعد خلال خمس دقائق، سأبحث عنه».

«انتظري دقيقة!» قال هاري. «لن تبحثي عنه وحدك، سأرافقك».

كدت أقول لا، ولا أظنه كان سيعيرني بالًا إن قلتها، ولم أقلها.

إن كان بانكول جريحًا وواعيًا، سأغدو عاجزة لحظة تقع عيني عليه.
بالكاد سأستطيع جرَّ نفسي إلى المخيم. أحدٌ آخر لا بد أن يجره.

«شكرًا لك» قلتُ لهاري.

بعد خمس دقائق، مضينا نبحث عنه، بدايةً في منطقة قضاء الحاجة، ثم ما حولها. لم نجد أحدًا هناك، أو بالأحرى، لم نر أحدًا هناك. مع ذلك، فثمة احتمال أن أحدَهم موجود - أناسًا آخرينَ خيّموا في الليل، آخرين ممن تورطوا في إطلاق النار، آخرين يجوسون خلسة... مع ذلك، ناديتُ مرة على اسم بانكول، عاليًا، ولمستُ هاري حتى أحذره فجفل. ما إن استقرَّ حتى جفل ثانية مع صوتي ينادي. وفي الصمت المطبق، أصغينا، تناهى إلينا حفيفٌ من على يميننا حيث أشجار عدة تحجب النجوم، خالقةً ظلمةً دامسة. أي شخصٍ قد يكون هناك.

تكرَّر صوت الحفيف، ومعه أنين طفل، تلاه صوت بانكول:

«أولامينا!».

«أجل» أجبته، كدت أقع من ارتياحي، «هنا!».

خرج من بركة الظلام، خيالٌ طويلٌ وعريض، بدا أضخم من أي مرة رأيته عليها، وكان يحمل شيئًا.

«لدي طفلٌ يتيم» قال لنا، «الأم أصيبتْ برصاصة طائشة، ماتت في التو».

تنهدتُ، «هل أصيب الطفل؟».

«لا، إنه مذعور فقط، سأحمله إلى مخيمنا، هل لأحدكما أن يأخذ متاعه؟».

«دلنا على مخيمه»، قلت له.

جمع هاري أغراض الطفل، على الأرجح في الثالثة من العمر، وجمعت أنا أغراض أمه وفتشت جسدها، في النهاية استطعنا حمل كل شيء معنا، وما إن انتهينا حتى راح الولد الصغير يبكي. ذُعرتُ، تركتُ هاري يدفع بحقيبة المرأة الميتة في عربة طفلها وبانكول يحمل الطفل المتأوّه، كل ما حملته أنا كان المسدس، جاهزًا في يدي للإطلاق. حتى مع عودتنا إلى مخيمنا ما كنت لأرتاح، فالولد الصغير لم يهدأ ودومينيك انضم إليه بصراخٍ أعلى، زهرا وجل حاولتا تهدئة روع الطفل الجديد، لكنه محاطٌ بغرباء في ظلمة الليل ويريد أمه!

لمحتُ تحركاتٍ قرب جيفة الشاحنة، كانت النيران لا تزال مشتعلة، لكن في حريقٍ أصغر، تحرق نفسها حتى الانطفاء. وكان لا يزال هناك أناس قرب الشاحنة، ها هم خسروها الآن، فهل سيكترثون لطفلٍ باكٍ؟ وإن اكترثوا، هل سيودون مساعدة الطفل أو إطباق فمه؟

ظِلٌّ وحيدٌ، حالك، ابتعد عن الشاحنة وسار عدة خطوات نحونا. في تلك اللحظة، أخذت ناتيفيداد الطفل الجديد، ورغم سنه، ألقمته أحد ثدييها ودومينيك الآخر.

الحيلة نجعت، كلا الطفلين وجدا الطمأنينة، أصوات خافتة صدرت عنهما، قبل استغراقهما كليًّا في الرضاعة.

الظلُّ القادم من الشاحنة توقف في مكانه، لربما ارتبك بما أنَّ لا صوت الآن يرشده. بعد لحظة، استدار وعاد نحو الشاحنة وتجاوزَها حتى ابتعد عن مدى النظر، اختفى. ما كان ليستطيع رؤيتنا، لكننا نراه من الظلمة أسفل الأشجار التي تحجب مخيمنا، نراهُ على ضوء النيران، وضوء النجوم. أما الآخرون فضجة الطفل فقط ترشدهم إلينا.

«ينبغي بنا الانتقال من هنا»، همست آلي، «حتى إن عجزوا الآن عن رؤيتنا، فقد باتوا يعرفون أننا هنا».

«احرسي معي»، قلت لها.

«ماذا؟».

«ابقي مستيقظةً واحرسي معي، دعي الآخرين ينالون قسطًا أكثر من الراحة، فمحاولةُ التحرك الآن، في الظلمة، أخطرُ من بقائنا في مكاننا».

«... حسنٌ، لكن لا مسدس لدي».

«هل لديك سكّين؟».

«أجل».

«سيؤدي الغرض حتى ننظفَ باقي المسدسات ونحشوها بالرصاص». فقد كنا متعبين جدًا وعلى عجلةٍ كبيرة من أمرنا فلم نلتفتْ بعدُ لتلك المسدسات، كذلك، لا أريد لآلي أو جل أن تملكا مسدسًا، ليس بعد.

«فقط أبقي عينيكِ مفتوحتين». فالدفاع الحقيقيُّ الوحيد أمام البنادق الرشاشة الصمتُ والاختفاء.

«السكّين خيرٌ من المسدس الآن»، قالت زهرا، «فإن اضطررت لاستخدامه، لن يصدر صوتًا».

أومأتُ، «أما البقية، فاخلدوا إلى النوم وارتاحوا قليلًا، سأوقظكم فجرًا».

استلقى معظمهم لينام، أو ليرتاحَ على الأقل. ناتيفيداد احتفظت بالطفلين معها، لكن غدًا على أحدنا تولّي مسؤولية الولد الصغير، فآخر ما كنا نريده عبءَ طفلٍ كبير كهذا، طفل بلغ مرحلة «الركض في الأرجاء والتقاط كل شيء». لكنه بات معنا الآن، ولا أحد هناك نسلّمه إليه، فلا امرأة كانت ستخيّم على جانب الطريق السريع مع طفلها لو كانت تحظَى بأقارب يعينونها.

«أولامينا»، همس بانكول في أذني، صوته خفيضٌ ورقيق وأنا وحدي استجبت إليه، التفتُّ، وكان قريبًا حدَّ أني شعرت بلحيته تلامس وجهي، لحيته الناعمة، الكثيفة. كان قد مشطها هذا الصباح بعناية أكثر من تمشيطه شعر رأسه، هو الوحيد بيننا من يملك مرآةً. مختالٌ، رجلٌ هرمٌ مختال، وبعفوية وجدتني أقترب منه، قبَّلته، يراودني تساؤلٌ عن إحساس القبلة على لحية كثيفة! إذ وجدتني أقبل لحيته أولًا، ففي الظلمة تاه فمه عني، ثم وجدته، وانزاح هو قليلًا ودسَّ ذراعيه حولي وضممنا بعضنا هكذا لبرهة.

كان صعبًا عليَّ اجبار نفسي على دفعه بعيدًا عني، لم أرغب بذلك، ولم يرغب هو بتركي.

«كنت أنوي شكرك على بحثك عني» قال لي، «تلك المرأة ظلت واعية حتى وفاتها، الشيءُ الوحيد الذي كان بيدي فعله هو البقاء معها».

«خفت عليك، ظننتك أصبت».

«بقيت منبطحًا على الأرض إلى أن سمعت أنين المرأة».

تنهدت، «أجل» ثم قلت له، «ارتح الآن!».

استلقى جانبي وراح يمسد ذراعي، ملمس أصابعه يدغدغني، «علينا أن نتكلم في وقتٍ قريب» قال لي.

«على الأقل»، قلت موافقة.

كشر -ورأيت بريق أسنانه- ثم استدار وحاول النوم.

الولد يدعى جستن رور. أمه الميتة كانت تدعى ساندرا رور. جستن ولد في ريفرسايد، كاليفورنيا، قبل ثلاث سنوات. تدبرت أمه حمله شمالًا من ريفرسايد حتى هذا المكان. كانت قد احتفظت بشهادة ميلاده مع بعض صوره وهو رضيع، وصورة لرجل أصهب، ممتلئ الجسم، قصير، مع نمش على وجهه. وكان وفقًا للملاحظة المكتوبة خلف الصورة، ريتشارد والتر رور، المولود في التاسع من يناير ٢٠٠٢، والمتوفى في مايو عام ٢٠٢٦، أبو الولد مات في الرابعة والعشرين من عمره، أتساءلُ عمَّا قتله. ساندرا رور احتفظت بعقد زواجها وأوراق

أخرى كانت مهمة لها، كلها محفوظة في رزمة ومغطاة بالبلاستيك، والرزمة انتشلتها عن جسدها، وفي أماكن أخرى من جسدها وجدت عدة آلاف من الدولارات وخاتمٌ ذهبي.

لم أجدْ معلوماتٍ عن أقارب أو وجهة محددة، على ما يبدو فساندرا قررت الرحيل شمالًا مع ابنها بحثًا عن حياةٍ أفضل.

على مدار اليوم، تعامل الولدُ الصغير مع وجوده بيننا بشكل جيد، رغم إحباطه من عجزنا عن فهمه فورًا حين بكى يطالبنا بإظهار أمه. آلي، من بين الجميع، كانت خياره كأمٍ بديلة. قاومته في البداية، إما تتجاهله أو تدفع به بعيدًا، وحين لم يكن مدفوعًا على عربته، اختار المشي معها أو ألحَّ عليها بحمله، مع نهاية اليوم استسلمتْ، كلاهما اختار الآخر.

«كان لها ولدٌ صغير فيما مضى»، أخبرتني أختها جل بينما كنا نسلك طريق الولايات ١٥٦ مع قلة آخرين ممن اختاروا هذا الطريق. كان الطريق خاويًا، مرَّت أوقات لم نرَ فيها أحدًا على الإطلاق، أو، بينما كنا نتجه نحو الشمال الشرقي، لا نرى سوى أناسًا متجهين صوب الجنوب الغربي نحونا، أي نحو الساحل.

«أسمتْ ولدها آدم». واصلتْ جل حديثها، «كان يبلغ شهورًا عدة فقط حين... مات».

نظرتُ إليها، كانت ثمة رضة كبيرة، متورمة وبنفسجية، على منتصف جبهتها، مثل عينٍ ثالثة مشوهة، لا أظنها تؤلمها كثيرًا، فهي لا تؤلمني كثيرًا.

«حين مات»، كررتُ من ورائها، «من قتله؟».

أشاحتْ بعينيها وراحت تعرك رضتها، «والدنا، لهذا رحلنا، قتل الرضيع، كان يبكي فانهال عليه ضربًا بقبضتيه إلى أن كفَّ عن البكاء».

هززتُ رأسي وتنهدتُ، ليس بالخبر الصادم أنَّ للناس آباءً وحوشًا، فقد سمعت عن أمور كهذه طوال حياتي، لكن ما سبق لي قط الالتقاء بأناسٍ كانوا صدقًا ضحايا آبائهم.

«حرقنا البيت» همست جل. سمعتها وعرفت دونما سؤال ما الذي لم تقله، لكنها بدت وكأنما تكلم نفسها، ناسية أنَّ ثمة من يستمع إليها، «فقد وعيه من السُّكر وارتمى أرضًا. الرضيع كان ميتًا، أخذنا متاعنا ومالنا الذي استحققناه! وأشعلنا النار في القمامة والأريكة، لم ننتظر حتى نرى ما سيؤول إليه الحريق، لا أدري ما الذي حدث، فقد فررنا بعيدًا، لربما النار خمدت، لربما لم يمت» ركزت نظرها عليّ، «لربما لا يزال حيًّا».

بدتْ مذعورة أكثر من أي شيء آخر، لم تكن آملةً ولا نادمة، بل مذعورة، فلربما الشيطان لا يزال حيًّا!

«ومن أين هربتما؟» سألتها، «من أي مدينة؟».

«غلندايل».

«في مقاطعة لوس أنجلوس، جنوبًا».

«أجل».

«إذن، هو على بعد ثلاثمائة ميل خلفك؟».

«أظن..».

«كان سكيرًا أليس كذلك؟».

«يشرب طوال الوقت».

«إذن هو لا يتمتع بأي لياقة تمكنه من اللحاق بكما حتى إن لم تمسه النار. وبظنك ما الذي سيقع على سكير في الطريق السريع؟ لن يتمكن حتى من تجاوز حدود لوس أنجلوس».

أومأتْ، «كلامك يشبه كلام آلي، وكلاكما محقتان، أدري، لكن... أحيانًا أحلم به - أنه قادم، أنه عثر علينا... أعرف من الجنون تصور ذلك، لكني أستيقظ من تلك الكوابيس غارقة في عرقي».

«بلى»، قلت لها، أتذكر كوابيسي أنا أثناء بحثنا عن أبي، «بلى».

جل وأنا واصلنا السير فترة دون كلام، كنا نتحرك ببطء لأن جستن ما فتئ يلح على السماح له بالمشي بين الفينة والأخرى، فالولد يتمتع بطاقة كبيرة ولن يقنع بالجلوس في عربته لساعات، وبالطبع، متى ما سمح له بالمشي، انتابته الرغبة بالجري في كل مكان وتفحص كل شيء. توقفتُ، أرجحت حقيبتي عن ظهري، وانتشلت حبلاً من القماش، وسلمته إلى جل.

«أخبري أختك أن تلجمه بهذا» قلت لها «قد ينقذ حياته، تربط طرفًا حول خصره، والآخر حول ذراعها».

تناولتْ الحبلَ.

«سبق وأن اعتنيتُ بأطفال في الثالثة» قلت لها، «وأخبرك من الآن، ستحتاج إلى الكثير من المساعدة مع ذاك الولد الصغير، فإن لم تدرك ذلك الآن، ستدركه لاحقًا».

«هل ستلقونَ كاملَ العبءِ عليها؟» سألتْ باستهجان.

«بالطبع لا». كنت أتأمل آلي وجستن يسيران معًا - امرأة نحيلة خشنة الطباع، وطفلٌ مكتنز ونشيط. ركض الولد كي يتفحص شجيرة على جانب الطريق ثم جفلَ عائدًا نحو آلي، على إثر قدوم غرباء، وتعلَّقَ ببنطالها الجينز حتى تناولتْ يده. «أرى أنهما بدآ يتأقلمان مع بعضهما بعضًا»، قلتُ لها، «والاعتناء بالآخرين قد يكون علاجًا نافعًا لكوابيسك وربما لكوابيسها».

«يبدو وكأنك تعرفين عمَّ تتحدثين».

أومأتُ، «أنا أيضًا أعيش في هذا العالم».

مررنا ببلدة هوليستر، قبل الظهيرة، وهناك تزودنا بالمؤونة، إذ من يدري متى ستتسنى لنا رؤية متاجر لائقة. فقد اكتشفنا على الطريق أن عددًا من المجتمعات الصغيرة الظاهرة على الخرائط لم تعد موجودة، ما عاد لها من وجود مذ سنوات. تسببَ الزلزال بضرر كبير في بلدة هوليستر، لكن أناسها لم ينقلبوا إلى حيوانات، بدا أنهم يساعدون بعضهم بعضًا بالتصليحات ويعتنون بالمساكين...

تخيَّل!

# ٢١

**لزامٌ على النفس أن تخلق**

**أسبابها للوجود.**

**حتى تصوِّرَ ربَّك؛**

**صوِّرْ نفسك!**

بذرة الأرض: كتب الأحياء

الإثنين، ٣٠ أغسطس ٢٠٢٧

ثمة قليلٌ من الماء في خزَّان سان لوي، أكبر تجمع للماء الطبيعي رأيته في حياتي. لكن من الحجم الضخم للخزان، أدرك أن ما يحويه ليس سوى القليل مقارنةً بما يفترض أن يحويه، ما اعتاد أن يحويه.

يقطع الطريق السريع منطقة المنتزهات لأميال، ما يمنحنا الفرصة للارتحال حتى نجد موقعًا خاليًا يناسب تخييمنا فيه ليوم الراحة.

ثمة الكثير من الناس في المنطقة، أناسٌ أقاموا مخيمات دائمة من كل شيء، من خيم البلاستيك والخرق إلى الأكواخ الخشبية التي تبدو شبه ملائمة للاستيطان البشري. وأين يقضي كل أولاء الناس حاجتهم؟ وإلى أي حد ماء الخزان نظيف؟ لا شك أنَّ المدن تنقي الماء لدى وصوله إليها. سواء ينقونها أم لا، أظن بأنَّ الوقتَ قد حان لإخراج أقراص تنقية المياه.

تحيط بعدة خيم وأكواخ حدائق رثة، مزروعات جديدة وبقايا حدائق خضراوات صيفية تبقّى القليل منها للحصاد: قرعٌ كبير، ويقطينٌ لا يزال ينمو مع الجزر والفلفل البارد والخضراوات الورقية وقليل من الذرة. طعامٌ رخيص وجيد ومشبع، لكن ليس ما يكفي من البروتين. ربما الناس هنا يصطادون، إذ لا بد من وجود طرائد حول هذا المكان، كما أنني رأيت الكثير من الأسلحة، مسدساتٌ في الأقربة أو بنادق آلية وهوائية على الأكتاف، الرجال بالذات كلهم مسلحون.

حدَّقَ الجميعُ إلينا.

لدى عبورنا، كفَّ أناسٌ عن أعمال البستنة أو الطهي خارجًا -أيًا يكن ما يفعلونه- حتى يحدقوا إلينا، فقد قضينا الأيام الماضية ندفع أنفسنا قدمًا، عازمين على الوصول قبل الحشد المتوقع وصوله قريبًا من الساحل الغربي. لم نصل مع دفق النهر البشري المعتاد، مع ذلك، نحن أنفسنا نعتبر حشدًا يثير أعصاب المحتلين، لكنهم تركونا وشأننا. فعدا أوقات الاقتيات المسعورة التي تثيرها الكوارث، كما وقع بعد

الزلزال، فإنَّ معظمَ الناس يميلون إلى ترك الآخرين وشأنهم. أظن دومينيك وجستن سهَّلا علينا مهمة الاندماج، فجستن، المربوط برسغ آلي، راح يركض في الأرجاء ويحدق في المحتلين، وما إن يوتروه حتى يعود جريًا إلى آلي ويلحُّ عليها بحمله، هو طفلٌ محبوب، الناس الهزيلة والسخماء يميلون إلى الابتسام له.

لا أحد أطلق علينا النار، ولا تحدانا لدى مسيرنا على الطريق السريع، ولا أحد أزعجنا لاحقًا حين تركنا الطريق السريع واتجهنا صوب الأشجار حيث ارتأينا المكان جيدًا للتخييم. عثرنا على مواقع تخييم قديمة ومواقع لقضاء الحاجة وتفاديناها، فنحن لا نريد البقاء على مد نظر عابري الطريق السريع أو ساكني الأكواخ والخيم. أردنا خصوصيتنا، مكانًا لا صخور كثيرة فيه، وطريقة نصل بها إلى الماء دون لفت الكثير من الأنظار. بحثنا طوال ساعة قبل عثورنا على موقع تخييم معزول وقديم، مهجور منذ زمن طويل وعلى منحدر أعلى بقليل من باقي المنحدرات. ناسبنا جميعًا، ثم، مع تبقي ساعات قليلة على مغيب الشمس، استلقينا في ارتياحٍ وكسلٍ عارميْنِ، مدركينَ أننا سنحظى اليوم والغد بالراحة دون فعل شيء. أطعمت ناتيفيداد دومينيك وكلاهما استغرق فورًا في النوم، وحذت آلي حذوها مع جستن، وإن كان إعداد الطعام له أكثر تعقيدًا. كلتا المرأتين لديها سببٌ إضافيٌّ للإرهاق، وتحتاج إلى النوم أكثر من بقيتنا؛ لذا تركناهما خارج جدول الحراسة حين أجرينا القرعة، حراسة نهارية وليلية، إذ لن نفرط في الاطمئنان. كذلك، اتفقنا ألا يجول أحدنا أو يبحث عن الماء وحده، وخطر لي

أن الأزواج في مجموعتنا سرعان ما سيجولون في المكان، كما خطر لي أنه وخلال وقت قصير سيتاح لي وبانكول تبادل الحديث.

جلست معه أنظف المسدس الجديد بينما ينظف هو البندقية، هاري تولى النوبة الأولى في الحراسة واحتاج إلى مسدسي، حين سرت نحوه كي أعطيه إياه، أوضح لي أنه على علم بما يجري بيني وبين بانكول.

«خذي حذرك»، همس لي، «لا تسببي سكتة قلبية للشيخ العجوز».

«سأعلِمه بقلقك عليه».

ضحك هاري ثم استكان، «خذي حذرك، لورن، على الأرجح بانكول رجل صالح، هذا ما يبدو عليه. لكن، حسنٌ... اصرخي إن وقع أي شيء».

أرحت يدي على كتفه للحظة، «شكرًا».

الجميل في جلوسك وعملك جوار شخص لا تعرفه جيدًا، شخص تود التعرف عليه أكثر، أنَّ لك حريةَ أن تحادثه أو أن تبقى صامتًا برفقته. لك أن تكون على سجيتك معه، مدركًا بأنك قريبًا جدًا ستمارس معه الحبَّ.

بانكول، وأنا، بقينا هادئيِن برهةً، شيءٌ من الخجل يعتري كلينا، استرقتُ نظرات إليه ووقعتُ عليه يسترق نظرات إليَّ. ثم، لاستغرابي الشديد، بدأتُ الكلام عن بذرة الأرض، لم يكن حديثًا

وعظيًّا بل مجرَّد كلامٍ، وأظنني فعلت ذلك كي أختبره، فقد احتجت إلى رؤية ردة فعله. فبذرة الأرض أهم شيء لدي في حياتي، وإن كان بانكول سيضحك عليها، فأحتاج إلى معرفة ذلك الآن. لم أتوقع منه موافقتي، حتى أنني لم أرغب بإثارة اهتمامه، فهو رجل عجوز، وأظنه قانعًا بأي دين يعتنقه، وخطر لي في حديثي معه أني أجهل دينه، لذا سألته.

«لا دين على الإطلاق»، أجابني، «على حياة زوجتي، كنا نقصد الكنيسة الميثوديّة. دينها كان مهمًا لها وجاريتُها في ذلك، رأيتُ الطمأنينة التي تجدها فيه، وأردت أن أؤمن مثلها... ولم أستطع ذلك، أبدًا».

«كنا معمدانيّين»، قلت له، «وأنا أيضًا لم أستطع إجبار نفسي على الإيمان، ولم أستطع إخبار أي أحد، فأبي هو الكاهن، لذا التزمت الصمت وبدأتُ أفهم **بذرة الأرض**».

«بدأتِ تبتدعين **بذرة الأرض**».

«بدأتُ أكتشفها وأفهمها» قلت له، «فالوقوع صدفةً على حقيقة ما لا يعني اختلاقها». تساءلتُ كم مرة سيتوجب عليَّ الخوض في هذا الحديث مع الأناس الجدد!

«يبدو لي خليطًا من البوذية والوجودية والصوفية، ولا أدري ماذا أيضًا، لكن البوذية لا تؤلِّه التغيير، غير أنَّ اللادواميّة مبدأٌ بوذيٌّ أصيل».

«أدري» أجبته، «فقد قرأت الكثير. وأجل، بعض الأديان

والفلسفات الأخرى تتضمن أفكارًا تنتمي إلى **بذرة الأرض**، لكن ولا واحدة منها **بذرة الأرض**، فكل دين منها ينحرف بتلك الأفكار في طريقه».

أومأ، «حسنٌ، إذن أخبريني، ما الذي ينبغي بالناس فعله حتى يكونوا أعضاء صالحين في **مجتمع بذرة الأرض؟**».

سؤالٌ لطيف، يفتح الباب على حديث أعمق، «الأركان الأساسية» أجبته، «هي تعلُّم كيفية تصوير الرب بالتدبر والاهتمام والعمل، بتعليم مجتمعك وعائلتك ونفسك وإفادتها؛ بالمساهمة في تحقيق المصير».

«وعلام اكتراث الناس بالمصير البعيد جدًا عن مدى حياتهم؟ ما النفع الذي سيعود به عليهم؟».

«سيمنحهم غايةً توحدهم، حياةً ذات معنى هنا على الأرض، والأمل في جنة لأنفسهم وأطفالهم، جنة حقيقية، لا الأسطورية ولا الفلسفية، جنة ستكون لهم حتى يصيِّروها على مشيئتهم».

«أو جحيمًا»، ارتعش فمه فجأة، «فالبشر قادرون على خلق جحيمهم من أغنى الجِنان». فكَّر للحظة ثم قال، «يبدو بسيطًا جدًا».

«تظنه بسيطًا؟» سألته متفاجئة.

«قلت يبدو بسيطًا جدًا».

«قد يربك بعض الناس لدى سماعهم به أول مرة».

«أعني أنه.. أنه دينٌ مباشرٌ جدًا، إن أقنعت الناس به، سيصيِّرونه

أكثر تعقيدًا، غامضًا ومفتوحًا على التأويل، أكثر صوفيّة وإراحةً للنفس».

«ليس وأنا موجودة!».

«بك أو بدونك هذا ما سيفعله الناس بدينك، فكل الأديان تبدلت. تأملي الأديان الكبرى، إلى أي مذهب سينتمي المسيح اليوم؟ هل سيكون معمدانيًّا أم ميثوديًّا أم كاثوليكيًّا؟ وماذا عن بوذا؟ هل تظنينه سيختار أن يكون بوذيًّا اليوم؟ وأي نهج من البوذية سيمارس؟» ابتسم ثم قال، «ففي النهاية، إن كان **الرب إلهنا هو التغيير** فيقينًا دين **بذرة الأرض** سيتغير، إن كُتِب لدينك الدوام، فحتمًا سيتغيَّر».

أشحت وجهي عنه بسبب ابتسامته، فكل هذا لا يعني له شيئًا. «أدري» قلت له، «لا أحد بوسعه مقاومة **التغيير**، لكن نحن من نشكِّل **التغيير** سواء كنا قاصدين أم لا، أنا عازمة على إرشاد **بذرة الأرض** وتصويرها إلى ما يجب أن تكون عليه».

«ربما»، قال مواصلًا ابتسامته، «إلى أي حد أنت جدية بهذا الشأن؟».

دفعَ السؤالُ بي عميقًا نحو نفسي، وتكلمت شبه لا واعية بما أقول، «حين اختفى... حين اختفى أبي» استهللت جوابي، «**بذرة الأرض** أعانتني على البقاء. وحين أُبيدَ مجتمعي ومعها عشيرتي عن وجه الأرض، وانتهى الحال بي وحيدة، **بذرة الأرض** هي من ظلَّت لدي. ما أنا عليه الآن، كل ما أنا عليه الآن، هي **بذرة الأرض**».

«ما أنت عليه الآن»، قال لي بعد صمتٍ طويل، «امرأة يافعة ومذهلة».

بعدها بقينا صامتين، تساءلت عمَّ يفكر فيه، لم يبدُ عليه أنه يكتم ضحكه، ليس أكثر مما توقعت، فهذا رجل كان مستعدًا لمسايرة زوجته واحتياجها الديني، والآن، على الأقل، سيمنحني أفضلية المعاملة ذاتها. ثم انتابني الفضول حول زوجته، فهو لم يذكرها من قبل، كيف كانت؟ وكيف ماتت؟

«هل تركت بيتك لأن زوجتك توفيت؟».

وضع جانبًا قضيب التنظيف الطويل والرفيع واتكأ بظهره على الشجرة خلفه، «زوجتي توفيت قبل خمسة أعوام، ثلاثة رجال اقتحموا البيت، مدمنون، تجار مخدرات، لا أدري، انهالوا عليها ضربًا، يحاولون إجبارها على إعلامهم بمكان المخدرات».

«المخدرات؟».

«عزموا أمرهم على أننا نمتلكُ شيئًا يسعهم تناوله أو بيعه. لم يقبلوا بالأشياء التي كانت قادرة على منحهم إياها، لذا واصلوا ضربها، كانت تعاني من مرض في القلب». سحب نفسًا عميقًا، ثم تنهد، «كانت لا تزال حية لدى وصولي البيت، كانت قادرة على إخباري بما جرى، وحاولت مساعدتها، لكن الحقراء سلبوها أدويتها، سلبوها كل شيء، اتصلت بسيارة الإسعاف، وصلت بعد ساعة من موتها، حاولت إنقاذها، ثم إنعاشها، اللعنة؛ حاولتُ بكل استطاعتي..»..

حدَّقت أسفل التل من مخيمنا، إلى وميض ماءٍ يلوح عبر الأشجار

والشجيرات، العالم مليءٌ بالقصص المؤلمة، وأحيانًا يبدو لي كأن لا قصص أخرى هناك، مع ذلك وجدتني أفكر بجمال ومضة الماء تلك عبر الأشجار.

«كان يجدر بي المضي شمالًا ما إن توفيت شارون»، قال بانكول، «فقد فكرت مليًّا بالأمر».

«لكنك بقيت». التفتُّ عن ومضة الماء لأنظرَ إليه، «لماذا؟».

هزَّ رأسه، «لم أعرف ما يجدر بي فعله. لذا، ولفترة من الزمن لم أفعل شيئًا، تولَّى الأصدقاء رعايتي، طهوا لي، نظفوا البيت، فوجئت بصنيعهم معي، معظمهم من رعية الكنيسة، جيران، أصدقاؤها أكثر مما هم أصدقائي».

وتذكَّرت واردل باريش، وكيف انهار بعد خسارته أخته وأطفالها، وخسارته بيته، هل بانكول كان الواردل باريش في مجتمعه؟ «هل عشتَ في حيٍّ مسوَّر؟».

«أجل، لكن ليس بالحيّ الثري، أبعد ما يكون عن الثري، تدبَّر الناس فيه الاحتفاظ بملكياتهم وإطعام عوائلهم، ولا شيء آخرَ، لا خدم، لا حراسة».

«يبدو مثل حيّي القديم».

«يبدو مثل كثيرٍ من الأحياء القديمة التي ما عاد لها من وجود، بقيتُ حتى أساعد الناس الذين ساعدوني، ما كنت لأدير ظهري لهم وأهجرهم».

«لكنك هجرتهم، لماذا؟».




«الحرائق، ومنقبو القمامة».

«أنت أيضًا؟ حيّك بأسره؟».

«أجل، البيوت احترقت، معظم أهل الحيّ قتلوا... والبقية تشتتوا، رحلوا إلى حيث لهم أقارب أو أصدقاء. المنقبون والمحتلون انتقلوا داخلًا، لست أنا من قرر الرحيل، بل هربتُ».

الحكاية المألوفة ذاتها، «وأين كنت تعيش؟ في أي مدينة؟».

«سان دييغو».

«أقصى الجنوب؟».

«أجل، فكما قلت، كان يجدر بي المغادرة قبل أعوام، لو غادرت حينها، لتدبرت الحصول على تذكرة الطائرة ومال التوطين».

تذكرة طائرة ومال توطين؟ لربما لا يعد نفسه ثريًّا، لكن في أعيننا فهو ثري.

«وأين أنت ذاهبٌ الآن؟».

«شمالًا»، أجابني رافعًا كتفيه.

«أي مكان شمالًا؛ أم ثمة وجهة محددة؟».

«أي مكان أنال فيه مالًا مقابل خدماتي، وحيث يسمح لي بالسكن بين أناس لا يسعون إلى قتلي لأجل طعامي أو مائي».

أو أدويتي، قلت في نفسي. نظرت إلى وجهه الملتحي وجمعت

كل الدلالات التي التقطتها منه اليوم وعلى مر الأيام الماضية، «أنت طبيب، ألست كذلك؟».

نظر إليَّ متفاجئًا، «كنت، أجل، طب العائلة، أشعر وكأنما مرَّ زمن طويل».

«الناس دومًا في حاجة إلى الأطباء»، قلت له، «ستغدو على ما يرام».

«أمي اعتادت قول الشيء ذاته»، ابتسم لي ابتسامة ساخرة، «لكن هأنذا».

ابتسمتُ له لأني، برؤيتي إياه الآن، ما كان بيدي منع نفسي، لكن بينما كان يتكلم، قررت أنه على الأقل كذب عليَّ كذبة واحدة، لربما يكون مكروبًا ومشردًا كما يبدو عليه، لكن أبدًا ما كان يهيم شمالًا، لم يكن يبحث وحسب عن أي مكان ينال فيه مالًا مقابل خدماته وحيث لن يتعرض للقتل أو السرقة، فهو ليس من نوعية الرجال الذين يهيمون. هو يعرف وجهته تمامًا، يملك مأوى في مكانٍ ما، بيتَ قريبٍ، بيتًا آخر يملكه، بيتَ صديق، شيئًا ما، وجهة محددة.

أو لربما يملك مالًا يكفي لشراء بيت له في واشنطن أو كندا أو ألاسكا، فقد أُجبر على الاختيار بين تذكرة الطائرة السريعة الآمنة الباهظة وبين مال التوطين الذي سيناله ما إن يصل وجهته، وهو اختار مال التوطين. إن كان حقًّا هذا ما اختار، فأنا أتفق معه، خاطرَ لأجل الحصول على بداية جديدة بأقرب وقت ممكن، هذا طبعًا إن نجا من الرحلة.

من جهة أخرى، إن كنت محقة بظنوني، فعلى الأرجح سيهجرني ويختفي في ليلة ما، أو لربما سيكون أكثر صراحةً، يمشي وحسب بعيدًا عني في النهار، يمضي نحو شارع فرعي ويلوح لي مودعًا. ليس هذا ما أريد، وبعد نومي معه، بالتأكيد تلك النهاية ليست ما أريد.

حتى في هذه اللحظة، أريد الاحتفاظ به معي، كرهت كذبه عليَّ - هذا إن كان حدسي في محله، لكن لم عساه يخبرني بكل شيء؟ فهو لا يعرفني جيدًا، ليس بعد، وهو مثلي عاقد العزم على النجاة. لربما يمكنني إقناعه بأننا سننجو معًا، لكن، في الوقت الحالي، من الأفضل الاستمتاع دون الوثوق به كليَّةً، فلربما أكون مخطئة بشأن كل هذا، لكني لا أصدق بأني مخطئة، للأسف.

فرغنا من تنظيف المسدسات ولقمناها، ثم مضينا نحو الماء كي نغتسلَ. كان بإمكانك المضي مباشرةً نحو الماء، تغرف منه في قدر وتأخذه معك، كان مجانيًا، ما فتئت أتلفت حواليَّ، أتصور أحدهم يقبل علينا ويمنعنا أو يحاسبنا أو أي شيء، افترضت أننا قد نتعرض للسرقة، لكن لا أحد أعارنا أي اهتمام. رأينا أشخاصًا آخرين يعبؤون القناني بالماء، يعبؤون المطّارات والقدور والأكياس، لكن بدا المكان مسالمًا، لا أحد أزعج أحدًا، لا أحد أعارنا أي اهتمام.

«مكانٌ كهذا لن يدوم»، قلت لبانكول، «للأسف الشديد، لكان ممكنًا إقامة حياةٍ طيبة هنا».

«أظنه مخالفٌ للقانون العيش هنا» قال لي، «فهذا منتزه وطني،

وحتمًا ثمة حد للأيام التي يسمح لك بقضائها فيه، أنا متأكد أنَّ – أو على الأقل هذا ما كان عليه الحال في الماضي، فرق حراسة تراقب المكان، أتساءل إن كان ضباط تلك الفرق يأتون لجمع الأتاوة بين وقتٍ وآخر».

«أرجو ألا يأتي أحدهم ونحن هنا»، جففت يديَّ وذراعيَّ وانتظرته يجفف يديه وذراعيه، «هل أنت جائع؟».

«أوه، أجل»، نظر إليّ وهلة، ثم تناول ذراعيَّ وأدناني منه، قبَّلني وهمس في أذني، «ألست جائعة أيضًا؟».

لم أقل شيئًا، بعد برهة أخذته من يده وعدنا إلى المخيم لإحضار لحاف من ألحفته، ثم مضينا نحو بقعة صغيرة معزولة كنا أنا وإياه انتبهنا إليها سابقًا.

بدا الاستلقاء معه طبيعيًّا وسلسًا، كذلك استكشاف ملمس جسده الناعم الصلب العريض، لقد أبقى على جسده في لياقة عالية. لا شك أن السير مئات الأميال في الأسابيع الماضية حرق كل الدهون التي كان يحملها. مع ذلك، كان ضخمًا عريض الصدر وطويل، وأكثر ما استمتعت به قدرته على إثارة جسدي بلا أي تعقيد، مما منحني فرصة مشاركته متعته بي. ليس من المعتاد استمتاعي بالجانب الإيجابي من فرط التقمص، تركت الإحساس يعتريني، عارمًا وحيوانيًّا، لربما أنا من أخاطر بإصابتي بسكتة قلبية لا هو، كيف عشت كل هذه الفترة الطويلة دون هذا الإحساس؟

كان ثمة لحظة غريبة، لا رومانسية، حين مددنا يدينا نحو ملابسنا

المرمية المجعّدة حتى نتناول واقيًا ذكريًّا، كانت لحظة مضحكة، كيف خطر لنا الواقي في الوقت ذاته، ومعًا ضحكنا، قبل انتقالنا إلى جديّة ممارستنا الحب وإمتاع كلٍّ الآخر، تلك اللحية الممشطة والمشذبة التي يختال بها تدغدغني من قلبي.

* * *

«كنت أعرف أنه ينبغي بي تركك وشأنك»، قال لي بعد ممارستنا الحب مرتين واستلقائنا دونما رغبة بالنهوض والعودة إلى الآخرين، «ستقتلينني! فقد بتُّ مسنًّا على هذه الأمور».

ضحكت وتوسدتُّ كتفه.

بعد برهة قال، «فلنكن جديين للحظة، فتاتي».

«حسنٌ».

سحب نفسًا طويلًا، تنهد، بلع ريقه، تردد، «لا أريد التخلي عنك».

ابتسمت.

«لكنك مجرد شابة يافعة» قال لي، «وأنا أعقل من ذلك، كم عمرك؟».

أخبرته.

انتفض ودفعني عن كتفه، «ثمانية عشر؟» جفل مني وكأن جلدي يحرقه، «إلهي! لست سوى طفلة! أنا متحرش بالأطفال!».

لم أضحك، رغم رغبتي في الضحك، اكتفيت وحسب بالنظر إليه. بعد برهة قصيرة عبس وهزَّ رأسه، وبعد برهة أطول، عاد يتحرَّك نحوي، يلمس وجهي، كتفيّ، نهديّ...

«أنت لست في الثامنة عشر».

هززت كتفيّ.

«متى ولدتِ؟ أيَّ عام؟».

«٢٠٠٩».

«لا»، وفي تكراره تنهدها: «لاااا».

قبّلته وقلت له على نبرته ذاتها، «أووووه بلى، والآن كفَّ عن جنونك، أنت تريدني وأنا أريدك، لن ننفصل بداعي عمري، أليس كذلك؟».

بعد وهلة هزَّ رأسه، «يجدر بك أن ترافقي شابًا لطيفًا مثل ترافيس»، قال لي، «ويجدر بي التحلي بالمنطق والقوة حتى أبعدك عني وتعثري على شاب في عمرك».

كلامه ذكرني بكرتس، وانكمشت. فطوال الفترة الماضية تحاشيت التفكير بكرتس تالكوت، فحاله لا يشبه حال إخوتي، ثمة احتمال أنه ميت، لكن لا أحد منا رأى جثته، رأيتُ جثة أخيه مايكل، وكنت مذعورة من رؤية كرتس ميتًا، لكنني لم أره، لربما هو ميت، خسرته، لكن أرجو ألا يكون ميتًا، كان يفترض أن يرافقني هو على الطريق، أرجو أن يكون حيًّا وبخير.

«بمن ذكرتك؟» سألني بانكول، بصوتٍ رقيق وعميق.

هززت رأسي، «بصبيٍّ عرفته في الحيّ، كنا سنتزوج هذا العام، لا أعرف حتى إن كان حيًّا».

«أحببته؟».

«أوه أجل! كنا سنتزوج ونترك الحي ونمضي شمالًا، كنا قررنا الرحيل هذا الخريف».

«مجنونة! كنت تنوين الارتحال سيرًا على هذا الطريق حتى إن لم تضطري لذلك؟».

«أجل، ولو رحلنا في وقت أبكر لكان الآن معي، أتمنى لو كان بيدي الاطمئنان أنه بخير».

استلقى على ظهره وأدناني منه.

«كلنا خسرنا عزيزًا» قال لي، «يبدو أننا خسرنا كل أحبائنا، أظنها الصلة التي تربطنا».

«صلةٌ فظيعة» قلت له، «لكنها ليست صلتنا الوحيدة».

هزَّ رأسه، «هل أنت حقًّا في الثامنة عشر؟».

«أجل، بلغتها الشهر الماضي».

«تبدين أكبر من عمرك بأعوام».

«هذي هي أنا».

«كنت البكر بين إخوتك، أليس كذلك؟».

أومأتُ، «كان لي أربعة أشقاء، كلهم ماتوا».

«صحيح،» قال متنهدًا، «صحيح».

الثلاثاء، ٣١ أغسطس ٢٠٢٧

قضيت اليوم، بأكمله، في الكلام والكتابة والقراءة وممارسة الحبِّ مع بانكول. بدت حياةً من الرفاهية ألا تضطر إلى النهوض وتوضيب المتاع والسير طوال النهار. كلنا استلقينا في نواحي المخيم نريح عضلاتنا المتألمة، ونأكل، ولا نفعل شيئًا. أناسٌ أكثر تدفقوا إلى المنطقة من الطريق السريع وأقاموا مخيماتهم أيضًا، لكن لا أحد منهم أزعجنا.

بدأتُ دروس القراءة مع زهرا، وجل وآلي أبدتا اهتمامهما، فدعوتهما إلى الدرس كما كانت نيتي أصلًا. اتضح أنهما تستطيعان قراءة القليل، لكن لم تتعلما الكتابة، ومع نهاية الدرس قرأت عليهما بضعَ آيات من **بذرة الأرض** رغم همهمات هاري الساخرة. لكن حين صرَّحت آلي أنها لن تصلي لأي رب من أرباب التغيير، كان هاري من صحح لها، زهرا وترافيس ابتسما، وبانكول ظل يراقبنا باهتمام واضح.

بعد ذلك، شرعت آلي تطرح الأسئلة عوضًا عن المقاطعة بتصريحاتها المزدرية، ومعظم الأسئلة أجاب عنها الآخرون - ترافيس وناتيفيداد، هاري وزهرا. أجابها بانكول مرةً، وتوسع في شرح نقطة أخبرته بها البارحة، ثم لجم نفسه وبدا مُحرجًا.

«ما زلت أظنه دينًا بسيطًا جدًا» قال لي، «فمعظمه منطقي، ولن يدوم بلا رشة من الحيرة والغموض».

«سأترك هذا الأمر لورثة ديني» قلت له، وشغل نفسه ينقب في حقيبته عن كيس من اللوز، يصب منه في يده، ويمرر الباقي إلى الآخرين.

قُبيل حلول الليل اندلعت معركة إطلاق نار من جهة الطريق السريع. من حيث نحن عجزنا عن رؤية ما يجري، لكننا توقفنا عن الكلام واستلقينا، فمع تطاير الرصاص خيرٌ لنا إبقاء رؤوسنا منخفضة.

إطلاق النار بدأ وتوقف، تحرك بعيدًا، ثم عاد. كان دوري في الحراسة، لذا توجب عليَّ البقاء متيقظةً. لكن، في خضم هذه العاصفة من الضجيج، لا شيء تحرك تجاهنا سوى الأشجار على ملمس النسيم العليل. كم بدا الليل مسالمًا، رغم وجود أناسٍ يقتلُ بعضهم بعضًا، ولا شك محاولاتهم ناجحة.

غريب، إلى أي حد أصبح طبيعيًّا لنا الاستلقاء على الأرض والإصغاء بهدوء بينما على مقربة منا، يقتلُ الناس بعضهم بعضًا.

# ٢٢

**كما الريح،**

**كما الماء،**

**كما النار،**

**كما الحياة...**

**الرَّبُّ خالقٌ ومهلك،**

**قهَّارٌ ومذعن،**

**هو النحَّات والصَّلصال.**

**الرَّبُّ هو القوة الكامنةُ اللانهائية:**

**الرَّبُّ إلهنا هو التغيير.**

بذرة الأرض: كتب الأحياء

الثلاثاء، ٩ سبتمبر ٢٠٢٧

قضينا أسبوعًا نسير مرهقين ومذعورين ومحطَّمي الأعصاب؛ كنا وصلنا مدينة ساكرمنتو دون أي مشاكل. تمكنا من شراء ما يكفي

من الطعام والماء، وتمكنا من العثور على العديد من الأماكن الخاوية في التلال حيث لنا أن نقيم مخيمنا. مع ذلك لا أحد منا ساوره أدنى إحساس من الطمأنينة أو الارتياح على مرِّ تقاطع الولايات ٥ الذي ارتحلنا عليه.

الارتحال سيرًا على الطريق ١-٥ أقل شيوعًا من طريق الولايات ١٠١، حتى مع فوضى الزلزال. مرَّت أوقاتٌ لم نرَ فيها سوانا على الطريق، تلك الأوقات لم تستمر طويلًا.

من جهة أخرى، شاحناتٌ أكثر تسلك الطريق ١-٥، وكان علينا التزام الحذر لأن الشاحنات ترتحل نهارًا أيضًا بالإضافة إلى الليل. كذلك، رأينا عظامًا بشرية أكثر على الطريق ١-٥. ما عاد مستغربًا المرور على جماجم، عظام الفك السفلي، أو عظام الحوض والجذع. عظام الأذرع والسيقان كانت نادرة، لكن بين آنٍ وآخر، كنا نرى بعضها.

«أظنها الشاحنات» قال بانكول، «إن اصطدمت بشخص على الطريق هنا، فلن تتوقف، ما كان ليجرؤ سائقوها، والمدمنون والسكيرون ما كانوا ليعيروا بالًا إلى خطاهم».

أظنه محقًا، وإن كنا، على مدِّ الطريق الخاوي، صادفنا فقط أربعة أشخاص لنا أن نصفهم بمجانين أو سكارى.

لكننا رأينا أشياء أخرى. يوم الثلاثاء خيَّمنا في جوف أسود في التلال غرب الطريق، بينما كلبٌ ضخم، أسود وأبيض، جاء يهيم نحو مخيمنا، وبين فكيه ذراع طفل دامية.

لَحَنا الكلبُ، تجمد في مكانه، استدار، وهرع يعدو بالاتجاه الذي قدم منه. لكن، قبل فراره كنا جميعًا رأيناه بوضوح، وكلنا رأينا الشيء ذاته. تلك الليلة ضاعفنا نوبة الحراسة، خفيران، مسدسان، لا محادثات غير ضرورية، لا مضاجعة.

في اليوم التالي قررنا ألا نأخذ يوم راحة ثانٍ إلا بعد خروجنا من ساكرمنتو. لا ضمانة بأنَّ ما ينتظرنا على الجانب الآخر خيرٌ من ساكرمنتو، لكن كل ما أردناه مغادرة هذه الأرض الشرسة.

تلك الليلة، بينما كنا نبحث عن موقع نخيم فيه، وقعنا على أربعة أطفال قذرين ورثّين، متحلقين حول نار مخيم، صورتهم لا تزال عالقة في ذهني، أطفالٌ من عمر أشقائي - اثنا عشر وثلاثة عشر ولربما أربعة عشر. ثلاثة فتيان وفتاة، الفتاة كانت حامل، كانت ضخمة ومن الواضح أنها ستلد في أي يوم قريبًا. سلكنا ضفة جدول جاف وانعطفنا حولهم، وها هم الأطفال، يشوون ساقًا بشرية مبتورةً، في قلب نارهم وأعلى الحطب المحترق، يقلبونها من القدم، وبينما وقفت أرقبهم، انتزعت الفتاة قطعة لحم متفحمة وكبيرة من الفخذ وأقحمتها في فمها.

لم يرونا، كنت أنا في المقدمة، وأوقفت الآخرين قبل أن يكملوا انعطافهم، هاري وزهرا، كانا خلفي تمامًا ورأيا ما رأيت. أشرنا إلى الآخرين بالاستدارة والعودة، ولم نخبرهم بالسبب إلا حين غدونا بعيدين كفاية عن أولاء الأطفال ووليمتهم البشرية.

لا أحد هاجمنا، لا أحد تعرض لنا بأذى على الإطلاق، حتى

أن البلدة التي سرنا عبرها كانت جميلة في بعض مناطقها، أشجارٌ خضراء وتلالٌ منحدرة؛ عشبٌ ذهبي جاف ومجتمعات صغيرة جدًا؛ مزارع، كثيرٌ منها فات موعد حصادها ومهملة، وبيوت مهجورة، بلدةٌ لطيفة، ومقارنة بجنوب كاليفورنيا، بلدة غنية، ماءٌ أكثر، طعامٌ أكثر، أمكنة أكثر...

فما بالُ الناس يأكلُ بعضهم بعضًا؟

كان ثمة مبانٍ محترقة، ومن الواضح أن المشاكل وقعت هنا أيضًا، لكن بالتأكيد أقل مما كانت عليه في الساحل. مع ذلك، ما عدنا نطيق الانتظار حتى نتركها ونعود إلى الساحل من جديد.

ساكرمنتو كانت مناسبة للتزود بالمؤونة ومغادرتها على عجل. الماء والطعام فيها رخيص مقارنة بأسعار البيع على جانبي الطريق. المدن مريحة فيما يتعلق بالأسعار، لكن المدن خطيرة أيضًا، عصابات أكثر، شرطة أكثر، أناسٌ شكاكون ومسلحون أكثر. في المدن أنت تمشي على رؤوس أصابعك، تحافظ على ثبات سرعتك، تبقي عينيك مفتوحتين، ترهب الآخرين بمظهرك، وفي الوقت ذاته تظل خفيًا، حيلةٌ ناجعة. وفقًا لكلام بانكول، لطالما كانت تلك هي حال المدن، ومنذ زمنٍ طويل.

بمناسبة الحديث عن بانكول، لم أتركه لينال قسطًا كبيرًا من الراحة، يوم الراحة. لم يبد عليه أنه يمانع، لكن قال شيئًا عليَّ أخذه في الحسبان، أخبرني أنه يريد مني مغادرة الجماعة والرحيل برفقته، فهو يملك، كما توقعت، مأوىً آمن - أو على الأقل بقدر الأمان الممكن

دونما حراس مسلحين وسور من الأجهزة الأمنية عالية التقنية. المأوى يقع في التلال على الساحل قرب كايب مندوسينو، وعلى بعد أسبوعين سيرًا من هنا.

«أختي وعائلتها يقيمون هناك، لكن العقار يعود لي، وثمة مكانٌ لك فيه».

تخيلت إلى أي حد ستسعد أخته برؤيتي، هل ستحاول التعامل بتهذيب معي، أو هل ستحدق فيَّ، ثم فيه، ثم تسأله في استهجان إن كان قد فقد عقله؟

«هل سمعتِ ما قلته لك؟».

نظرت إليه، الغضب الذي سمعته في صوته يثير اهتمامي، لماذا الغضب؟

«ما الذي أفعله هنا؟ أضجرك؟» قال ممتعضًا.

أخذت يده وقبَّلتها، «عرِّفني على أختك وفورًا ستأخذ مقاساتك لسترة المجانين».

بعد وهلة ضحك، «أجل» ثم أردف، «لا يهمني».

«سيهمك، عاجلًا أم آجلًا».

«ستأتين معي إذن؟».

«لا، أود ذلك، لكن لا».

ابتسم وقال، «بل ستأتين».

تأملته، حاولت قراءة الابتسامة، لكن من الصعب قراءة ر
ملتحٍ. من الأسهل عليّ وصف ما لم أره أو أتعرف عليه؛ لم أرَ التعالي أو ذاك الضرب من الاستخفاف الذي يتعامل به بعض الرجال مع النساء. لم يكن يقرر بينه وبين نفسه أنَّ «لا» التي أقولها هي «نعمٌ» سريّة... شيءٌ آخر كان يدور في باله.

«أملك ثلاثمائة فدان» راح يقول لي، «اشتريت الأرض قبل أعوام كاستثمار، مشروع تطوير عقاري كبير كان يفترض أن يقوم هناك، والمضاربون مثلي كانوا سيربحون الملايين من بيع الأرض للمطورين. لكن المشروع انهار لسبب ما وعلقت بتلك الأرض، فإما أبيعها بخسارة أو أحتفظ بها. احتفظت بها، فمعظمها صالحٌ للزراعة، فيها بعض الأشجار وأجذال أشجار كبيرة. أختي وزوجها شيدا بيتًا وعدة ملاحق خارجية».

«حتمًا الأرض مليئة الآن بمئات المحتلين والمستوطنين».

«لا أظن ذلك، فالدخول إليها صعب، ليس سهلًا الوصول إليها من طريق حقيقي. كما أنها تقع بعيدًا عن الطريق السريع... مكانٌ جيد للاختباء».

«الماء؟».

«ثمة آبار، تقول أختي إن المنطقة تنحو إلى الجفاف وارتفاع الحرارة، لا غرابة، لكن حتى الآن، فالمياه الجوفية يُعتمَد عليها».

أدركتُ وجهة كلامه، لكن سيتحتم عليه الوصول وحده، فالأرض أرضه؛ اختياره.

«لا يوجد الكثير من السود هناك، أليس كذلك؟».

«لا، ليس الكثير» قال موافقًا إياي، «لكن أختي لم تتعرض للكثير من المشاكل».

«وكيف تؤمن أختك معيشتها؟ تزرع الأرض؟».

«أجل، وزوجها يؤدي أعمالًا متفرقة مقابل المال - وهو أمرٌ خطير إذ يترك أختي وأطفالها لأيام أو أسابيع أو حتى أشهر. إن تمكنَّا من إعالة نفسينا دون استنزاف مواردها المحدودة، فقد نكون عونًا لها، لربما سنمنحها أمانًا أكثر».

«كم طفلًا لديها؟».

«ثلاثة، فلنرَ، لا بد أنهم الآن في الحادية عشر والثالثة عشر والخامسة عشر، هي نفسها في الأربعين فقط». ارتعش فمه، إذ حتى أخته الصغرى كبيرة بما يكفي لتكون أمي. «اسمها ألكس، ألكساندرا، متزوجة من دون كيسي، كلاهما يكره المدن، ورأيا في أرضي هبة إلهية، يربيان فيها أطفالهما حيث يتسنى لهم أن ينشؤوا ويكبروا» أومأ ثم أردف، «وها هم الأطفال على خير حال».

«كيف حافظتما على تواصلكما؟ بالهاتف؟».

«ذاك جزءٌ من اتفاقنا. هما لا يملكان هاتفًا، لكن متى ما ذهب دون إلى بلدة من تلك البلدات باحثًا عن عمل، يتصل بي ويعلمني بأخبار الجميع. لن يعرف بما جرى لي الآن، لن يتوقع وصولي، إن حاول الاتصال، فهو وألكس سيقلقان كثيرًا».

«كان الأجدى بك أن تطير إلى هناك،» قلتُ له، «لكني سعيدة أنك لم تفعل».

«حقًّا سعيدة؟ وأنا كذلك، اسمعي، ستأتين معي، لا شيء أريده في هذه الحياة الآن أكثر منك، أريدك، ومنذ زمن طويل لم أرغب في شيء، منذ زمن طويل».

اتكأتُ بظهري على شجرة، هذه المرة لم يتمتع مخيمنا بالخصوصية التي حظينا بها في سان لوي، لكن ثمة أشجار كثيرة، ولكل زوج أن يبتعد عن الأزواج الآخرين. كل زوج معهما مسدس، وتركنا الأختين غلكرست تعتنيان بدومينيك وجستن، وضعناهما والأطفال في منتصف مثلث وعر وأعطيناهما مسدسي. في الطريق ١-٥ هما وترافيس حظوا بفرصة للتمرن على الرماية، وكان واجبنا جميعًا الآنَ التلفت حولنا، والتأكد من عدم تجول أي غريب في المكان، تلفتُّ حولي.

جالسةً، كنت أرى جستن يركض في الأرجاء، يطارد الحمام، عين جل كانت عليه، لكنها لم تحاول ملاحقته.

بانكول تناولني من كتفي وأدارني نحوه، «هل ضجرت مني؟» سألني للمرة الثانية.

كنت أحاول جهدي ألا أنظر إليه، والآن نظرت، لكن لم يقل بعد ما سيقول إن أراد مني البقاء معه، هل كان يعرف؟ أظنه عرف.

«أريد الذهاب معك» قلت له، «لكني جدية بشأن **بذرة الأرض**،

منتهى الجدية، وعليك أن تفهم ذلك». لماذا بدت إجابتي غريبة؟ فتلك كانت الحقيقة المطلقة، لكني شعرت بغرابة لدى إفصاحي عنها.

«أعرف خصيمي»، قال لي.

ربما لهذا بدت الحقيقةُ غريبة، كنت أخبره أنَّ ثمة شخصًا آخر - أمرًا آخر، وربما ستبدو إجابتي أقل غرابة لو كان ذاك الأمر رجلًا آخر.

«بوسعكَ مساعدتي».

«أساعدكِ على ماذا؟ هل لديك فكرة حقيقية عمَّا تنوين فعله؟».

«تأسيس مجتمع بذرة الأرض الأول».

تنهَّد.

«بوسعكَ مساعدتي» كرّرت عليه، «فهذا العالم ينهار، وبوسعكَ مساعدتي على بدء شيء بنَّاء وذي غاية».

«تنوين إصلاح العالم، أليس كذلك؟» قالها في ضحكة مستترة.

نظرتُ إليه، وللحظة استبدَّ بي الغضب حدَّ امتناعي عن الكلام، وحين بات بيدي السيطرة على صوتي، قلت له، «لا بأس إن كنت لا تؤمن، لكن لا تهزأ، هل تعرف ما يعنيه أن يكون لديك عقيدة تؤمن فيها؟ لا تهزأ».

بعد وهلة قال، «حسنٌ».

بعد وهلة أطول، قلت له، «**بذرة الأرض** لا شأن لها بإصلاح العالم».

«النجوم، أدري» قال واستلقى بالكامل على ظهره، لكن أدار رأسه كي ينظر إليّ بدلًا عن السماء.

«سيغدو هذا العالم مكانًا أفضل للحياة إن عاش الناس وفقًا لتعاليم **بذرة الأرض**» قلت له، «بل سيغدو مكانًا أفضل لو اتَّبع الناس تعاليم معظم الأديان».

«هي الحقيقة، فما الذي يجعلك تظنين أنهم سيعيشون الآن وفقًا لدينك الجديد؟».

«القلة ستتبعني، عدة آلاف؟ مئات الآلاف؟ الملايين؟ لا أدري، لكن متى ما أمنت القاعدة، سأشيد المجتمع الأول، في الواقع، أنا أصلًا بدأت».

«ألهذا أنت في حاجة إليَّ؟» لم يكلف نفسه عناء الابتسام أو الادعاء بأنها مزحة، فهي ليست مزحة. دنوت إليه وجلست قربه كي أنظر إلى وجهه، «أحتاج منك أن تفهمني» قلت له، «أحتاج منك تقبُّلي كما أنا أو المضي وحدك نحو أرضك».

«أنت في حاجة إليَ حتى آخذك وكل أصدقائك بعيدًا عن الشارع، إلى حيث يتسنى لك إقامة كنيسة» مرةً أخرى، كان بمنتهى الجدية.

«إما ذاك أو لا شيء» قلت في جدية مماثلة. ابتسم لي ابتسامة خاوية من الدعابة وقال، «والآن بتنا نعرف على أي أرضٍ نقف».

مسدت لحيته، ورأيت رغبته بالابتعاد عن يدي، وأنه لم يبتعد، «هل أنت واثق أنك تريد الرب خصيًا لك؟».

«يبدو أنَّه لا خيار آخر لدي، أليس كذلك؟» قال وبيده غطى يدي التي تداعبه، «أخبريني، هل سبق لك أن فقدتِ أعصابك وصرختِ وبكيتِ؟».

«بالطبع».

«لا يسعني تخيلك هكذا، بكل صدق، لا يسعني».

وإذ يذكرني بالشيء الذي لم أخبره به، والذي من الأفضل إعلامه به قبل أن يكتشفه بنفسه ويشعر بأني خدعته أو أني لم أثق به كفاية - وما زلت لا أثق به كفاية، ليس بعد، لكني لم أرغب في خسارته بداعي الغباء أو الجبن، لم أرغب في خسارته البتة.

«هل ما زلتَ تريدني معك؟».

«أوه، أجل» قال لي، «وأنوي الزواج بك ما إن نستقر».

أخذني على حين غرة، وحدقت إليه فاغرة الفم.

«ردة فعل حقيقية» قال لي، «وسأحفرها في ذاكرتي، بالمناسبة، هل تتزوجيني؟».

«اسمعني أولًا».

«ولا كلمة واحدة، أحضري كنيستك، أحضري أتباعك، أشك أنهم يكترثون أكثر مني بمسألة النجوم، لكن أحضريهم، على كل حال هم يعجبونني، وثمة مكانٌ لهم».

هذا إن قدموا، فمسعاي القادم إقناعهم، لكن هذا المسعى الذي بين يدي الآن لم ينته بعد.

«ثمة أمرٌ آخر» قلت له، «دعني أخبرك به، وإن بقيت راغبًا فيَّ، سأتزوجك في أي وقت شئتَ. فأنا أريد الزواج بك، أحتاجك أن تعرف أني حقًّا أريد».

انتظرني.

«أمي كانت تتناول -تدمن- مخدرًا طبيًّا حين كانت حاملًا بي، المخدر كان باراسيتو، ونتيجة لإدمانها، صرت أعاني من متلازمة فرط التقمص».

تقبَّل ما قلت دون أي إشارة تفصح عن مشاعره، جلس ونظر إليّ - نظرةً كلها فضول، كأنما أمل رؤية عارض للمتلازمة على وجهي أو جسدي، «تشعرين بآلام الآخرين، أليس كذلك؟».

«أشارك الآخرين آلامهم ومتعتهم» قلت له، «والمتعة باتت شحيحة مؤخرًا، إلا معك».

«هل تشاركين نزيف الآخرين؟».

«كنت، ولم أعد، وقت كنت صغيرة».

«لكن... لكني رأيتك تقتلين رجلًا».

«أجل»، هززت رأسي، أتذكر ما رآه، «اضطررت لذلك، وإلا لقتلني».

«أعرف ذلك، أنا فقط... متفاجئ بأنك استطعت».

«قلت لك، كنت مضطرة».

هزَّ رأسه، «لقد قرأت عن المتلازمة، بالطبع، لكن ما سبق لي رؤية حالة. أتذكر أني قلت في نفسي ليس سيئًا إن تسنَّى لمعظم الناس مشاركة الألم الذي يتسببون به للآخرين. بالتأكيد لا أعني الأطباء وغيرهم في العناية الطبية، بل معظم الناس عداهم».

«فكرة سيئة».

«لست واثقًا».

«صدقني، سيئة، جدُّ سيئة، لا يجدر بالدفاع عن النفس أن يبرحك ألمًا أو يضطرك للقتل أو كليهما. ألم إنسان جريح قد يشلني، أنا رامية ماهرة لأني لا أطيق التسبب فقط بجرح أحدهم، وأيضًا..». توقفت، أشيح للحظة بنظري عنه، ثم سحبت نفسًا عميقًا وعدت أنظر إليه نظرةً متمعنة، «أسوأ ما في الأمر، أنك إن تعرضت للأذى، فعلى الأرجح سأعجز عن مساعدتك، إصابتك ستشلني -أعني ألمك- وكأني أصبت معك».

«أظنك ستجدين طريقة»، قال لي في ابتسامة خفيفة.

«لا مجال للظن، بانكول». توقفتُ، أحاول اصطياد الكلمات التي تجعله يفهم حقيقة الوضع، «لا أبحث هنا عن الثناء أو حتى التطمين، أريدك أن تفهم: إن كسرت ساقك، إن أصبت برصاصة، إن أصابك أي أذى جديٍّ وأعجزك، فأنا أيضًا سأغدو عاجزة، عليك أن تدرك إلى أي حد للألم الحقيقي أن يشلك».

«أدرك ما تقولين، لكني أدرك أيضًا طبيعتك، لا، لا تعودي وتقولي لي أنك لا تبحثين عن الثناء، أعرف ذلك. فلنعد الآن إلى المخيم، لديّ في حقيبتي عدة أدوية لمعالجة الألم، سأعلمك كيف ومتى تستخدمينها معي ومع أي شخص يحتاجها، إن تسنى لك تحمل الألم بما يكفي كي تستخدميها، سيتسنى لك فعل كل ما هو ضروري».

«...حسنٌ، إذن... ما زلتَ تريد الزواج بي؟» فوجئت بخوفي من طرح السؤال، فأنا أعرف أنه ما زال راغبًا فيَّ، مع ذلك، هأنذا أسأله، شبه أتوسله أن يقولها، احتجت إلى سماعها منه.

وضحك، ضحكة مجلجلة من القلب وما جرحت مشاعري، «سأحفرها في ذاكرتي» قال لي، «هل تتصورين للحظة، فتاتي، أني سأدعك تضيعين من بين يديّ؟».

## ٢٣

معلّموك،

في كل مكان حولك.

كل شيء تدركه،

كل لحظة تعيشها،

كل عطيّة مُنحَتْ إليك،

وكل عطيّة أُخذَت منك،

كل ما تحب وتكره،

الحاجة أو الخوف

سيعلّمك

إن كنت مستعدًا للتعلم.

الربُّ معلمك الأول

والأخير.

الرب معلمك الأقسى:

غامضٌ،

ومتطلِّب.

الجمعة، ١٠ سبتمبر ٢٠٢٧

معركةٌ أخرى حاولنا النوم على وقعها قبيل فجر هذا الصباح. اندلعت جنوبنا، إما على الطريق السريع أو قربه. في البدء شقت طريقها نحونا، ثم ابتعدت.

تناهت إلينا أصوات الناس تطلق النار وتصرخ وتلعن وتفرّ... المعتاد من الإرهاق والخطر والغباء. إطلاق النار تجاوز الساعة، يتعاظم وينحسر، أخيرًا وابلٌ من إطلاق النار تضمَّن كما يبدو أسلحة أكثر، ثمَّ توقفت الضجة بأسرها.

تدبرت النوم خلال معظم أحداث القتال، فقد تجاوزت إحساسي بالخوف، بل حتى تجاوزت غضبي. الإرهاق هو ما يتملكني، وقلت في نفسي، إن كان الأنذال ينوون قتلي، فبقائي مستيقظة لن يوقفهم، وحتى إن لم يكن خاطري هذا صحيحًا، لم أكترث، وخلدت إلى النوم.

وعلى نحوٍ ما، خلال أو بعد القتال، ورغم نوبة الحراسة، انسل شخصان إلى مخيمنا واستلقيا بيننا. هما أيضًا خلدا إلى النوم.

استيقظنا باكرًا، كما هي العادة، حتى يتسنى لنا الانطلاق في المسير قبل اشتداد الحر. تعلمنا الاستيقاظ على أول خيوط الفجر دون محفز، واليوم، أربعةٌ منا انتصبوا كلٌّ في كيس نومه وبنفس الوقت. كنت

أزحف خارج كيس نومي كي أذهب للتبوُّلِ حين وقعتْ عيناي على الشخصين الإضافيين، كتلتين رماديتين في نور الفجر، أحدهما كبير والآخر صغير، مستلقيين إزاء بعض، على الأرض الجرداء، أذرعٌ وسيقانٌ هزيلة كالعصيّ ممتدة من كتلتي الأسمال والخرق.

رمقت الآخرين من حولي ورأيت أنهم يحدقون إلى البقعة ذاتها حيث أحدق - الجميع ما عدا جل، من كان يفترض بها تولي الحراسة. كنا بدأنا الأسبوع الماضي الوثوق بقدرتها على الحراسة برفقة شريك، هذه كانت خفارتها الفردية الثانية، وإلى أين كانت تنظر؟ بعيدًا صوب الأشجار، سأضطر إلى الحديث معها.

وفورًا تفاعل هاري وترافيس مع وجود الغريبين، كلٌّ في لباسه الداخلي، وبصمت، راح ينسلُّ عن كيس نومه. نهضا، وأنا معهما، باحتشامٍ أكثر، أحاكي ما يفعلانِهِ حركةً حركة... أحطنا بالمتسلليْنِ في دائرةٍ مغلقة.

استيقظ الأكبر فجأة، قفز، ووثب في ثلاث خطوات نحو هاري ثم توقف. كانت امرأة، إذ تسنّى لنا رؤيتها بشكلٍ أوضح. كانت بُنية البشرة، مع شعرٍ أسودَ طويل وناعم غير ممشط. كان لونُها غامقًا، كلوني، لكنها حادة الملامح، نحيلة الوجه، حادة كما الصقر، ويعوزها ما يسدُّ رمقها من الطعام، وحمامٌ جيّد؛ بدت مثل كثيرينَ ممن نراهم على الطريق.

استيقظ المتسلل الثاني، رأى ترافيس واقفًا قربه في لباسه الداخلي، صاح فزعًا، والجميعُ الآن قد تنبَّهَ لما يجري. كان صياحًا

حادًّا، صياحَ طفل يصم الآذان -طفلة صغيرة بدت في السابعة، كانت ضئيلة، صورة طبق الأصل عن المرأة- أمها، أو لربما أختها.

هرعت المرأة نحو الطفلة وحاولت انتشالها، لكن الطفلة تكورت على نفسها في وضعية الجنين. والمرأة، في محاولتها حملها، عجزت عن التشبث بها، تعثرت، وسقطت، وفي لحظة هي الأخرى تكورت بشدة على نفسها. حينها كان الجميع قد أتى ليرى ما يجري.

«هاري»، قلت وانتظرتُ أن يلتفت إليَّ، «هل لك وزهرا أن تتوليا الحراسة - احرصا ألا شيء آخر يفاجئنا».

أومأ، وهو وزهرا انفصلا عن المجموعة ثم افترقا، كلٌّ على جانب من جانبي المخيم. هاري عند المجاز الأقرب من جهة الطريق السريع وزهرا على المجاز المقابل، الأقرب إلى الطريق الفرعي. كنا قد دفنَّا أنفسنا عميقًا في هذه المنطقة المهجورة والتي قال بانكول إنها لا بد كانت منتزهًا. لم نوهم أنفسنا أننا سنكون الوحيدين هنا، فقد تتبعنا الطريق ١٠٥ حتى وصل بنا إلى بلدة صغيرة خارج ساكرمنتو، بعيدًا عن البؤرة الأعنف، لكن كان لا يزال هناك الكثير من الفقراء حولنا، لاجئين ومعوزين مثلنا.

من أين أتتا هاتان المعوزتان المذعورتان في أسمالهما القذرة؟

«لن نؤذيكما»، قلت لهما، حيث كانتا متكورتين على الأرض، «انهضا، هيّا، انهضا، فقد أتيتما إلى مخيمنا دونما استئذان، على الأقل تكلما معنا».

لم نلمسهما، بانكول بدا أنه يريد لمسهما، لكنه توقف إذ قبضت على ذراعه. كانتا أصلًا مذعورتين حتى الموت، ومحاولة رجل غريب مدَّ يده نحوهما كانت ستدفع بهما نحو الهستيريا.

مرتجفة، بسطت المرأة جسدها ورفعت رأسها تحدّق فينا، والآن أدركتُ أنَّها، خلا لونها، فملامحها آسيوية، أخفضت رأسها وهمست شيئًا للطفلة، بعد لحظة، كلتاهما نهضتا.

«لم نعرف أنه مكانكم» همست قائلة، «سنرحل عن هنا، دعونا نرحل».

تنهدتُ، ونظرتُ نحو وجه الطفلة الصغيرة المذعورة، «بإمكانكما الرحيل» قلت لها، «أو إن أردتما، فلكما أن تأكلا معنا».

كلتاهما أرادت الفرار، كانتا كغزالين مصعقوين على وشك الانطلاق، لكني قلت الكلمة السحرية، تلك التي ما كنت لأنطقها قبل أسبوعين، قلتها اليوم لتلكما البائستين الجائعتين: «تأكلان».

«طعام؟» همست المرأة.

«أجل، سنتشارك معكما قليلًا من الطعام».

نظرت المرأة نحو الطفلة الصغيرة، وتأكدتُ أنهما أمٌّ وابنتها، «لا مال لدينا ندفعه» قالت لي، «لا نملك شيئًا على الإطلاق».

من الواضح، «فقط خذا ما نمنحكما إياه ولا شيء أكثر» قلت لها، «افعلا ذلك وسنكتفي به ثمنًا».

«نحن لن نسرقكم، نحن لسنا لصتين».

بالطبع كانتا لصتين، فعدا ذلك كيف ستنجوان. شيءٌ من السرقة وتنقيب القمامة، ولربما شيء من الدعارة... لا أظنهما كانتا جيدتين في أي منها وإلا لبدتا في حالٍ أفضل. لكن لأجل الطفلة الصغيرة، أردتُ مساعدتهما ولو بوجبة طعام.

«انتظرا إذن، سنعدُّ طعامًا نتناوله».

بقيتا جالستين حيث كانتا، وراحتا تحدقان فينا بعينين جائعتين، عينين مفجوعتين. الجوعُ في عينيهما ما كان ليسده كل الطعام لدينا، وخطر على بالي أني لربما ارتكبتُ خطأً في دعوتهما، فهما معوزتان يائستان، وخطيرتان، حتى وإن بدتا غير مؤذيتين، إذ ما تزالان حيتين وقويتين كفاية للركض. لا، ما كانتا غير مؤذيتين.

كان جستن من خفف التوتر في تلك الأعين الغائرة الجائعة. عارٍ، درج نحو المرأة والطفلة وراح يتفحصهما، بدورها حدقت الطفلة الصغيرة فيه، لكن بعد لحظة، ابتسمت المرأة، قالت شيئًا لجستن وابتسم، ثم ركض عائدًا إلى آلي وتشبثت به كفاية إلى أن ارتدى ملابسه. لكن عمله أوتي ثمره، فالمرأة الآن بدأت تنظر إلينا بعينٍ مختلفة، شاهدتْ ناتيفيداد ترضع دومينيك، ثم شاهدت بانكول يمشط لحيته، بدا تمشيطه مضحكًا لها وللطفلة، وكلتاهما قهقهت.

«لك معجبات،» قلت لبانكول.

«لا أرى ما المضحك في تمشيط رجل للحيته» دمدم قائلًا، ووضع مشطه جانبًا.

نقبت في حقيبتي وانتشلت حبتي كمثرى، وناولت حبة لكل

من المرأة والطفلة. كنت أحضرت الكمثرى قبل يومين، والآن تبقى لديّ ثلاث حبَّاتٍ. الآخرون حذوا حذوي، وشاركوهما ما تيسر لهم التخلي عنه: جوز غير مقشَّر وتفاح ورمانة وبرتقال فالنسيا وتين... أشياء صغيرة.

«حاولا ادّخاره قدر المستطاع»، قالت ناتيفيداد للمرأة ما إن أعطتها لوزًا مغلفًا بقطعة قماش حمراء، «احتفظي بما أخذته في هذه الرزمة واعقدي طرفيها».

تشاركنا جميعًا خبز الذرة المعجون بقليل من العسل مع البيض المسلوق الذي اشتريناه وطهوناه البارحة. كنا أعددنا خبز الذرة على جمر نار الليلة الماضية حتى يتسنى لنا الانطلاق باكرًا هذا الصباح، المرأة والطفلة تناولتا الطعام الباهت البارد وكأنه أشهى طعام ذاقتاه في حياتهما، كأنهما غير مصدقتين أنَّ أحدًا منحهما إياه، جثمتا رابضتين عليه وكأنهما مذعورتان من انتشالنا الخبز والبيض في أية لحظة من بين أيديهما.

«يجدر بنا الذهاب»، قلت أخيرًا، «فالحر بدأ يشتد».

حدَّقت المرأة إليّ، وجهها الغريب حاد الملامح لا يزال جائعًا، لكن ليس للطعام.

«دعونا نذهب معكم» قالت لنا، كل كلمة ترجف على عقب الأخرى، «سنعمل، سنجمع الحطب، نوقد النار، نغسل الأطباق، أي شيء، خذونا معكم».

بانكول نظر إليّ، «أحسبك توقعت هذه النتيجة».

أومأتُ، المرأة كانت تحول نظرها من أحدنا إلى الآخر.

«أي شيء» قالت في همس أو نشيج، عيناها جافتان جائعتان، لكن الدمع انسابَ من عيني الطفلة الصغيرة.

«أعطنا لحظة كي نقرر» قلت لها، ما عنيته: اذهبي بعيدًا حتى يتسنى لأصدقائي الصراخ في وجهي. لكن لم يبدُ عليها أنها فهمت، ظلت تلازم مكانها.

«انتظري هناك» وأشرت إلى الأشجار الأقرب للطريق، «دعيني أناقش الموضوع مع البقية، بعدها سأخبرك».

لم ترغبْ في فعل ذلك، ترددتْ، ثم نهضتْ وسحبت ابنتها الأكثر ترددًا منها، ومشتا مجهدتين نحو الأشجار حيث أشرتُ.

«يا الله!» دمدمت زهرا، «سنأخذهما معنا، أليس كذلك؟».

«هذا ما علينا أن نقرره» قلت لها.

«نقرر ماذا؟ نطعمها ثم نضطر لإخبارها بالرحيل والموت جوعًا في مكان آخر؟» قالت زهرا في اشمئزاز.

«إن لم تكن لصة» قال بانكول، «وإن لم يكن لديها أي عادة خطرة، أظن بالإمكان حملها معنا، تلك الطفلة الصغيرة..».

«معك حق، بانكول هل ثمة متسع لهما في مكانك؟».

«مكانه؟» ثلاثة سألوا في الوقت نفسه، لم تتح لي الفرصة لإخبارهم بالأمر، ولا حتى الجرأة.

«لديه أرضٌ كبيرة في الشمال وقرب الساحل» قلتُ لهم، «وهناك بيت عائلة لكن لا يسعنا العيش فيه لأن أخته وعائلتها يقطنون فيه، لكن ثمة مكانٌ لنا وأشجار وماء، ويقول..». بلعت ريقي ونظرت إلى بانكول وابتسامته الصغيرة، «يقول إنَّ المكان مناسب لتأسيس بذرة الأرض، بناء ما نستطيع بما لدينا».

«هل ثمة وظائف؟» سأله هاري.

«صهري يتدبر أمره طوال العام في مهام البستنة والوظائف المؤقتة، وينفق على ثلاثة أطفال».

«لكن الوظائف تدفع راتبًا ماليًّا؟».

«أجل، تدفع راتبًا ماليًّا، ليس بالكثير، لكن تدفع. على كلٍّ، أرى أن نؤجل الحديث في الموضوع، فنحن نعذب تلك المرأة الواقفة في انتظارنا».

«ستسرق» قالت ناتيفيداد، «تدعي أنها لن تسرق، لكنها ستسرق. كل شيء فيها يشي بذلك».

«تعرضتا لضرب مبرح» قالت جل، «من الطريقة التي تكورتا فيها على نفسيهما ما إن لمحناهما، فقد اعتادتا على تلقي الضرب، الرفس، الرمي».

«إيه»، بدت جل وكأنما اللحظة قد اجتاحتها الذكريات، «تحاولين حماية رأسك من الضرب، حماية عينيك و... وفرجك، ظننت بأننا سننهال عليها ضربًا، هي والطفلة معًا».

مثير للاهتمام كيف لآلي وجل أن تفهمتا معاناة المرأة وطفلتها، وأي أبٍ فظيعٍ هذا؟ وما الذي جرى لأمها؟ إذ لم تتحدثا عنها أبدًا. يذهلني كيف فرتا حيتين وعاقلتين بما يكفي كي تعيشا.

«إذن، هل توافقان على إبقائهما معنا؟» سألتهما.

كلتا الفتاتين أومأتا، «لكن لفترة ستكون شوكة في الخاصرة» قالت آلي، «فكما قالت ناتيفيداد، ستسرق، لن يسعها منع نفسها، وسينبغي بنا مراقبتها بحذر، وتلك الطفلة الصغيرة ستسرق، تسرق وتفر بجلدها».

كشرت زهرا وقالت، «تذكرني بنفسي وقت كنت في عمرها، كلتاهما ستكونان شوكةً في الخاصرة، أصوت لصالح إبقائهما، إن كانتا تتمتعان بالأخلاق أو على الأقل القدرة على تعلمها، نحتفظ بهما، إن كانتا غبيتين ولم تتعلما؛ نتخلص منهما».

نظرت إلى ترافيس وهاري، الواقفين جنبًا إلى جنب، «وما رأيكما شباب؟».

«رأيي أنَّ قلبك بدأ يرق» قال هاري، «قبل أسابيع، كنت ستجلديننا إن حاولنا إيواء متسولة وطفلتها».

أومأت، «معك حق، لَكنتُ جلدتكم، ولربما علينا الإبقاء على موقفنا هذا. لكن تلكما... أرى أننا سنجد فيهما قيمةً ما – ولا أظنهما خطرتين. إن تبين خطأي، سنهجرهما».

«لربما لن يتقبلا هجرك لهما» قال ترافيس، ثم هزَّ كتفيه، «لا أريد

أن أكون الشخص الذي يرسل بهذه الطفلة الصغيرة إلى عالم لن تكون فيه أكثر من نشالة عاهرة. لكن فكري لورن، إن تركناهما تبقيان معنا، ولم تسر الأمور على ما يرام، لربما سيصعب علينا التخلص منهما، وإن تبين أنَّ لهما أصدقاء في الأرجاء - أصدقاء تعملان مرشدتين لصالحهم، لربما سنضطر إلى قتلهما».

كِلا هاري وناتيفيداد اعترضا، قتل امرأة وطفلة؟ لا! مستحيل! أبدًا!

أنا والبقية تركناهما يواصلان الكلام، وحين فرغا قلت، «من المحتمل أن تبلغ الأمور هذا السوء، لكن، لا أظن ذلك، فالمرأة تريد أن تعيش، والأهم، تريد لطفلتها أن تعيش، وأحسبها ستحتمل الكثير لأجل طفلتها، ولا أظنها ستعرّض طفلتها للخطر بالعمل مرشدة لصالح العصابات، وعلى كلٍّ، فالعصابات هنا لا تحتاج إلى مرشدين، ما إن تراك تنقضُّ عليك».

صمت.

«هل نجربهما؟» سألتُ الجماعة، «أو نردُّهما الآن؟».

«لست ضدهما» قال ترافيس، «دعيهما تبقيان، لأجل الطفلة، لكن فلنعد إلى الخفارة المزدوجة ليلًا، وأصلًا كيف تسنى لهما التسلل إلينا؟».

جل انقبضت، «لربما انسلتا في أي وقت ليلة البارحة، أي وقت!».

«ما لا نراه يقتلنا» قلت لها، «هل رأيتهما جل؟».

«لربما كانتا أصلا هنا وقت استلمتُ الحراسة!».

«ولو لم تريهما، لكانتا نحرتا عنقك، أو عنق أختك».

«لكنهما لم تفعلا ذلك».

«المتسلل القادم سيفعل» قلت وملت نحوها، «العالم مليءٌ بالمجانين الخطرين، ولا يمر يوم دون أن نرى دلائل هذا الواقع. إن لم نحمِ أنفسنا، سيسرقوننا ويقتلوننا، ولربما يأكلوننا. هذا عالمٌ ينحدر نحو هاوية الجحيم، جل، ولا نملك سوى بعضنا بعضًا حتى نحفظ أنفسنا من الوقوع فيه».

صمتٌ متجهّم.

مددت يدي وأمسكت بيدها، «جل».

«ما كان خطأي! ولا يسعك إثبات-».

«جل!».

خرستْ، وحدقت إليّ.

«إسمعيني، بحق الرب لا أحد هنا سيضربك، لكنك ارتكبت خطأً، وخطأً فادحًا، وأنت تعرفين ذلك».

«فما الذي تريدينه منها إذن؟» قالت آلي غاضبة، «الركوع على ركبتيها وتوسل السماح؟».

«أريدها أن تحب حياتها وحياتك بما يكفي للدفاع عنهما دون

ذرة إهمال، هذا ما أريد، وهذا ما يجدر بك أن تريديه، الآن أكثر من أي وقت مضى، أليس كذلك جل؟».

أغمضت جل عينيها، «أوه، سحقًا!» قالت، ثم أردفت، «حسنٌ، حسنٌ! لم أرهما، حقًّا لم أرهما، سأراقب بحرصٍ أشد المرة القادمة، لا أحد بعدهما سيتجاوزني».

ضممتُ يدها وهلةً أطول، ثم تركتها، «حسنٌ، فلنذهب من هنا، ولنلتقط تلك المرأة المذعورة وطفلتها الصغيرة المذعورة ونرحل».

تبين أنَّ المذعورتين من أكثر الناس المختلطين عرقيًّا ممن مروا عليّ، وذي قصتهما، جمعتها من النتف التي أخبرانا بها على مر اليوم والليلة. كان للمرأة أبٌ ياباني وأمٌّ سوداء وزوجٌ مكسيكي، كلهم أموات، هي وابنتها فقط الناجيتان، اسمها إيميري تاناكا سولس، وابنتها توري سولس. توري في التاسعة لا السابعة من العمر كما خمنت، أظنها عانت من سوء التغذية طوال حياتها. توري ضئيلة وسريعة وهادئة، وذات عينين جائعتين، كانت تخبئ كسر الطعام في أسمالها إلى أن صنعنا لها ثوبًا من أحد قمصان بانكول، ثم باتت تخبئ الكسر في ثوبها الجديد. ومع أنَّ توري في التاسعة، فأمها لم تتجاوز الثالثة والعشرين، ففي سن الثالثة عشر، تزوجت إيميري من رجلٍ يكبرها بكثير ووعدها بالاعتناء بها. أبوها كان قد مات في تبادل إطلاق نار عرضي، أمها كانت مريضة، تموت من السل، دفعت الأم بإيميري إلى الزواج كي تنقذها من الوقوع ضحية الشوارع والموت جوعًا.

حتى الآن فالقصة كئيبة، لكن طبيعية، فإميري أنجبت ثلاثة أطفال على مر الثلاث سنوات اللاحقة - ابنة وابنان، هي وزوجها عملا في الزراعة مقابل الطعام والملجأ والصدقات من الملابس والأغراض المستعملة، ثم بيعت المزرعة على شركة صناعة أغذية ضخمة عابرة للقارات، ووجد العمال أنفسهم في رحمة أيدٍ جديدة.

أصبحت الأجور تُدفَع للعمال، لكن في عملة الشركة لا نقدًا، فُرِضَ الإيجار على الأكواخ، وبات على العمال الدفع مقابل الطعام والكسوة -جديدة أم مستعملة- ومقابل كل احتياجاتهم، وبالطبع، لهم أن يدفعوا فقط بعملة الشركة في متجر الشركة. الأجور -يا للمفاجأة- لم تكفِ أبدًا لتغطية التكلفة والفواتير، ووفقًا للقانون الجديد الذي قد يكون أو لا يكون موجودًا، فلا يسمح لأي أحد ترك صاحب العمل ما دام يدين له بالمال، وجبرًا سيعمل لديه حتى سداد الدين كشبه موظف، أو كسجين إن رفض العمل. فللشرطة أن تقبض عليه وتسجنه، وفي النهاية، تسلمه إلى صاحب العمل.

في الحالتين، يُجبَر عَبيد الدَّيْن على العمل ساعات أطول مقابل أجر أقل، مسموحٌ «تأديبهم» في حال أخفقوا في تحقيق الحصة المطلوبة، ومسموحٌ المتاجرة بهم وبيعهم برضاهم أو دونه، مع عائلاتهم أو بدونها، على شركات أخرى في حاجة مؤقتة أو دائمة لهم. والأسوأ، مسموحٌ بإجبار الأطفال على العمل مقابل ديْن آبائهم إن توفي أحد الأبوين أو كليهما، أو مرضا حدَّ العجز، أو هربا.

زوج إيميري مرض ومات. ما كان ثمة طبيب ولا أدوية عدا

الأدوية القليلة الباهظة على رفوف المتجر والأعشاب التي يزرعها العمال في حدائقهم الضيقة. خورخيه فرانسيسكو سولس مات من الحمى والألم على أرضية كوخه الترابية دون أن يراه طبيب، ومما سمعه من أعراض، قال بانكول إنه على الأرجح مات من التهاب الصفاق المتأتي عن التهاب الزائدة الدودية، مرضٌ بسيط، أجل، لكن لا شيء يسهل استبداله أكثر من العمالة السائبة.

بعدها أصبحت إيميري وأطفالها المسؤولين عن سداد دين سولس، تقبلت إيميري الوضع وتحملت ظروف العمل إلى أن جاء اليوم، وبلا أي إنذار مسبق، أُخذَ منها ولداها، كانا أصغر بعام وعامين من ابنتها، وصغيرين على العيش محرومين من كلا أبويهما، ومع ذلك أخذا منها. لم يمنحوا إيميري فرصة وداعهما ولا حتى أعلموها بمصيرهما، ساورتها شكوكٌ فظيعة وقت أفاقت من المخدر الذي حقنوها به «حتى تهدأ أعصابها». ظلت تصيح وتطالب بعودة ولديها وأنها لن تعود للعمل حتى يعودا، لكن تراجعت ما إن هددها أسيادها بأخذ الطفلة أيضًا.

وقررتْ الفرار، انتشال طفلتها ومواجهة الطريق بلصوصه ومغتصبيه وآكلي البشر فيه، فلا شيء تملكانه يستحق السرقة، والاغتصاب ليس بالمصير الذي تتلافيانه ببقائهما عبدتين، أما بالنسبة لآكلي لحوم البشر... حسنٌ، لربما ليست سوى خيالات - أكاذيب يخيفون بها العبيد حتى يجبروهم على تقبل مصيرهم.

«آكلو البشر موجودون»، قلت لها بينما كنا نتناول الطعام ليلًا،

«رأيناهم، لكن أظنهم في الأساس منقبي قمامة، لا قتلة، يقتاتون على الجثث الملقاة على الطريق، شيء من هذا القبيل».

«منقبو القمامة يقتلون» قالت إيميري، «إن أصبت أو بدوت مريضًا، سينقضون عليك».

أومأتُ، ومضت تسرد قصتها. ذات ليلة، وفي وقت متأخر، تمكنت هي وتوري من التسلل عبر حراس الشركة المسلحين والأسيجة المكهربة والكواشف المستشعرة للصوت والحركة وتجاوزتا الكلاب، فكلتاهما ماهرتان في التحرك بلا حس، في الاختفاء من ساترٍ لآخر، في الاستلقاء جامدتين لساعات، وكلتاهما سريعتان كهبّة ريح، فالعبيد يتعلمون مهارات كهذه - العبيد الناجون. لا بد أن إيميري وتوري كانتا محظوظتين.

كان الأمل ما يزال يحدو إيميري بالعثور على ابنيها واستعادتهما، لكن لا فكرة كانت لديها عن مكانهما. أخذوهما في شاحنة؛ هذا كل ما تعرفه، لكن لم تعرف بأي اتجاه أخذته الشاحنة لدى بلوغها الطريق السريع. أبواها علماها القراءة والكتابة، لكن لم تقع على أي كتابة تخص ولديها، وسرعان ما اضطرت للاعتراف بأن كل ما بيدها فعله الآن إنقاذ ابنتها.

اقتاتتا على النباتات البرية وعلى أي شيء «عثرتا» عليه أو توسلتا لأجله، وهامتا باتجاه الشمال. هكذا وصفته إيميري: العثور على الأشياء، حسنٌ، لو كنت مكانها، لعثرت أنا أيضًا على أشياء.

قتال عصابات دفعهما صوبنا، فالعصابات خطرة جدًا في المدن،

لكن إن سلكت طريقًا محكومة بقبضة عصابة واحدة، لربما ستنجو من شرها، كذا الحال معنا حتى الآن. لكن أرض المنتزه الشاسع حيث خيمنا البارحة كانت، وفقًا لإيميري، محل خلاف. عصابتان تبادلتا إطلاق النار والشتائم والاتهامات، وبين الفينة والأخرى أطلقوا النار على الشاحنات العابرة، وفي خضم إطلاقهم النار على الشاحنات، تسللت هي وتوري من حيث كانتا تخيمان على جانب الطريق.

«فمجموعة منهم بدأت تقترب منا» قالت إيميري، «يكرون ويفرون مع كل إطلاق نار، ومتى ما فروا، يدنون نحونا، كان علينا مغادرة المكان بسرعة، ما كنا لنسمح لهم بسماعنا أو رؤيتنا، وهكذا عثرنا على موقعكم، لكن لم نركم، حقًّا أنتم تتقنون الاختباء».

سأحسبه ثناءً، فنحن نحاول الاختفاء ضمن محيطنا كلما استطعنا، ومعظم الأوقات لا نستطيع. الليلة لا نستطيع، والليلة سنحرس في نوبة مزدوجة.

الأحد، ١٢ سبتمبر ٢٠٢٧

توري سولس عثرت لنا اليوم على رفيقين جديدين: غرايسون مورا وابنته دو. دو أصغر بعام من توري، والفتاتان الصغيرتان، تسيران معًا، على الطريق ذاته، غدتا صديقتين. اليوم استدرنا غربًا على الطريق السريع ٢٠ عائدين نحو طريق الولايات ١٠١. كنا قد قضينا الكثير من الوقت نتكلم حول الاستقرار على أرض بانكول، عن الوظائف والمحاصيل وعمّا سنشيده هناك.

في غضون ذلك، كانت الفتاتان الصغيرتان، توري ودو، تتصادقان وتجذبان والديهما معًا، ولفت انتباهي إلى أي حد الأب والأم متشابهان، فهما متقاربان في العمر - ما يعني أن الرجل أصبح أبًا بعمرٍ فتيّة كما الأم، وضعٌ معتاد، لكن غيرُ المعتاد توليه مسؤولية طفلته.

كان طويلًا، نحيفًا، لاتينيًّا أسودَ، هادئًا، شديدَ الحرص على ابنته. مع ذلك، ولسببٍ ما، بدا متردّدًا. كان معجبًا بإيميري، شعوره واضحٌ وجليّ، إنما في أعماقه، أراد الابتعاد عنها والابتعاد عنا. حين غادرنا الطريق كي نخيم، كان سيواصل طريقه لولا أنَّ ابنته راحت ترجوه، ثم صاحت باكية، حتى يبقيا معنا. كان لديه طعامه لذا أخبرته أن بوسعه التخييم قربنا إن أراد، لدى حديثي معه استرعى انتباهي أمران.

أولًا، لم نرق له. لم يبذل جهدًا لإخفاء مشاعره. ظننت أنه ربما يزدرينا لأننا جماعة موحدة ومسلحة، والمرء ينحو إلى ازدراء من يخشاهم. أخبرته عن نوبات الحراسة، وأنه إن كان على قدر المهمة، فمرحب به. هزَّ كتفيه وقال، في صوته البارد الرقيق، «أوه، أجل».

سيبقى. فطفلته تريد البقاء وجزءٌ منه يريد البقاء أيضًا، لكن ثمة خطبٌ ما، خطبٌ يفوق تحوُّط الرحَّال الاعتيادي.

الأمر الثاني شكٌّ يعتريني، أعتقد أنَّ غرايسون ودو كانا عبدين أيضًا، لكن غرايسون الآن معوزٌ غني، فلديه كيسا نوم وطعام وماء ونقود. إن كنت محقة، فقد استلبها من أحدهم - أو من جثة أحدهم.

لماذا أظنه كان عبدًا؟ ذاك التردد الغريب فيه يشبه إلى حد كبير تردد إيميري، أما دو وتوري، رغم أنهما لا تشبهان بعضهما على الإطلاق، تبدوان متوافقتين وكأنهما أختان. للأطفال الصغار أن يتصرفوا هكذا في بعض الأحيان، دون أن يعني ذلك شيئًا، مجرد سلوك طفوليّ اعتيادي. لكن لم يسبق لي أن رأيت طفلتين تظهران ردة الفعل ذاتها في السقوط على الأرض والتكور في وضعية الجنين متى ما ذُعِرَتا.

فعلتْ دو ذلك حين تعثرتْ وسقطتْ، فدنت منها زهرا كي ترى إن أصيبت بأذى، فورًا تكوّر جسد دو إلى كرة مرتجفة. هل كانت، كما افترضتا جل وآلي، تفعل ما يفعله الناس متى ما توقعوا التعرض للضرب أو الرفس – وضعية حماية وخضوع في الآن ذاته؟

«ثمة خطبٌ ما في ذاك الرجل» قال بانكول وهو يرمق غرايسون بينما رحنا نستلقي جنبًا إلى جنب. كنا تناولنا الطعام واستمعنا إلى المزيد من قصة إيميري وتحادثنا قليلا، لكن كنا مرهقيْن. الكتابة تنتظرني، وترافيس وجل يتوليان نوبة الحراسة، أما بانكول فسيباشر نوبة الحراسة في الصباح الباكر مع زهرا. أراد مواصلة الحديث، دنا مني وراح يتحدث إلى أذني في صوت هامسٍ لدرجة أني لو ملت عنه شعرةً فلن أسمع كلمةً، «مورا مهتاج» قال لي، «يجفل كلما دنا أحدٌ منه».

«أظنه كان عبدًا سابقًا» قلت في صوت يماثل خفوت صوته، «وليس الخطب الوحيد فيه أيضًا، لكن الأوضح».

«تنبهتِ إلى الأمر إذن» طوَّقني بذراعه وتنهدَ، «أتفق معك، هو والطفلة».

«كما أنه لا يحبنا».

«هو لا يثق بنا، ولمَ عساه يفعل؟ على كلٍّ، سينبغي بنا مراقبة الأربعة لفترة، فهم... غريبو الأطوار، ولربما أغبياء وسيحاولون سرقة شيء من متاعنا والفرار ليلًا، أو لربما لن يزيد الأمر عن اختفاء أغراض صغيرة بين الفينة والأخرى؛ على الأرجح سنقع على الطفلتين في الجرم المشهود. لكن إن بقي البالغان معنا، سيبقيانِ كرمى لطفلتيهما، لذا إن هَوَنَّا الأمر على الطفلتين وحميناهما، أظننا سنكسب ولاء أبويهما».

«وها نحن أصبحنا الطاقم العصري لسكة تهريب العبيد». فالعبودية عادت من جديد – ولربما أسوأ مما تصور أبي، أو أقرب مما تصور، إذ ظنَّ الأمر سيأخذ زمنًا أطول.

«لا شيء من هذا جديد» واستلقى بارتياح إلى جواري، «في مطلع تسعينيات القرن الماضي، وقت كنت طالبًا في الجامعة، سمعت عن حالات مشابهة ارتكبها عددٌ من أصحاب المزارع – حبس الناس ضد إرادتهم وإجبارهم على العمل بلا مقابل. اللاتينيون في كاليفورنيا، والسود واللاتينيون في الجنوب... بين وقت وآخر، أحدهم كان سيُكشَف أمره ويدخل السجن».

«لكن إيميري تقول إن ثمة قانونًا جديدًا. بات شرعيًا إجبار الناس أو أطفالهم على سداد دَينٍ يتضاعفُ».

«ربما، من الصعب معرفة الحقيقة، لربما مرَّر رجال السياسة قانونًا يدعم نظام الاستعباد بالدَّيْن، لكنني لم أسمع به، وعلى كلٍّ، من يصل به الانحطاط والقذارة إلى استعباد الناس لن يفرق معه الكذب، فأنت تدركين أن ابنيْ تلك المرأة بيعا كما القطيع - ويقينًا بيعا للدعارة».

أومأتُ، «وهي تعرف ذلك».

«أجل، يا الله!».

«العالَمُ ينهار من حولنا»، تريثت قبل أن أردف، «لكن، أتدري، إن استطعنا إقناع عبيدٍ سابقين بأنهم سيحظون بالحرية معنا، فلا أحد سيضاهيهم ضراوةً في القتال. لكن سنحتاج إلى أسلحة أكبر، وسنحتاج إلى التزام أشد درجات الحذر... فالوضع يزدادُ خطورةً، وسيغدو أشدَّ مع وجود الفتاتين الصغيرتين».

«تلكما الصغيرتان تعرفان كيف تلزما الهدوء» قال بانكول، «فهما أرنبتان صغيرتان، سريعتان وهادئتان، لهذا لا تزالان على قيد الحياة».



# ٢٤

احترمْ الربَّ إلهك:

صلِّ عامِلًا.

صلِّ دارسًا،

مخطِّطًا،

فاعِلًا.

صلِّ مبدعًا،

معلِّمًا،

متعاونًا.

صلِّ عامِلًا.

صلِّ حتى تركِّز أفكارك،

تُسْكِن مخاوفك،

تشدُّ عزيمتك.

احترم الربَّ إلهك.

صوِّر الربَّ إلهك.

صلِّ عاءِلًا.

بذرة الأرض: كتبُ الأحياء

الجمعة، ١٧ سبتمبر ٢٠٢٧

قرأنا، هذا الصباح، بعض الآيات وتحادثنا حول **بذرة الأرض**. كان طقسًا هدَّأ أعصابنا – أشبه بقدّاس كنيسة، فقد احتجنا إلى شيء يبعث فينا الهدوء والطمأنينة. حتى الجُدد الذين انضموا إلينا راحوا يتساءلون، يفكرون بصوتٍ عالٍ، ويطبقون الآيات على تجاربهم الشخصية.

الرب هو التغيير، وفي النهاية، النصر للرب ولا أحد سواه، لكن بيدنا تقرير متى وكيف ستقع تلك النهاية.

بلى.

كان أسبوعًا مريعًا.

أخذنا اليوم والبارحة يومي راحة، ولعلنا سنأخذ يوم غدٍ راحةً كذلك، فأنا في حاجة للراحة سواء احتاجها الآخرون أم لا، فكلنا متألمون ومرضى، منهكون وفي عزاء – مع ذلك منتصرون. غريبٌ هو الشعور بالانتصار، أظن لأن معظمنا لا يزال على قيد الحياة، فنحن حصاد الناجين. لطالما كنَّا حصاد الناجين.

هذا ما حدث.

في محطة وقوفنا ظهر الثلاثاء، توري ودو، الفتاتان الصغيرتان، مضتا بعيدًا عن الجماعة كي تتبولا، رافقتهما إيميري، فهي شبه تولت رعاية دو مثلما ترعى ابنتها. الليلة السابقة، هي وغرايسون مورا انسلا بعيدًا عن الجماعة وبقيا بعيدين لما يزيد عن ساعة، هاري وأنا كنا نتولى الحراسة، ورأيناهما يبتعدان. والآن باتا زوجًا - لا يطيقان الابتعاد عن بعضهما بعضًا، لكن ظلَّا على مسافة من الجميع، أناسٌ غريبو الأطوار.

وهكذا أخذت إيميري الفتاتين كي تتبولا - ليس بعيدًا، مقابل سفح التل حيث تواريْن عن الأنظار، خلف كومة من الشجيرات الميتة والعشب الطويل الجاف، بينما جلس بقيتنا لتناول الطعام والشرب والتعرُّق في الظل الشحيح لأيكة من أشجار البلوط نصف الميتة. الأشجار كانت منزوعة الأغصان، لا شك على يد الباحثين عن حطبٍ للنار. كنت أتأمل ثُلَم جراحها العديدة حين شرع الصراخ.

الصرخة الأولى كانت عالية، رفيعة كما الإبرة، زعيق الفتاتين الصغيرتين الحاد كالإبرة، ثم سمعنا صراخ إيميري تستنجد بنا، تلاه لعان رجل.

دونما تفكير هبَّ معظمنا من مكانه وهرع صوب مصدر الصراخ. في خضم اندفاعهما، أمسكتُ بذراعي هاري وزهرا كي ألفتَ انتباههما، وأومأتُ إليهما بالعودة حالًا ليحرسا متاعنا وناتيفيداد وآلي اللتين ظلتا مع الطفلين. هاري كان يحمل البندقية وزهرا تحمل مسدس البيريتا، ولحظتها كلاهما ازدراني. لا يهم،

ارتحت لرؤيتهما يعودان، من هناك سيؤمنان لنا غطاءً ويحميانا إن أصابنا الارتباك.

وجدنا إيميري تصارع رجلا ضخمًا أصلع يقبض على توري، ودو تهرع صارخة نحونا، مباشرةً نحو ذراعي أبيها. انتشلها وجرى بها نحو الطريق السريع، ثم استدار عائدًا نحو أشجار البلوط وجماعتنا. كان ثمة رجالٌ صلع آخرون قادمين من الطريق السريع، ومثلنا، هرعوا نحو مصدر الصراخ. رأيتُ معادنَ لامعةً بين أيديهم - لربما سكاكين، أو مسدسات. لمح ترافيس المجموعة فورًا؛ وأطلق قَبلي صرخة تحذير.

خررتُ على الأرض، على ركبة واحدة، وبكلتا يديَّ صوبت مسدسي من عيار ٤٥، أتحين إطلاق النار على المعتدي. الرجل كان أطول بكثير من إيميري، ورأسه وكتفاه مكشوفةٌ لي لكن ليس الصدر حيث يتشبث بقوة بتوري. بدت الطفلة الصغيرة دمية في يده القابضة عليها، لكن إيميري كانت المشكلة، فهي، الضئيلة والسريعة، ما انفكت تتهجم على الرجل، تخمش وجهه بأظفارها محاولةً الوصول إلى عينيه، بينما يحاول هو حماية عينيه والإطاحة بها بعيدًا عنه. لو كان خاوي اليدين لأطاح بها في لحظة، لكن ما كان ليتخلى عن توري التي ظلت تصارعه، وإيميري ما كانت لتتزحزح. للحظة، نجح وطرح إيميري أرضًا، وفي تلك النافذة الضيقة جدًا من الوقت، أذناي ترنان من أثر ضربته، أطلقتُ عليه النار.

وفورًا عرفت أني أصبته، لم يقع، لكني شعرت بألمه، وسأغدو

عاجزة. ترنَّح، وانهرت أنا معه. كنت لا أزال قادرة على السماع والرؤية، ولا يزال المسدس في يدي.

سمعتُ صراخًا، عصابة الرجال الصلع من الطريق السريع أطبقت علينا - ستة أو سبعة أو ثمانية. ما استطعت فعل شيء، إذ كان الألم يشلني، لكني رأيتهم. بعد لحظات، حين فقد الرجل الذي أصبته وعيه أو مات، تحررت - فورًا مطلوبة لنجدة جماعتي.

بانكول كان يملك المسدس الآخر، والوحيد، بعيدًا عن المخيم.

تعجَّلتُ النهوض، كدت أقع مرة ثانية، وأطلقت النار على معتدٍ آخر يتهجم على ترافيس الذي كان يحمل إيميري.

عدت ووقعت، لكني لم أفقد وعيي. رأيت بانكول يقبض على توري ويرمي بها إلى جل التي التقطتها واستدارت تركض بها نحو المخيم.

مدَّ بانكول يده إليّ، استطعت النهوض ومساعدته على تغطية تراجعنا.

ما كان من ساترٍ يحمينا سوى تلك الأشجار الجرداء المثلَّمة، لكن جذوعها كانت سميكة وصلبة. مهاجمٌ أطلق عدة طلقات نحوها ما إن وصلنا إليها.

تطلب الأمر مني ثوانٍ حتى أعي إطلاق أحدهم النار علينا، وما إن وعيت، انبطحت خلف الأشجار مع الآخرين ورحت أبحث عن المسدس المعادي.

دوَّت بندقيتنا من خلفي قبل أن ألمح أي شيء، كان هاري المتأهب، قد أطلق رصاصتين أخريين، وبدوري أطلقت رصاصتين. بالكاد أصوب، بالكاد مسيطرة. أظن بأنَّ بانكول أطلق النار أيضًا. وفي لحظة غدوت عاجزة، لا نفع مني لأي شيء، فقد متُّ مع أحدهم، وإطلاق النار توقف.

متُّ مع أحدهم، أحدهم وضع يديه عليّ وكنت على بعد شعرة من الضغط على الزناد.

بانكول.

«أيها الأحمق!» صحت في أنين، «كدت أقتلك».

«أنت تنزفين» قال لي.

فوجئتُ، وحاولت التذكر إن كنت أُصبتُ بطلقة رصاص، أو لربما وقعت على قطعة خشب حادة، فما كان لدي إدراكٌ حقيقيّ بجسدي. كنت أتألم، لكن ما كنت لأعرف أين الألم أو حتى إن كان ذلك ألمي أو ألم شخصٍ آخر. كان ألمًا حادًّا، لكن، على نحوٍ ما، ساكنًا. شعرت وكأنما... كأنما روحي انفصلت عن جسدي.

«هل الجميع بخير؟».

«لا تتحركي».

«هل نجونا، بانكول؟».

«أجل، البقية فرّوا بعيدًا».

«هاك مسدسي إذن وأعطه لناتيفيداد، في حال قرروا العودة».

أظنني شعرت به يأخذ المسدس من يدي، سمعت حديثًا مكتومًا بالكاد استوعبت منه شيئًا. حينذاك أدركت أني سأفقد وعيي، حسنٌ، على الأقل صمدت بما فيه الكفاية كي أكون عونًا لجماعتي.

جل غلكرست ميتة.

أصيبت برصاصة في ظهرها لدى جريها نحو الأشجار حاملة توري. لم يخبرني بانكول، لم يرد أن أعرف فورًا، إذ تبين أنني أيضًا أصبت برصاصة، كنت محظوظة، فجرحي سطحي، يؤلمني، لكن عدا ذلك، لم يتسبب بضرر بالغ. جل خانها الحظ، عرفتُ بموتها ما إن أفقت على نشيج صراخ آلي الملتاع.

وصلت جل بالطفلة إلى الأشجار، وضعتها أرضًا، ثم، بلا أنَّة، طوّقت جسدها على الأرض وكأنها تحمي نفسها. إيميري قبضت على توري وجثمتا معًا، تبكيان رعبًا وارتياحًا. أما البقية فكلٌّ كان مشغولًا، بحماية نفسه أولًا خلف ساتر، ثم بإطلاق النار. ترافيس كان أول من رأى بِركة الدم تتجمع حول جل، صاح مناديًا على بانكول، ثم أدار جل على ظهرها ورأى الدم يندفق من جرح خروج الرصاصة عبر صدرها. يقول بانكول إنها ماتت قبل وصوله إليها، لا كلمة وداع، لا نظرة أخيرة على أختها، ولا حتى تطمينًا بأنها أنقذت حياة الطفلة، وهي أنقذتها. عدا الرضوض على جسدها، فتوري كانت بخير، الجميعُ كان بخير ما عدا جل.

جرحي، ولأكونَ صادقة، ما كان أكثر من خدشٍ كبير. رصاصة شقَّت تَلَمًا في لحم خاصرتي اليسرى، تاركةً أذىً بسيطًا ودمًا غزيرًا

وثقبين في قميصي وألمًا شديدًا. الجرح ينبض ألمًا أسوأ من الحرق، لكنه لم يعجزني عن الحركة.

«جرح بطل الكاوبوي» قال هاري حين قدم مع زهرا كي يطمئنا عليّ، بدوا متسخين وبائسين، مع ذلك حاول هاري رفع معنوياتي، إذ لتوّهما ساعدا في دفن جل. الجماعة، بأيديها وبالعصي وبفأسنا، حفرت قبرًا ضحلًا لأجلها بينما كنتُ غائبة عن الوعي. سجّوا جثمانها بين جذور الأشجار، غطوها، دحرجوا صخورًا كبيرة أعلى قبرها، تركوها للأشجار تحظى بها، لكن أبدًا ما كانوا ليتركوها لآكلي لحوم البشر والكلاب.

قررت الجماعة قضاء الليلة حيث نحن، رغم كون أيكة البلوط موقع تخييم مرفوض لقربها من الطريق السريع.

«فأنت حمقاء وثقيلة على الحمل» أخبرتني زهرا، «لذا ارتاحي وسيعتني بانكول بك، أصلًا لا أحد منا بمقدوره منعه عنك».

«جرح بطل الكاوبوي» عاد هاري وكررها، «في ذاك الكتاب الذي اشتريته، فالناس إما تصاب في الخاصرة أو الذراع أو الكتف، ودائما لا يعدو الجرح كونه خدشًا - وإن كان بانكول يقول إن نسبة جيدة منهم لماتت جراء الكزاز أو أي التهاب آخر».

«شكرًا على التشجيع»، أجبته.

رمقته زهرا، ثم ربتت على ذراعي، «لا تقلقي، فلا جرثومة ستجرؤ على تجاوز ذاك الرجل المسن، فهو حانقٌ على مخاطرتك هكذا بنفسك، يقول إنك لو كنت عاقلة، لبقيت هنا مع بقية الأطفال».

«ماذا؟».

«لا تأخذي كلامه بجدية» قال هاري، «فهو مسن، ما الذي تتوقعينه منه؟».

تنهدت، «وكيف حال آلي؟».

«تبكي» قال يهز رأسه، «لن تدع أحدًا يقترب منها عدا جستن، حتى هو يحاول مواساتها، إذ يؤلمه رؤيتها تبكي».

«إيميري وتوري منهارتان أيضًا» قالت زهرا، «هما السبب الآخر وراء بقائنا هنا الليلة» تريثتْ ثم قالت، «لورن، هل لاحظت شيئًا غريبًا فيهما - إيميري وتوري أعني؟ وحتى في ذاك الرجل، مورا؟».

وفورًا اتضح لي كل شيء، وتنهدت مرة أخرى، «يعانون من فرط التقمص، أليس كذلك؟».

«أجل، جميعهم - البالغان والطفلتان، هل كنت تعرفين؟».

«ليس قبل الآن. لكن لفتت انتباهي غرابة تصرفاتهم: التردد والحساسية المفرطة - أعني تجنبهم اللمس، وكلهم عبيدٌ سابقون، أخي ماركوس أخبرني عما يصنعون بالعبيد المتقمصين».

«ذاك الرجل مورا يريد المغادرة» قال هاري.

«دعه يرحل، فقد حاول الفرار وتركنا حتى قبل إطلاق النار».

«لكنه عاد إلينا، حتى أنه ساعد في حفر قبر جل، ما أعنيه أنه يريد منا جميعًا المغادرة، يقول إن تلك العصابة حتمًا ستعود ما إن يحل الظلام».

«هل هو متأكد؟».

«أجل، ويكاد يفقد عقله، يريد المغادرة بطفلته بعيدًا عن هنا».

«وهل توري وإيميري قادرتان على المسير؟».

«أنا سأحمل توري» صوتٌ جديدٌ قال، «وبوسع إيميري السير». كان غرايسون مورا، بالطبع، من شوهد آخر مرة يقفز عن السفينة الغارقة. نهضتُ ببطء، خاصرتي تؤلمني، بانكول نظف الجرح وضمده بينما كنت غائبة عن الوعي، وتلك كانت ضربة حظ. مع ذلك، فالآن، أشعر وكأني شبه واعية، شبه منفصلة عن جسدي. شعرت بكل شيء عدا الألم، وكأنما حجابٌ قطنيٌّ سميك يفصلني عنه، عدا أنَّ الألم حقيقي وحاد، وكنت شبه ممتنة له.

«بوسعي السير»، قلت بعد محاولتي المشي عدة خطوات، «لكني أشعر وكأني أمشي على طوالتين، لا أدري إن كنت سأقدر على مجاراة سرعتنا المعتادة».

دنا غرايسون مورا مني، رمق هاري وكأنما يطلب منه الابتعاد، هاري بدوره لم يبتعد وحدَّق إليه.

«كم مرةً مت؟» سألني مورا.

«ثلاث مرات على الأقل» أجبته، وكأنَّنا نتحادث في موضوعٍ عقلاني، «ربما أربع، لم يسبق لي أن متُّ هكذا – ميتتين متواليتين، كان جنونيًّا، لكن ها أنا أراك لا تشكو من شيء».

ملامحه تصلَّبت وكأنني صفعته للتو، فأنا أهنته، كأنما قلت:

وأين كنت، أيها الرجل والشريك في التقمص، بينما امرأتك وجماعتك في خطر. غريب، لأول مرة أجدني أتكلم لغةً لم أدرك أني أعرفها.

«كان عليّ إبعاد دو عن الخطر، وعلى أي حال، ليس لدي مسدس».

«وهل تتقن الرماية؟».

ترددَ، «لا، لم يسبق لي أن أطلقت النار» اعترف في دمدمة، فها أنا أخزيه ثانيةً - لكن هذه المرة عن غير قصد.

«إن علمناك الرماية، فهل أنت مستعد لحمل السلاح وحماية الجماعة؟».

«بالتأكيد!» وإن أظنه لحظتها كان سيفضل إطلاق النار عليّ.

«لكن الألم لا يطاق» قلت محذرة.

هزَّ كتفيه، «الحياة مؤلمة».

نظرت إلى وجهه النحيل الغاضب، هل كل العبيد هزيلون - جائعون -منهكون- مغروسٌ في عقولهم أنَّ الحياة مؤلمة؟

«هل أنت من هذه الأنحاء؟».

«ولدت في ساكرمنتو».

«إذن سنحتاج كل المعلومات التي بيدك منحنا إياها، فحتى دونها مسدس، نحتاجك للنجاة هنا».

«معلوماتي أنَّ علينا مغادرة المكان فورًا قبل أن تصبغ تلك الكائنات وجوهها وتصعد التل وتشرع بقتل الناس وإشعال الحرائق».

«سحقًا، إذًا هذا ما هم عليه».

«ألم تدركي ذلك؟».

«لم يتسنَّ لي التفكير بهم، وأصلا لما همَّني حينها، هاري، هل فتشتم القتلى؟».

«أجل» قال مع ابتسامة صغيرة، «أصبح لدينا مسدسٌ آخر - عيار ٣٨، ووضعتُ بعض الأغراض التي سلبتها من قتيلكِ في حقيبتك».

«شكرًا لك، لا أدري إن كنت قادرة على حمل حقيبتي، ربما بانكول.»..

«سبق ووضعها في عربته، هلمَّ بنا».

وانطلقنا صوب الطريق السريع.

«هل هذا شرعكم؟» سألني غرايسون مورا أثناء سيره إلى جانبي، «من يقتل يسلب الغنيمة؟».

«أجل، لكن لا نقتل إلا إذا تعرضنا للتهديد» أجبته، «فنحن لا نطارد الناس، لا نأكل لحوم البشر، نحارب معًا ضد الأعداء، إن احتاج أحدنا للعون، نهب جميعًا لمساعدته، وأيضًا لا يسرق أحدنا من الآخر، أبدًا».

«إيميري أخبرتني، لكني لم أصدقها».

«وهل ستعيش على شرعنا؟».

«... أجل، أظنني سأفعل».

ترددت لكني سألته، «إذن ما مشكلتك؟ من الواضح لي أنك لا تثق بنا، حتى في هذه اللحظة».

دنا مني، لكن لم يلمسني، «من أين أتى ذاك الرجل الأبيض؟» سأل ممتعضًا.

«عرفته طيلة حياتي، هو وأنا والآخرون حافظنا على حياة بعضنا البعض لوقت طويل».

«لكن... هو وأولئك الآخرون لا يشعرون بشيء، أنت فقط من تشعرين».

«نحن نسميه فرط التقمص، وأجل، أنا الوحيدة بينهم».

«لكنهم... أنتِ..».

«نحن نساعد بعضنا بعضًا، فالجماعة قوية، أما الأفراد والثنائيات فمن السهل سرقتهم وقتلهم».

«إيه»، وراح يتلفت نحو الجميع، لا تشي ملامحه بثقة كبيرة ولا إعجاب، لكن بدا أكثر استرخاءً ورضًا، بدا وكأنما وجد للتو الإجابة على أحجية مريعة.

وحتى أختبره، تركت نفسي أتعثر. كان سهلًا عليّ، إذ كنت لا أزال أشعر قليلًا بقدميّ وساقيّ.

موراً انزاح جانبًا، لا لمسني ولا عرض مساعدته عليَّ، ونِعْمَ الرجل!

تركتُ مورا، ومضيت نحو آلي وسرت قربها لفترة، حزنها واستياؤها جدارٌ يفصلها عني - عن الجميع. لكنها الآنَ منزعجةٌ مني أنا بالذات، فأنا حيّة وأختها ميتة. كانت أختها عائلتها الوحيدة التي تبقت لها، فما بالي لا أدعها وشأنها؟

لم تقل شيئًا على الإطلاق، تصرَّفتْ وكأني لا أسير بجانبها، ظلت تدفع بجستن في عربته، وبين الفينة والأخرى تمسح الدموع عن وجهها المتحجر بحركة سريعة من يدها، كما السوط اللاذع. كانت تؤذي نفسها بفعلتها هذه، تعرك وجهها بشدة وسرعة، تلسعه بحدة، وبفعلتها هذه كانت تؤلمني أيضًا، ولا ينقصني المزيد من الألم، مع ذلك بقيت جانبها حتى بدأت دفاعاتها تنهار تحت موجة جديدة من الحزن العارم. كفَّت عن إيذاء نفسها وتركت الدمع ينساب على وجهها، تركت الدموع تتساقط إما على صدرها أو سقف العربة المكسور، بدت واهنة تحت عبء الثقل المفاجئ.

لحظتها عانقتها، وضعت يديّ على كتفيها وأوقفت تهاديها نصف الأعمى، حين استدارت إليّ مترنحة، عدائية ومتألمة، عانقتها. كان بوسعها التحرر من عناقي، إذ كنت أبعد ما يكون عن قوتي، لكن بعد محاولة التحرر الغضبى الأولى، تشبثت بي وراحت تنوح، وما سبق لي قط أن سمعت نواحًا كهذا. راحت تبكي وتنوح على قارعة الطريق، والآخرون توقفوا في انتظارنا، لا أحد تكلم، جستن

راح يئن وناتيفيداد أقبلت حتى تهدئ روعه. الرسالة الخاوية من الكلمات هي ذاتها لكلا الطفل والمرأة: رغم خسارتكما وألمكما، فأنتما لستما وحدكما، لا يزال لديكما أناسٌ يكترثون بكما ويريدون الخير لكما، لا يزال لديكما عائلة.

بعد برهة، تحررنا أنا وآلي من عناقنا، ليس من عادتها الحديث، وبالتأكيد لن تتكلم في غمرة ألمها. أخذتْ جستن من ناتيفيداد، مسدت شعره وحضنته، وحين عاودنا السير حملته لفترة على خصرها، ودفعتُ أنا بالعربة. سرنا معًا وبدا بألا ضرورة لأحد أن يقول أي شيء.

شهد الطريق ازدحامًا من سالكيه الرحالة في كلا الاتجاهين. مع ذلك، قلقت من أنَّ جماعة كبيرة كجماعتنا قد تلفت الأنظار ويسهل اقتفاؤها، مهما احتطنا للأمر. مبعث قلقي أني لا أفهم عقلية المعتدين وأساليبهم.

لاحقًا حين أعادت آلي وضع جستن في العربة وأخذت العربة مني، انتقلت نحو بانكول وإيميري وسرت معهما. إيميري هي من شرحت لي الأمور، وهي التي اكتشفت دخان الحريق الأول – لأنها أصلًا كانت تتحراه. لم نكن متأكدين، لكن بدا كأنما الحريق بعيدًا خلفنا، هناك حيث توقفنا عند أيكة البلوط.

«سيحرقون كل شيء» همست إيميري لبانكول ولي، «لن يكفوا حتى يستهلكوا كل الرو الذي لديهم، سيقضون الليل بأكمله يحرقون الأشياء، – الأشياء والناس».

رو، بايرو، بايرومينيا، مخدر الحرائق الملعون.

«هل سيلحقون بنا؟» سألتها.

هزت كتفيها، «ثمة الكثير منا، وقد قتلتم عددًا منهم، لذا سيأخذون بثأرهم من رحالة ضعفاء آخرين» ومرة أخرى هزت كتفيها، «ففي أعينهم لا فرق بيننا، كل الرحَّالة سواء».

«ما دمنا لن نقع في حريق من حرائقهم..».

«سنكون بخير، إيه، فهم يكرهون أي شخص لا ينتمي إليهم. كانوا سيبيعون توري مقابل المزيد من الرو».

نظرتُ إلى وجهها المتورم وما عليه مِن رضوض، كان بانكول قد أعطاها مسكنًا لألمها. كنت ممتنة لذلك، وشبه غاضبة عليه لرفضه إعطائي أي مسكن. لم يفهم خدري وترنحي عند الأيكة، فارتبك. على الأقل خدري وترنُّحي تلاشيا الآن، دعه يمت ثلاث أو أربع مرات وسنرى كيف سيشعر حينها! لا، أنا ممتنة أنه أبدًا لن يعرف ماهية هذا الشعور، فلا منطق فيه، أظل أجدني أتساءل، بعد كل مِيتة، كيف يعقل أني لا أزال على قيد الحياة؟

«إيميري؟» سألتها في صوتٍ خفيض.

نظرت إليَّ.




«أنت تعرفين أني متقمصة».

أومأتْ، ثم رمقتْ بانكول بلحظ عينها.

«لديه علم» طمأنتها، «لكن... اسمعي، أنت وغرايسون أول

متقمصين أعرفهم ولديهم أطفال»، ما كان من داعٍ لأخبرها بأنها وغرايسون أول متقمصين ألتقيهم على الإطلاق. «وأنا آمل بإنجاب الأطفال يومًا، لذا أحتاج أن أعرف... هل حتمًا يرثون التقمص؟».

«أحد ولديَّ لم يرثها» قالت لي، «بعض الحسّاسين -المتقمصين- يعجزون عن إنجاب الأطفال، لا أدري لماذا، وعرفت بعضًا منهم حظيَ بطفلين أو ثلاثة ولم يرث أحدهم التقمص، لكن الرؤساء يفضلون تمتعنا بها».

«بلا شك».

«أحيانًا» واصلت كلامها، «يدفعون أكثر مقابل من يتمتع بها، لا سيما الأطفال».

طفلاها، مع ذلك أخذوا طفلًا ليس بمتقمص وتركوا الطفلة المتقمصة، كم من الوقت كان سيمر قبل عودتهم إليها؟ لربما تلقوا عرضًا مغريًا مقابل زوجٍ من الفتيان الصغار، لذا قرروا بيعهما أولا.

«يا الله!» قال بانكول، «كيف انحدرت هذه البلد إلى ماضيها قبل مئتي عام؟».

«كانت الظروف أفضل وقت كنت طفلة» قالت إيميري، «لطالما قالت أمي إن الظروف ستتحسن من جديد، والأوقات الطيبة ستعود، دائمًا ما تعود. لكن أبي كان سيهز رأسه ويلتزم الصمت». راحت تنظر حولها تبحث عن توري ووجدتها على كتفيْ غرايسون مورا، ثم وقع نظرها على شيء آخر، وشهقت.

تتبعنا نظرتها المحدقة ورأينا النيران تنسل عبر التلال خلفنا - بعيدًا خلفنا، لكن ليس بعيدًا بما فيه الكفاية. ذاك كان حريقًا جديدًا، يتسارع على مد نسيم المساء الجاف. إما المعتدون علينا لحقوا بنا، يشعلون الحرائق في طريقهم، أو أن أحدًا راح يقلدهم، يردد صداهم.

مضينا قدمًا، نسرع في خطانا، نحاول معرفة أي وجهة ستكون الآمنة لنا، على جانبي الطريق السريع حشائش جافة وأشجار، ميتة وحيّة. حتى الآن، الحريق انحصر في الجانب الشمالي.

التزمنا الجانب الجنوبي، آملينَ أننا سنجده آمنًا، فوفقًا لخريطتي عن المنطقة أمامنا بحيرة - بحيرة «كلير»، وكما تظهر على الخريطة، فالبحيرة كبيرة، ولأميال يمر الطريق السريع بمحاذاة ضفتها الشمالية. في وقتٍ قريب سنصلها، لكن إلى أي حد قريب؟

حسبتُ الوقت بينما كنا نمشي. في الغد، سنكون قادرين على التخييم جوار البحيرة. مساء الغد، ليس قريبًا بما يكفي.

بات بوسعي شم رائحة الدخان، هل يعني هذا أنَّ الريح تنفخ النيران باتجاهنا؟

بدأ الناس يهرعون نحو الجانب الجنوبي ملتزمين الطريق صوب الغرب. لا أحد يتوجه شرقًا الآن. لم تأت الشاحنات بعد، لكن الليل وشيك، وقريبًا ستنطلق الشاحنات بسرعتها الفائقة، وقريبًا سيتحتم علينا التخييم لقضاء الليلة، هل نجرؤ؟

ظلَّ الجانب الجنوبي في منأى عن قبضة النيران خلفنا، لكن

من الجانب الشمالي ما انفكت النيران تزحف نحونا. لم تطبق علينا، لكنها لم تتركنا وشأننا.

مضينا قدمًا لفترة، كلٌّ منا يتلفت خلفه، كلنا مرهق، وبعضنا متألم. ناديت على الجميع لنتوقفَ وأشرتُ جنوبًا نحو موقع على جانب الطريق للجلوس والراحة.

«لا نستطيع البقاء هنا» قال مورا، «ففي أي لحظة قد تقفز النيران صوب الجانب الآخر من الطريق».

«نلتقط أنفاسنا ونرتاح هنا لدقائق» قلت له، «بوسعنا رؤية النيران، وسنعرف متى يجدر بنا المسير مجددًا».

«يجدر بنا المسير الآن! إن هبّت تلك النيران ستتحرك أسرع من جرينا! خيرٌ لنا الحفاظ على تقدمنا عليها!».

«خيرٌ لنا استعادة طاقتنا حتى نتمكن من التقدم عليها»، وتناولتُ قنينة الماء من حقيبتي وشربت. كنا على مرأى من الطريق، وكنا أرسينا قانونًا ألا نأكل أو نشرب في أماكن مكشوفة كهذه، لكن الضرورة تحكم. فالمضي بعيدًا نحو التلال يعني أننا قد ننقطع عن الطريق بفعل النيران، إذ ليس بوسعنا معرفة أين ومتى ستلقي هبة ريح بذرورها المشتعلة.

حذا الآخرون حذوي وشربوا وتناولوا القليل من الفاكهة المجففة واللحم المجفف والخبز. أنا وبانكول تشاطرنا الطعام مع إيميري وتوري، بدا أنَّ مورا يريد متابعة السير رغمًا عنا، لكن ابنته

دو كانت جالسة شبه نائمة على الأرض إزاء زهرا، ربض جانبها وساعدها على شرب قليل من الماء وتناول بعض الفاكهة.

«على الأرجح سنضطر إلى مواصلة السير طوال الليل»، قالت آلي. صوتها رهيفٌ وبالكاد يسمع، «لعلها المرة الوحيدة التي سنرتاح فيها الليلة». ثم قالت لترافيس، «ضع دومينيك في العربة جانب جستن متى ما فرغ من تناول طعامه».

أومأ ترافيس موافقًا، إذ حمَلَ دومينيك طوال مسيرنا. وضعه في العربة وغطاه مع جستن، «سآخذ النوبة الأولى في دفع العربة»، قال لآلي.

تفحص بانكول جرحي وأعاد تضميده، وهذه المرة أعطاني مسكنًا. الضمادات الملطخة بالدم التي نزعها عني دفنها في حفرة ضحلة نبشها بصخرة مسطحة.

إيميري، وقد نامت توري جانبها، التفتت نحوي لترى ما الذي يفعله بانكول بي، ثم جفلت وأشاحت بوجهها بعيدًا، يدها تقبض على خاصرتها.

«لم أعرف أنك تتألمين لهذه الدرجة،» قالت هامسة.

«لست متألمة» أجبتها، وأجبرت نفسي على الابتسام، «مع كل هذا الدم يبدو الأمر أسوأ مما هو عليه، لكن صدقًا الجرح ليس بهذا السوء، فأنا محظوظة مقارنة بجل، كما أنَّه لا يعوقني عن المشي».

«لكنك لم تثيري بيّ أيَّ ألم وقت مشينا معًا!».

أومأتُ لها، سعيدة بنجاحي في تزييف حقيقة ألمي عليها، «جرحٌ قبيح، لكن ليس بالمؤلم».

ارتخى جسدها كأنها شعرت بتحسن، ولا شك شعرت بتحسن، فلو أني تأوهت ونحت، لتأوه أربعتهم وناحوا معي، ولربما الطفلتان كانتا ستنزفان معي. ينبغي بي التزام الحذر والاستمرار في الكذب على الأقل ما دامت النيران تهددنا - أو ما دمت قادرة على الاحتمال.

الحقيقة أني ذُعرت من رؤية تلك الضمادات المضرَّجة بالدم، والجرح بات مؤلمًا أكثر من ذي قبل، لكني عرفت أنَّ لا خيار أمامي سوى المواصلة وإلا الاحتراق. بعد عدة دقائق، بدأت حبوب بانكول تأخذ مفعولها، وبات أسهل عليّ احتمال العالم.

نلنا قرابة الساعة من الراحة قبل أن توترنا النيران من بقائنا في المكان، فنهضنا وواصلنا سيرنا. وقتذاك، في موقع ما خلفنا، قفزت النيران وبلغت الجانب الآخر من الطريق، الآن ما عاد الجانب الشمالي ولا الجنوبي آمنين، وكل ما رأيناه، حتى حلَّ الظلام، كان الدخان المتصاعد عن التلال خلفنا، طيف جدارٍ ضخمٍ ومرعبٍ ومتحرك.

لاحقًا، بعد حلول الظلام، بات بوسعنا رؤية النيران تأكل طريقها نحونا.

الكلاب انطلقت تعدو جانب الطريق معنا، ولم تعرنا أي اهتمام، القطط والغزلان تجري وحيوان ظَربان يعدو أمامنا. انجُ ودع

الآخرين ينجون، كذا كان الوضع ساعتها، لا البشر ولا الحيوانات كانوا حمقى حتى يهدروا الوقت في مهاجمة بعضهم بعضًا، فمن جهتي الجنوب والشمال شرعت النار تجأر بلهيبها.

وضعْنا توري، هي الأخرى، في عربة الأطفال، مع جستن ودومينيك بين ساقيها. لم يستيقظ الولدان حين حركناهما من مكانهما. توري نفسها كانت شبه نائمة. قلقتُ من تحطم العربة إثر الوزن الزائد، لكنها صمدتْ؛ ترافيس وهاري وآلي تناوبوا على دفعها.

أما دو، فوضعناها أعلى المتاع في عربة بانكول، لم تكن مرتاحةً، لكنها لم تتذمر، وعلى عكس توري، فقد ظلت متيقظة. ومنذ محاولة الخطف مشت بنفسها معظم مسيرنا، فهي طفلةٌ قوية – ابنة أبيها.

غرايسون مورا ساعد في دفع عربة بانكول، في الحقيقة، ما إن ركبتها دو، دفع مورا العربة معظم الوقت. لربما الرجل كريه، لكن في حبه لابنته رجلٌ يستحق الإعجاب.

في مرحلة ما، في تلك الليلة التي بدا أنها لن تنتهي، حاوطتنا دوامة هائلة من الدخان والرماد، ووجدتني أفكر أننا قد لا ننجو. ودونما توقف عن السير، بللنا قمصانًا وأوشحة وأي قماشٍ لدينا، وعقدناها حول أنوفنا وأفواهنا.

النيران جأرت وأرعدت على الجانب الشمالي منا وراحت تسفع شعورنا وملابسنا، تصيّر التنفس شاقًّا علينا. استيقظ الأطفال يصرخون متألمين مذعورين، خنقوني وكادوا يوقعوا بي أرضًا. توري،

تصرخ هي الأخرى من ألمهما وألمها، تشبثتْ بهما حتى لا يتدافعا خارج عربة الأطفال.

ظننتنا سنموت، صدقت أنَّ لا سبيل أمامنا للنجاة من هذا البحر الناريّ المهتاج، من الرياح السموم والدخان والرماد. رأيت أناسًا -أغرابًا - يقعون، وتركناهم مرميين على الطريق السريع ينتظرون موتهم حرقًا. توقفت عن الالتفات للخلف، ولَمَا كان بوسعي في دوي النيران أن أعرف إن صرخوا طالبين نجدتنا. كان بوسعي رؤية الأطفال أمامي قبل أن ترمي ناتيفيداد بالخرق المبللة عليهم، كنت أعرف أنهم يصرخون، ثم ما عدت أراهم، ويا لها من نعمة.

بدأ الماء لدينا ينفد.

ولا خيار لدينا سوى المضي قدمًا أو الاحتراق، ضجة النيران الحامية دوَّت، ثم انحسرت. ومرة أخرى دوَّت، ثم انحسرت. بدا وكأنما النيران تنزاحِ شمالًا عن الطريق، لكن سرعان ما تُبدِّل رأيها وتلتفت نحونا.

ما انفكَّت تسخر منا، مثل حقودٍ مصمم على إيقاع الذعر والألم. تسوقنا أمامها كما الكلاب التي تطارد أرنبًا، مع ذلك لم تأكلنا، كان بوسعها أن تأكلنا، بيد أنها لم تفعل.

في النهاية، الأسوأ مضى وانحرفت النيران بسعيرها صوب الشمال الغربي، عاصفةٌ نارية، كذا سماها بانكول لاحقًا. أجل، مثل إعصارٍ من نار، يجأر من حولنا، بالكاد يخطئنا، يلهو بأعصابنا، ثم يدعنا ننجو بحياتنا.

ما كان بوسعنا التوقف للراحة، فما زالت ثمة نيران. نيران صغيرة لكن قد تكبر إلى نيران هائلة. والدخان، الدخان الخانق الذي يعمي الأبصار... لا، لا راحة لنا.

لكن بات بوسعنا إبطاء خطانا. انبثقنا من سحب الدخان والرماد الخانق وفررنا من سوْط الرياح السموم، واستطعنا التريث لدقيقة على جانب الطريق حتى نتهوَّع في سلام. كان ثمة الكثير من السعال والتهوُّع والبكاء. دموعنا تترك آثارًا موحلة على وجوهنا. فهذه معجزة، كنا سننجو، كنا لا نزال أحياءً ومعًا، ملفوحين وبؤساء، في حاجة ماسة إلى الماء، لكن أحياء، كنا سننجو!

لاحقًا، حين تجرأنا، غادرنا الطريق وحملتُ حقيبتي عن عربة بانكول ووضعتها على الأرض، وانتشلت منها قارورة مائه الإضافية. هو من انتشلها، فقد أخبرنا عنها وقت كان باستطاعته الاحتفاظ بها لنفسه.

«سنصل بحيرة كلير غدًا» قلت لهم، «في الصباح الباكر، على ما أظن، لا أعرف إلى أي مدى سلكنا الطريق أو أين نحن الآن بالضبط، لكن أحسبنا سنصل باكرًا، وستكون البحيرة في انتظارنا».

الآخرون منهم من كان ينخر ومن يسعل ومن يبتلع الماء من قارورة بانكول الإضافية. حرصنا ألا يسرف الأطفال في الشرب، إذ غصَّ دومينيك وشرع يبكي من جديد.

خيَّمنا حيث كنا، على مرأى من الطريق، واستلزم الأمر بقاء اثنين منا مستيقظين في نوبة الحراسة. تطوعتُ للنوبة الأولى فقد

كنت جدُّ متألمة كي أنام، استعدت مسدسي من ناتيفيداد، تفحصته كي أرى إن أعادت تلقيمه -فعلتْ- وتلفتُّ حولي بحثًا عن شريك.

«سأحرس معك»، قال غرايسون مورا.

فوجئت بعرضه، إذ فضلت شخصًا يعرف كيف يستخدم مسدسًا- شخصًا أستطيع الوثوق بحمله المسدس.

«ما دمتِ مستيقظة سأعجزُ عن النوم، المسألة بهذه البساطة، لذا دعينا نستغل ألمنا المشترك لمصلحتنا».

نظرتُ صوب إيميري والفتاتين كي أرى إن سمعن، لكن بدا أن الثلاث خلدن إلى النوم. «حسنٌ»، قلتُ له، «علينا أن نحترس من الغرباء والنيران، إن لمحت أي شيء غير عادي فاصرخ».

«أعطني مسدسًا، على الأقل إن اقترب أحدهم أخيفه به».

تخيفه به، في الظلام، صدقتك! «لا مسدس، ليس بعد، فأنت لست ماهرًا بعد في استخدامه».

حدَّق فيَّ لثوانٍ عدة ثم مضى نحو بانكول، أدار ظهره لي بينما كان يتكلم معه. «اسمعني، أنت تعرف أني بحاجة إلى مسدس حتى أتمكن من الحراسة في مكان كهذا، هي لا فكرة لديها عن حقيقة الأوضاع هنا، تظن أنها تعرف، لكنها لا تعرف».

هزَّ بانكول كتفيه، «هيه صاح، إن كنت عاجزًا عن الحراسة فاخلد للنوم، أحدنا سيشاركها النوبة».

«خراء» نطقها مورا طويلة وحقيرة، «خراااااء، مذ رأيتها أول مرة عرفتُ أنها رجل، عدا أني لم أدرك أنها الرجل الوحيد هنا».

صمتٌ مطبق.

دو مورا أنقذتْ الموقف بقدر ما يمكن إنقاذه، ففي تلك اللحظة وقفت خلف أبيها تربت على ظهره، وفورًا استدار للخلف مستعدًا للقتال، في سرعةٍ وضراوة، جفلت ابنته وزعقت بصوتٍ حاد.

«ما الذي تفعلينه هنا!» صاح في وجهها، «ماذا تريدين؟».

مذعورة، وقفت الطفلة الصغيرة تحدق فيه، بعد لحظة مدت يدها إليه، تحمل رمانة، «زهرا قالت إنَّ بوسعنا تناولها» قالت هامسة، «هلّا قطعتها؟».

أحسنتِ زهرا! لم ألتفت نحوها، لكني كنت واعية لمراقبتها الوضع، كل من بقي مستيقظًا كان يراقب الوضع.

«الكل مرهق والكل متألم» قلت له، «كل فردٍ منا، ليس أنت فقط، لكن تدبرنا النجاة بأنفسنا بالعمل معًا، لا بقول وفعل أشياء غبية».

«وإن لم نكن جيدين كفاية لك» أضاف بانكول، في صوتٍ خفيض ومفعم بالغضب، «فارحل غدًا عنا وابحث لك عن مجموعة مختلفة ترتحل معها – مجموعة لعينة من المسترجلين أمثالك مستعدين لهدر وقتهم في إنقاذ حياة ابنتك مرتين في يومٍ واحد».

أنا موقنة أن ثمة شيء في مورا يستحق التمسك. لم ينطق بكلمة،

تناول سكينه وقطَّع الرمانة إلى أرباع وناولها دو، ثم احتفظ بالنصف لأجله لأنها أصرت عليه أن يحظى بالنصف. جلسا معًا وتناولا الفاكهة الحمراء الغنية بالبذور والعصارة، ثم دسَّ ابنته في كيس النوم ووجد لنفسه صخرة عالية حيث جلس رابضًا، دوننا مسدس، يتولى نوبة حراسته الأولى.

ما قال شيئًا أكثر عن الأسلحة، وما اعتذر، وبالطبع لم يغادرنا، فأين سيذهب؟ هو عبدٌ هارب، ونحن أفضل فرصة سنحت له حتى الآن - أفضل من أي فرصة أخرى ما دامت طفلته دو معه.

لم نصل بحيرة كلير صباح اليوم التالي، ولأكونَ صادقة، كان الوقت صباحًا حين خلدنا أخيرًا للنوم، فقد كنا منهكين وموجعين لنستيقظَ فجرًا -والذي بزغت خيوطه مع بداية نوبة الحراسة الثانية. أصلًا لولا احتياجنا للماء لما اندفعنا للانطلاق وقت انطلقنا- في الحادية عشرة الحارة الداخنة.

حين عدنا إلى الطريق السريع وجدنا جثة امرأة يافعة، لا أثر للاعتداء عليها، لكنها كانت ميتة.

«أريد ملابسها» همست إيميري، التي كانت بقربي وإلا لما سمعتُها. المرأة كانت مقاربة لحجمها، ترتدي قميصًا قطنيًا وبنطالًا شبه جديدين، كانا متسخين، لكن بالتأكيد ليس حدَّ قذارة أسمال إيميري.

«عرّها إذن» قلت لها، «لساعدتك في ذلك، لكني عاجزة عن الانحناء هذا الصباح». «أنا سأساعدك» همست آلي.

كان جستن نائمًا في عربة الأطفال مع دومينيك، لذا كانت متاحة لتقديم يد العون في ارتكاب الأمور العادية الفظيعة التي بتنا نفعلها حتى ننجو.

لم تتبول المرأة الميتة، أو تتبرز على نفسها، ما جعل المهمة أقلَّ قرفًا من المعتاد، لكن جسدها دخل مرحلة التخشُّب الموتي، ما يعني أنَّ تعريتها استلزمت شخصين.

وعلى هذا المد من الطريق ما كان من أحدٍ آخر، لذا تسنى لإيميري وآلي كل الوقت الذي تحتاجانه، أصلًا منذ الصباح لم نر سابلة غيرنا.

إيميري وآلي عرَّتا المرأة من كل شيء، حتى ملابسها الداخلية وجوربيها وجزمتها، مع أنَّ إيميري ظنت الجزمة كبيرة جدًا عليها، لكن لا يهم، إن لم يتسنَّ لأحد ارتداؤها، فلها أن تبيعها.

في الواقع، الجزمة كانت أول مصدر كسب نقدي لإيميري في حياتها. في المزرعة حيث كانت عبدة تلقَّت راتبها فقط بعملة الشركة، عملة عديمة القيمة باستثناء قيمتها في المزرعة، بل وحتى في المزرعة بالكاد لها قيمة.

فقد وجدنا خمس أوراق نقدية مطوية من فئة المئة دولار مخيَّطة على لسان كل فردة من فردتي جزمة المرأة الميتة، أي ألفًا في المحصلة، ووجدناه ضروريًّا إعلام إيميري كم المبلغ قليل، أنها إن التزمت الحرص وتسوقت فقط في أرخص المتاجر، ولم تأكل اللحم ولا القمح ولا منتجات الألبان، فسيؤمن لها المبلغ طعام أسبوعين،

أو لها ولابنتها طعام أسبوعٍ ونصف، مع ذلك بدا لإيميري وكأنها حصلت على ثروة مفاجئة.

في وقت متأخر من ذاك النهار، لدى وصولنا بحيرة كلير -الأصغر بكثير مما توقعت- صادفنا متجرًا صغيرًا باهظًا يُدار خلف شاحنة قديمة قرب تجمُّع من الكبائن شبه المنهارة والمحترقة. كان يبيع الخضراوات والفاكهة والمكسرات والسمك المدخن، كلنا احتجنا إلى شراء أغراض قليلة، لكن إيميري بسطت يدها في الصرف واشترت كمثرى وجوز للجميع. أبهجها تمريرها غنيمتها علينا، أبهجتها قدرتها على منحنا شيئًا على سبيل التغيير. هي إنسانة طيبة، سينبغي لنا تعليمها كيفية التسوق وقيمة المال، لكن ثمة خيرٌ فيها، إيميري ذاتها خيّرة، واختارت الانتماء إلى جماعتنا.

الأحد، ٢٦ سبتمبر ٢٠٢٧

بطريقة ما، وصلنا موطننا الجديد - أرض بانكول على التلال الساحلية في مقاطعة همبولت. الطريق السريع -طريق الولايات ١٠١- على شرقنا وشمالنا، وكايب مندوسينو والبحر على غربنا، وجنوبًا على بعد عدة أميال منتزهات وطنية ملأى بأشجار الجبارة وحشود المحتلين. مع ذلك، فالأرض المحيطة بنا خاوية وبرية، أرضٌ تغطيها أجماتٌ جافة وأشجار وأجذال، على بعدٍ ناءٍ من أي مدينة، وعلى بعد مسيرٍ طويلٍ عبر التلال من أي بلدة من البلدات الصغيرة التي تحدُّ الطريق السريع. من حولنا مظاهر زراعة

وتخشيب، وحياة منعزلة بسيطة. وفقًا لبانكول، فخيرٌ لنا ألا نتدخل في شؤون الآخرين وألا نعيرَ اهتمامًا بالغًا للقاطنين في الأراضي المجاورة وكيف يؤمنون رزقهم، إن بالسطو على الشاحنات في الطريق ١٠١، زراعة الماريجوانا، تقطير الويسكي، تخمير مواد غير قانونية أشد تعقيدًا... أي انج ودع الآخرين ينجون!

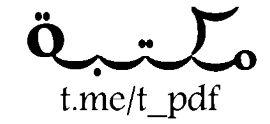
قادنا بانكول على مر طريق ضيق مزفّت والذي سرعان ما استحال طريقًا ترابيًّا. رأينا عدة حقول محروثة، آثار الندوب التي خلفتها الحرائق وقطع الأشجار فيها جليَّة، كما رأينا أراض كثيرة لم تزرع بعد، وقبل وصولنا نهايته تلاشى الطريق. ميزةٌ جيدة للانعزال، وسيئة في نقل الأشياء داخلًا وخارجًا؛ سيئة للترحال يوميًّا جيئةً وذهابًا بحثًا عن عمل. بانكول ذكر كيف أنَّ صهره يقضي وقتًا طويلا في عدة بلدات، بعيدًا عن عائلته، وفهمت أكثر الآن لماذا توجّب عليه فعل ذلك، فلا ثمة إمكانية للعودة إلى البيت كل يوم أو بين يوم وآخر، لكن ما الذي يفعله حتى يوفر المال؟ ينام في المداخل أو الحدائق العامة؟ ربما الأمر يستحق هذا العناء إن كنت ستحافظ على عائلتك آمنة ومجتمعة - بعيدًا عن جموع اليائسين والمجانين والمفترسين.

أو هذا ما ظننت حتى وصلنا سفح التل حيث يفترض ببيت أخت بانكول والملاحق أن تكون.

لا بيتٌ قائم، لا ملاحق، لا شيءَ تقريبًا: لطخةٌ سوداء عريضة على السفح؛ عوارض متفحمة بارزة من الأنقاض، بعضها يميل

على بعض، ومدخنةٌ عالية من آجر، تقف سوداء منعزلة كشاهد قبر في صورة مقبرة عتيقة الطراز.

شاهد قبر قائمٌ من بين العظام والرماد.



# ٢٥

لا تبتدع صورةً عن الرب.

تقبَّل صوره التي يريك إياها.

فهي في كل مكان،

وفي كل شيء.

الرب إلهنا هو التغيير –

من البذرة للشجرة،

من الشجرة للغابة؛

من المطر للنهر،

من النهر للبحر؛

من اليرقة للنحلة،

من النحلة للسرب.

من واحدٍ إلى آحاد،

ومن آحاد إلى واحد؛

الجامع البارئ المهلك الأزليّ –

المتغيِّر الأزليّ.

الجمعة، الأول من أكتوبر ٢٠٢٧

قضينا الأسبوع بأكمله نتجادل حول إن كان يجدر بنا البقاء هنا بين العظام والرماد أو لا.

عثرنا على خمس جماجم -ثلاثة في بقايا البيت وجمجمتين خارجه، عظامٌ أخرى كانت منتشرة في الأرجاء، لكن لا هيكل عظمي واحد مكتمل، فالكلاب انقضت على العظام- لربما الكلاب ومعها آكلو لحوم البشر. نشبَ الحريق منذ زمن كافٍ لنمو الحشائش بين الأنقاض، قبل شهرين؟ ثلاثة؟ لربما بعض الجيران في الأقاصي لديهم علم، لربما بعض الجيران في الأقاصي هم من أشعلوا النار.

ما كان من سبيل إلى التيقن، لكني افترضت أن العظام تعود إلى شقيقة بانكول وعائلتها، وأظن بأنَّ بانكول افترض الشيء نفسه؛ لكنه ما كان قادرًا على الاكتفاء بدفنهم وشطب أخته من حياته. بعد وصولنا بيوم، عادا هو وهاري سيرًا إلى غلوري، أقرب بلدة صغيرة مررنا بها، كي يتحدثَ إلى الشرطة المحلية. كانوا، أو ادَّعوا، أنهم معاونو القائد. أتساءل ما المطلوب منك حتى تصبح شرطيًّا، وأتساءل ماذا تعني شارة الشرطة سوى أنها رخصة للسرقة. وما الذي كانت عليه تلك الشارة فيما مضى لتقنعَ الناس من عمر

بانكول حتى اليوم بالوثوق بها؟ أعرف ما كانت عليه من قراءتي الكتب، مع ذلك أتساءل.

المعاونون جميعهم تجاهلوا قصة بانكول وأسئلته. لم يدونوا شيئًا، وادعوا جهلهم بما جرى. تعاملوا مع بانكول وكأنما شكّوا أنَّ لديه أختًا، أو أنه أصلًا من يدعي أنه هو؛ فالكثير من الهويات المسروقة هذه الأيام. فتشوه وسلبوه المال الذي كان يحمله، رسوم خدمات الشرطة، هكذا قالوا له. كان حريصًا ألا يحمل معه إلا ما ظنه كافيًا لإرضائهم، لكن ليس بما يكفي لإثارة الشكوك أو مزيدٍ من الجشع. بقية المال –رزمة كبيرة– تركها معي، لهذا الحد وثق بي، وترك مسدسه مع هاري حتى يتسوق.

السجن لبانكول يعني بيعه إلى محكومية من العمل الشاق بلا أجر – أي العبودية. ربما لو كان أصغر عمرًا لسلبه المعاونون ماله وقبضوا عليه بأي تهمة ملفقة. كنت قد توسلت إليه ألا يذهب، وألا يثق في أي رجل شرطة أو حكومة، فبارتكابهم السلب والاستعباد لا يقلون فظاعة عن العصابات.

بانكول اتفق معي، مع ذلك أصرَّ على الذهاب.

«كانت أختي الصغيرة» قال لي، «واجبي على الأقل معرفة ما جرى لها، أحتاج إلى معرفة من فعلها، والأهم، أحتاج إلى معرفة إن نجا أحدٌ من أطفالها، فجمجمة أو أكثر من تلك الجماجم قد تعود لمشعلي الحرائق». وحدَّق في مجموعة العظام قبل أن يواصل، «عليَّ أن أخاطر بالذهاب إلى مكتب قائد الشرطة، لكن أنت لا، لا أريدك

معي، لا أريد لهم أن يتفكَّروا فيك، أو الوقوع على حقيقة تقمصك، لا أريد لوفاة شقيقتي أن تكلفك حياتك وحريتك».

تشاجرنا حول الأمر، فأنا خائفة عليه، وهو خائفٌ عليّ، وكلانا حانقٌ على الآخر أكثر من أي وقتٍ مضى. كنت مذعورةً من احتمال قتله أو القبض عليه، ومن عدم معرفتنا أبدًا بما جرى له، فهذا ليس بعالمٍ يرتحل فيه الإنسان وحيدًا.

«اسمعيني» أخيرًا قال لي، «بوجودك هنا ستكونين عونًا للجماعة، وفي يدك مسدس من المسدسات الأربعة المتبقية هنا، وستعرفين السبيل إلى النجاة. الكل هنا في حاجة إليك، لكن إن قررت الشرطة أنها تريدني، فلن يكون بيدك فعل شيء، والأسوأ، إن قرروا أنهم يريدونك، فلا شيء سيكون بيدي فعله سوى الانتقام، وسأُقتَل على محاولتي».

كلامه هدَّأ قليلًا من روعي– فكرة أني قد أتسبب بقتله بدل حمايته، ليس أنَّي صدقت تمامًا كلامه، لكن الفكرة هدأت روعي. حينها تدخل هاري وقال إنه سيذهب معه، ففي كل الأحوال يريد الذهاب حتى يتسنى له شراء بعض الحاجيات للجماعة. هو أيضًا أراد البحث عن عمل، أراد جني بعض المال.

«سأبذل كل استطاعتي» قال لي قبيل مغادرتهما، «فهو شيخٌ صالح، اطمئني سأعيده إليك سالمًا».

وكلٌّ منهما أعاد الآخر، بانكول عادَ أفقر بعدة آلاف من الدولارات، وهاري على حاله عاطلًا عن العمل – لكنهما عادا

بمؤونة وبعض الأدوات اليدوية. بانكول لم يعد بمعلومة واحدة عن أخته وعائلتها، لكن الشرطة قالت إنها ستأتي لإجراء تحقيق حول الحريق والعظام.

وقلقنا من أنَّهم، عاجلًا أم آجلًا، فعلا سيأتون. حتى اليوم لا نزال نتحرَّس من قدومهم، وقد خبأنا -دفنًا- معظم مقتنياتنا الثمينة. أردنا دفن العظام أيضًا لكن لم نجرؤ، فبانكول منزعج، منزعج جدًا. اقترحت عليه إقامة جنازة ودفن العظام، ولتفعل الشرطة اللعينة ما تشاء، لكنه قال لا، خيرٌ لنا ألا نستفزهم بقدر المستطاع، إن أتوا، سينهبوننا لا محالة، فدعينا لا نعطيهم مبرِّرًا للتسبب بأذىً أفدح.

هناك بئرٌ مزودة بمضخة يدوية تحت أنقاض ملحق من الملاحق، ولا تزال تعمل. المضخة التي تعمل بالطاقة الشمسية قرب البيت معطَّلة. لا نستطيع البقاء هنا فترة طويلة دون مصدر ماء مستقر، لكن مع وجود البئر، فمن الصعب مغادرة المكان، من الصعب الرحيل عن ملاذ محتمل، حتى مع تهديد الشرطة ومشعلي الحرائق.

يملك بانكول هذه الأرض، ملكية كاملة وقانونية. وهناك حديقةٌ واسعة، شبه مدمرة، مع أشجار حمضيات ملأى بثمار لم تنضج بعدُ، وقد بدأنا أصلًا باقتلاع الجزر ونبش البطاطا. وثمة الكثير من أشجار الفاكهة والجوز إضافة إلى أشجار الصنوبر البري والجبَّارة وتنُّوب دوغلاس. ولا شجرة منها ضخمة، فقد قطعت أشجار هذه المساحة من الأرض قبل أن يشتريها بانكول، وبانكول يقول

إنها كانت مقطوعة الأشجار تمامًا في الثمانينيات أو التسعينيات من القرن الماضي. لكن بإمكاننا الانتفاع من الأشجار التي نمت مذَّاك، وبوسعنا أن نزرع أكثر. بوسعنا بناء ملجأ، إقامة حديقة شتوية من البذور التي أحملها معي ومما جمعته منذ رحيلي عن البيت، ويقينًا، الكثير منها بذور قديمة لم أجدها بالقدر المطلوب حين كنت بعدُ في الحيّ. غريب كيف أني لم أفعل، أظن أن الأمور راحت تنحو من أسوأ إلى أسوأ في البيت، واهتمامي بالحقيبة، التي يفترض بها إنقاذ حياتي متى ما اجتاحنا الرعاع، ما فتئ يقل ويقل. فمباعث القلق في حياتي آنذاك ازدادت، وأظنني انغمست في نسختي عن الإنكار. نسخة لا تقل سوءًا عن إنكار كوري أو والدة جوانا، لكن كل هذا بات من الماضي السحيق. الآن ما يجدر بنا القلق حوله، هو ما الذي سنفعله الآن؟

«لا أحسبنا سنقدر على الحياة هنا»، قال هاري هذا المساء بينما كنا جالسين حول نار المخيم. يفترض بنا أن نبتهج ولو قليلًا بجلوسنا حول النار برفقة الأصدقاء وبطونٍ شبعانة. حتى أننا الليلة تناولنا اللحم، لحمًا طازجًا، فبانكول أخذ بندقيته ومضى بعيدًا وحده، وحين عاد، أحضر معه ثلاثة أرانب سلخناها أنا وزهرا، ونظفناها وشويناها. كذلك شوينا بطاطا حلوة حصدناها من الحديقة. كان يجدر بنا الشعور بالرضا، مع ذلك لم نفعل شيئًا سوى الخوض في النقاش المستهلك ذاته منذ أيام. لربما ما يزعجنا حقًّا العظام والرماد على المرتفع، فقد خيمنا بعيدًا عن منظر المنطقة المحروقة على أمل استعادة شيء من راحة البال، لكن لم ينفع. كنت

أفكر بأنَّ لزامًا علينا العثور على طريقة نصطاد فيها عدة أرانب برية حيّة حتى تتوالد وتصبح مصدر لحم مستدام.

هل ممكنٌ تحقيق ذلك؟ ولم لا، إن بقينا هنا، وينبغي بنا البقاء هنا.

«لا مكان في الشمال سيكون خيارًا أفضل أو أكثر أمانًا من هذا» قلت له، «وأجل سيصعب علينا العيش هنا، لكن إن تعاونا والتزمنا الحذر والحرص، ستغدو الحياة ممكنة، وسنقيم مجتمعنا ههنا».

«يا الله! ها هي تعود من جديد إلى هُراء **بذرة الأرض**» قالت آلي، لكن قالتها بابتسامة خفيفة. دلالة جيدة، فقد مرَّ أمدٌ على ابتسامها.

«سنقيم مجتمعنا ههنا» كررتُ قائلة، «أمرٌ خطير، أجل، لكن، اللعنة، الخطر مقيمٌ في كل مكان، وكلما احتشد الناس في المدن، استفحل الخطر، أجل، من السخف إقامة مجتمع في مكانٍ كهذا، ناءٍ، على بعد أميال عديدة من كل مكان ودونما طريقٍ معبَّد يقود إليه. لكن بالنسبة إلينا، وللوقت الحالي، فالمكان مثالي».

«عدا أنَّ أحدهم سبق وأحرقه عن بكرة أبيه» قال غرايسون مورا، «وأي بناء نشيده سيكون في ذاته هدفًا للأذى».

«أي بناء نشيده، في أي مكانٍ، هو هدفٌ في ذاته» اعترضت زهرا، «لكن من سبقونا هنا... وأعذرني بانكول، إنما لا بد من قول هذا، ما كانوا قادرين على تنظيم نوبات خفارة نافعة – ليس مع

وجود رجل وامرأة وثلاثة أطفال فقط. أتصورهم كانوا يعملون بكد طوال اليوم، وينامون الليل بطوله، ولشقَّ على راشدَيْن اثنين الاستيقاظ والتناوب على الحراسة كل نصف ليلة».

«لم يكن لديهم نظام خفارة» قال بانكول، «سيتعين علينا تأسيس نظام، ولنا أن نستعين بكلبين أو ثلاثة، إن استطعنا إحضار جراء وتدريبها على الحراسة-».

«نطعم لحمًا للكلاب؟» اعترض مورا حانقًا.

«ليس في هذه المرحلة» هزَّ بانكول كتفيه، «ليس قبل أن يصبح لدينا مورد لحم يكفينا. لكن إن حصلنا على الكلاب، ستساعدنا على حماية أرضنا ومتاعنا».

«لن يجد كلبٌ مني إلا حجرًا أو رصاصة» قال مورا، «فقد رأيت كلابًا تلتهم امرأة».

«لا وظائف في تلك البلدة التي ذهبنا إليها أنا وبانكول» قال هاري، «لا عمل على الإطلاق، ولا حتى مقابل المسكن والطعام، فقد سألت في كل أنحائها، ولا علم لأحدٍ بأي عملٍ متاح».

أجبته عابسة، «البلدات حولنا كلها قريبة من الطريق السريع، وحتمًا يمر عليهم الكثير من الغرباء، يبحثون عن مكانٍ للاستقرار، أو مكانٍ للنهب والاغتصاب والقتل، لذا من الطبيعي ألا يرحب أهل البلدات بالقادمين الجدد، لن يثقوا في أحدٍ لا يعرفونه».

حوَّل هاري نظره مني إلى بانكول.

«معها حق» قال بانكول، «صهري لاقى صعوبة كبيرة قبل أن يبدأ الناس بالوثوق فيه، وقد انتقل إلى هنا قبل أن تسوء الأمور إلى هذا الحد. كان يعرف السباكة وتركيب الأرضيات والسجاد والأعمال الكهربائية وميكانيكا السيارات. بالطبع كونه أسود لم يسهل عليه الأمور، وكونك أبيض قد يساعدك على نيل ثقة الناس في وقت أسرع منه. لكن إن سألتني، فأنا أرى أنَّ المال الحقيقي الذي سنجنيه سيكون من هذه الأرض، فالطعام ذهبٌ هذه الأيام، وباستطاعتنا زراعة الطعام هنا، ولدينا أسلحة نحمي بها أنفسنا، وبوسعنا بيع محاصيلنا على البلدات القريبة أو على الطريق السريع».

«هذا إذا بقينا أصلًا أحياء حتى تنمو المحاصيل ونبيعها» دمدم مورا، «إذا كان لدينا ماءٌ كافٍ، إذا لم تلتهم الحشرات محاصيلنا، إذا لم يحرقنا أحد كما حرقوا أولاء الناس أعلى التل، إذا، إذا، إذا!».

تنهدت آلي، «سحقًا لك، أي مكان ستذهب إليه ستواجهك الـ إذا إذا إذا، وانظر، ليس المكان بهذا السوء». كانت جالسة على كيس نومها، تحضن رأس جستن النائم على حجرها وتمسد شعره بينما تتكلم. وخطر ببالي، وليس للمرة الأولى، أنَّ آلي، ومهما حاولت أن تبدو قاسية، فذاك الطفل الصغير هو المفتاح إلى قلبها، الأطفال هم مفاتيح معظم البالغين هنا.

«لا ضمانة في أي مكان» وافقتها، «لكن إن كنا مستعدين للعمل، ففرصنا هنا جيدة. لديّ بعض البذور في حقيبتي وبوسعنا شراء المزيد، ما ينبغي فعله في هذه المرحلة أقرب إلى البستنة منه إلى

الزراعة. إذ علينا القيام بكل شيء يدويًّا - التسميد، الري، اقتلاع الحشائش الضارة، التقاط الديدان والبزاقات وكل ما عداها من آفات عن محاصيلنا وقتلها واحدة واحدة لو اضطررنا. أما بالنسبة للماء، فلا زال ماءٌ في بئرنا، ونحن الآن في أكتوبر، لذا لا أظن سنضطر للقلق من جفافه، على الأقل ليس هذا العام.

«وإن هدد أناسٌ حياتنا أو محاصيلنا ففورًا نقتلهم، بمنتهى البساطة، إما نقتلهم أو يقتلوننا. إن عملنا معًا سنتمكن من الدفاع عن أنفسنا وحماية أطفالنا، فمسؤولية المجتمع الأولى حماية أطفاله- الأطفال بيننا الآن والقادمون في الطريق».

خيَّم الصمت لبرهة، إذ حاولوا استيعاب ما سمعوه، ولربما قياس ما سمعوه مني بما ينتظرهم إن قرروا الرحيل ومواصلة الترحال شمالًا.

«علينا أن نقرر الآن» قلت للجميع، «لدينا بناءٌ نشيّده وأرضٌ نزرعها، وعلينا شراء المزيد من الطعام والبذور والأدوات» فالساعة أزفت لاتخاذ قرار نهائي، «آلي، هل ستبقين؟».

نظرت إليَّ عبر النار الخامدة، تحدق بعين متفرسة وكأنما أملت رؤية شيء ما على وجهي يمنحها الإجابة.

«ما البذور التي لديك؟».

سحبت نفسًا عميقًا، «معظمها بذور صيفية - ذرة، فلفل، عباد الشمس، باذنجان، بطيخ، طماطم، فاصولياء، قرع. لكن لدي

بضعة بذور شتوية: بازلاء، جزر، كرنب، بروكلي، القرع الشتوي، بصل، هليون، أعشاب، وعدة أنواع من الخضروات الورقية... بوسعنا شراء المزيد. ولدينا الموجود أصلًا في الحديقة وما بيدنا قطفه من أشجار السنديان والبلوط والحمضيات. أحضرت أيضًا بذور أشجار: مزيدٌ من البلوط، الحمضيات، الدراق، الكمثرى، النكتارين، اللوز، الجوز وغيرها. لن تنفعنا قبل عدة سنوات، لكن يا لها من استثمار مستقبليّ مذهل».

«وكذلك الطفل» قالت آلي، «لم أتخيَّل نفسي غبية كفاية لأقول هذا، لكني موافقة، سأبقى، فأنا أيضًا أريد بناء شيء، لم يسبق لي قط أن بنيت شيئًا».

إذن، آلي وجستن صوَّتا بـ نعم.



«هاري؟ زهرا؟».

«بالطبع سنبقى» قالت زهرا.

هاري عبس، «لحظة، لسنا مجبريْن على الموافقة».

«أعرف، لكننا باقيان، إن استطعنا إقامة المجتمع الذي تتكلم عنه لورن وعدم الاضطرار للعمل بالأجرة لدى الغرباء ووضع ثقتنا بمن لا يستحق، فأجل نحن مجبران على البقاء. لو نشأتَ حيثما نشأتُ أنا لعرفتَ ذلك».

«هاري» قلت له، «أعرفك طيلة حياتي، أنت اليوم أقرب ما تكون إلى أخٍ بالنسبة إلي، آمل بأنك لا تفكر جديًّا في الرحيل». ليست

بالحجة الأقوى في العالم، فهو كان ابن خالة جوانا وعشيقها، ولم يصعب عليه تركها ترحل بينما كان باستطاعته مرافقتها.

«أريد شيئًا يعود لي» أجابني، «أرضًا، بيتًا، ربما متجرًا أو مزرعة صغيرة، شيئًا يخصني، فهذه الأرض تخص بانكول».

«أجل» قال بانكول، «ولن تدفع إيجارًا مقابل استغلالها، وكل الماء الذي تحتاجه مجاني، لكن فكر بتكلفتها شمالًا، هذا إن استطعت أصلا الحصول عليها هناك، إن استطعت الخروج من كاليفورنيا حيًّا».

«لكن لا عمل هنا!».

«يا فتى انظر حولك! لا شيء هنا سوى العمل، العمل ومدُّ البصر من الأرض الرخيصة، وهل تتوقع أنك ستجد أرضًا رخيصة كهذه حيث أنت وبقية العالم متجهون؟».

هاري فكَّر بالأمر ثم بسط يديه، «ما يقلقني أننا سننفق كل مالنا على هذه الأرض لنكتشف لاحقًا أن الحياة فيها مستحيلة».

أومأتُ وقلت، «صدقني، الأمر ذاته خطر ببالي وأزعجني. لكن يبقى الاحتمال ذاته قائمًا في أي مكان آخر، وأنت تعرف ذلك. لربما ستستقر في أوريغون أو واشنطن، وتظل عاجزًا عن العثور على وظيفة، وسينفد منك المال. أو ربما ستجبر على العمل بالسخرة في الظروف ذاتها التي عمل فيها إيميري وغرايسون، ففي نهاية المطاف، مع أنهار البشر المندفقة شمالًا بحثًا عن وظيفة، لن يصعب

على أصحاب العمل الاختيار بمزاجهم، ودفع ما يرونه أجرةً مناسبة».

طوقتْ إيميري توري الجالسة تلهو بجوارها، «بإمكانك العثور على وظيفة سائق» قالت لهاري، «فهم يفضلون البيض في مهنة السواقة، إن كنت تستطيع القراءة والكتابة، وقادرًا على تنفيذ المهام المطلوبة، أظنك ستجد وظيفة».

«لا أعرف كيف أقود، لكن بإمكاني التعلم» قال هاري، «تعنين قيادة تلك الشاحنات المدرعة الضخمة، أليس كذلك؟».

بدت إيميري مرتبكة، «شاحنات؟ لا، ما أعنيه سياقة الناس، إجبارهم على العمل، الدفع بهم إلى العمل أسرع، إجبارهم على... أيًّا ما يطلبه منك المُلَّاك».

ملامح هاري تحولت من آملة إلى مرتاعة ثم إلى غاضبة، «بحق المسيح، هل تظنينني أفعل شيئًا كهذا! كيف خطر ببالك أصلًا أني قد ارتكب شيئًا كهذا؟».

هزت إيميري كتفيها، وروَّعتني لامبالاتها بالحديث حول شيء كهذا، «بعض الناس يرونها وظيفة جيدة» قالتْ له، «آخر سائق عملنا تحت إمرته، اعتاد أن يعمل في وظيفة تخص الحواسيب، لا أعرف ما هي بالضبط، وحين أفلست الشركة وجد وظيفة أخرى وبات يسوقنا، والوظيفة راقت له».

«إممم»، قال هاري، في صوتٍ خفيض وانتظرها تلتفت إليه،

«هل تعنين بكلامك أنك تصدقين أني سأعجب بوظيفة أجبر فيها العبيد على العمل وأسلبهم أطفالهم؟».

حدقت فيه، تتمعن في ملامح وجهه، «لا أرجو ذلك» قالت له، ثم أردفت، «لكن على الأغلب لن تجد وظيفة سواها، إما أن تكون سائقَ عبيد أو عبدًا. وسمعت أن على هذا الجانب من الحدود الكندية هذه هي الوظائف التي توفرها معظم المصانع».

عبستُ، «مصانع تعمل على نظام العبيد؟».

«نعم، العمال فيها يصنعون المنتجات لشركات في كندا أو آسيا، يعملون مقابل رواتب زهيدة فيضطرون إلى الاستدانة. أيضًا يتعرضون للإصابات والأمراض، فمياه الشرب التي يستخدمونها ملوثة والمصانع خطيرة، مليئة بالسموم والآليات التي تدهسك أو تقطعك. لكن الناس تتحمل ظنًّا أنَّ بإمكانهم ادخار بعض المال ثم الاستقالة. عملتُ مع بعض النساء اللواتي ذهبن شمالًا هناك، ألقين نظرة على الوضع، وعدن أدراجهن».

«وكنت في طريقك شمالًا إلى هناك؟» سألها هاري ممتعضًا.

«ليس للعمل في تلك الأماكن، فقد حذرنني منها».

«سمعت بأماكن كهذه» قال بانكول، «يفترض بها تأمين وظائف في الشمال لذاك النهر البشري من العاطلين. الرئيس دونر مناصرٌ لها بالكامل، والعمال فيها أقرب إلى العمالة السائبة منهم إلى العبيد. يتنشقون الأبخرة السامة أو يشربون مياه ملوثة أو يعلقون بلا حماية

في الآليات... لا يهم، فمع وجود ألف عاطل مقابل كل وظيفة، من السهل استبدالهم».

«عمالة الحدود» قال مورا، «ليست كلها بهذا السوء، فقد سمعت أنّ بعض المصانع يدفع الرواتب نقدًا لا بعملة الشركة».

«وتلك هي وجهتك التي تريدها؟» سألته، «أم تريد البقاء هنا؟».

نظر إلى أسفل، نحو دو، حيث كانت تقضم قطعة من البطاطس الحلوة، «أريد البقاء هنا» أجابني، وفاجأني، «لستُ موقنًا أنَّ ثمة أملاً حقيقيًّا في تشييدك شيئًا هنا، لكني أحسبك مجنونة كفاية كي تحاولي تحقيق ما تريدين». وإن لم يتحقق، فلن ينتهي إلى حالٍ أسوأ مما كان عليه حين فرَّ من العبودية. بوسعه سلب أي شخص ومواصلة رحلته شمالًا، أو ربما لن يفعل، فقد فكرت كثيرًا بمورا، كيف يبذل أقصى جهده في دفع الناس بعيدًا عنه، الحيلولة دون معرفتهم الكثير عنه، الحيلولة دون رؤيتهم مشاعره، أو أنه يشعر بشيء من الأساس - متقمصٌّ ذكوري، يحاول يائسًا إخفاء حساسيته المريعة؟ التقمص قد يكون أصعب على الرجل، كيف كان سيكون حال إخوتي الذكور لو ولدوا متقمصين؟ غريب كيف لم أفكر بهذا من قبل.

«أنا سعيدة ببقائك» قلت له، «فنحن في حاجة إليك». ثم نظرت إلى ترافيس وناتيفيداد، «ونحن في حاجة إليكما أيضًا، أنتما باقيان، أليس كذلك؟».

«تعرفين أننا باقيان» قال ترافيس، «مع أني أميل أكثر مما أريد إلى رأي مورا، لست واثقا أننا نملك فرصة نجاح هنا».

«سنحظى بما يمكننا صنعه» قلت له، واستدرت لأواجه هاري.

كان وزهرا يتهامسان، ثم نظر إليّ:

«مورا محق، أنت مجنونة!».

تنهدتُ.

«لكننا نعيش في زمنٍ مجنون» أردف قائلًا، «وربما أنت من يحتاج إليه هذا الزمن- أو ما نحتاج نحن إليه. سأبقى، قد أندم على قراري، لكني سأبقى».

الآن وقد بُتَّ في القرار، ما عاد من داعٍ للجدال فيه. من الغد سنبدأ في إعداد الحديقة الشتوية. الأسبوع المقبل سيذهب عددٌ منا إلى البلدة لشراء العدّة ومزيدٍ من البذور والمؤونة. كما سنشرع في بناء مأوى، فثمة ما يكفي من الأشجار حوالينا، وبوسعنا الحفر في الأرض والتلال. مورا يقول إنه سبق أن بنى كبائنَ للعبيد، ويقول إنه متحمس لبناء شيء أفضل، مأوىً يليق بالبشر. أيضًا، فمع وجودنا على الساحل بعيدًا في الشمال، فثمة احتمالٌ كبير أننا سنحظى بالمطر.

الأحد، العاشر من أكتوبر ٢٠٢٧

اليوم أقمنا جنازة على أرواح موتى بانكول، الأشخاص الخمسة الذين قتلوا في الحريق. لم تأتِ الشرطة أبدًا، وقرر بانكول أخيرًا أنها لن تأتي، وأن الوقت قد أزف لدفن أخته وأطفالها في جنازة

تليق بهم. جمعنا كل العظام التي تسنى لنا العثور عليها، والبارحة، دثَّرت ناتيفيداد العظام في شالها الذي حاكته منذ أعوام، كان أجمل شيء تمتلكه.

«شيءٌ كهذا الحيُّ أولى به»، قال بانكول حين عرضته ناتيفيداد عليه.

«وأنت هو الحيّ» قالت له، «فأنا أحبك وأتمنى لو تسنَّى لي الالتقاء بأختك».

نظر إليها لبرهة، ثم تناول الشال منها وعانقها. بعدها، حين شرع في البكاء، مضى وحده بعيدًا نحو الأشجار، بعيدًا عن أنظارنا. تركته وحده قرابة الساعة، ثم لحقتُ به.

عثرتُ عليه جالسًا على جذع هاوٍ، يمسح وجهه. جلست معه لبعض الوقت دون أن أقول شيئًا، بعد برهة نهض، وانتظرني أقف معه، ثم مضينا في طريقنا نحو المخيم.

«أريد أن أمنحهم أيكة من أشجار البلوط» قلت له، «فالأشجار خيرٌ من الحجارة، حياةٌ تخلد ذكرى حياة».

رمقني وقال، «حسنٌ».

«بانكول؟».

توقف، ونظر إليّ بملامح عجزت عن قراءتها.

«لا أحد منا عرفها، ونتمنَّى لو عرفناها، أنا أتمنَّى لو أني عرفتها، أيًّا كانت ستكون ردة فعلها المتفاجئة بي».

رسمَ ابتسامة صغيرة، «أظنها كانت ستنظرُ إليك، ثم إليّ، وفورًا في وجهك كانت ستقول، حسنٌ، لا رجل أشد حماقة من الرجل المسن! وما إن تتخلص من هذا الانطباع، كانت مع الوقت ستعجب بك».

«أتظنها كانت ستمانعُ أو تسامحنا على المشاركة؟».

«ماذا؟».

سحبتُ نفسًا عميقًا وتساءلتُ حول حقيقة ما أعنيه، فقد يصدرُ عني بشكلٍ خاطئ، قد يسيء هو فهمي، مع ذلك كان لا بد من قوله.

«غدًا سندفن موتاك، وأظنكَ محقًّا في منحهم جنازةً لائقة، وأظن أننا أيضًا يجدر بنا دفن موتانا، فمعظمنا اضطرَّ إلى الرحيل -الفرار- تاركين أمواتنا دون إكرام الدفن والجنازة. غدًا، يجدر بنا تذكّرهم جميعًا، وإن استطعنا، نودِع أرواحهم في سلام».

«عائلتك؟».

أومأت: «عائلتي وعائلةُ زهرا وهاري وآلي -ابنها وشقيقتها- وربما ابنا إيميري، وآخرون لا نعرف عنهم. فمورا لا يتكلم كثيرًا عن نفسه، ولا بد أنه قد عاش فقدًا، والدة دو ربما».

«وكيف تنوين إقامتها؟».

«كلٌّ منا سيدفن موتاه، فنحن نعرفهم، وبيدنا العثور على الكلمات المناسبة».

«أي كلمات، ذكريات، اقتباسات، خواطر، ترانيم... فقد أقمتُ جنازة لأبي رغم عدم عثورنا أبدًا على جثته. لكن إخوتي الأصغر وزوجة أبي لم ينالوا شيئًا. زهرا رأتهم يقتلون، وإلا لما كان لديّ أدنى فكرة عما جرى عليهم». فكّرت لدقيقة، «لدي ما يكفي من البلوط كي يزرعَ كل منا بلُّوطة حية في ذكرى موتاه، ما يكفي لزراعة بلُّوطة لأجل والدة جستن أيضًا. يخطر ببالي عقد مراسم بسيطة، لكن حتمًا كلٌّ سيحظى بفرصة الحديث، حتى الفتاتان الصغيرتان».

أومأ، «لا اعتراض لديّ، ليست بالفكرة السيئة» وبعد خطوات عدة، «شهدنا الكثير من الموت، وسنشهدُ المزيد».

«ليس في جماعتنا، على ما آمل».

لبرهةٍ لم يقل شيئًا، ثم توقف ووضع يده على كتفي كي يوقفَني. في البداية اكتفى فقط بالنظر إليّ، كما لو كان يتفحّص ملامحي، «كم أنت يافعة» قال لي، «إجراميٌّ كونك يافعةً في هذه الأوقات المريعة، أتمنى لو أنكِ عرفت هذه البلد وقت كان بالإمكان إنقاذها».

«ولربما ستنجو» قلتُ له، «ستتغير، لكن ستظلُّ هي نفسها».

«كلا» أدناني منه وطوّقني بذراع واحدة، «البشرُ سينجون بالطبع، ودول أخرى قد تنجو، ولربما تلك الدولُ ستدمج المتبقّي منا معها، أو ربما سننقسم شيعًا صغيرة متناحرة تتجادل وتقاتل بعضها بعضًا على الفتات الذي تركوه لنا. فهذا ما بدأ الآن مع انغلاق بعض الولايات على نفسها وانعزالها عن البقية؛ تتعاملُ مع طرق الولايات

وكأنها حدودٌ دولية. بقدر ما أنتِ ذكية، لا أظنك تستوعبين، لا أظنك تستوعبين حقًّا خسارتنا الفادحة، ولربما هذه نعمة».

«الربُّ إلهنا هو التغيير».

«أولامينا، لا معنى لكلامك هذا».

«بل له معنى، وفيه تفسيرُ كل شيء!».

تنهَّدَ، «تعرفين، رغم سوء الحالِ الذي وصلنا إليه، إلا أننا لم نبلغ الحضيضَ بعد. الجوعُ والأوبئة ودمار المخدرات وحكمُ العصابات هي البدايةُ فقط. الحكومات الفيدرالية والمحلية لا تزالُ موجودة -حتى ولو بالاسم- وأحيانًا تتدبرُ فعل ما يزيد على جمع الضرائب وإرسال الجيش. النقودُ لا تزال لها قيمة، وهذا ما يذهلني، حتى مع احتياجنا إلى الكثير منها لنستطيعَ شراء أي شيء، فلا تزال لها قيمة، ولربما هذه دلالة مبشرة، أو لربما دليلٌ على ما قلته: لم نبلغ الحضيض بعد».

«حسنٌ، جماعتنا لن تبلغ أي حضيض هنا».

هزَّ رأسه الأشعثَ، شعره ولحيته، والملامح الجدية التي اعترت وجهه ذكّرتني بصورةٍ عتيقة لفريدريك دوغلاس كنت أحتفظ بها.

«أتمنى ذلك» ولربما حزنه كان مبعثَ كلامه، «لكن لا أظننا نملكُ فرصةً لعينة في النجاح هنا».

دسستُ ذراعي حوله، «دعنا نعُد» قلت له، «أمامنا الكثير من العمل».

وهكذا، تذكَّرنا اليوم موتانا من الأصدقاء والعائلة. كلٌّ شارك في الجنازة بالحديث عن ذكرياته، باقتباس الإنجيل، وآيات بذرة الأرض، ومقاطع من القصائد والأغاني المحببة لأمواتنا.

ثم دفنا موتانا وغرسنا معهم بذور أشجار البلُّوط.

بعدها، جلسنا معًا وتحادثنا وتناولنا طعامنا، وقررنا تسمية المكان آيكورن[1].

**خرج الزارعُ ليزرعَ زرعه، وبينما هو يزرعُ، وقع بعض الحَبّ من على جانب الطريق، فداستْه الأقدام، وأكلته طيورُ السماء، ومنه ما وقع على الصَّخر، فما إن نبتَ حتى يبسَ، لأنه لم يجدْ رطوبة، ومنه ما وقع بين الشوك، فنبتَ الشوكُ معه فخنقه، ومنه ما وقع على الأرض الطيبة، فنبت وأثمرَ مائة ضعف، من كان له أذنانِ تسمعان، فليسمع!**

**الإنجيل**

**سفر لوقا ٨: ٥ - ٨**



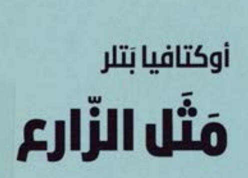

(١) Acorn: البلوط.

"أحيانًا يموتُ الغرقَى وهم يصارعونَ يدَ الإنقاذ الممدودة."

حين نُشرت هذه الرواية عام ١٩٩٣ كرواية خيال علمي ديستوبيّ عن كاليفورنيا عام ٢٠٢٤، لم يكن واضحًا بعد المدى الحقيقي لأزمة الاحتباس الحراري على حياة الناس. لم يتخيَّل أحدهم حينها الاستيقاظ على أخبار الحرائق الهائلة كالحرائق في اليونان وتركيا والجزائر. لم يتصور أحد أزمة شح المياه والأمن الغذائي تلوحان في المستقبل القريب جدًا، ولا انتشار الإدمان على المخدرات المصنَّعة في السراديب وعلى التقنيات التلفزية القائمة على الانفصال عن الواقع بسماعات الرأس وخواتم اللمس. ولم يتصور أحد التهديد بانسحاق الطبقة الوسطى تحت سطوة الشركات العابرة للقارات. كانت أميركا التسعينيات، ومعها العالم بأسره، تعيش وفرة اقتصادية وتقف على عتبة ثورة تقنية تعد بالخير للجميع. أوكتافيا بتلر، في روايتها "مثل الزارع"، تتنبأ بعالم نشهد اليوم بداياته. دليلها، كما تقول بطلة الرواية لورن أولامينا، إعمال العقل، وملاحظة الناس، ورؤية الواقع على ما هو عليه دون إنكار.

ورغم واقعيتها المخيفة، فالرواية حكاية نجاة وأمل وشجاعة ومحبة. حكاية نتعلم منها أنَّ تحصُّنَكَ داخل الأسوار لن يقيك شرَّ الظلم الواقع على الناس خارجها. أنَّ التغيير حتمي، ويأتينا بكل الأشكال. فإما نكن مستعدين للتغيُّر معه ونتعلم كيف نخلق حياةً جديدة صالحة، أو نهلك.

المترجمة












www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com